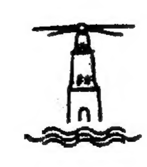
عِلم النفس وَقضايا العصر

تأليف

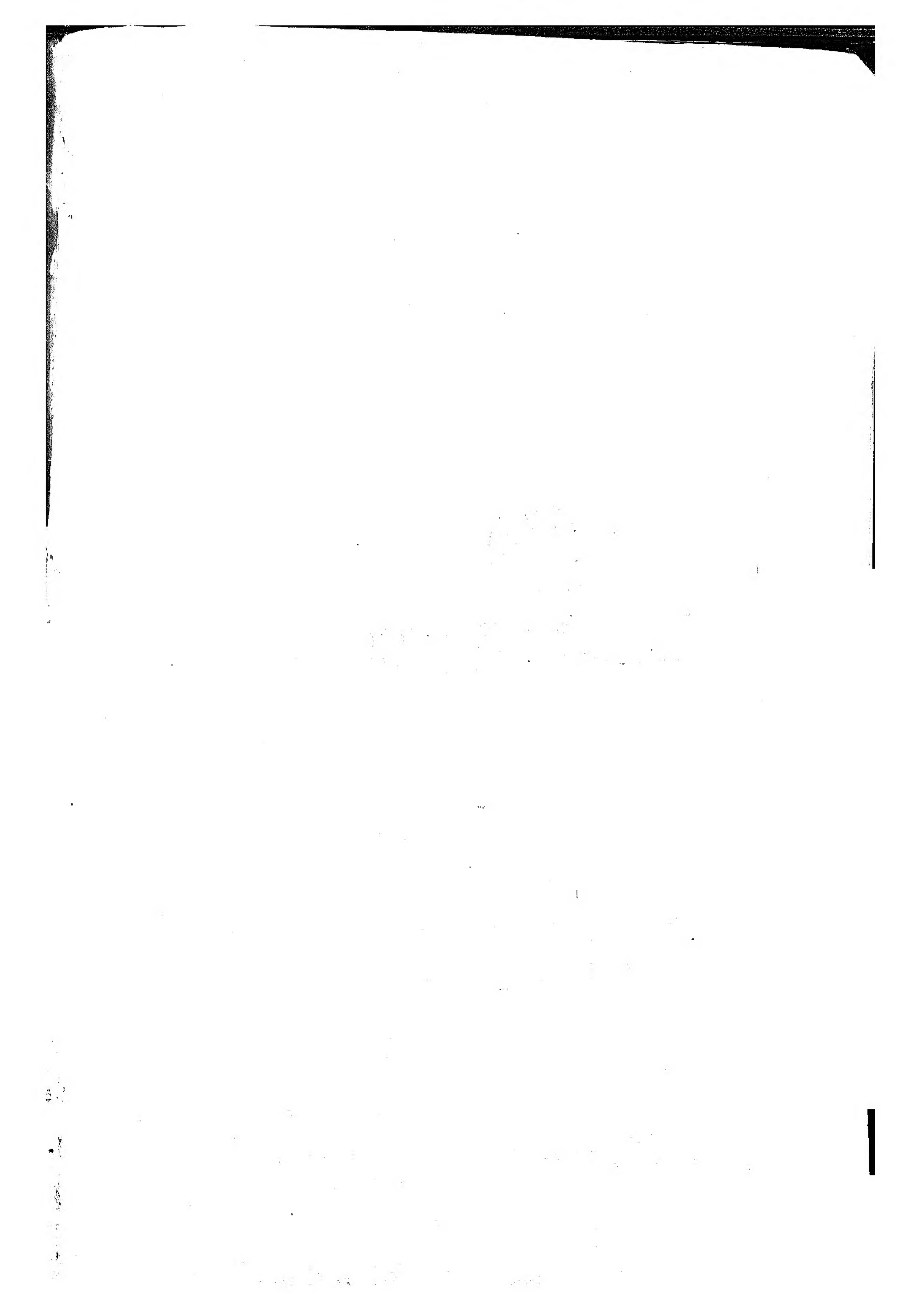
الدكتور فرج عبد القادر طه

أستاذ ورئيس قسم علم النفس
كلية الأداب - جامعة عين شمس
وعضو مجلس ادارة
الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقى (IAAP)
وخبير علم النفس
بمجمع اللغة العربية

الطبعة الخامسة
مزيدة ومعدلة
١٩٨٨



دار المعارف



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أمي :

التي منحتني الحياة والحب ؛ آملاً أن أكون قد وفيتها بعضاً من حقها .

فرج عبد القادر طه

تصـدير

بقلم الأستاذ الدكتور مصطفى زيـور

يسعدني أن أقدِّم للقارىء العربي كتاباً ينتمي مؤلِّفه إلى مدرسة علم النفس بجامعة عين شمس والتي يعرف المختصون أنَّها تتميز بخصائص تنفرد بها عن غيرها من المدارس. ذلك أنَّ هذه المدرسة لم تأت ببدع من حيث التضافر بين علم النفس التقليـدي الذي يستنـد إلى القياس والتجـريب، وبين علم نفس الأعماق - أي التحليل النفسي - وما يزودنا به من قضايا ووقائع مما يجتاز معه حدود الفرد ويترامى البصر من نافذته إلى آفاق تصل إلى طفولة الإنسان، لا بل إلى فجر تاريخ الإنسانية وتطور مراحلها جميعاً.

والواقع أنَّ علم نفس الأعماق يعمل بمنهج خاص به هو الذي يمكِّن من الوصول إلى مستويات عميقة في علم النفس لا يستطيع منهج آخر أن يدركه بمناهج علم النفس التقليدية (أعني القياس والتجريب).

وإنَّه لخطأ إيبستمولوجي صارخ إذا ما أردنا أن نسبر غور هذه الأعماق بمنهج لا يصلح لها، والخطأ الذي يقع فيه بعض علماء النفس هو تصورهم للموضوعية على نحو يكاد أن يكون ميتافيزيقياً من حيث إنَّهم يفترضون أنَّه يصلح لكل شيء في البحث ما دام - هو - مشابهاً للبحث في طرائق العلوم الفيزيائية.

ومع ذلك فإنَّ البحث في ميادين العلوم الفيزيائية ما تقدَّمت فروعه إلَّا لأنَّ كلًّا منها قد فاز بمنهج ملائم لموضوع بحثها، فهل كنَّا نستخدم التليسكوب للبحث عن البكتيريولوجيا، أو هل كنَّا نستخدم الميكروسكوب للنظر ولفحص عالم الفلك، وهل هو بخافٍ أنَّ ما استطاعه علم البكتيريولوجيا من تقدم حاسم لم يتأت إلَّا بعد اختراع الميكروسكوب ثمَّ الإجراءات المعملية وابتداعات باستير في

ميدان البكتريولوجيا. والأمر بالمثل في كل علم من العلوم. إذ لا بدَّ من منهج خاص يتناسب وموضوع البحث في هذا الميدان الخاص، فالقول بأنَّ هناك منهجاً وحيداً علمياً يطبق في كل بحث مهما اختلف ميدانه إنما يفترض افتراضاً ميتافيزيقياً ـ دون أن يدري أنَّه يقول بهذا ـ إنَّه قد خرج من ميدان العلم إلى ميدان الميتافيزيقا.

ولنأت إلى سؤال آخر، هل تستخدم وسائل البحث في علوم مثل الكيمياء والفيزياء والأحياء عمليات منهجية هي هي في كل من هذه العلوم.

إنَّ القول بهذا يعني أننا نفرض على كثرة التجربة نمطاً واحداً نعرفه في ميدان واحد صالح له، ومن هنا أيكون عالم الإنسان هو هو عالم الفيزياء حتى نتشبث بمناهج البحث في العلوم المضبوطة «الفيزياء وما إليها» ونفرضه فرضاً على مجال الإنسان بما هو إنسان، وهل يصح في الأذهان أن ننقل نتائج البحوث في ميدان الفسيولوجيا، بما في ذلك الفعل المنعكس الشرطي، على الإنسان الذي وجد بما هو عليه من حيث إنَّ التراكمات الكمية جعلته يخطو نحو الاختلاف الكيفي... وليس بخافٍ على أحد أنَّ أول شاغل للباحث في معظم البحوث التي تتم في عالم الغرب والشرق إنَّما هو الظفر بمنهج يلائم موضوع بحثه، وهو ما يحدث فعلاً لا في العلوم الإنسانية فحسب إنَّما في العلوم الفيزيائية أيضاً، وما سر اكتشاف أعماق النفس على يد فرويد إلاَّ لأنَّه وقع بحدس نافذ على منهج التداعي الطليق. ولقد دأبت مؤسسات علمية كبيرة في كل من أمريكا والعالم الغربي في أوروبا على محاولة التأليف بين قضايا علم النفس التقليدي وقضايا علم النفس المستند إلى التحليل النفسي، بل أضافوا إلى ذلك أيضاً قضايا علم الأنثروبولوجيا المعاصرة، فكان لهم من مجموع هذه القضايا المتضافرة من هذه الميادين الثلاثة ما استفاد كل منهم من بحوث الميدانين الآخرين، وهذا هو طابع مدارس ييل وهارفارد وغيرها. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، الجهد الذي بذله هنري موريه في الاستفادة من كل من علم النفس التقليدي من جهة، وعينه لا تغمض في الآن نفسه عن قضايا التحليل النفسي فكان من أثر ذلك اختباره المشهور «اختبار تفهم الموضوع».

وفي رأينا أنَّ الدراسة المتعمِّقة للإنسان بما هو إنسان لا بدَّ وأن تبدأ بأسلوب البحث في التحليل النفسي حتى إذا ظفرنا بقدرٍ كاف من المعارف نخضعها

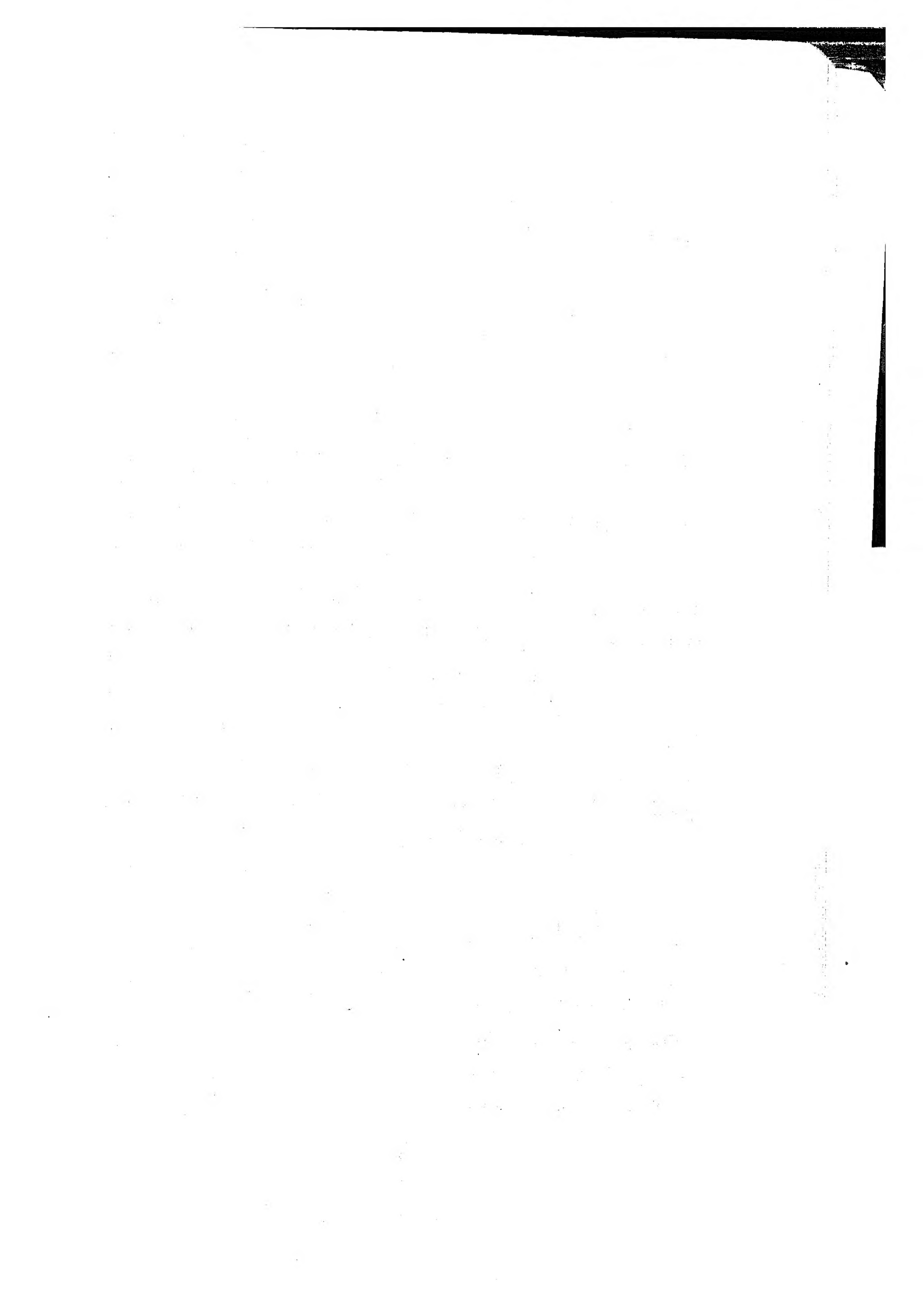
لأسلوب التحليل العاملي وغيره من أساليب البحث في القياس النفسي والتجريب للتحقق من صحة القضايا التي سبق الكشف عنها بمنهج التحليل النفسي ـ أو من بطلانها، بوصفها فروضاً نصوغها على نحو إجرائي، وهو ما أنجز بعضه ريمون كاتل ومن نحا نحوه.

وقد نشرت في الآونة الأخيرة بحوث كثيرة اختطت لنفسها هذه الخطة، وأمام ناظرينا بحوث «ريمون كاتل» وغيره بعد أن أضفوا على قضايا علم نفس الأعماق تعريفات إجرائية مناسبة للتحقق بالتحليل العاملي.

ومن هنا يبين لنا أنَّ المؤلف قد فطن كما فطن زملاؤه في نفس المدرسة إلى وظيفة كل من أدوات البحث في علم النفس، فمنهج البحث في أعماق النفس يقتضي استخدام كل التكنيكات التي أبان الزمن الطويل عن فائدتها وضرورتها، ثمَّ تأتي بعد ذلك مرحلة التجريب والقياس بأساليبهما المختلفة وعلى الأخص التحليل العاملي لكي تقيم الدليل على صحة هذه الفروض أو تفنيدها.

وليس غريباً والحالة هذه أن يبدأ المؤلف كتابه بفصل عن مناهج البحث بعامة في علم النفس والتحليل النفسي بخاصة: ثمَّ يعرِّج بعدها على العديد من الميادين التي يهتم بها علم النفس، وهو في ذلك كله ابن لمدرسة عين شمس تفخر به ويفخر بها، وها هو يقدِّم لنا مواضع يفيد منها كل راغب في الإحاطة بميادين البحث في علم النفس، باذلاً من الجهد الأكاديمي الصادق والأمانة العلمية اللتين اتَّصف بهما دوماً، ما يجعل عمله جديراً بالقراءة، وليس أدلُّ على دأبه واهتمامه بمادته من تطبيقه لاختبار وكسلر ـ بلفيو على عينة من الشعب المغربي وتقنينه للاختبار هناك إبان عمله مدرساً بجامعة الرباط مما جعله سفيراً طيباً لبلده وعلمه ومدرسة عين شمس.

مصطفى زيور
دكتور في الطب
رئيس عيادة الأمراض النفسية
بكلية الطب بجامعة باريس سابقاً
أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس
عضو الجمعية الدولية للتحليل النفسي

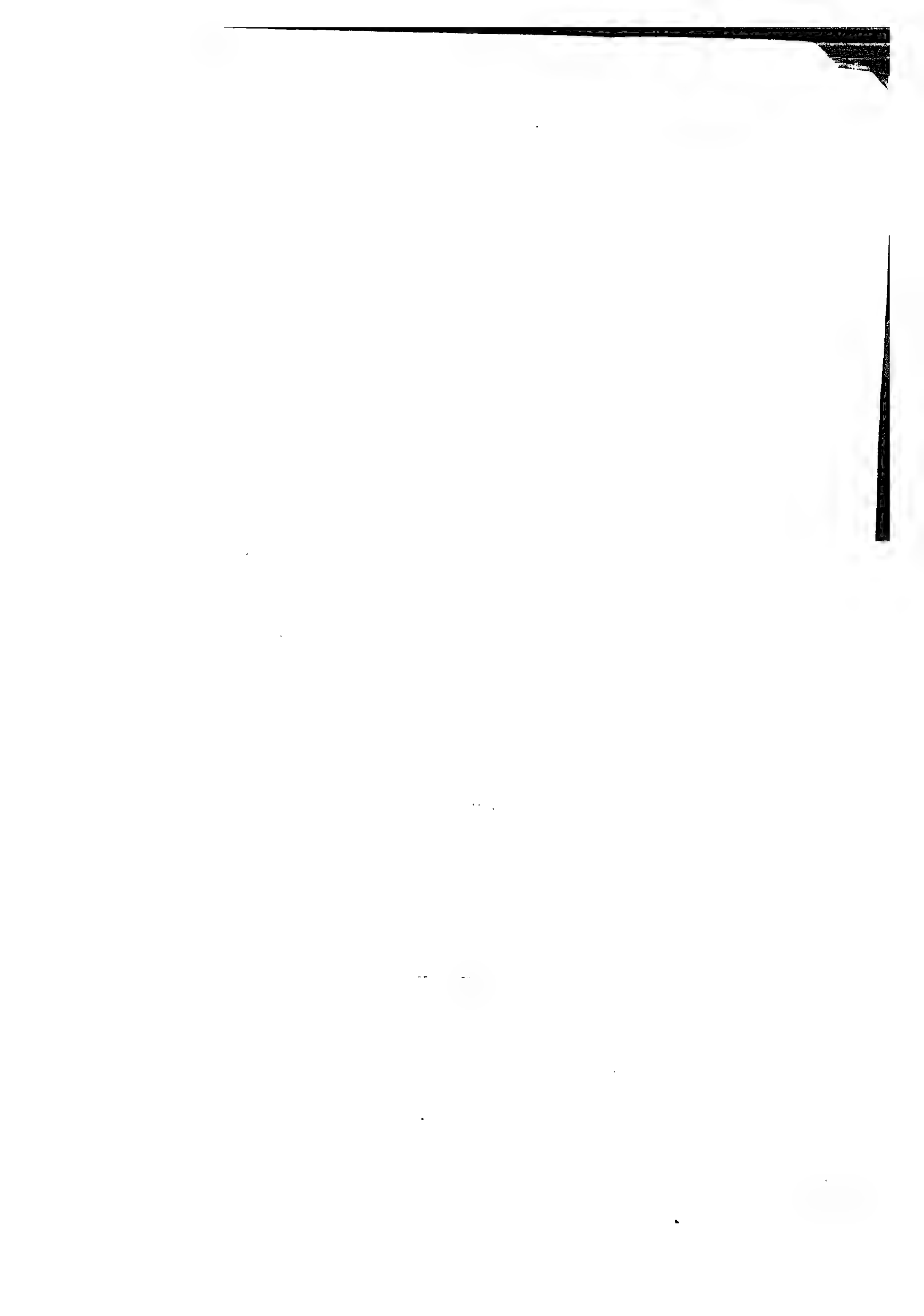


مُقـدّمَـة المـؤلّف

هذه مجموعة من البحوث والمقالات التي سبق أن كتبتها في موضوعات مختلفة، رأيت أن أجمعها في هذا الكتاب، هادفاً من ذلك إلى بيان ما يمكن لعلم النفس أن يقدِّمه من إسهام في استجلاء بعض الحقائق المتعلقة بهذه الموضوعات، وإلى بيان ما يمكن لعلم النفس تقديمه من خدمات في مجالاتها.

ومع أنَّ هذه الموضوعات متباينة إلاَّ أنَّه يجمع بينها كونها قضايا تهم عالمنا الحاضر وتشغل علمنا المعاصر، مما ارتأيت معه أن أجعل عنوان هذا الكتاب الذي يجمعها، «علم النفس وقضايا العصر».

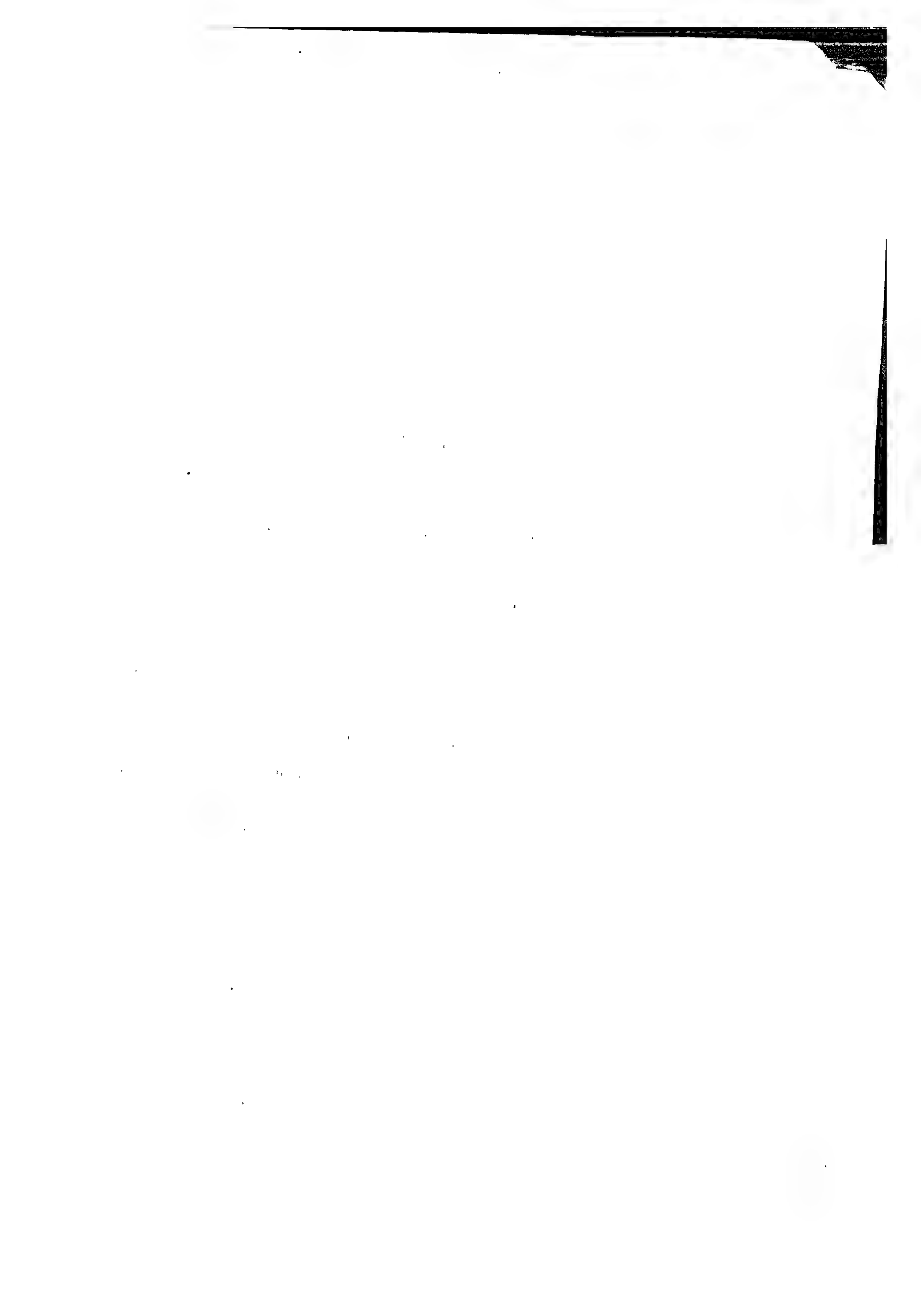
فرج عبد القادر طه



الفصل الأول

مدخل: علم النفس وأهدافه

* تمهيد.
* ما هو علم النفس.
* ما هي أهداف علم النفس: الفهم والتفسير، الضبط والتحكم، التنبؤ.
* العلاقة بين أهداف العلم.
* معيار تقدم العلم.



تمهيد:

لكتاب عن «علم النفس وقضايا العصر» يحسن أن نقدم بتعريف لعلم النفس مع مناقشة لأهدافه. أمَّا عن تعريف لعلم النفس، فمما لا شكَّ فيه أنَّ تعريف أي علم من العلوم، وبخاصة إذا كان من العلوم الإنسانية شأن علم النفس، يعتبر شائكاً إلى حد بعيد، بحيث يكاد يستحيل على القائم به أن ينجح في وضع التعريف المثالي والذي يحقق به الخاصيةِ الشهيرة للتعريف الدقيق من حيث كونه جامعاً مانعاً. ذلك أنَّ الحدود الفاصلة بين علم وغيره في كثير من الحالات تكون حدوداً هولامية يكتنفها الكثير من الظلال ويشوبها الكثير من الخلط، حتى أنَّه نشأت علوم حديثة نسبياً تقع بين علم وآخر آخذة من هذا ومتداخلة مع ذاك. فهناك ـ على سبيل المثال ـ علم النفس الاجتماعي الذي يأخذ من علم النفس ويتداخل مع علم الاجتماع، وعلم النفس الفسيولوجي الذي يأخذ من الفسيولوجيا ويتداخل مع علم النفس، وعلم الكيمياء الحيوية الذي يأخذ من علم البيولوجيا ويتداخل مع علم الكيمياء...

إلَّا أنَّ هذا الاستدراك لا ينبغي أن يعفينا من محاولة وضع تعريف لعلم النفس على نحو ما نعتقد به في هذا الكتاب الذي نبحث فيه إسهامه في دراسة بعض القضايا التي تستحوذ على اهتمامنا أو تستثير تساؤلاتنا.

ما هو علم النفس:

علم النفس هو العلم الذي يدرس سلوك الإنسان، بأوسع معنى لمصطلح السلوك، بحيث يشمل نشاط الإنسان في تفاعله مع بيئته تعديلاً لها حتى تصبح أكثر ملاءمة له، أو تكيفاً ذاتياً معها حتى يحقق لنفسه أكبر توافق معها. والسلوك بهذا المعنى الشامل الواسع يتضمن ما هو ظاهر يمكن للآخر إدراكه كتناول الطعام والشراب والمشي والجري والقفز والاعتداء بالضرب والقيام بالأعمال والوجبات كما يتضمن ما هو غير مدرك إلّا من صاحبه مثل التفكير الصامت والتخيل والتذكر والأوهام والمخاوف والآمال والحزن والسرور والغضب وما إلى ذلك من انفعالات قد لا تصاحبها مظاهر مكشوفة يحسُّها الآخرون، بل إنَّ السلوك يتضمن ما لا يستطيع أن يدركه حتى القائم به ذاته مثل ما يعتمل داخل النفس من دوافع ورغبات وآمال ومخاوف لا يشعر بها صاحبها، وحتى إن شعر بها فهو لا يعرف كنهها الحقيقي لأنها لا شعورية في أساسها على نحو سلوك النائم في تخييلات أحلامه وما يراه فيها بل وحركته الفعلية أثناءها كالكلام بصوت مسموع أو المشي أثناء النوم، وعلى نحو أيضاً أعراض الأمراض النفسية ومظاهرها عموماً. كما يتضمن السلوك بالمثل ما تقوم به أجهزتنا الجسمية من نشاطات قد نستطيع الإحساس بها كالتنفس وطرفة العين، وقد لا نستطيع أن نحسُّها حتى لو قصدنا إلى ذلك مثل إفرازات المعدة وإفرازات السكر في الدم . . .

ومن الجدير بالذكر أنَّ علم النفس كثيراً ما يلجأ إلى دراسة سلوك الحيوان مما يبدو مناقضاً لتعريفنا الذي عرضناه، حيث دراسته لسلوك الإنسان. لكننا ينبغي أن نذكر أنَّ علم النفس عندما يدرس سلوك الحيوان ـ على الأقل حتى يومنا هذا ـ إنَّما يكون هادفاً أساساً منه إلى إلقاء مزيد من الضوء وتحقيق مزيد من المعرفة بسلوك الإنسان. وكأنَّ علم النفس في هذا الموقف يتَّخذ من الحيوان سلماً لمعرفة الإنسان وفهمه، ذلك أنَّ عالم النفس كثيراً ما يرى ضرورة إجراء تجارب لفهم سلوك الإنسان وتفسيره لكنه يعجز

عن ذلك أو تعترضه عقبات تحول دون غرضه فيستبدل التجريب على الحيوان بالتجريب على الإنسان. ونضرب لذلك مثلاً بتجربة تريون Tryon (٢: ١٣٦ -) التي قام فيها بدراسة توارث القدرة على تعلم اجتياز المتاهة في ثمانية عشر جيلاً من الفئران البيض. فكان يعرض الفئران لاختبار يقيس به هذه القدرة لدى كل منها. ثمَّ يزاوج بين أفضل أبناء جيل الآباء الممتازين في قدرتهم على تعلُّم اجتياز المتاهة تزاوجاً انتقائياً في كل جيل من هذه الأجيال الثمانية عشرة، وفي مقابل هؤلاء كان يزاوج بين أقل أبناء جيل الضعفاء في قدرتهم على تعلم اجتياز المتاهة تزاوجاً انتقائياً بالمثل في تلك الأجيال. وهكذا كانت ذكور الفئران الممتازة في القدرة على تعلُّم اجتياز المتاهة تتزاوج مع إناث الفئران الممتازة، كما كانت ذكور الفئران الضعيفة في هذه القدرة تتزاوج مع إناث الفئران الضعيفة. وقد كان تريون يضبط تلك الظروف البيئية التي كانت تعيش فيها كل من مجموعتي الممتازين والضعاف مثل مكان الإقامة والتغذية والتهوية والحرارة والرطوبة.. بحيث يحقق للمجموعتين تعادل البيئة. ولقد تبيَّن لتريون من تجربته هذه أنَّ القدرة على تعلُّم اجتياز المتاهة تتأثر بعامل الوراثة بشكل واضح. وليس بخافٍ أنَّ هذه القدرة يمكن أن تقابل ما يعرف بالذكاء عند الإنسان.

لقد استطاع المجرب في تجربته تلك أن يتدخل في حرية الحيوان الشخصية فجعله يتزاوج مع من يحدده له، كما جعله يعيش في ظروف ضبطها له، كما تمكن نتيجة قصر دورة حياة الحيوان أن يدرس عدداً كبيراً من الأجيال في بضع سنوات قليلة، مما جعله يدرك في سهولة وسرعة واطمئنان انتقال الخصائص الوراثية من جيل لآخر، ولأجيال كثيرة، مما يكاد يستحيل عليه فيما لو أصرَّ على التجريب على الإنسان. في هذه التجارب ومثيلاتها على الحيوان يكون الهدف المضمر أو المعلن لعالم النفس هو أن يستشف بالقياس على الحيوان معرفة أدق وفهماً أشمل وتفسيراً أضبط لسلوك الإنسان وخصائصه النفسية. وواضح أنَّ عالم النفس ما كان يستطيع ذلك لولا أن

سبقه دارون في القرن الماضي فأقام بنظريته في التطور الدليل على القرابة الحميمة بين الإنسان والحيوان.

ما هي أهداف علم النفس:

علم النفس شأنه في ذلك شأن غيره من العلوم يتفق معها في الأهداف الأساسية للعلم. عندما يتناول ظواهره بالدراسة والبحث وهذه الأهداف هي:

١ ـ الفهم والتفسير.

٢ ـ الضبط والتحكم.

٣ ـ التنبؤ.

أولاً ـ الفهم والتفسير:

الإنسان منذ بدء تاريخه حتى الآن يجاهد ليعرف كنه ما يحيط به من ظواهر محاولاً فهمها وتفسيرها. وعندما لم يكن يسعفه علمه أو منهجه في الوصول إلى الفهم السليم والتفسير الصائب كان يضطر إلى التفكير الغيبي يفسر به ويعلِّل حدوث الظواهر معتقداً في سلامته وصدقه. فظواهر الخير ترجع إلى رضاء الآلهة عن البشر، وظواهر الكوارث والمصائب ترجع إلى غضب الآلهة عليهم وانتقامها منهم... وهذا الضرر الذي أصاب فلاناً سببه السحر الذي سعى إليه عدوُّه، واستعادة هذا المريض لصحته يرجع إلى التميمة المباركة من عمل هذا العراف الطيب، وهذا المرض الذي ذهب بعقل هذا المهووس فاضطرب له سلوكه واعتلَّ تفكره وإنَّما يرجع إلى شيطان نجس قد تسلل إلى جسمه فسكنه، وليس من سبيل إلى شفائه إلَّا بطرد هذا الشيطان الخبيث وخروجه من جسمه. وليس بخافٍ أننا لا زلنا حتى اليوم نجد بقايا هذا الفهم والتفسير منتشراً بين عدد لا بأس بحجمه في مختلف المجتمعات خاصة المتخلفة منها. ذلك أنَّ الإنسان لا يطيق الغموض ويفزع من المجهول فيسعى إلى استجلائه معتسفاً المعرفة والأسباب والعلل، حتى

أنَّ بعض علماء النفس يعد حب الاستطلاع والرغبة في المعرفة غريزة معزوزة في البشر بحكم تكوينهم وطبيعتهم.

وبالمثل فإنَّنا نجد أنَّ هدف الفهم والتفسير والمعرفة من أوَّل الأهداف الأساسية التي يسعى العالم لتحقيقها من بحثه في الظواهر التي تقع في مجال اختصاصه. فالباحث في مجال علم الطبيعة مثلاً يريد أن يعرف ويفهم ويفسر ويعلل أسباب حدوث ظاهرة طبيعية كتمدد المعادن بالحرارة على سبيل المثال... وعالم النفس بالمثل أيضاً يريد أن يعرف ويفهم ويفسر ويكتشف أسباب حدوث الظاهرة النفسية كالتفوق الدراسي أو التوافق المهني أو المرض الهستيري.

ثانياً ـ الضبط والتحكم:

من القول المأثور أنك إذا عرفت استطعت، بمعنى أنَّ الإنسان إذا نجح في فهم أسباب حدوث الظاهرة ومعرفة عواملها استطاع أن يؤثر في مسار الظاهرة نفسها ويتحكم في حدوثها، فيمكنه أن يهيىء لها أسباب حدوثها فتحدث، كما يمكنه أن يغير في هذا العامل أو ينقص من هذا أو يزيد من ذاك، أو يلغي أو يضيف، فتتأثر تبعاً لذلك الظاهرة وتتحور، بل إنَّها تصير وفق ما نريد أو تختفي وقتما نشاء.

إذن فنحن هنا نتحكَّم في الظاهرة ونضبطها بناء على فهمنا لمسببات حدوثها وتغييرها واختفائها وظروف كل ذلك. وبمعنى آخر فإننا بناء على تحقيق الهدف السابق (الفهم والتفسير) ننطلق لتحقيق الهدف الحالي. وإذاً فإنَّنا نتوقع أن يؤدي وجود قصور ما في معرفتنا وفهمنا وتفسيرنا للظاهرة إلى أن تقل كفاءتنا في ضبطها والتحكم فيها، ومن الصعب أن يستقيم لنا ذلك ما لم يستقم لنا الفهم وتسلم المعرفة.

ولئن بدا لنا الهدف الأول للعلم هدفاً نظرياً بالدرجة الأولى يستهدف ترف العلم وإشباع حب الاستطلاع والرغبة في المعرفة واستجلاء الغموض ـ

وهو حتى بهذه النظرة لا بأس به في حد ذاته - فإنَّ الهدف الثاني الذي نحن بصدده الآن هو في الواقع هدف تطبيقي نفعي إلى أبعد حد. فنحن نريد أن نتحكَّم في الظواهر حتى تحدث في الوقت المناسب وبالشكل الذي يحقق لنا الفائدة ويقينا الأضرار. فمثلاً من معرفتنا تمدد المعدن بالحرارة نصمم قضبان السكك الحديدية ونثبتها بالطريقة التي لا تجعلها تتقوس أو تتزحزح عندما تتعرض لحرارة الشمس حتى لا يضطرب سير القطار عليها. وبالمثل فإنَّه بناء على معرفتنا بأسباب الصحة النفسية نعمل على تهيئتها لأبنائنا وعلى علاج اضطراباتها فيهم... ولذلك فإنَّنا نجد أنَّه عندما تسبق الرغبة في ضبط الظاهرة فهمها وتفسيرها يصبح من اللازم لإتمام هدف الضبط أن نبدأ أولاً بتحقيق هدف الفهم والتفسير.

ثالثاً - التنبؤ:

أمَّا الهدف الثالث من أهداف العلم الأساسية فهو إمكانية التنبؤ بحدوث الظاهرة قبل أن تقع. وتنبني إمكانية تحقيق هذا الهدف - كسابقة أيضاً - على استقامة فهم الظاهرة وسلامة تفسيرها ودقَّة معرفتها، أي على مدى الدِّقة في تحقيق الهدف الأساسي الأول من أهداف العلم. وهذا التنبؤ يعتبر هدفاً تطبيقياً نفعياً بمثل ما يعتبر الهدف الأساسي الثاني والخاص بالضبط والتحكم، ذلك أنَّنا نتوقع حدوث الظاهرة متى أدركنا توافر مقدماتها وتهيؤ عواملها مما يمكننا عند ذاك من الاستعداد لملاقاة الظاهرة بما نستطيع معه جني أكبر فوائدها وتحاشي معظم أضرارها. فمثلاً نحن نسمع عن انتشار وباء في بلد قريب، ونعلم أنَّ العدوى من أهم مسبباته، فنتخذ من هذه المعرفة أساساً للتنبؤ بانتشار هذا المرض عندنا مستقبلاً ما لم نسارع إلى حصاره ومقاومته بتحصين المواطنين ومنعهم من السفر إلى هذا البلد الموبوء ومنع مواطني هذا البلد من الدخول إلى بلدنا إلاَّ بعد الفحوص الطبية والتحصينات ومختلف الاحتياطات التي تمنعهم من نقل الوباء إلينا. ولنا أن نتصور - أيضاً - في حالة التنبؤ المسبق بموعد زلزال مدمر في منطقة ما كيف يمكن

لساكنيها نتيجة هذه المعرفة المسبقة تفادي الكثير من أضرار هذا الزلزال الذي يستطيع أن يضرُّهم أبلغ الضرر فيما لو داهمهم دون سابق توقع.

وبالمثل يدرس عالم النفس عوامل النجاح الدراسي وعوامل الفشل الدراسي ومسببات كل منهما فيمكنه استناداً على هذا أن يتنبأ بمن يحتمل نجاحه ومن يحتمل فشله قبل أن يتعرض للموقف الفعلي للدراسة، وبالتالي يستطيع أن يوجِّه التلاميذ أو الطلبة توجيهاً تربوياً أو مهنياً يحفظ لهم مستقبلهم التربوي والمهني، فيحقق لهم ولمجتمعهم أفضل النفع ويجنبهم أشد الضرر. ولذلك فعندما تسبق الرغبة في التنبؤ بالظاهرة فهمها وتفسيرها يصبح من الضروري لتحقيق التنبؤ أن نبدأ بتحقيق الفهم والتفسير لهذه الظاهرة.

العلاقة بين أهداف العلم:

عرضنا فيما سبق الأهداف الثلاثة الأساسية للعلم بصفة عامة ولعلم النفس بصفة خاصة. والآن ينبغي أن نناقش العلاقة بين هذه الأهداف الثلاثة. ما من شك في أنَّ العلاقة بين هذه الأهداف الثلاثة علاقة شديدة الوثوق. وهي في جانب منها تعتبر علاقة في اتِّجاه واحد، بينما تعتبر من الجانب الآخر علاقة جدلية متبادلة الاتجاهات بين الأهداف الثلاثة. فمن حيث العلاقة في الاتجاه الواحد نجد أنَّ العلم ينطلق من فهم ومعرفة أسباب الظاهرة إلى التحكم فيها بناءً على هذا الفهم وتلك المعرفة، كما أنَّ العلم ينطلق أيضاً من فهم أسباب الظاهرة ومعرفتها - مرَّة أخرى - إلى التنبؤ بها، ثمَّ أخيراً إلى ضبط ما سوف تكون عليه حتى يتحقق أكبر النفع ويقل الضرر. ومن الواضح أنَّ دقَّة الضبط وكذا دقَّة التنبؤ سوف يعتمدان على دقَّة الفهم وصواب التفسير وسلامة المعرفة، بحيث يختل الضبط ويفشل التنبؤ بمقدار ما يعيب التفسير والفهم والمعرفة من نقص أو ضعف أو قصور. ومن هنا كانت حيطة العالم واهتمامه أن يصل إلى أكبر توفيق في فهمه وتفسيره لظاهرته وإحاطته بعواملها حتى يضمن تقديم أكبر فائدة لعلمه ومجتمعه.

أمَّا من الجانب الآخر، فإنَّ هذه العلاقة بين الأهداف الثلاثة تعتبر في

جوهرها علاقة جدلية متبادلة الاتجاهات بين كل منها. فنحن نسلم بأنَّ التحكم والتنبؤ يعتمدان على مدى دقَّة الفهم وصواب التفسير وسلامة المعرفة، لكن ماذا يحدث عندما يتبين للعالم أنَّ التحكُّم الذي قام به على أساس من فهمه وتفسيره ومعرفته للظاهرة لم يكن تحكماً بمستوى الدقَّة الذي كان يتوقعه؟ لا بدَّ له عندئذٍ من أن يعاود بحث الظاهرة من جديد محاولاً أن يعالج ما أصاب فهمه ومعرفته وتفسيره للظاهرة من ضعف أو قصور حتى تستقيم له المعرفة والفهم والتفسير ويزول ما علق بها من قصور، عندئذٍ يعاود التحكم في الظاهرة بناء على معرفته الأصوب بعوامل الظاهرة ومسبباتها، فإذا بقدرته على التحكم تزداد وتقوى. ويصدق نفس الموقف عندما يفشل التنبؤ بناء على الفهم السابق للظاهرة وعواملها، إذ لا بدَّ للعالم عندئذٍ من معاودة بحث عملية الفهم واستجلاء عوامل حدوث الظاهرة ومسبباتها، حتى ترتفع دقَّته في كل ذلك فتزداد تبعاً لذلك درجة نجاحه في التنبؤ. هذا وفي نفس الوقت سوف نجد أنَّ كلًّا من دقة الضبط ودقَّة التنبؤ المبنيين على فهم الظاهرة وتفسيرها سوف يعودان بزيادة الثقة في دقة هذا الفهم وسلامة ذلك التفسير. وهكذا تستمر العلاقات الجدلية المتبادلة بين الأهداف الثلاثة للعلم دافعة العلم نحو مزيد من التقدم والرسوخ.

هذا، ونظراً للطبيعة التراكمية للعلم، فإنَّنا نجد أنَّ كل عالم يضيف إلى ما أضافه سابقوه، كما يستفيد من منجزاتهم في بحثه لظواهره وفي تحقيقه لأهداف علمه، وبالتالي يكمل العلماء بعضهم بعضاً ربما حتى في تحقيق أهداف العلم في بحث ظاهرة مفردة، وبغير هذا لا يطرد تقدم العلم.

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ الأهداف الأساسية للعلم على نحو ما ناقشناها الآن تؤكد أنَّ العلم والعالم معاً ليسا مقطوعي الصلة بالمجتمع، بل إنَّهما في خدمته بمثل ما هما نتيجته. فالعالم نادراً ما يبحث بهدف «العلم للعلم»، وإنَّما يبحث أساساً بهدف «العلم للمجتمع»، كما أنَّ مشكلات مجتمعه وظروفه وأمانيه هي التي تدفع عمله العلمي وتوجهه وترتفع به أو

تقاومه وتحاصره وتعوق مسيرته. إذ «ليس العلم ظاهرة منعزلة، تنمو بقدرتها الذاتية وتسير بقوَّة دفعها الخاصة وتخضع لمنطقها الداخلي البحت، بل إنَّ تفاعل العلم مع المجتمع حقيقة لا ينكرها أحد. فحتى أشد مؤرخي العلم ميلاً إلى التفسير (الفردي) لتطور العلم، لا يستطيعون أن ينكروا وجود تأثير متبادل بين العلم وبين أوضاع المجتمع الذي يظهر فيه، حتى ليكاد يصح القول بأنَّ كل مجتمع ينال من العلم بقدر ما يريد» (١: ٢١٧).

معيار تقدم العلم:

إننا إذا ارتضينا الأهداف الثلاثة السابقة بحسبانها الأهداف الأساسية للعلم فأغلب الظن أنَّنا سوف نرتضي اتخاذها معياراً نقيم على أساسه مدى تقدم علم أو تخلفه. فالعلم الذي لا يستطيع أن ينجح في تحقيقها مجتمعة، بحيث يتخلَّف عن تحقيق أحدها هو علم متخلف بمقدار تخلفه عن تحقيق هذا، مثل علم الفلك الذي لم يستطع حتَّى الآن أن يتحكَّم في حركة كوكب أو ظهوره وأفوله في حين أنَّ دقته في تحقيق الهدفين الآخرين دقَّة كبيرة، أعني التفسير والتنبؤ. كما أنَّ العلم الذي يمكنه تحقيق الأهداف الثلاثة مجتمعة، لكن بمستوى قليل من الدقَّة، هو أيضاً علم متخلف.

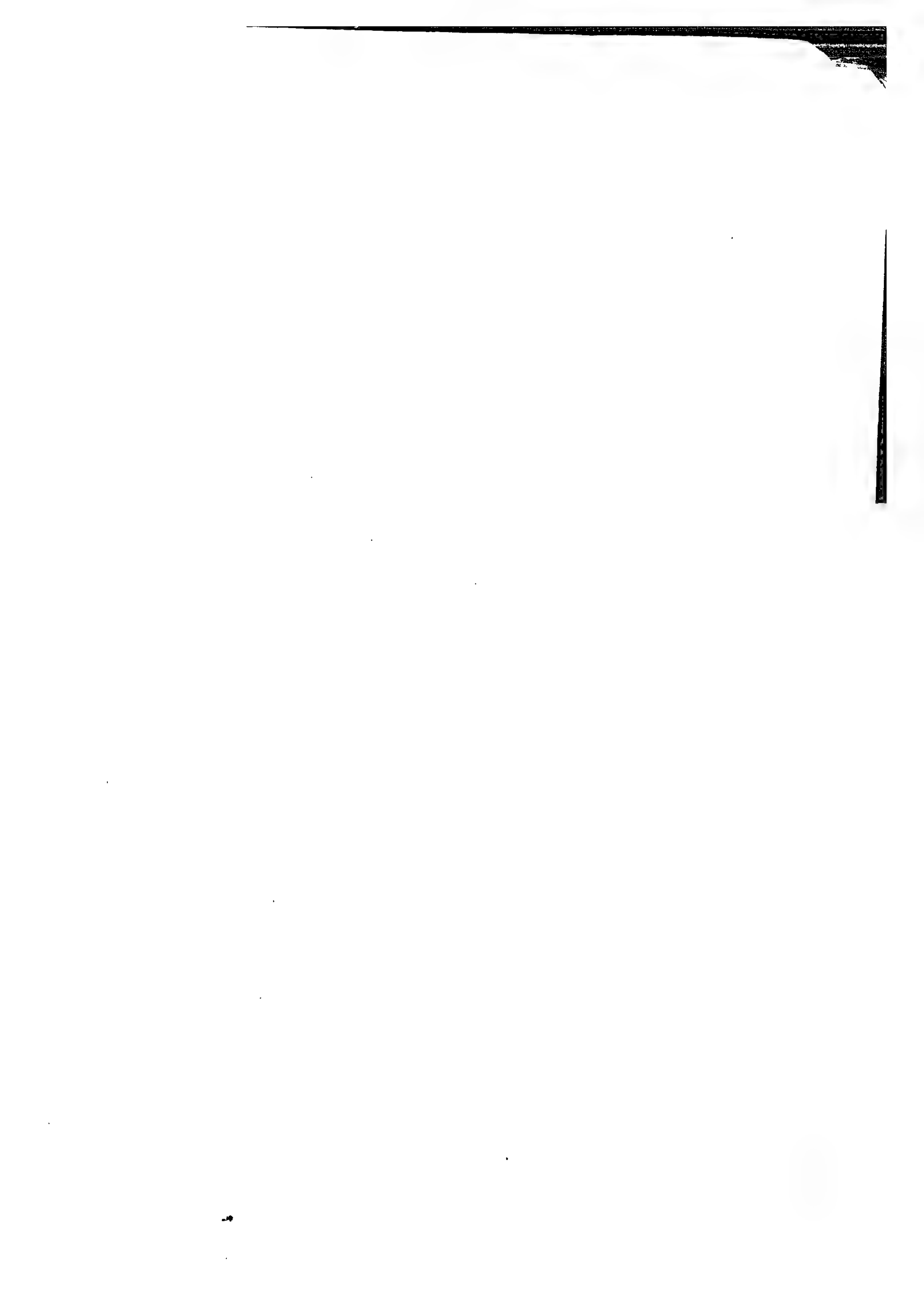
وفي ضوء هذا المعيار الذي نضعه لتقدير تقدم العلم أو تخلفه نرى أنَّ علم النفس قد حقَّق تقدماً لا بأس به كعلم يمكنه أن يحقق الأهداف الأساسية الثلاثة للعلم مجتمعة، وبدرجة مرضية من الدقة. وهذه الدرجة من الدقَّة، وإن لم تصل بعد إلى مستواها في العلوم الطبيعية المتقدمة، إلَّا أنَّ علماء النفس يجاهدون لرفعها أكثر عن طريق محاولاتهم الدؤوبة لتطوير منهجهم في البحث والتقصي، وعن طريق الاستعانة بأدوات البحث المتطورة وبالأساليب الإحصائية المتقدمة. ولما كانت مسألة تقدم علم أو تخلفه، هي بالدرجة الأولى مسألة نسبية، فإنَّ كثيراً من علماء النفس يقتنعون بما وصل إليه علمهم من تقدم خاصة مع ما هو معروف عن التعقد الشديد في طبيعة ما يدرسونه من ظواهر، وما هو معروف عن الحداثة النسبية لانسلاخ علمهم عن

الفلسفة واستقلاله عنها موضوعاً ومنهجاً، وهو حدث مضى عليه الآن قرن من الزمان فقط، منذ أن أنشأ فندت Wundt أول معمل لعلم النفس في العالم كله، وكان ذلك بجامعة ليبزج في ألمانيا عام ١٨٧٩.

المـــراجع

١ - دكتور فؤاد زكريا: التفكير العلمي - سلسلة عالم المعرفة - ٣ - الكويت - ١٩٧٨.

٢ - Anastasi, A And P Foley, Differntial Psychlogy, The Macmillan Company, New York, 1954.



الفصل الثاني

التحليل النفسي والمنهج العلمي (*)

* تمهيد.
* التحليل النفسي.
* المنهج العلمي.
* منهج التحليل النفسي.
* انتقادات التحليل النفسي من حيث المنهج.
* انتقادات التحليل النفسي من حيث قضاياه ومكتشفاته.
* خاتمة.

(*) كتب هذا المقال بعد أن ألقى موضوعه كمحاضرة بدعوة من جمعية الفلسفة بالمغرب في برنامج محاضرات هذه الجمعية بكليات آداب الرباط في ١٤/٤/١٩٧٧، ثمّ نشر بمجلة «دراسات فلسفية وأدبية» المغربية ـ العدد الثاني ـ ١٩٧٧.



تمهيد:

نكاد نجزم بأنَّه لم تتعرض مدرسة من مدارس علم النفس المعاصرة للهجوم الشديد مثلما تعرَّضت مدرسة التحليل النفسي وعلى رأسها منشؤها الطبيب النمسوي سيجموند فرويد. ولا ضرر في ذلك بطبيعة الحال إذا كان هذا الهجوم متسماً بالنقد الموضوعي، بعيداً عن الأهواء الذاتية، إذ من صالح كل من الفكر والعلم أن يظلاَّ منفتحين قابلين للجـدل، والاتفاق والاختلاف والأخذ والرد، حتى يندفعا خطوات نحو النضج والاقتراب من الحقيقة. لكن الضرر كل الضرر في أن يعمد المعارضون إلى المغالطة لإثبات وجهة نظرهم. وقريب من هذا أن يكونوا على جهل بما يقوله التحليل النفسي فيعرضون أفكاره عرضاً مشوهاً ناقصاً يتضح منه سوء القصد أو قلَّة الفهم.

ويمكن أن نرجع المآخذ الرئيسية التي يأخذها، معارضـو التحليل النفسي عليه إلى جانبين:

أولهما: خاص بمنهج التحليل النفسي في البحث والخروج بمكتشفاته بحجة عدم اتِّصاف هذا المنهج بالعلمية والموضوعية.

ثانيهما: الاعتقاد ببطلان ما جاء به التحليل النفسي من مكتشفات.

ولا شك في أنَّ هذا الاعتقاد مبني أساساً على رأيهم في منهج التحليل

النفسي، إذ من الصعب الوصول إلى الحقيقة بمنهج غير علمي أو غير موضوعي.

وفي هـذا المقال تنـاقش أهم هذه المـآخذ في هـذين الجـانبين المتداخلين بشيء من الإفاضة حسب ما يسمح به المجال. ويحسن أن نقدم لهذه المناقشة بتعريف للمفهومين اللذين يضمهما عنـوان المقال، وهمـا التحليل النفسي والمنهج العلمي.

التحليل النفسي:

«يدل اصطلاح التحليل النفسي وفقاً لتحديد فرويد على ثلاثة أشياء»:

أولاً: منهج للبحث في العمليات النفسية التي تكاد تستعصي على أي منهج آخر.

ثانياً: فن علاج الاضطرابات العصابية (النفسية)، يقوم على منهج البحث المذكور.

ثالثاً: مجموعة من المعارف النفسية يتألف منها نظام علمي جديد (٣ ـ ص ٥).

هذا، ويشير برنال Bernal في كتابه الموسوعي «تاريخ العلم» في جزئه الذي خصَّصه للعلوم الاجتماعية (٢١ ـ ص ١٠٩٤)، إلى أنَّ الإسهام الثاني العظيم لمدرسة فيينا كان الثورة الواضحة في علم النفس والتي جاء بها التحليل النفسي بتركيزه على العقل اللاشعوري غير المنطقي وإثباته خواء الشعور، حيث كانت نهاية القرن الماضي توحي بإفلاس مدارس علم النفس حينذاك والحاجة إلى علم نفس «علمي» جديد، وهو الذي قدَّمه سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩) في السنوات التالية لعام ١٨٩٠.

إنَّ التحليل النفسي هو في نهاية الأمر ذلك العلم الخاص بتعمُّق البحث في الحياة النفسية في أعماقها السحيقة، سواء في تاريخها القريب أو

البعيد بغية فهم وتفسير الظواهر السلوكية التي تصدر عنها واكتشاف ما تخضع له من قوانين أمّا منهجه في البحث فهو أساساً عملية التداعي الحر بإزاء هفوات الفرد وأحلامه وأعراضه وسلوكه وتحويله الذي يقوم به إزاء المحلل وتفسير كل ذلك. ولقد مكّن هذا المنهج الفريد في دراسة الظاهرة النفسية من اكتشاف اللاشعور ولغته، والكبت وآثاره: والمقاومة ووظيفتها، والصراع الدائر داخل النفس بين دوافعها المتناقضة، وكيفية حلّه عن طريق ما يعرف بالحلول الودية Compromises التي ترضي كافة الأطراف الداخلة في الصراع كل بحسب قوّته.

المنهج العلمي:

عن المنطق الحديث يذكر الدكتور محمود قاسم: «هو منطق خاص لأنّه لا يدرس القواعد الشكلية العامة، كما كان يزعم أنصار المنطق القديم لكنه يدرس الطرق الخاصة التي تتبع بالفعل في كل علم من العلوم. ومن البديهي أنّ مناهج العلوم تختلف باختلاف الظواهر التي تعالجها» (١٤ ـ ص ٤٦).

ويشير الدكتور عابد الجابري إلى شيء قريب من هذا حيث يقول:

«والمنهاج العلمي هو جملة العمليات العقلية، والخطوات العملية، التي يقوم بها العالم، من بداية بحثه حتى نهايته، من أجل الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها. وبما أنّ العلوم تتمايز بموضوعاتها، فهي تختلف كذلك بمناهجها. ولذلك لا يمكن الحديث عن منهاج عام للعلوم، للكشف عن الحقيقة في كل ميدان، بل فقط عن مناهج علمية. إنّ لكل علم منهاجه الخاص. تفرضه طبيعة موضوعه». (١٢ ـ ص ١٩ ـ ٢٠).

ويمكن ـ بل وينبغي ـ أن نضيف إلى هذا أنّ العلم الواحد غالباً ما يكون له أكثر من منهج طالما اختلفت طبيعة ظواهره فيما بينها، بحيث يصبح منهج معين أصلح من غيره لدراسة ظاهرة معينة من ظواهر هذا العلم، كما

هو الشأن في علم النفس. فعلم النفس - على سبيل المثال - يستخدم المنهج التجريبي بصورة قريبة من استخدامه في العلوم الطبيعية منذ أن أنشأ فوندت Wundt أوّل معمل لعلم النفس بجامعة ليبزج عام ١٨٧٩، إلّا أنّه لا يكاد ينجح في استخدام هذا المنهج إلّا مع الظواهر النفسية البسيطة كزمن الرجع وظواهر الانتباه والإدراك الحسي، أمّا الظواهر النفسية الأكثر تعقيداً فيستعين علم النفس على دراستها بمناهج أخرى كالملاحظة والتأمل الذاتي ودراسة الحالة. ولا شكَّ أنّه كلما كان في إمكان الباحث أن يكرر دراسته لنفس الظاهرة النفسية بأكثر من منهج كان ذلك أفضل له وأدعى للوثوق بنتائجه بشرط أن يكون كل من المناهج المستخدمة مناسباً للظاهرة التي يقوم بدراستها، فعندما تتأيد النتيجة بأكثر من منهج يرتفع مستوى تصديقها.

منهج التحليل النفسي:

يقول نيل في حديثه عن التحليل النفسي «لقد طور فرويد تدريجياً تكنيكاً لمساعدة المريض على استعادة الخبرات «المنسية» هو التداعي الحر. فهذا التكنيك بالإضافة إلى ملاحظات المحلل وتفسيراته لسلوك المريض يمثل منهج التحليل النفسي» (٢٣ - ص ٢٠٧).

ولنرجع إلى فرويد نفسه يصف لنا طريقته في التداعي الحر إذ يقول:

«... فبعد أن كنت أحفز المريض إلى أن يذكر شيئاً عن موضوع بعينه، أصبحت أطلب منه أن يستسلم لعملية تداع حر، أعني أن يذكر كل ما يخطر بذهنه، على أن يتجنب أي توجيه شعوري لخواطره. ولم يكن بدّ، مع ذلك، أن يلتزم المريض بذكر كل شيء يخطر بباله حرفياً معرضاً عن الاعتراضات النقدية التي من شأنها أن تستبعد بعض الخواطر بحجة عدم أهميتها أو عدم مناسبتها أو بحجة ألا معنى لها. ولا حاجة بنا أن نلح في مطالبة المريض صراحة بضرورة توخي الصدق في تسجيل خواطره، طالما قد أوضحنا له أنَّ ذلك هو الشرط الأساسي في العلاج التحليلي بأسره. قد يبدو

عجيباً أنَّ طريقة التداعي الحر هذه التي هي تطبيق للقاعدة الأساسية في التحليل النفسي، قد حققت ما كان ينتظر منها، أي نقل الأمور المكبوتة التي كانت تحتجزها المقاومات إلى الشعور...» (٨ ـ ص ٤٧).

أولاً: انتقادات التحليل النفسي من حيث المنهج:

ذكرنا في مستهل هذا المقال إمكانية تركيز أهم الانتقادات الموجهة إلى التحليل النفسي في جانبين، أولهما المتعلق بمنهجه، وثانيهما المتعلق باستنتاجاته ومع إيماننا بأنَّ العلاقة بين المنهج ونتائجه علاقة جدلية، من غير المأمون فصل كل منهما عن الآخر إلَّا من حيث التركيز فقط فإنَّنا لسهولة العرض فقط سوف نضطر القيام بمعالجة كل منهما على حدة مكتفين بهذه الملاحظة التي لا تغيب عن فطنة القارىء. وفيما يلي أهم الانتقادات يتلو كلًّا منها مناقشة له.

تكاد تتركز أهم المآخذ الموجهة إلى التحليل النفسي من حيث منهجه في التالي:

١ ـ أنَّ فرويد أجرى ملاحظاته وتحليلاته في ظروف تفتقر إلى الضبط العلمي، وتنقصها إمكانية تأكيدها بالمنهج التجريبي الذي يتيح المعالجة الإحصائية للمادة التي تلاحظ، وهكذا يستحيل وزن الدلالة الإحصائية للاستنتاجات واختبار مدى ثباتها. ولا نستبعد أن نجد من بين من ذاعت شهرتهم من المفكرين وعلماء النفس ومن يسيرون في ركابهم من يتعصَّب لهذا الانتقاد مثل عالم النفس البريطاني المشهور إيزنك Eysenk الذي يقول: «إنَّه (أي فرويد) كان يفتقر كلية للقدرة على القيام بتصميم التجارب التي يمكن أن تضع هذه الفروض في اختبارات حاسمة ومن المؤكد أنَّه كان يتعالى علانية على البحث التجريبي» (٢ ـ ص ١٣٠ ـ ١٣١).

وقد يكون من الأفضل أن نقدم لمناقشة هذا الانتقاد بإلقاء بعض الضوء على التكوين العلمي لفرويد نفسه لنؤكد أنَّ الوعي بالمنهج التجريبي لم يكن

لينقصه، بل إنَّه قد مارسه في بحوثه لفترة طويلة، إلَّا أنَّه اكتشف حدود صلاحية هذا المنهج، فلم ير فيه أنَّه صالح لدراسة كل ظاهرة مهما كانت نوعيتها.

لقد تخرَّج فرويد في الطب، ومارس البحث العلمي لفترة طويلة في مجال طب الجهاز العصبي ومجال الفسيولوجيا، وله مكتشفات هامة لا زالت حتى الآن دليلاً على أنَّه كان من كبار الباحثين في هذين المجالين، ولا يخفى على أحد أنَّ المنهج التجريبي الصارم هو عماد البحث فيهما. «فقد ظلَّ (فرويد) يبحث في تشريح النخاع الشوكي بمعهد الفسيولوجيا في فيينا زهاء ست سنوات أسفرت عن نتائج علمية من الدرجة الأولى، ثمَّ قضى بضع سنوات أخرى يبحث في تشريح المخ وأمراضه فاكتشف مرض (الشلل الشبيه بالرقاص)، وأفرد له مكاناً في المصنفات الإكلينيكية. وقام بدراسته من النواحي التشخيصية والتشريحية والعلاجية ـ فضلاً عن اكتشافاته في النخاع المستطيل، ثمَّ اكتشافه الإكلينيكي لما يعرف في الطب العصبي (بالأجنوزيا). وقد أصبحت هذه الاكتشافات جميعاً جزءاً من التراث الطبي خلَّدت اسم (فرويد) في ميدان الأمراض العصبية العضوية» (١٦ ـ ص ٧). ولهذا فقد كان فرويد «أحد أقطاب الطب الذين وجِّهت إليهم الدعوة ليكتبوا سيرهم العلمية، لكي تجمع في كتاب يمثِّل غاية ما أحرزه الطب من تقدم. وقد نشرت سيرة (فرويد) بقلمه في الجزء الرابع من هذا الكتاب وعنوانه (الطب في الوقت الحاضر ممثلاً في السير العلمية بأقلام أصحابها) ـ ليبزج ١٩٢٥». (١٦ ـ ص ٥) وفي كتاب فرويد «حياتي والتحليل النفسي» الكثير من التفاصيل التي تؤيد ذلك.

إلَّا أننا ينبغي أن نؤكد أنَّ التثبيت على فكرة أنَّ المنهج التجريبي هو المنهج العلمي الوحيد إنَّما يعتبر ضرباً من التفكير الجامد الذي لا يوافق عليه علماء المناهج أنفسهم فضلاً عن علماء التخصصات العلمية المختلفة وغيرهم من الباحثين والمفكرين الذين يتصفون بالمرونة والواقعية. إذ يرى

كل هؤلاء ـ على نحو ما سبق أن ذكرنا في تعريفنا للمنهج العلمي ـ أنَّ المنهج العلمي يختلف باختلاف العلوم، وأنَّ لكل علم منهجه الخاص الذي تفرضه طبيعة موضوعه.

فعلماء الفلك ـ على سبيل المثال ـ لم يستطيعوا حتى الآن تطويع ظواهرهم للمنهج التجريبي، ومع ذلك فإنَّ ما توصلوا إلى اكتشافه من حقائق وقوانين خاصة بظواهرهم تصل إلى حد كبير من الدقَّة والصدق، وليس بيننا من يصف حقائقهم بالزيف لأنَّها لا تخضع للتجريب. بل إنَّ التجريب كثيراً ما يفشل في تجنيب الباحث تأثيراته الذاتية وتشويهها للاستنتاجات والمعلومات المتعلقة بالظاهرة التي يبحثها. ويكفينا مثلاً واحداً لذلك ـ شديد الوضوح والدلالة ـ هو الخاص بما زعمه البروفسور بلوندلوت M. Blondlot وقد كان فيزيائياً شهيراً في جامعة نانسي وعضواً في أكاديمية العلوم الفرنسية. وفي عام ١٩٠٢ زعم أنَّه اكتشف أشعة «ن»، وقد كان زعمه هذا بعد كشف روينتجين Roentgen الألماني لأشعة × بستة أعوام.

وما أن أعلن بلوندلوت لاكتشافه أشعة «ن» حتى سارع كثير من الباحثين الفيزيائيين البارزين في فرنسا بإعلان أنَّهم استطاعوا في معاملهم تأكيد هذا الاكتشاف وقد كان من مظهر هذه الأشعة تزايد إستضاءة الأسطح الفسفورية، وتزايد الوهج في السلوك البلاتينية. وسرعان ما بدأ الباحثون في محاولة الاستفادة التطبيقية لهذه الأشعة. وهكذا درس بروكا Broca أخصائي المخ علاقة أشعة «ن» بالمخ، كما تبين لشاربنيتر Charpentier أنَّ الضغط الواقع على أحد أعضاء الجسم يصحبه إطلاق أشعة «ن»، وبحث لامبرت وماير Lambert And Mayer أثر هذه الأشعة على النباتات. وتقديراً لهذا الكشف قامت الأكاديمية الفرنسية بمنحه جائزة لالاند وقيمتها عشرون ألف فرنك وميداليتها الذهبية. لكن من سوء حظ بلوندلوت أنَّ بعض الفيزيائيين خارج فرنسا حاولوا في معاملهم أن يحصلوا على أشعة «ن» فحصلوا على نتائج سلبية. وقد أثار ذلك نقاشاً وجدلاً حاداً بين العلماء مما دفع فيزيائياً

شهيراً من جامعة جونز هوبكنز هو وود R. H Wood للذهاب بشخصه إلى معامل بلوندلوت للتأكد من حقيقة الأمر، وهناك تأكد له بما لا يدع مجالاً للشك أنَّ أشعة «ن» مزعومة، وليس لها أي وجود واقعي موضوعي، وأنَّ الأمر لم يكن أكثر من انحياز قومي شوَّه قدرة العلماء الفرنسيين على ضبط تجاربهم ومشاهداتهم فإذا بهم يدركون ما لا وجود له. وبعد أن نشر وود تقريره في مقال استمرت الأكاديمية في جائزتها إلَّا أنَّها اضطرت لمواجهة الموقف إلى تغيير السبب المعلن عنه لاستحقاق الجائزة، فعزته إلى إسهامات أخرى سبق أن قام بها بلوندلوت. وقد كان لذلك بالغ التأثير على بلوندلوت فأصيب بالجنون ثمَّ مات بعد ذلك متأثراً بما لحقه من هذا العار (٢ - ص ١٢٧ - ١٢٩) وشبيه بهذه الأحداث في تاريخ العلوم لا شك كثير.

قد يتصور البعض أنَّ ذكرنا لهذه الحادثة بشيء من التفصيل إنَّما يشير إلى رفضنا للمنهج التجريبي، لكن ليست هذه هي الحقيقة. فلا شكَّ أنَّ أي منصف يرى أنَّ المنهج التجريبي من أدق المناهج حتى الآن في بحث الظاهرة بشرط قبول الظاهرة لهذا النوع من مناهج البحث. بل إنَّنا نؤمن بأنَّ العلوم الطبيعية والكيمائية والبيولوجية - وهي التي تقبل أغلب ظواهرها للبحث بالمنهج التجريبي - ما كانت لتحقق هذه الطفرة الهائلة في القرون الثلاثة المتأخرة لولا اصطناعها لهذا المنهج. لكن ما أردناه بسرد هذه الحادثة هو إقامة الدليل على أنَّ المنهج التجريبي لا يخلو هو الآخر من بعض الذاتية، وأنَّ الاستنتاجات التي تستنتج عن طريقه ليست بالضرورة حقائق ثابتة ثباتاً مطلقاً وبالتالي فإنَّ من ينادون باعتباره الفيصل في قبول المكتشفات أو رفضها هم بعيدون عن الموضوعية، متصفون بالجمود الذي يجعلهم يسقطون المشروعية العلمية عن كل منهج في البحث ما عداه. إنَّ هؤلاء ينسون أو يتناسون البديهة التي ترجع الحكم بصلاحية منهج من مناهج البحث إلى نوعية الظاهرة التي تبحث به.

يقول أستاذنا الدكتور مصطفى زيور: «. . . كل فتح علمي كبير يقتضي

ابتكار منهج جديد ملائم لموضوع البحث. فما كان يمكن الكشف عن عالم الجراثيم وخصائصه دون ابتكار الميكروسكوب ثمَّ ابتكارات باستور المشهورة في البكتريولوجيا. وما كان يمكن لعلوم اللغويات والأنثروبولوجيا وغيرها من علوم الإنسان أن تخطو خطواتها الحاسمة وإرساء قواعدها في نظم علمية مكينة دون اكتشافات التحليل النفسي أولاً ثمَّ اكتشاف المنهج البنياني ثانياً. وما كان التحليل النفسي أن يصل إلى ما وصل إليه من اكتشافات حاسمة في ميدان الأمراض النفسية والعقلية دون ابتكار منهج التداعي الحر وهو منهج لغوي. وقد أقام الفيلسوف الفرنسي دالبييتز في رسالته المعروفة منهج التحليل الفرنسي ومذهب فرويد، الدليل الحاسم ـ من وجهة نظر فلسفة العلوم ومناهج البحث ـ على صدق منهج التداعي الحر واتصافه بكل مقتضيات البحث المنهجي العلمي.

«أمَّا إقحام منهج ثبت جدواه في ميدان بعينه على ميدان يختلف عنه اختلافاً جذرياً بدعوى أنه المنهج العلمي الوحيد، من حيث إنَّه يمكننا من القياس المضبوط والحصول على نتائج كمية، فهو مغالطة أخطر ما فيها أنَّها تجهل نفسها، تجهل أنَّها تصدر عن موقف ميتافيزيقي ترفضه الإبستمولوجيا المعاصرة بل يرفضه منطق تاريخ المعرفة العامية. فالقول بوجود نمط واحد من الموضوعية هو نمط الموضوعية في العلوم الفيزيائية، والإصرار على نقل هذا النمط إلى ميدان علوم الإنسان، إنَّما هو قول يفترض تطابق عالم الفيزياء وعالم الإنسان وهو افتراض ميتافيزيقي، إنَّه يحل وحدة النظام الفيزيائي محل كثرة التجربة وتنوعها، على حين أنَّه ينبغي القيام في كل ميدان باختيار الكيان النوعي. وفي اصطلاح «هو سر ل» إقامة أنطولوجيات الإقليمية.

«إنَّ الموضوعية المطلقة لا وجود لها في نطاق المعرفة العلمية، وإنَّما الأمر أمر موضعه Objectivation ـ لا موضوعية Objectivity ـ يسعى الباحث العلمي إلى تحقيق أكبر قدر متاح منها تدريجياً بصقل أساليب بحثه النوعية، بحيث تزداد الموضوعية بقدر نقصان العوامل الذاتية تدريجاً كلود لفي

شتروس، مقدمة كتاب علم الاجتماع والأنثروبولوجيا لمارسيل موسى... (١٨ ص ع ـ ف)».

خلاصة القول إذن أنَّ التطرف في التعصب للمنهج التجريبي ليس مبنياً على أساس من الفهم السليم لطبيعة المنهج العلمي ووظيفته.

ومن ثمَّ فإنَّ من يسقطون الشرعية العلمية عن منهج التحليل النفسي لعدم اصطناعه التجريب واهمون بعيدون عن أي موضوعية علمية.

ومع كل هذا فلا بدَّ من الإشارة إلى أنَّه عندما نتمكن من إخضاع بعض كشوف التحليل النفسي للمنهج التجريبي يثبت صدقها. فسهولة استعادة الاستجابة المنطفئة على نحو ما تبدو من تجارب علماء النفس السلوكيين ليست إلاَّ تعبيراً واضحاً عن ظاهرة التثبيت التي اكتشفها التحليل النفسي، وفي إحدى التجارب نوَّم برنهايم رجلاً نوماً مغناطيسياً ثمَّ أمره أن يفتح مظلة في قاعة العرض بعد أن يصحو بخمس دقائق. ففعل الشخص ما أمر به دون أن يعرف شيئاً مما حمله على فعله هذا». (٥ ـ ص٣٠٨). مما يؤكد لنا موضوعية وجود عمليات نفسية لا شعورية على نحو ما أكَّدته كشوف التحليل النفسي. ولقد قضى كاتب هذا المقال زهاء تسع سنوات في بحثين عن سيكلوجيا الحوادث وسيكلوجيا العامل المشكل في الصناعة مستخدماً أساليب المنهج التجريبي الإحصائي وضوابطه، فإذا به يلتقي في نتائج هذين البحثين النهائية مع ما انتهى إليه التحليل النفسي بمنهجه الخاص من كشوف وتفسيرات لديناميات الحياة النفسية (١٠ و ١١).

٢ ـ هذا، ويوجه إلى منهج التحليل النفسي مأخذ ثانٍ هو أنَّه لا يمكن لمشاهد آخر بخلاف المحلل أن يلاحظ كيف تجري عملية التحليل داخل جلسات العلاج، ويستتبع ذلك صعوبة الاطمئنان والتأكد من موضوعية استنتاجات المحلل واكتشافاته.

والواقع أنَّ هذا الانتقاد لمنهج التحليل النفسي لا يرجع لضعف لصيق

بالتحليل النفسي كمنهج للبحث أو العلاج، بل إنَّ طبيعة الجلسة التحليلية هي التي تحتم ذلك. فهذه الجلسة تفقد طابعها الخاص بل وتكاد تمتنع لمجرد وجود مشاهد مع المحلل. فالمريض في مثل هذه الحالة سوف يتردد في البوح بمكنونات نفسه نظراً لعوامل الخجل والخوف والشك التي ينجح المحلل في استبعادها أثناء حضوره، ولكن يصعب عليه ذلك في حالة حضور شخص آخر في جلسة التحليل: والحقيقة أنَّ المحللين يأسفون أشد الأسف لهذا القيد الذي تحتِّمه طبيعة جلسة التحليل النفسي ولا يجدون مفراً منه، فهو يحرمهم من إثبات بعض حقائق التحليل النفسي ومكتشفاته الهامة أمام الغير، لكن ما يجب أن نؤكده هو أنَّ هذا الموقف لا ينفي موضوعية ما يصل إليه التحليل النفسي من كشوف نتيجة لما يدور في هذه الجلسات. إنَّ الذين ينكرون الموضوعية هنا إنَّما يفهمون الموضوعية بمعنى ضيِّق لا يتفق والموضوعية نفسها. فليست الموضوعية في العلم قاصرة فقط على معنى ما يمكن إثباته أمام الغير، بل هي تشمل أيضاً تلك الحقائق الصادقة التي لا يمكن إثباتها إلاَّ من جانب شخص واحد هو المعنى فقط. ونحن ما لم نسلم بذلك فسوف نعجز عن الدراسة العلمية لكثير من الظواهر وننصرف عنها. فإذا أردت أن تعرف حقيقة ما يفكر فيه الشخص «أ» فلا سبيل أمامك إلاَّ أن تسأله عن ذلك فيجيبك. ومهما أوتيت من أساليب فلن تستطيع معرفة ذلك إلاَّ بهذه الوسيلة، فلم يوجد حتى الآن ذلك المنظار الذي تستطيع أن تنظر به إلى رأس الشخص فترى به ما يجول فيه من تفكير ويمكنك به أن تدع غيرك ليتأكد هو الآخر. معنى ذلك أنَّك لن تستطيع التأكد من أنَّه صادق أو غير صادق. ولذا فلا سبيل أمامك إلاَّ اصطناع بعض الأساليب غير المباشرة لتجعلك أكثر اطمئناناً إلى موضوعية الشخص فيما أخبرك به، مثل معرفتك السابقة عن مدى اتِّصافه بالصدق أو الكذب، ومعرفتك بما لديه من دوافع وحوافز للصدق أو الكذب في إجابته لهذا السؤال بالذات... إلخ. ومن الجدير بالذكر أنَّ قسماً كبيراً من الاختبارات النفسية توضع على هذا الأساس المنهجي (كاستبيانات وقوائم الشخصية)، بالإضافة إلى أنَّ كثيراً من البحوث

الميدانية في علم النفس وعلم الاجتماع تعتمد على هذا الأسلوب أيضاً دون أن تلقي كل هذه المقاومة وذلك الاعتراض.

ولكن مما يجدر ذكره ـ بهذا الصدد ـ أنَّ التحليل النفسي وصل إلى أهم كشوفه أو دلل عليها خارج جلسات التحليـل النفسي من المرضى والأسوياء على حد سواء، ثمَّ طبقها ولاحظها سافرة ومضخمة داخل هذه الجلسات ففرويد لم يكف عن مطالبة الناس بالخلو إلى أنفسهم بمثل ما كان يفعل هو محاولين مكاشفة أنفسهم وتحليل هفواتهم وأحلامهم وسلوكهم ليتأكدوا من صدق ما وصل إليه. كما أقام الدلائل الكثيرة من حالات سوية ومرضية في العالم البدائي وفي العالم المتحضر على صدق ما جاء به من كشوف واستنتاجات. ونجد ذلك شائعاً في معظم كتاباته وخاصة في كتبه الثلاثة «تفسير الأحلام» و«علم النفس المرض للحياة اليومية» و«محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي».

٣ ـ هناك انتقاد ثالث يوجه إلى منهج التحليل بدعوى أنَّه أتى بكشوفه واستنتاجاته من دراساته للمرضى النفسيين وقام بتعميمها على الأسوياء مما أوقعه في خطأ منهجي كبير.

إنَّ الذين يزعمون هذا الزعم ليسوا على وعي كافٍ بتطور نشأة التحليل النفسي وتاريخ مكتشفاته. وأغلب الظن أنَّهم لم يقرأوا الكتابات الأساسية التي قدَّمها فرويد وتلاميذه. ولعلَّ الفقرة الأخيرة الواردة في مناقشتنا للانتقاد الثاني تدلل على ذلك. وبالإضافة إلى هذا فإنَّ القوانين التي تحكم الحياة النفسية في سوائها هي نفسها التي تحكمها في مرضها تماماً كما نجد أن ديناميات القلب وقوانين تشغيله هي نفسها في صحته ومرضه. وعلاوة على كل ذلك فإنَّ الخط الفاصل بين سواء النفس ومرضها ليس بالوضوح الذي يتصوره البعض، وإنَّما سواء النفس ومرضها أمر نسبي في حقيقته، فإلى أي حد هذا الشخص مريض نفسياً وإلى أي حد هو سوي.

٤ ـ كثيراً ما يوجه انتقاد رابع إلى منهج التحليل النفسي بدعوى أنَّ المحلل النفسي يوحي إلى مريضه بالأفكار التي يبحث عنها المحلل، فيلجأ المريض إرضاءً لمحلله إلى الانسياق وراء إيحاءات المحلل والاستجابة لها.

لا شكَّ أنَّ هذا الانتقاد افتراء واضح على التحليل النفسي. ويعلم دارسو التحليل النفسي أنَّ القاعدة الأساسية لعملية التحليل هي عدم الإيحاء للمريض بأي شيء سوى أن يذكر المريض كل ما يرد على باله أثناء الجلسة دون انتقاء أو استبعاد أو خوف أو خجل. ويزداد المحلل حيطة فلا يشير إلى مريضه بتفسير ما وصل إليه لعرض أو حلم أو أي سلوك حتى تكشف متداعيات المريض نفسه للمريض نفسه حقيقة الأمر، فإذا بالمريض نفسه يقوم بالاعتراف بها والوصول إلى تفسيرها. وقد يقتضي الأمر من المحلل الذي غالباً ما يصل إلى التفسير والفهم قبل المريض، أن ينتظر لعدَّة جلسات حتى يصل المريض نفسه إلى التفسير والفهم. بل إنَّ سرعة المحلل في تقديم التفسير قبل أن يصل إليه المريض بنفسه أو قبل الوقت المناسب والذي يكون فيه المريض على وشك الوصول إلى التفسير، نقول إنَّ سرعة المحلل في تقديم التفسير في هذه الحالة مضر بسير عملية التحليل بل إنَّه يهدد بإفسادها وقطعها تماماً.

ويمكننا أن نزيد على ذلك ما هو معروف من أنَّ المحللين النفسيين إذا تبين لهم أنَّ مرضاهم يقرأون في التحليل النفسي فإنَّهم ينصحونهم بتأجيل ذلك حتى ينتهون من عملية تحليلهم تماماً. والسبب الأساسي لموقف المحللين هذا خشيتهم أن يقوم ما هو مكتوب في التحليل النفسي بالإيحاء ولو غير المباشر إلى المرضى بما ينبغي عليهم أن يذكروه أثناء جلسات التحليل فيبدأوا في انتقاء ما يدلون به من متداعيات فتنكسر القاعدة الأساسية في التحليل النفسي والتي تقتضي إطلاق العنان للتداعي.

٥ ـ هناك انتقاد خامس يدَّعي أنَّ العلاج بطريقة التحليل النفسي لا

يؤدي إلاَّ إلى شفاء نسبة ضئيلة في المقارنة بنسبة الشفاء في الحالات التي تعالج جسمياً.

ولا شكَّ أنَّ المقارنة الواردة في هذا الانتقاد مقارنة ظالمة أولاً لاختلاف نوعية المرض الذي يعالج بالتحليل النفسي عن نوعية هذا الذي يعالج بالعلاج الجسمي، وثانياً لأننا نجد كثيراً من الأمراض يفشل فيها العلاج الجسمي فشلاً كبيراً في المقارنة بالفشل في حالات العلاج التحليلي كما هو الحادث في بعض أمراض السرطان وضغط الدم والدرن الرئوي والأمراض المزمنة عموماً، ومع ذلك فإنَّ أساليب علاج هذه الأمراض لا تعارض بل إنَّها تلقى القبول، لأنَّ نسبة نجاح العلاج مهما كانت ضئيلة فهي مكسب تحصله البشرية ينبغي لها التمسك به لا التخلي عنه طلباً لنجاح أكبر قد لا تصل إليه البشرية قبل أحقاب طويلة، وثالثاً لأنَّ المريض لا يلجأ إلى العلاج بالتحليل النفسي إلاَّ بعد أن يفشل في العلاج بمختلف الأساليب الجسمية والنفسية الأخرى، أي عندما يكون مرضه أكثر مقاومة للشفاء وأكثر إزماناً. ويضاف إلى كل هذا أنَّه ليست بين أيدينا في الوقت الحالي بيانات إحصائية يمكن الوقوف فيها على مقارنة نسبة نجاح العلاج بالتحليل النفسي بالنسبة المقابلة للنجاح في العلاج الجسمي للأمراض المختلفة.

ولعلَّ من الجدير بالذكر ما نلاحظه هذه الأيام من تزايد نسبة حالات الأمراض الجسمية التي أصبحت تستعصي على أساليب العلاج الجسمي، مما أجبر الطب أخيراً (منذ ثلاثينات هذا القرن فقط)، أن يتلمس لبعضها أساساً نفسياً فعثر عليه لدى المحللين النفسيين، وأفرد له تصنيفاً خاصاً بين الأمراض هو المعروف بالأمراض السيكوسوماتية (أي الأمراض الجسمية ذات السبب النفسي). مثل كثير من أمراض الجهاز الهضمي وأمراض الحساسية والسكر وضغط الدم وما إليها. «إنَّ التأمل... يعود بالذاكرة إلى قول أفلاطون: (وما ينبغي لك أن تحاول شفاء الجسم دون شفاء للروح، وأنَّ ذلك لهو السبب في أنَّ شفاء الكثير من الأمراض يمتنع على أطباء اليونان،

لأنَّهم يغفلون الكائن بوصفه كلاً، ذلك أنَّ الجزء لا يمكن أن يكون سليماً. إلَّا إذا كان الكل سليماً. وأنَّ أكثر الخطأ في أيامنا هذه في علاج الجسم أنَّ الأطباء يفصلون بين الجسم والنفس)... لقد اقتضى الأمر أكثر من ألفي سنة حتى يقوم الدليل العلمي على صحة هذه الحقائق الإنسانية» (١٥ ـ ص ٣٨ ـ ٣٩).

ثانياً: انتقادات التحليل النفسي من حيث قضاياه ومكتشفاته:

فإذا ما انتقلنا إلى الانتقادات التي توجه إلى قضايا للتحليل النفسي ومكتشفاته وجدنا أنَّ أغلبها قائم على التسليم بعدم علمية منهج التحليل النفسي، هذا التسليم لا بدَّ وأن يتبعه رفض للاستنتاجات والقضايا والحقائق التي تمَّ له اكتشافها أو إقامة الدليل عليها. وفي نفس الوقت لنا أن نتوقع أن يحدث العكس، بمعنى أنَّ قناعة الفرد ببطلان استنتاج من استنتاجات التحليل النفسي قد يؤدي به إلى التشكك في منهج التحليل النفسي ذاته بحجة أنَّ هذا المنهج أدَّى إلى استنتاجات باطلة.

هذا، ويمكن أن نستعرض فيما يلي أهم ما يوجه إلى التحليل النفسي من انتقادات تتعلَّق بقضاياه ومكتشفاته مع مناقشة تتلو كلاً منها:

١ ـ اكتشاف التحليل النفسي للاشعور وإعطاؤه أهمية كبيرة في الحياة النفسية للإنسان. وهذا شيء ضدَّ المنطق.

وإذا أردنا الدقة فإنَّ التحليل النفسي لم يكن هو الذي اكتشف اللاشعور، بل هو الذي أقرَّه وأقام الدليل الحاسم على وجوده ونبَّه إلى أهميته ودوره الأساسي في الحياة النفسية، ودافع عن كل ذلك في جرأة شديدة. ذلك أنَّ كثيراً من قضايا التحليل النفسي قد سبق إلى اكتشافها هؤلاء الذين أوتوا موهبة النفاذ إلى أعماق الحياة النفسية عن طريق الحدس السليم والحس المباشر الصحيح، وإن كانوا لم يستطيعوا أو لم يهتموا بإقامة الدليل المقنع على صدق حسهم وحدسهم، مثل الشعراء والفلاسفة وأصحاب

الحكمة الشعبية وذوي الفكر الصافي من العلماء.

لقد سبق أن نبّه الفيلسوف الألماني شوبنهور من قبل فرويد بأكثر من نصف قرن إلى أهمية اللاشعور وسطحية الشعور. ومن آرائه: «أنَّ الشعور هو مجرد السطح بالنسبة لعقولنا، التي لا نعرف ما بداخلها. كالكرة الأرضية لا نعرف منها إلاَّ ما هو على سطحها» (٢٢ ـ ص ٣١٢).

ومما يدلل على وجود اللاشعور أبلغ تدليل ما يلاحظ من التزام بعض المرضى النفسيين القيام بأعمال حوازية متكررة ليس لها من معنى منطقي مقبول حتى من جانبهم أنفسهم. مع أنَّهم يضيقون بهذه الأفعال إلاَّ أنَّ ضيقهم يبلغ مداه إن حيل بينهم وبين إنجازها، مما يشير إلى وجود عمليات نفسية لا يفهمونها تقهرهم على إتيان هذه الأفعال. وبلغة التحليل النفسي توجد عمليات نفسية لا شعورية، ودوافع نفسية لا شعورية تجبرهم على ذلك. ولا سبيل إلى فهم هذا كله إلاَّ بالكشف عن مكنونات لا شعورهم وما تجري به من عمليات نفسية بعيدة عن إدراكهم ووعيهم.

ويعلِّق الدكتور سامي محمود علي، على قضية اللاشعور بقوله: «ولا يتخيلن امرؤ أنَّ التحليل النفسي موضوعه دراسة اللاشعور وأنَّ الشعور موضوع علم نفس آخر. فالواقع أنَّ التحليل النفسي، وإن قام على معارضة التيارات السيكلوجية السائدة في القرن التاسع عشر إلاَّ أنَّه يدخل الشعور في دراسته بل ويدرسه في علاقته باللاشعور. ويمكن القول عامة إنَّ موضوع التحليل النفسي ليس هو الشعور واللاشعور. بل هو الإنسان في شمول إنسانيته من حيث هو وحدة بيولوجية اجتماعية ذات تاريخ». (٤ ـ ص ٩٨).

٢ ـ هناك مأخذ ثانٍ على التحليل النفسي هو المتعلق بإقراره بوجود دوافع جنسية في الطفولة، بعكس ما هو معروف عن الطفولة البريئة.

وليس التحليل النفسي أوَّل من كشف عن هذه الحقيقة، فقد كان دوره بالنسبة لها كدوره بالنسبة للاشعور كما سبق أن ذكرنا. ومن الإنصاف لفرويد

أن نعلم أنَّه كان من التواضع والموضوعية بحيث لم يدَّعِ لنفسه كشفاً علم أن غيره سبقه إليه، بل كان يبين بكل تواضع أنَّ دوره في مثل هذه الحالات لم يكن أكثر من دور من يقرر شيئاً سبق اكتشافه ويقيم الدليل عليه ويعمِّقه ببحوثه ودراساته. وفي هذا الصدد يقول فرويد: «وسأحدثكم الآن عن أوضح ما يبدو من أوجه النشاط الجنسي عند الطفل.. إنَّ أوجه النشاط الجنسي عند الرضيع تفتح للتأويلات ميداناً لا حد له كما سترون في غير عناء. ولا شكَّ في أنَّها ستكون مثاراً لاعتراضات منكم... إنَّ المظاهر الأولى التي تبدو بها الجنسية عند الرضيع، تتصل بوظائف أخرى حيوية هامة. فالرضيع كما تعرفون ينصب اهتمامه الرئيسي على الرضاعة حتى إذا نال حظاً موفوراً منها فأخذه النوم على صدر أمه، بدت عليه من أمارات الرضا والارتياح ما سوف تبدو لديه فيما بعد من حياته حين يقضي لبانته من الإشباع الجنسي على أنَّ هذه الظاهرة لا تكفي أن تكون أساساً تبنى عليه نتيجة. لكن المشاهد المعروف أنَّ الرضيع ينزع دائماً إلى أن يكرر الحركات التي تقترن عادة بعملية الرضع، لا لأنَّه في حاجة إلى التغذية بالفعل، بل لمجرد القيام بهذه الحركات، فنقول عنه في هذه الحالة إنَّه «يتمصمص». وإنَّه ليمضي في فعله هذا حتى يحتويه النوم مرَّة أخرى هانئاً مغتبطاً، مما يحملنا على أن نرى أنَّه يجد في هذا التمصمص، في ذاته لذَّة وسروراً وسرعان ما ينتهي به الأمر ألا يستطيع النوم دون أن يتمصمص. لقد كان الدكتور لندنر Lindner طبيب الأطفال ببودابست أول من أكد الطبيعة الجنسية لهذه العملية» (٥ ـ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

٣ ـ كثيراً ما يؤخذ على التحليل النفسي أنَّه يعزو كل سلوك الإنسان إلى الدافع الجنسي وحده، حتى أحلام الإنسان ومرضه النفسي.

وهذا الانتقاد يتضح فيه الافتراء على التحليل النفسي أو الجهل بما قال به. ففرويد كما نعلم أبرز دور الجنس، لكنه لم يقل بأنَّه الدافع الوحيد عند الإنسان بل أضاف إليه دافعاً في مثل قوَّته هو دافع العدوان. وفي كتابه «ما وراء مبدأ اللذة» أوضح فرويد نظريته في الغرائز وأقرَّ بوجود غريزتين

أساسيتين هما غريزة الجنس وغريزة العدوان. ومن الضروري أن نعلم أنَّ فرويد لم يقصد بغريزة الجنس أو الحب ذلك الجنس أو الحب بمغناه الضيِّق الشائع بين غير ذوي الاختصاص بل قصده بمفهومه الواسع الذي يشمل كافة نزعات الحب والبناء والرغبة في المحافظة على الذات وعلى الآخرين وإسداء المعونة والمساعدة لهم: في حين أنَّ غريزة العدوان تشمل كافة النزعات التي تهدف إلى الإضرار بالذات وبالآخرين والاعتداء عليهم والكراهية لهم. هذا علاوة على أنَّ التحليل النفسي قد أكَّد على أنَّ السلوك الواحد نادراً ما يكون صادراً عن غريزة الحب وحدها أو العدوان وحدها، بل غالباً ما يكون صادراً عن مزيج من الدافعين معاً وإن تفاوت وزن كل منهما في كل حالة عن الأخرى.

وهكذا، فإنَّ التحليل النفسي لم يقل بوجود دافع واحد أو غريزة واحدة بل قال بعدد غير محدود من النزعات الغريزية التي يمكن في نهاية الأمر تجميعها في غريزة الجنس (أو الحب أو الحياة) وغريزة العدوان (أو التدمير أو الموت). والنظرة الفاحصة المتأنية ستثبت لنا إمكانية إدخال أي نزعة إنسانية تحت واحدة من هاتين الغريزتين. كما أنَّ نظرة شاملة لما يحدث في عالمنا اليوم وحدث فيه بالأمس من انتشار للتوتر والحروب بين الجيران وغير الجيران من الدول، وتعرض العالم لحربين طاحنتين خلال ربع قرن من الزمان، وفشل محادثات نزع السلاح، واستنزاف الدول الغنية المستمر لاقتصاديات الدول الفقيرة، كل ذلك ولا شكَّ يؤكد أنَّ التحليل النفسي على حق في نظرياته الخاصة بما تنطوي عليه النفس البشرية من نزعات ودوافع عدوانية إلى جانب نزعات الحب والبناء فيها. والتحليل النفسي عندما يكشف الغطاء عن حقيقة ما يعتمل داخل النفس البشرية من نزعات، لا يدعو بذلك ـ كما قد يفهم البعض ـ إلى الاستهتار بالقيم الخلقية، بل هو يمد هذه القيم بأساسها العلمي وينير لها الطريق نحو فهم أفضل، وبالتالي نحو سياسة أفضل لهذه النزعات وتلك الدوافع.

أما ما ورد في هذا الانتقاد عن الأحلام - فيقول عنه فرويد: «إلاَّ أنني مع ذلك لم أقرر قط ما نسب إليَّ من أنَّ تفسير الأحلام يبيِّن أنَّ لجميعها مضموناً جنسياً أو أنَّها جميعاً صادرة عن قوى دافعة جنسية. فمن اليسير أن نتبين أنَّ الجوع، أو العطش، أو الحاجة إلى الإفراز، قد تنتج أحلام إشباع شأن أي دافع . . جنسي أو أناني». (٨ - ص ٥٣).

٤ - يعيب البعض على التحليل النفسي أنَّه يهمل دور العوامل البيئية، في حين يعيب عليه آخرون أنَّه يهمل دور العوامل الوراثية.

ومن الطريف أنَّ هذين النقدين اللذين جمعنا بينهما الآن على تناقضهما، يثبتان مغالاة نقَّاد فرويد والتحليل النفسي فيما يذهبون إليه من نقد، حتى أنَّه عندما يثبت دور العامل البيئي في موقف سارعوا إلى اتِّهامه بإهمال العامل الوراثي، وعندما يثبت دور العامل الوراثي في موقف آخر سارعوا إلى اتِّهامه بإهمال العامل البيئي. والواقع أنَّ فرويد والتحليل النفسي، بل وأي نظرية أخرى إذا ما أثبتت شيئاً فليس معنى ذلك أنَّها لا بدَّ وأن تنفي الشيء الآخر ما لم تقل النظرية صراحة بذلك، وإلاَّ كنَّا نتقول عليها. وفي محاضرته الثالثة والعشرين بعنوان «كيف تتكون الأعراض» يوضح فرويد بما لا يدع مجالاً للشك إيمانه بتأثير كل من العامل الوراثي والعامل البيئي في الشخصية. ويشرح ذلك فيما يعرف بسلاسل التتام (بمعنى حدوث تتام بين العامل الوراثي والعامل البيئي في إحداث المرض النفسي، فإذا كان أحدهما ذا تأثير كبير فإنَّ الآخر يؤثر حتى لو كان تأثيره ضعيفاً نسبياً). وفي هذه المحاضرة يقول فرويد: «وعلى هذا فتثبيت الليبدو لدى الراشد الكبير - وقد أشرنا إلى أنَّه يمثِّل العامل الجبلي في نشأة الأمراض النفسية - يمكن أن نردُّه الآن إلى عاملين آخرين. الاستعداد الموروث من جهة، والاستعداد المكتسب في الطفولة المبكرة من جهة أخرى. .» (٥ - ص ٤٠٠). وفيما سبق أن ذكرناه من تعليق للدكتور سامي محمود علي عن اللاشعور توضيح جيد لرأي التحليل النفسي في أهمية كل من دور الوراثة ودور البيئة معاً حيث

يقول: «ويمكن القول عامة بأنَّ موضوع التحليل النفسي ليس هو الشعور واللاشعور بل هو الإنسان في شمول إنسانيته من حيث هو وحدة بيولوجية اجتماعية ذات تاريخ» ومن الواضح أنَّ التحليل النفسي في هذا يتّفق وأدق النظريات العلمية السائدة الآن عن تعليل الفروق بين الأفراد بإرجاعها إلى تفاعل تأثير كل من الوراثة والبيئة معاً على الفرد الواحد.

٥ ـ يعترض البعض على كشوف التحليل النفسي التي يرى فيها الشخصية متضمنة لدوافع متناقضة وجوانب متصارعة هي دوافع وجانب الهو ـ والأنا ـ والأنا الأعلى، بينما فكرة التناقض داخل الكيان الواحد لا تتفق مع المنطق.

إنَّ فكرة الصراع والتناقض داخل الكيان الواحد أصبحت واسعة القبول والانتشار بعد أن استطاع الفكر الهيجلي وأصحاب المادية الجدلية التدليل على صدقها هذا علاوة على أنَّ كل من أتيحت له فرصة لتحليل بعض جوانب نفسه ونفوس الآخرين يتبين بوضوح انطواء النفس على هذا التناقض حتى على المستوى الشعوري نفسه، تماماً كما تنطوي دينامية الإنسان البيولوجية على العمليتين المتناقضتين الشهيرتين، أعني بهما عملية الهدم وعملية البناء. إذن ففكرة التناقض داخل النفس الواحدة واحتوائها على دوافع وجوانب متصارعة فكرة مقبولة في حد ذاتها، مؤيدة من الخبرة المباشرة بما لا يدع مجالاً للشك. أمَّا فكرة عدد هذه الدوافع المتناقضة ومسمياتها وعدد جوانب النفس المتصارعة ومسمياتها، وما إلى ذلك من أمور تفصيلية تتعلَّق بالصراع والتناقض فيمكن أن يختلف عليها من شاء، فهي فروض أقرب للفروض الفلسفية التي تعين على الفهم دون أن تقيده. وبهذا الصدد يقول فرويد: «وفي المؤلفات التي تمَّت في الأعوام التالية (ما فوق مبدأ اللذة، نفسية الجماعة وتحليل الأنا، الأنا والهو)، أطلقت العنان للميل إلى التفلسف الذي كبحته زمناً طويلاً، وأعملت فكري في حل لمشكلة الغرائز..» (٨ ـ ص ٦٨) كما قال: «ويكفي أن نذكر أنَّه بدا لي أمراً مشروعاً أن الحق

بالنظريات التي كانت تعبيراً مباشراً عن الخبرة، فروضاً غرضها أن تعيننا على تفهم الوقائع. فروضاً متعلقة بأمور لا يمكن أن تخضع للملاحظة والمباشرة. وليس هذا بدعاً فقد نهجت العلوم السابقة نفس النهج. إنَّ تقسيم اللاشعور بدوره يرتبط بمحاولة تصوير الجهاز النفسي بوصفه يأتلف من عدد من النظم الوظيفية تعبِّر عن علاقاتها المتبادلة بعبارات مكانية، دون أن يعني ذلك بطبيعة الحال أنَّه تقسيم يستند إلى التشريح الفعلي للمخ. (أطلقت على هذه الطريقة ـ في تناول الموضوع ـ الطريقة الطبوغرافية). هذه الأفكار بمثابة بناء نظري إضافي للتحليل النفسي، يمكن لأي جانب منه أن يترك أو يعدل دون خسارة أو أسف حالما نتبين عدم صلاحيته». (٨ ـ ص ٣٨ ـ ٣٩).

٦ ـ هناك انتقاد آخر يشيع بين كثير من المفكرين والمثقفين بدعوى أنَّ التحليل النفسي علم مثالي يهمل شأن المادية الجدلية في الحياة النفسية.

إن الافتراء على التحليل النفسي ووصمه بالمثالية لإهماله تأثير العامل الاقتصادي على البناء النفسي للإنسان مردُّه إلى عدم استقامة فهم كل من المادية والمثالية. فليس صحيحاً أنَّ النظرية المادية تهمل كل عامل إلاَّ العامل الاقتصادي، وإن كانت تعطيه بلا شك أهمية أكبر من غيره، لكن ليس بمعنى إهمال كل شيء ما عداه وإنكاره. ففي مقال الدكتور عابد الجابري (أحد أتباع المادية الجدلية بالمغرب) عن «التاريخ والفلسفة» يقول: «فالشيء المادي لم يعد جسماً صغيراً كحبة الرمل، بل أصبح نشاطاً وطاقة... إنَّ التصنيف المشهور الذي ألحَّ عليه أنجلز والذي يقسم الآراء والنظريات إلى مثالية ومادية صحيح إذا أخذناه كأداة منهجية. ولكن إعطاء مضمون ما للمثالية أو للمادية يجب أن نعتمد فيه على المرحلة التاريخية والأهداف الأيديولوجية، فما نسميه بالنزعة المثالية قد تكون تقدمية تخدم أهداف المستقبل والطبقات المحرومة وقد تكون رجعية تخدم الأيديولوجيا الاستغلالية وذلك حسب اختلاف الظروف والملابسات التاريخية والاجتماعية وكذلك

الشأن بالنسبة للنزعة المادية، (ص ١٣ ـ ٢١، ٢٣، ٢٤) ويقول بعد ذلك في نفس المقال. «وفي هذا المجال يجب أن نعطي للدين كعقيدة تغلغلت في صفوف الجماهير حتى أصبحت قوَّة مادية مكتسحة الدور الذي يستحقه في أحداث التاريخ الإسلامي ومسلسل تطوره. ويجب ألَّا نغفل دور الدين بدعوى تجنب السقوط في المثالية فهذا كلام فارغ وشعار أجوف» (١٣ ـ ص ٢٦).

ولكي تستكمل مناقشة هذا النقد للتحليل النفسي يحسن أن نلجأ إلى ما قاله فرويد نفسه عن المادية الجدلية (الماركسية) في محاضرته الخامسة والثلاثين التي عنوانها «النظرة إلى الكون». بعد أن يعترف فرويد صراحة بأسفه لقصور معرفته بالماركسية يقول: «إنَّ بحوث (كارل ماركس) في البناء الاقتصادي للمجتمع، وفي تأثير الأشكال المختلفة للتنظيم الاقتصادي في كل أقطار الحياة الإنسانية قد أصبح لها اليوم نفوذ لا يمكن أن يجحد... من الجلي أنَّ قوَّة المذهب الماركسي لا تقوم على نظرته إلى التاريخ أو على التنبؤات المستقبلية التي يبنيها على هذه النظرة، بل على إدراكه الواضح لفعل الظروف الاقتصادية وتأثيرها الحاسم في الإنتاج الفكري والفني والخلقي للإنسان. وهكذا أميط اللثام عن طائفة بأثرها من الصلات والتتابعات العلية التي كادت تكون مجهولة إلى هذا العهد. غير أنَّه لا يمكن التسلم بأنَّ الدوافع الاقتصادية هي الدوافع الوحيدة التي تحتم سلوك الناس في المجتمع. فمما لا مراء فيه أنَّ مختلف الأفراد والشعوب والسلالات لا يكون سلوكها واحداً في نفس الظروف الاقتصادية. وهذه حقيقة تبرهن بذاتها على أنَّ العامل ـ الاقتصادي لا يمكن أن يكون العامل الحاسم الوحيد، بل المحال أن نفهم كيف يغض النظر عن العوامل النفسية حين يتعلَّق الأمر باستجابات كائنات بشرية حيَّة، لأنَّ العوامل لا تساهم في إقامة الظروف الاقتصادية فحسب، بل تحدِّد كذلك أفعال الناس، فالإنسان لا يستطيع أن يعمل، حتى وهو يمتثل لهذه الظروف، إلَّا بدافع من نزعاته الغريزية: كغريزة المحافظة على النفس، وحب العدوان، والحاجة إلى الحب، هذا إلى ما

لديه من دافع إلى التماس للذة وتفادي الألم. .» (٦ ـ ص ١٦٧، ١٦٩).

ومن أقوال فرويد هذه وتعليقاته على الماركسية يتبين بوضوح تقدير فرويد واعترافه بأهمية العامل الاقتصادي في توجيه السلوك وتشكيل سمات الشخصية، لكنه ينكر أن يكون هو العامل الوحيد. «ومن الإنصاف لماركس أن نقرر أنَّ ما يأخذه فرويد عليه من إغفال دوافع الإنسان الغريزية يمكن الإجابة عنه بقول ماركس: (إنني لست ماركسياً) وهو يعني بذلك من غير شك أنَّ باب الاجتهاد لم يقفل ولا ينبغي له أن يقفل. ومن الإنصاف للماركسيين أن نذكر أنَّ بعض فلاسفتهم المعاصرين فطنوا لذلك وأخص بالذكر هربارت ماركيوز وبخاصة في كتابه (إيروس والحضارة)» (١٧ ـ ص ١٠) وفيما نقلناه سابقاً عن الدكتور عابد الجابزي ما يدعم نفس الرأي.

وإذا كانت الأقدار قد شاءت أن تكون النظرية الماركسية سابقة على فرويد مما أتاح له فرصة إبداء رأيه فيها ـ على نحو ما سبق ـ فماذا يا ترى كان رأي ماركس في نظرية التحليل النفسي فيما لو شاءت الأقدار عكس ذلك فكان فرويد بنظريته في التحليل النفسي أسبق تاريخياً أو معاصراً لماركس!

ومع كل هذا فإنَّه« من الطريف أن نذكر أنَّ فرويد كان مادياً جدلياً بمعنى خاص عندما سجّل في حقل كشوفه الصراع بين الرغبة والدفاع، (وهما طاقات بيولوجية أي مادية) والتسوية الموفقة بينهما (جماع الأطروحة) فتكون الصحة أو التسوية غير الموفقة فيكون المرض». (١٧ ـ ص ٩ ـ ١٠) ولمزيد من التفاصيل حول هذا الأمر نحيل القارىء إلى أوسبورن في كتابه «الماركسية والتحليل النفسي» وإلى الدكتور أحمد فائق في كتابه «التحليل النفسي بين العلم والفلسفة»[١].

٧ ـ هناك انتقاد آخر يوجه إلى شخصية فرويد بشكل مباشر، وإن قصدت به أيضاً مكتشفاته وآراؤه بشكل غير مباشر، هذا الانتقاد هو ادّعاء

البعض أنَّ فرويد كان مولعاً بابتداع الأفكار الغريبة وترويجها حباً للظهور، كما كان مستبداً برأيه جامداً عليه يضيق بمن يعارضه أشد الضيق حتى أنَّه لم يبق له في النهاية من تلاميذه وزملائه إلَّا من ارتضوا السير وفق هواه وتبني أفكاره.

ومن الإنصاف لفرويد أن نقرر أنَّ تاريخه مع اكتشاف التحليل النفسي وما عرض له من قضايا وما كتبه في مؤلفاته يقوم دليلاً واضحاً على بطلان هذا النقد. فلقد كان فرويد من التواضع العلمي الذي جعله يرجع الكثير من مكتشفاته الهامة إلى غيره ويصحح اعتقاد الناس الخاطىء بأنَّه أوَّل من اكتشفها، وأكتفي بإيراد مثلين فقط على ما أقول: أمَّا أولهما فيتعلق بحديث فرويد عن وجود معنى في أعراض الأمراض النفسية حيث يقول: «لقد كان بروير Breuer أوَّل من كشف عن معنى الأعراض العصابية في دراسته وعلاجه الناجح لحالة هستريا أصبحت من الحالات الشهيرة التي يشار إليها منذ ذلك الحين (عام ١٨٨٠ ـ ١٨٨٢)، والحق أنَّ جانيه Janet قد ظفر بهذا الكشف نفسه مستقلاً عن بروير، بل لقد كان لهذا العالم الفرنسي أسبقية النشر، لأنَّ بروير لم ينشر ملاحظته إلَّا بعد أكثر من عشر سنوات (عام ١٨٩٣ ـ ٩٥) يوم كنَّا نعمل معاً، ولا يعنينا كثيراً أن نعرف إلى من ينتمي هذا الكشف. فكل كشف يصنع أكثر من مرة، وليس ثمَّة كشف صيغ كله دفعة واحدة، والنجاح لا يعزى دائماً إلى من يستحقه فأمريكا لم تسم باسم مكتشفيها كولومبس. وقبل بروير وجانيه صرَّح لوريه Leuret الطبيب العقلي العظيم بأنَّه من الممكن أن نقع على معنى حتى في أهجسة المجانين، إذا عرفنا كيف نترجمها. (٥ ـ ص ٢٨٥) وأمَّا المثل الثاني فنقتطفه من أقوال فرويد عندما يتعرَّض للحديث عن الرمزية التي يستخدمها الحلم في التعبير حيث يقول: «الرمزية ليست وقفاً على الأحلام وحدها، وليست خاصة مقصورة عليها دون غيرها. . . الرمزية في الأحلام ليست من كشوف التحليل النفسي. ولو أنَّ هذا العلم لم يقصر، في الحق، عن الإتيان بكشوف رائعة. فإذا أردنا أن ننسب هذا الكشف إلى صاحبه في العصر الحديث فإنَّ صاحبه

هو الفيلسوف شرنر Scherner (١٨٦١). وقد جاء التحليل فعزز هذا الكشف وأيّده». (٥ ـ ص ١٥٨).

هذان مثالان من أمثلة كثيرة تنتشر في كتابات فرويد ينفي فيها عن التحليل النفسي سبقه إلى اكتشاف كثير من القضايا الهامة التي يظن أنّها من اكتشافه ويذكر بكل تواضع أنّه لو كان له من فضل فهو مجرد تعزيزها وإقامة الدلائل على صدقها من واقع خبراته الإكلينيكية والتحليلية. وما سبق أن ذكرناه عن القول باللاشعور وبالجنسية الطفلية يؤيد ذلك، إذ يرجع اكتشاف اللاشعور والحديث عنه إلى الفلاسفة السابقين على فرويد، ويرجع أوّل كشف للجنسية الطفلية إلى الدكتور لندنر. فلو كان فرويد يسعى إلى شهرة أو ظهور لأيّد سبق التحليل النفسي إلى اكتشاف كل ذلك أو على الأقل تغاضى عن تصحيح أفكار الناس عن حقيقة مكتشفيها. إنّ من يسعى للظهور والشهرة غالباً ما يفضل أن تكون شهرة طيبة تجلب له الكسب ورفعة الشأن، لكن تاريخ فرويد في بدء إقامته للتحليل النفسي يثبت أنّ نتيجة تمسكه بما آمن بصدقه من قضايا أدّت إليها بحوثه قد جلب على نفسه الاستهزاء والسخرية وسوء السمعة بين زملائه ووسط مجتمعه لفترة طويلة. لكن صلابته وجرأته جعلته يواصل طريقه غير عابىء بأية مضايقات أو خسائر في طريقه لاستكمال كشف خبايا النفس الإنسانية، فتحقق له ذلك.

أمّا تمسكه برأيه وجموده عليه، فلم يكن إلاّ تمسك الشخص الذي يعتقد بصدق ما يتمسك به، حتى إذا تبين له زيفه تخلّى عنه إلى الحق. وقصّة اكتشاف التحليل النفسي وإقامة قضاياه وتطويرها يثبت ذلك بشكل واضح. فما كان فرويد يكابر بالمعنى في رأي سبق أن نادى به ثبت له من بعد عدم استقامته. ولذلك كان فرويد يراجع قضاياه في ضوء ما تؤدي إليه خبرته الجديدة من إضافات وتعديلات. والتعديلات التي أدخلها في نظريته عن الجهاز النفسي وعن الغرائز (حوالي ١٩٢٠). تثبت ذلك، مع أنّه كان يعي أنّ خصومه قد يستخدمون تعديلاته سلاحاً لنقده، إلاّ أنّه ما كان يأبه إلاّ

بالسعي وراء اكتشاف الحقيقة وتقريرها. ويبدو أنَّ جرأة فرويد في هتك ستار النفس، وكشف زيف الشعور وسوءات ما يختفي من ورائه جعلته كمن يأتي العامة بخبر سيء فإذا بهم يغضبون من الخبر ثمَّ يزيحون هذا الغضب (وفق ميكانيزم الإزاحة في التحليل النفسي) دون وعي إلى الشخص الذي لم يكن له من ذنب سوى حمل الخبر. وبهذا الصدد يقول فرويد: «عيب دائماً على التحليل النفسي نقصه وعدم اكتماله، مع أنَّه من الواضح أنَّ علماً يقوم على أساس الملاحظة ليس أمامه إلَّا أن ينجز كشوفه جزءاً جزءاً، ويحل مشاكله خطوة خطوة منعت عنها زمناً طويلاً، اتهمت نظرية التحليل النفسي بأنَّها (ترى الجنسية في كل شيء). وعندما أكَّدت أمراً طال إغفاله، هو أهمية الدور الذي تلعبه المشاعر التي تعرض في الطفولة الباكرة، قيل لي إنَّ التحليل النفسي ينكر العوامل الخلقية والوراثية ـ الأمر الذي لم يخطر ببالي قط. لقد كان الأمر مجرَّد معارضة بأي ثمن وبأي طريقة». (٨ ـ ص ٦٨).

هذا، ولعلَّ من المناسب قبل أن نختم هذا المقال أن نورد فقرة كتبها هول ولندزي في كتابهما القيِّم «نظريات الشخصية» عندما تعرضا لفرويد محاولين تقييم منهجه ومكتشفاته فقالا: «غير أنَّه من الخطأ الجسيم القول بأنَّ أقوال المرضى تحت العلاج كانت هي المقومات الوحيدة التي صاغ منها فرويد نظرياته. إذ مما لا شكَّ فيه أنَّه لا يقل أهمية عن هذه المعطيات الخام، الاتجاه النقدي الصارم الذي اصطنعه فرويد في تحليل التداعي الطليق لمرضاه ويمكننا اليوم أن نقول إنَّه حلَّل مادته الخام باستخدام منهج الثبات الداخلي. فالاستنتاجات التي يستخلصها من جزء من المادة يقارنها بالدلائل المؤيدة التي تظهر في الأجزاء الأخرى، بحيث تكون الاستنتاجات النهائية المستخلصة من حالة ما مبنية على شبكة متداخلة من الوقائع والاستنتاجات. إنَّ فرويد كان يواصل عمله بنفس طريقة المخبر السري الذي يجمع الشواهد أو المحامي الذي يعرض الحالة على المحلفين. فلا بدَّ من أن يأتلف كل شيء بعضه مع البعض الآخر بصورة متماسكة قبل أن يرضى

عنه فرويد ويحس بأنَّه قد وضع إصبعه على التفسير الصحيح. وعلينا أن نتذكر بالإضافة إلى هذا أنَّ المادة التي تنتجها حالة واحدة تشاهد خمس ساعات في الأسبوع لفترة قد تطول إلى عامين أو ثلاثة هي على قدر هائل من الضخامة وأنَّ فرويد كانت تتاح له فرصة ضخمة ليتيقن ويعاود التيقن من صحة استنتاجاته عشرات المرات قبل أن يقرر التفسير النهائي. وعلى العكس من ذلك نجد أنَّ المفحوص في التجربة السيكولوجية التقليدية التي تتم في ظروف مضبوطة يفحص أو يختبر لفترة لا تزيد في المتوسط على ساعة أو ساعتين. ومما لا شكَّ فيه أنَّ إسهامين من أهم إسهامات فرويد في استراتيجية البحث هما الدراسة المتعمقة لحالة واحدة واستخدام طريقة الثبات الداخلي لاختبار الفروض. (١٩ ـ ص ٨١).

خاتمة:

خصَّصنا هذا المقال لمناقشة أبرز الانتقادات والافتراءات التي وجِّهت ولا تزال إلى التحليل النفسي ورائد مدرسته سيجموند فرويد، سواء كانت من ناحية المنهج أو من ناحية الاستنتاجات والقضايا التي أثبتها التحليل النفسي. وكما عرضنا يتبين أنَّ هذه الانتقادات وتلك الافتراءات لم تقم على أساس سليم من الموضوعية. لقد قامت في جانب منها على فهم خاطىء لكثير من المفاهيم التي انطلقت منها كمفهوم المنهج العلمي (كمنهج واحد جامد لا يتنوع باختلاف طبيعية الظواهر المدروسة). وكمفهوم المادية في مقابل المثالية. كما قامت هذه الانتقادات وتلك الافتراءات في جانب ثانٍ منها على جهل أو عدم فهم لما قال به وكتبه فرويد والمحللون النفسيون. والأخطر من ذلك أنَّها قامت في جانب ثالث منها على مكابرة عنيدة، أو سوء نية واعية أو غير واعية، وإيثاراً للسلامة، وحفاظاً على فكرة الكمال والسمو التي يلذُّ للإنسان أن يظل متصفاً بها.

وفي رأينا أنَّ الهجوم والافتراء على التحليل النفسي بهذه الكيفية لا يخدم قضية العلم الإنساني في شيء، بل يهدف إلى تقويض الشرعية العلمية

التي اكتسبها التحليل النفسي، وبالتالي حرمان المعرفة الإنسانية من فرع علمي جريء اخترق النفس البشرية اختراقاً جريئاً فكشف عن أعماقها، وحرَّرها من جهالتها، ووضعها في مواجهة صريحة مع حقيقتها. وليس تقبل الحقيقة بالأمر السهل على الإنسان. ويكفي أن نقرأ في تاريخ العلم والعلماء لنعرف كيف كانت مجتمعاتهم تجابههم بنوع من الغضب العنيف الذي وصل إلى حد إعدام بعضهم حرقاً ونفي أو سجن أو عقاب الكثيرين منهم مع الاستهزاء والسخرية بمكتشفاتهم ونتائجهم، بمثل ما حدث في العصور الوسطى.

وكيفما كان الأمر، فقد أثبت التحليل النفسي فاعليته وتأثيره فهو يطبع الثقافة الإنسانية في عالم اليوم - على اتساعها - شئنا أم أبينا وما كان ليتاح له ذلك لولا أنَّ الاختبار المستمر لقضاياه الأساسية يثبت صدقها وواقعيتها وموضوعيتها يوماً بعد الآخر.

المـــراجع

١ ـ دكتور أحمد فـائق: التحليل النفسي بين العلم والفلسفـة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧.

٢ ـ أيزنك: الحقيقة والوهم في علم النفس. ترجمة الدكتور قدري حفني والدكتور رؤوف نظمي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩.

٣ ـ دانيـيل لاجاش: المجمل في التحليل النفسي، ترجمة الدكتور مصطفى زيور وعبد السلام القفاش، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧.

٤ ـ دكتور سامي محمود علي: ثبت المصطلحات الواردة في نهاية ترجمة «الموجز في التحليل النفسي»، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢.

٥ ـ فرويد، سيجموند: محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، ترجمة الدكتور أحمد عزت راجح، مراجعة محمد فتحي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٦.

٦ ـ فرويد، سيجموند: محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي، ترجمة الدكتور أحمد عزّت راجح، مراجعة الأستاذ محمد فتحي، مكتبة مصر، القاهرة.

٧ ـ فرويد، سيجموند: الموجز في التحليل النفسي، ترجمة الدكتور سامي محمود علي وعبد السلام القفاش، مراجعة الدكتور مصطفى زيور، دار المعارف القاهرة ـ ١٩٦٢.

٨ ـ فرويد، سيجموند: حياتي والتحليل النفسي، ترجمة الدكتور مصطفى زيور والدكتور عبد المنعم المليجي، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧.

٩ ـ دكتور فرج عبد القادر طه: تحليل الفرد باستخدام المقابلة، في قراءات في علم النفس الصناعي والتنظيمي ـ القاهرة ـ الجهاز المركزي للكتب الجامعية ـ ١٩٧٨.

١٠ ـ دكتور فرج عبد القادر طه: العلاقة بين الإصابات في الصناعة والصفحة النفسية للذكاء، المجلة الاجتماعية القومية، مجلد، ٦ عدد ٣، القاهرة، ١٩٦٩.

١١ ـ دكتور فرج عبد القادر طه: سيكلوجية العامل المشكل في الصناعة، المجلة الاجتماعية القومية، مجلد ٩، عدد ٢، القاهرة ١٩٧٢.

١٢ ـ دكتور محمد عابد الجابري: التاريخ والفلسفة، السلسلة الجديدة من: أقلام، عدد ٣، الدار البيضاء، ١٩٧٦.

١٣ ـ دكتور محمد عابد الجابري: التاريخ والفلسفة، السلسلة الجديدة من: أقلام، عدد ٣، الدار البيضاء، ١٩٧٦.

١٤ ـ دكتور محمود قاسم: المنطق الحديث ومناهج البحث، دار المعارف: القاهرة، ١٩٧٠.

١٥ ـ دكتور مصطفى زيور: في التحليل النفسي، محاضرات إذاعية ـ القاهرة.

١٦ ـ دكتور مصطفى زيور: تصدير ترجمة «حياتي والتحليل النفسي» دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧.

١٧ ـ دكتور مصطفى زيور: تصدير ترجمة «الماركسية والتحليل النفسي»، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢.

١٨ ـ دكتور مصطفى زيور: تقديم «انحراف الأحداث»، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١.

١٩ ـ هول ولندزي: نظريات الشخصية، ترجمة الدكاترة فرج أحمد فرج وقدري محمود حنفي ولطفي محمد فطيم، مراجعة الدكتور لويس كامل مليكه، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١.

٢٠ ـ **Barratt, P,** Bases Of Psychological Methods, John Wiley And Sons, 1971.

٢١ ـ **Bernal, J,** Science In History (Vol. 4), A Pelican Book, (Penguin Books), 1969.

٢٢ ـ **Durant, W,** The History Of Philosophy, Boek et Books, New York, 1976.

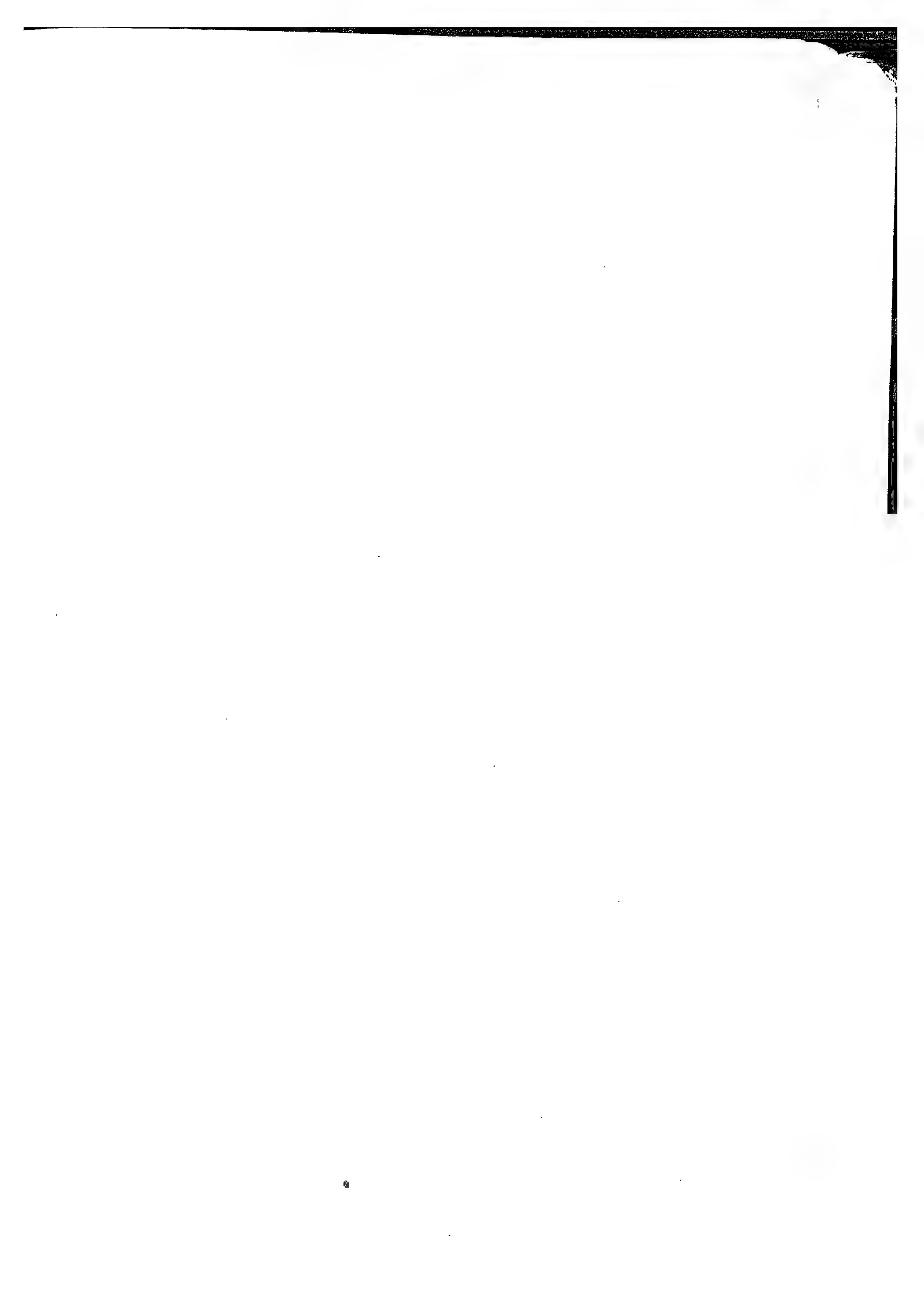
٢٣ ـ **Nell, A,** Theories Of Psychology, University Of London Press Ltd, 1971.

الفصل الثالث

علم النفس وقضية التنمية(*)

* تمهيد.
* تنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها.
* الاستفادة المثلى من إمكانيات الشخصية وطاقاتها.
* الحفاظ على إمكانيات الشخصية وطاقاتها واستعادتها إذا اضطربت.
* علاج المشكلات الاجتماعية العامة والوقاية منها.
* خاتمة.

(*) نشر هذا البحث في مجلة «المناهل» المغربية: مجلد ٣ - عدد ٦ - يوليو ١٩٧٦.



تمهيد:

تعتبر التنمية (بمختلف جوانبها) قضية هامة تشغل كافة المجتمعات على اختلاف المذاهب الأيديولوجية التي تتبناها وتتخذها أساساً لتنظيم النشاط والإنتاج والعلاقات فيها، بل إنَّ كثيراً من المجتمعات تتباهى بأنَّها حققت معدلات تنمية ترى أنَّها فاقت فيها غيرها أو فاقت فيها ما توقعته أو خطَّطت له، بينما نجد مجتمعات أخرى فشلت في تحقيق معدَّل التنمية الذي توقعته أو خطَّطت له تشير إلى هذا الفشل في استحياء وتجهد نفسها بحثاً عن تبرير مقبول بين أفرادها في الداخل وأصدقائها أو منافسيها في الخارج. والسبب في اهتمام المجتمعات بقضية التنمية واضح، ذلك أنَّ التنمية في نهاية الأمر تعني مزيداً من الإنتاج الذي يحتاجه المجتمع لاستهلاكه ولرفاهيته ولتصدير فائضه أو المبادلة عليه لقاء سلع أخرى يحتاجها من مجتمع آخر، كما أنَّها تعني أيضاً مزيداً من النجاح في مواجهة المشاكل الاجتماعية الهامة وحلِّها، سواء مشكلة الفقر أو مشكلة الأمية أو مشكلة البطالة.. وما إلى ذلك من مشكلات يصعب حصرها، ويضيق بنا المقام عن ذكرها.

وتقوم مختلف العلوم بمختلف فروعها بدور أساسي في تحقيق التنمية. ولا شكَّ أنَّ معدلات التنمية الهائلة في أمريكا وفي روسيا وفي الصين وفي اليابان وغيرها ما كانت لتتم لولا التقدم العلمي المذهل الذي وصلت إليه هذه البلاد والذي تبعه استخدامه التطبيقي لتحقيق التنمية. بل إنَّ أوروبا التي

تحطمت من جراء حربين عالميتين عنيفتين في أقل من ثلث قرن، ما استطاعت أن تقوم هذه القومة المذهلة في سرعتها بعد هذا التحطيم الشديد إلَّا على أساس متين من العلم واستخداماته التطبيقية. ويكفي دليلًا على ذلك سرعة نهضة ونمو كل من روسيا وألمانيا واليابان بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبعد كل التدمير الذي تعرضت له من جرائها.

وفي هذا المقال نحاول طرح الدور الذي يقوم به علم النفس كأحد العلوم المختلفة التي تتشابك في وضع الأساس العلمي للتنمية في أي مجتمع مهما كانت قيمه واتجاهاته. ونظراً لأنَّ علم النفس يتَّخذ من الشخصية الإنسانية وسلوكها موضوعه الرئيسي، ونظراً أيضاً لأنَّ التنمية تعتمد بدرجة كبيرة على نوعية وخصائص الشخصية السائدة في المجتمع الذي ينشد التنمية، فإنَّ خدمة علم النفس - في رأينا - لقضية التنمية ترتكز على منطلقات أربعة، تتعلَّق ثلاثة منها بالشخصية في حين أنَّ المنطلق الرابع ينعكس في نهاية الأمر بالتأثير عليها. أمَّا هذه المنطلقات الأربعة فإنَّنا نحددها في التالي:

١ - تنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها.
٢ - الاستفادة المثلى من إمكانيات الشخصية وطاقاتها.
٣ - الحفاظ على إمكانيات الشخصية وطاقاتها واستعادتها إذا اضطربت.
٤ - علاج المشكلات الاجتماعية العامة والوقاية منها.

ونتناول فيما يلي كلًّا من هذه المنطلقات الأربعة بشيء من التفصيل:

أولاً - تنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها:

إنَّ الشخصية الإنسانية منذ تكوينها جنيناً وطوال حياتها في حاجة مستمرة إلى الرعاية التي تحقق لها تنمية إمكانياتها وطاقاتها واستعداداتها الجسمية والعقلية والشخصية المختلفة حتى تصل إلى المستوى اللائق بما ينتظر منها في مثل مراحل حياتها وظروفها. فالرعاية الطبية والاجتماعية للمرأة

الحامل تتضمن رعاية للجنين وتهيئة أنسب الظروف لنموّه الطبيعي. كما أنَّ رعاية الأم لوليدها، ثمَّ بعد ذلك رعاية المدرسة لتلاميذها، ومن بعد رعاية مؤسسة العمل لمستخدميها ورعاية المجتمع عامة لأفراده. كلها تهدف إلى تحقيق نفس الهدف الخاص بتنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها واستعداداتها المختلفة حتى يمكنها أن تؤدي دورها وتواصله بالكفاءة اللازمة لعملية التنمية التي يستهدفها المجتمع.

ويقوم علم النفس بدور ذي قيمة كبيرة في هذا المجال. فهناك الدراسات والتوصيات الهامة الكثيرة التي يقدِّمها علماء النفس والخاصة بكيفية رعاية الأم خاصة والأسرة لأطفالها وتربيتها وتنشئتها لهم بالكيفية التي تسمح لهؤلاء الأطفال بتفتح إمكانياتهم الجسمية والعقلية والشخصية، وتحافظ على صحتهم النفسية وتغرس فيهم الفضائل الخلقية، بل إنَّ وسائل الإعلام الجادة من صحافة وإذاعة وتليفزيون كثيراً ما تعهد إلى بعض علماء النفس ومتخصصيه بإعداد المقالات والأحاديث والموضوعات والبرامج النفسية التي ترشد الآباء والأمهات وأفراد المجتمع عامة إلى كيفية تربية الأطفال وتنشئتهم، وتناول مشكلاتهم، وعلاج انحرافاتهم.

وتزخر كتب علم النفس عامة وتلك التي ألَّفها المحللون النفسيون وعلماء نفس الطفل خاصة بالبحوث والآراء التي تؤيد ما قلناه في مجال رعاية الأطفال وتنشئتهم. ولا يتسع المقام هنا إلَّا لإيراد مثلين على ذلك:

١ - في بحث شامل قامت به كمنجز Cummings (١٤ ص ٣٤) في إنجلترا نشر عام ١٩٤٤ على ٢٣٩ طفلاً بين الثانية والسابعة من العمر لدراسة الاضطرابات النفسية الشائعة بينهم، وكانوا يوجدون في دور حضانة وفي مدارس للأطفال، تبين منه أنَّ الآباء في ٣٥ حالة يمكن تصنيفهم إلى مجموعتين: مجموعة المهملين لأبنائهم ومجموعة المهتمين أكثر من اللازم (أو المنشغلين أكثر من اللازم بأبنائهم أو المفرطين في تدليل أبنائهم) كما تبين أنَّه كان يوجد فارق كبير بين أطفال المجموعتين، فأطفال الآباء

المفرطين في تدليلهم أظهروا صفات العصبية أكثر من الأطفال المهملين. بينما أظهر الأطفال المهملون صفات مضادة للمجتمع أكثر من الأطفال المدللين (مثل صفات العدوانية، والقسوة، وإدمان الكذب).

ولنا أن نتساءل: ما دلالة معلومة قد تبدو بسيطة كهذه؟ لا شكَّ أنَّ دلالتها كبيرة، وهي ذات فائدة أكبر. إنَّها تقول لنا بكل بساطة ووضوح: إذا كان لنا أن نربي أطفالاً تتحقق لهم الصحة النفسية، ويتوفرون على الخصائص اللازمة لتنشئة رجال المستقبل بما يضمن السلامة النفسية والخلو من الاضطرابات السلوكية التي تضعف الشخصية وتهد قواها وتقعدها عن أداء دورها المنتظر في عملية التنمية فلا بدَّ لنا من الاعتدال أثناء تنشئة أطفالنا بين الاهتمام والإهمال.

٢ ـ مشكلة الطفل الوحيد: من الملاحظات الشائعة أنَّ الطفل الوحيد لوالديه سواء كان ذكراً أو أنثى ـ غالباً ما تشيع فيه الإضطرابات النفسية أكثر من أقرانه. ولقد لفتت هذه الظاهرة أنظار المحللين النفسيين على وجه خاص، بسبب ميلهم إلى الغوص في أعماق العلاقات النفسية بين الأبناء والآباء وبين الأخوة بعضهم البعض، وبسبب أيضاً ما يعرض على المحللين النفسيين من حالات مرضية طلباً للعلاج سواء من الأطفال الوحيدين أو الراشدين الذين كانوا أطفالاً وحيدين.

وكنموذج لدراسات وتعليقات المحللين النفسيين على هذه الظاهرة سنكتفي بالرجوع إلى علمين من أعلام التحليل النفسي أحدهما هو بريل Brill، وهو من أوَّل وأشهر المحللين الأمريكيين الذين تتلمذوا على يد فرويد وزاملوه وصادقوه وترجموه إلى الإنجليزية، أمَّا الثانية فهي ميلاني كلاين Melanie Klein، وتعتبر من أشهر المحللات النفسيات على الإطلاق، ومؤسسة أشهر مدرسة ذات اتِّجاه تحليلي للأطفال هو العلاج باللعب بدلاً من طريقة التداعي الطليق التي لا تناسب صغار الأطفال بقدر مناسبتها للكبار.

ولنبدأ ببريل الذي أفرد فصلاً خاصاً في كتابه: «المبادىء الأساسية للتحليل النفسي» هو الفصل الحادي عشر والمعنون «الطفل الوحيد» (٨ ص ٢٥٤ - ٢٦٨).

ومما يذكره عن اضطراب الشخصية والضعف النفسي في الطفل الوحيد أنَّه يحتل مكانة خاصة في المنزل، وأنَّ الآباء سواء تعمَّدوا أو لم يتعمدوا دائماً يشبعون رغبات الطفل الوحيد ويفسدونه بالإفراط في تدليله. ويحوطونه بالرعاية والتوجيه المحكم مما يجعله يعتمد عليهم اعتماداً زائداً في تصريف أموره ويرتبط بهم ارتباطاً انفعالياً شديداً، الأمر الذي يؤدي به في نهاية الأمر إلى أن يصبح ضعيف الشخصية لا يقوى على مواجهة مواقف الحياة ومتشكلاتها مواجهة مستقلة ناضجة. هذا إلى جانب أنَّ الطفل الوحيد يكون محروماً من الأخوة الذين يدخل معهم في علاقات تعاون ومنافسة ويشاركهم مواقف معيشية تقترب في طبيعتها من مواقف الكبار، وبالتالي يحرم من التدريب على مواجهة هذه المواقف ومن تنمية مهاراته في علاجها. ولذلك فهو «لا يعرف كيف يتصرف، ولا يثق في الناس، ولا يستطيع أن ينسجم مع أحد».

أمَّا ميلاني كلاين فأثناء عرضها لحالة إرنا Erna، (١٣- ص ٣٥ - ٥٧) تلك الطفلة الوحيدة البالغة من العمر ست سنوات والتي كانت تعالجها من بعض الأعراض العصابية الشديدة، لفتت ميلاني كلاين النظر إلى أنَّ الطفل الوحيد يعاني بدرجة أكبر من القلق الذي يشعر به إزاء أخته أو أخيه الذي يتوقع وصوله دائماً، ومن إحساسه بالذنب كنتيجة لدوافع العدوان اللاشعورية التي يوجهها نحو هؤلاء الإخوة أثناء توهم وجودهم داخل الأم، لأنَّه لا توجد لديه الفرصة لتنمية علاقات إيجابية معهم في مستوى الواقع. و«هذه الحقيقة غالباً ما تجعل الأمر أكثر صعوبة على الطفل الوحيد لكي يكيف نفسه مع المجتمع».

ويمكن أن نضيف إلى كل من رأيي بريل وميلاني كلاين أنَّ الطفل بين

إخوته يتاح له أن ينفس عن مختلف انفعالاته ورغباته أثناء لعبه مع إخوته وبالتالي يتخفف منها ويجد لها إشباعاً في الواقع فلا يحبسها داخل نفسه في عملية قمع أو كبت تضر بنفسيته، وهكذا يكون أفضل حظاً من الطفل الوحيد من حيث الصحة النفسية.

وعند هذا نتساءل من جديد: ما دلالة حقيقة قد تبدو بسيطة كهذه؟ نحن لا نشك في أنَّ هذه الحقيقة على بساطتها شديدة الأهمية كبيرة النفع. إنَّها تقول لنا إنَّه يفضل دائماً لسلامة البناء النفسي للطفل، ولتنشئته بالكيفية التي تكسبه الاتزان النفسي المطلوب لكي يصبح أكثر قدرة على الإسهام في تنمية مجتمعه عند رشده، نقول أفضل لهذا الطفل ألاَّ يكون الطفل الوحيد. لكن إذا أجبرت الظروف الأبوين على أن يكون طفلهما وحيداً فلا بدَّ من اللجوء إلى الحلول البديلة مثل تهيئة صداقات وزمالات للطفل تتواجد معه لفترات طويلة يلعب معها ويختبر معها العلاقات الاجتماعية ويعبر من خلالها عن الانفعالات والدوافع التي تعتمل في داخله (مثل إلحاقه بدور الحضانة. واصطحابه كثيراً في زيارة الأسر التي يتواجد بها أطفال ليلعب معهم..). ومن جانب آخر فإنَّ مثل هؤلاء الآباء الذين لديهم الطفل الوحيد ينبغي عليهم أن يكونوا وهم يتعاملون معه على وعي بضرورة الاعتدال في الاهتمام به والاستجابة لرغباته على نحو ما ذكرناه من قبل.

وإذا كان المثلان السابقان اللذان أوردناهما كنموذج لإسهامات علم النفس في مجال تحديد الأساليب المثلى التي ينبغي على الوالدين والأسرة اتباعها في تربية الأطفال وتنشئتهم حتى يشبوا متمتعين بشخصيات ناضجة متزنة، أقدر طاقة على الإسهام في تنمية بلادها والنهوض بها، فإنَّ الأمر بالمثل أيضاً فيما يتعلَّق بإسهامات علم النفس التي تزخر بها مؤلفاته، خاصة ما تعلَّق منها بعلم نفس الطفل وبعلم النفس التربوي، والتي توضح الأساليب المثلى في توجيه التلاميذ وتعليمهم وفي إرشاد المعلمين والمسؤولين عن التعليم إلى أنسب طرق التعامل مع التلاميذ وعلاج مشكلاتهم، ورفع كفاءة

المؤسسة التعليمية في أداء رسالتها. ونظراً لأهمية دراسات وإسهامات علم النفس في هذا المجال فقد فضلنا معالجتها في فصل مستقل عن علم النفس والمدرسة. وهذه الدراسات والإسهامات تهدف أيضاً إلى تقديم التوصيات إلى المسؤولين عن التعليم لرفع كفاءته ومساعدة مؤسسة التعليم على القيام بواجبها الذي يتكامل مع واجب الأسرة في تنمية إمكانيات الشخصية ورفع طاقاتها وتحسين مستوى نضجها وكفاءتها، حتى يمكنها في نهاية الأمر القيام بدورها في عملية التنمية خير قيام.

فإذا ما انتهينا من دور الأسرة ودور مؤسسة التعليم فيما يختص بتنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها وصلنا إلى الدور الذي ستضطلع به من بعد مؤسسة العمل التي سوف تمارس الشخصية من خلالها أداء وظائفها في خدمة المجتمع وتنميته. وهو دور هام أيضاً في مجال تنمية إمكانيات الشخصية وطاقتها. ولعلَّ مؤسسات العمل ووحداته بالمجتمع تقوم بدورها هذا بشكل أوضح ما يكون فيما يعرف بالتدريب المهني، والذي تنظمه للملتحقين الجدد بالعمل أو من يريدون الالتحاق به لإكسابهم المعرفة اللازمة والمهارة المطلوبة لإنجاز العمل الذي سيكلفون به ومواجهة مشكلاته، أو الذي تنظمه للعاملين فيها بهدف رفع مستوى مهاراتهم في أداء عملهم وفي مواجهة مشكلاته أو بهدف تعلم أساليب وطرق جديدة في الإنتاج. وتخصص مؤلفات علم النفس الصناعي خاصة فصولاً توقفها على دراسات علم النفس وإسهاماته المتعلِّقة بالأساس النفسي لعملية التدريب، وتوصيات علم النفس لرفع كفاءة العملية التدريبية.

وللتدليل على ذلك نكتفي بالإشارة إلى مثل واحد كنموذج لتلك الأسس النفسية الكثيرة التي أوضحتها دراسات علم النفس وتوصياته لرفع كفاءة العملية التدريبية، ويتعلَّق بتركيز وتوزيع مدَّة التدريب. فطالما كانت برامج التدريب تحدد زمناً معيناً يقضيه العامل في التدريب فهل يكون من الأجدى لتدعيم أثر التدريب وزيادة درجة استفادة العامل منه أن يركز زمن

التدريب في فترة واحدة طويلة (أو فترات قليلة العدد طويلة المدد) أو يوزع إلى فترات كثيرة كل منها تستغرق مدّة قصيرة. إنَّ نموذج الدراسات التجريبية التي تجرى للإجابة على هذا التساؤل هو اختيار واجب يستغرق التدريب على إجادة القيام به زمناً معيناً وليكن ست ساعات على سبيل المثال، ثمَّ تكوين ثلاث مجموعات أو أربع ـ على سبيل المثال أيضاً ـ من العاملين المراد تدريبهم على إجادة القيام بهذا الواجب، ويراعى قدر الإمكان تشابه هذه المجموعات في قدراتها وإمكانياتها الشخصية. ثمَّ تجعل المجموعة الأولى تتلقى البرنامج التدريبي مكثفاً في مدَّة ست ساعات متواصلة ونجعل المجموعة الثانية تتلقى نفس برنامج التدريب في يومين متتاليين على فترتين كل منهما ثلاث ساعات. ونجعل المجموعة الثالثة تتلقى نفس البرنامج في ثلاثة أيام متتالية على ثلاث فترات كل واحدة منها ساعتان. أمَّا المجموعة الرابعة فتتلقى نفس البرنامج في ستة أيام متتالية على ست فترات كل منها ساعة واحدة. ثمَّ بعد الانتهاء من برنامج التدريب في كل مجموعة نختبر مدى استفادتها من هذا التدريب.

هذا نموذج يوضِّح الملامح العامة للدراسات التجريبية التي تجيبنا عن تساؤلنا هذا أما التفاصيل فمن البديهي أنَّها سوف تختلف من دراسة لأخرى (مثل عدد مجموعات التجربة، وعدد فترات التدريب، وطول كل فترة. . . إلخ) وتكاد تتفق نتائج الدراسات التجريبية بهذا الشأن على أنَّ التدريب الموزع يفضل التدريب المركز. ويورد لنا جون فريزر John Freser (٩ ص ٢٢١) نتائج تجربة في هذا المجال يتضح منها أنَّ الإنجاز قد ارتفع من ١٢٥ وحدة إلى ٢٦٥ بعد أن قسمت مدَّة التدريب من فترة واحدة طويلة إلى اثنتي عشرة فترة قصيرة. ويعلِّل فريزر ذلك بأن تقسيم مدة التدريب إلى فترات قصيرة يقلل التعب ويستحث دافع العامل أكثر نحو الإنجاز والتحصيل، ويثبت أكثر عادات العمل المفيدة. وفي دراسة لكروفورد Grawford نشرت في عام ١٩٤٧ (١٠ ص ٤٠٥) عن تدريب القوَّات الجوية، حيث كان برنامج التدريب للطيارين المقاتلين عبارة عن ألفي طلقة لإصابة هدف معين استكمل

بعض الطيارين هذه الطلقات الألفين في أربع طلعات وآخرون في خمس وغيرهم في ست ومجموعة أخرى في سبع، بينما الباقون في ثمان طلعات. فتبين من هذه الدراسة أنَّ دقَّة إصابة الهدف في نهاية التدريب، كانت تتزايد مع تزايد توزيع فترات التدريب حيث كان الطيَّارون الذين تدربوا في ثمان طلعات أفضل بأكثر من خمس مرات في استفادتهم من هذا التدريب عن زملائهم الذين تدربوا في أربع طلعات فقط.

ولا شكَّ أنَّ لهذه المعلومة النفسية البسيطة قيمة كبيرة في تخطيطنا لبرامج التدريب المختلفة لنرفع كفاءتها في إكساب المتدربين أكبر فائدة من برنامج التدريب. فهذه المعلومة توصينا بتجزئة مدَّة التدريب إلى عدد مناسب من الفترات بدلاً من تجميعها في فترة واحدة طويلة أو في عدد قليل من الفترات الطويلة، إذ يساعدنا هذا على تحقيق استفادة أكبر من برامج التدريب.

ثانياً ـ الاستفادة المثلى من إمكانيات الشخصية وطاقاتها:

إنَّ تنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها، والتي سبق أن تعرضنا لها في البند السابق لا تحقق الفائدة المرجوَّة منها إلاَّ إذ قام المجتمع عن طريق تنظيماته وهيئاته ومؤسساته المختلفة بتحقيق أفضل استفادة ممكنة من هذه الشخصية في دفع عجلة التنمية بالمجتمع. وبمعنى آخر ينبغي على المجتمع أن يقوم بتخطيط ينظم عن طريقه كيفية إسهام كل فرد في تنمية مجتمعه، ويوزع على كل شخصية الدور المناسب لها ولإمكانياتها في عملية التنمية. فهذه الشخصية المعينة التي نشأها المجتمع ونمَّى طاقاتها وتعهدها في مختلف مراحلها التي مرَّت بها أصبحت تتميز بميزات معينة وبخصائص خاصة تختلف عن غيرها. ومن ثمَّ فهي أصلح من غيرها للقيام بدور معين في عملية التنمية في حين أنَّ غيرها هذا يكون أصلح منها للقيام بدور مخالف في نفس عملية التنمية وهكذا. هذه إذن هي جوهر القضية: أن يأخذ كل

شخص الدور الأنسب له ولإمكانياته الخاصة في عملية التنمية، حتى نتوقع له أن يقوم بدوره خير قيام، فتنجح في نهاية الأمر عملية التنمية التي يستهدفها المجتمع. ويعرف المسؤولون عن سياسة التشغيل هذا الأمر بـ «وضع الشخص المناسب في المكان المناسب»، أي يشغل كل فرد الوظيفة التي تتناسب وإمكانياته الجسمية والعقلية والشخصية المختلفة. ولما كانت الوظائف تختلف فيما تتطلبه من الخصائص الجسمية والعقلية والشخصية، وكذلك الأمر أيضاً بالنسبة للأفراد حيث يختلفون فيما بينهم في هذه الخصائص، فإننا سوف نجد أنَّ شخصاً يكون أصلح من غيره لوظيفة ما، وأنَّ غير الصالح لوظيفة ما هو أصلح من يكون لوظيفة أخرى. فإذا وضعت كل شخصية في العمل الذي يتناسب وإمكانياتها وطاقاتها تحقق واحد من أهم أسباب نجاح التنمية في مجتمع من المجتمعات. ولنا أن نتصور أنَّ كل تلميذ يتعلَّم نوع التعليم الذي يناسبه (والتلمذة تعتبر وظيفة في نظر علم النفس) وأنَّ كل عامل يعمل في العمل الذي يناسبه، وأنَّ كل موظف يعمل في الوظيفة التي تناسبه، وأنَّ كل رئيس وكل مدير وكل مسؤول يعمل في نوع الرئاسة أو الإدارة أو يتحمل نوع المسؤولية التي تتناسب وإمكانياته الشخصية... أقول لو تصورنا أنَّ هذا الحادث في مجتمع ما لوصلنا إلى قناعة كبيرة بأنَّ تلاميذ هذا المجتمع سوف يحققون تفوقاً علمياً كبيراً، وأنَّ العاملين فيه سوف يحققون مستوى إنتاجياً ممتازاً. وهكذا يحقق هذا المجتمع معدلاً كبيراً في التنمية.

ويقوم علم النفس بدور كبير في «وضع الشخص المناسب في المكان المناسب» حيث يحلل نوع الدراسة أو نوع العمل لمعرفة الخصائص العقلية والشخصية اللازمة للنجاح فيه، ويدرس الفرد لمعرفة خصائصه العقلية والشخصية. وبناء على ذلك يوجه كل تلميذ لنوع الدراسة المناسب له وكل عامل لنوع العمل المناسب له، أو يختار لكل نوع من الدراسة أو الأعمال من يناسبه من التلاميذ أو العاملين.

ثالثاً ـ الحفاظ على إمكانيات الشخصية وطاقاتها واستعادتها إذا اضطربت:

من الحقائق المعروفة في علم النفس تلك التي أبرزها وتبناها علماء التحليل النفسي والقائلة بأنّ الصحة النفسية «هي القدرة على الحب والعمل». بمعنى أن أوضح علامات الصحة النفسية في الشخصية وأهمها هي قدرتها الكبيرة على أن تحب، وقدرتها العالية على العمل والإنتاج. وحقيقة، ما أحوج قضية التنمية في أي مجتمع إلى توافر هاتين الطاقتين في الشخصية طاقة الحب وطاقة العمل. فالحب يقوي الروابط بين أفراد المجتمع ومؤسساته ويزيد من تماسكه، ويقاوم النزعات التدميرية والعدوانية الموجودة بين أفراده، فينصرف الجميع كل يعمل لصالح نفسه وغيره ومجتمعه. أمّا العمل فهو لا شكّ جوهر قضية التنمية ومن أكبر عوامل تحقيقها، فليست التنمية في نهاية الأمر إلّا عائد عمل الأفراد بالدرجة الأولى. فكم من مجتمعات بسبب العمل حققت معدلات كبيرة من التنمية لا تتفق وما تتمتع به من إمكانيات وثروات طبيعية كاليابان وسويسرا وغيرهما. ولعلّ هذه بديهية لا تحتاج إلى برهنة أو دليل.

خلاصة القول إذن أنَّ هذه الشخصية التي اهتمّ المجتمع بتنمية إمكانياتها وطاقاتها في مختلف مراحل حياتها ـ جنيناً، وطفولة مبكرة وتلمذة، وعملاً ـ ووضعها المجتمع في الدراسة المناسبة أو العمل المناسب، لا بدَّ أن يتابعها المجتمع بالرعاية حتى تظل قدر المستطاع في مستوى مناسب من الصحة النفسية، فلا تتعرض للضغوط الشديدة والأزمات العنيفة التي تفقدها الكثير من اتزانها النفسي وتبدد الجزء الكبير من طاقاتها الشخصية في الصراعات النفسية، تلك الطاقات التي كان ينبغي أن تعبأ لصالح التنمية في المجتمع.

وليست هذه الحقيقة على المستوى المنطقي النظري فقط، بل هي بالمثل مؤيدة على المستوى الميداني الواقعي. ففي الدراسات التي قام بها المتخصصون في علم النفس ما يدعم ذلك بدرجة كبيرة. ففي بحث ميداني

للدكتور محمود أبو النيل (٧) يتضح منه أنَّ المرضى السيكوسوماتين (المرضى النفسيون الذين تتبلور أمراضهم في أعراض جسمية) لهم سمات معروفة بأنَّها تعوق الإنتاج. وفي بحث ميداني لنا عن سيكولوجية العامل المشكل في الصناعة (العامل الذي يعتبر سلوكه معوقاً لعملية الإنتاج) (٤) تبين أنَّ العمال المشكلين تشيع بينهم الاضطرابات النفسية الخطيرة في المقارنة بزملائهم غير المشكلين. وإذا تركنا أثر الاضطراب النفسي على قدرة العامل الإنتاجية إلى مظاهر سوء التوافق المهني: مثل كثرة الحوادث التي يتورط فيها العامل ومثل كثرة غيابه عن عمله بدون عذر. فسوف نجد نفس الأثر الواضح في البحوث الميدانية. ففي دراسة لسوسن إسماعيل (١) عن علاقة مستوى القلق بغياب العمال في المجال الصناعي تبين لها وجود علاقة قوية بين مستوى القلق وأيام الغياب بدون إذن، حيث وصل معامل الارتباط بينهما إلى ٦٩٥، وكان دالاً عند مستوى ٠,٠٠١ مما يوضح أنَّ العمال الذين يعانون من قدر كبير من القلق النفسي كثيرو التغيب عن أعمالهم بدون إذن. أمَّا فارس حلمي فقد درس في بحثه الميداني (٢) عن سيكولوجية العامل المتغيب علاقة تغيب العمال الصناعيين بدون عذر بسبعة عوامل هي: مدى بعد مسافة السكن عن مكان العمل ـ الحالة الاجتماعية ـ الأجر ـ فترة العمل ـ المؤهل الدراسي ـ السن ـ سمات الشخصية، فتبين له عدم وجود علاقة أو تأثير لأي من تلك العوامل على التغيب بدون عذر عن العمل باستثناء سمات الشخصية، حيث تبين أنَّ العمال كثيري التغيب بدون عذر يتميزون بأنا ضعيف لا يقوى على التمييز بين الجوانب الموالية وتلك المعادية في مجالات الحياة، وبالتالي لا يستطيع التعامل المناسب معها أو التوافق مع العالم المحيط، كما تبين أيضاً أنَّ القلق النفسي كان يشيع بينهم بدرجة أكبر، كما كانوا يحسون أكثر بالاضطهاد وبالإحباط وبرؤية العالم المحيط على أنَّه معاد ومهدد لهم. وهذا يؤيد شيوع الاضطراب النفسي في العامل كثير الغياب عن عمله. أمَّا بالنسبة لحوادث العمل فقد تبين للدكتور قدري حنفي في دراسته الميدانية (٦) عن أثر الجمود الإدراكي والجمود الحركي

على التعرض للحوادث في الصناعة أنّ هناك علاقة واضحة بين الجمود بمظهريه الحركي والإدراكي وبين الحوادث. ونظراً للعلاقة الوثيقة بين الجمود والتوتر النفسي فإنّ هذا يشير إلى تأثير الاضطراب النفسي على رفع معدلات حوادث العمل. كما أننا قمنا بدراسة ميدانية أخرى عن علاقة الحوادث في الصناعة بالصفحة النفسية للذكاء (٣) تبين منها أنّ مستوى الذكاء لم يرتبط بحوادث العاملين في الصناعة، لكن كان نمط الصفحة النفسية للذكاء هو الذي يرتبط بالحوادث، حيث كانت تشيع فيها العلاقات التي تدل على الاضطراب النفسي بين العمال متكرري الحوادث. مما يؤيد نتائج البحث السابق وغيره من البحوث في تراث علم النفس عامة.

وإذا كانت القدرة على العمل تعتبر مظهراً أساسياً من مظاهر الصحة النفسية في الراشدين ـ على نحو ما سبق أن أوضحنا ـ فإنّ هذه الحقيقة تصدق بالمثل على الأطفال والتلاميذ في كافة مراحلهم، حيث يعتبر التحصيل الدراسي ممثلاً لقدرة التلميذ على العمل، ولهذا كثيراً ما يكون اضطراب مستوى تحصيل التلميذ وتدهوره من أوضح الدلائل على إصابته بالاضطراب النفسي، ولهذا كثيراً ما يشيع الفشل الدراسي في تاريخ الحالات التي يدرسها ويعالجها المحللون النفسيون كعرض مرتبط بالمرض النفسي لهذه الحالات كما في حالة إرنا السابق ذكرها والتي تولّت كلاين أمر علاجها. بل ذهبت ميلاني كلاين إلى حد القول بأنّ كف القدرة التعليمية لارنا (أي عدم قدرتها على التعليم على الرغم من إمكانياتها العقلية المناسبة للتعليم) كان أكثر أعراضها المرضية مقاومة للعلاج. وفي دراسة ميدانية نشرت عام ١٩٧٠ لفيلدهسن Feldhusen وزميليه درسوا فيها العلاقة بين التحصيل الدراسي وكل من السلوك العدواني والسلوك المقبول اجتماعياً (١١ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩) حددوا فيها مجموعة من التلاميذ تمثل نوعية السلوك العدواني وأخرى تمثل نوعية السلوك المقبول اجتماعياً. وبعد خمس سنوات من ذلك قاموا بعمل مقارنة بين مستوى التحصيل الدراسي في كل من

المجموعتين فاتضح أنَّ مجموعة التلاميذ العدوانيين كانت أقل في القراءة والكتابة والدراسات الاجتماعية والعلوم والرياضيات. ولما كان السلوك العدواني الذي حدَّده هؤلاء الباحثون كمعيار لاختيار مجموعة العدوانيين يمثل الاضطراب النفسي بوضوح، مثل إحداث فوضى في حجرة الدراسة، وكثرة الغضب وشدَّته، وحب السيطرة، والتأخير أو الغياب بدون عذر، والإجابة بفظاظة وبعدم احترام والكذب والسلوك المتصف بالشر، فإنَّ هذا يؤكد لنا تأثير الاضطراب النفسي على تحصيل التلميذ.

إذن نخلص إلى القول بأنَّه إذا كنَّا نسلم بضرورة الحفاظ على الصحة الجسمية للشخص في مختلف مراحل عمره وعلاج ما يضطرب منها، كما هو الواقع فعلاً حيث انتشار التأمين الصحي ومستشفيات العلاج الطبي وعياداته فإنَّه ينبغي علينا بالمثل أن نسلم بضرورة الحفاظ على الصحة النفسية للشخص في مختلف مراحل عمره وعلاج ما يضطرب منها، وعلى علم النفس تقع مسؤولية ذلك. وهو يقوم بهذه المسؤولية عن طريق مكاتب وعيادات التوجيه والإرشاد النفسي ومستشفيات العلاج النفسي، سواء منها ما هو ملحق بالمدارس والجامعات أو بالمصانع ومؤسسات الدولة أو ما هو خاص يتولاه الاختصاصيون بصفتهم الشخصية. وبذلك تحفظ الطاقة الخاصة بالفرد دون أن يبددها الاضطراب النفسي فيقوى الفرد على تأدية دوره في عملية التنمية.

رابعاً ـ علاج المشكلات الاجتماعية العامة والوقاية منها:

خصصنا بندين سابقين للحديث عن الإسهامات التي يمكن لعلم النفس تقديمها لتهيئة أفضل تكوين وتنمية ورعاية ممكنة للشخصية وطاقاتها، على اعتبار أنَّ الشخصية من أهم عناصر النجاح في تحقيق معدَّل عالٍ للتنمية في المجتمع، ولكن مع انطلاقة المجتمعات نحو التنمية تنطلق بعض المشكلات الاجتماعية أو قد تتفاقم مثل الجريمة، وانحراف الأحداث، والبغاء، وتعاطي المخدرات. وتفكك الأسرة. . . وما إلى ذلك من مظاهر

الاغتراب أو الاستلاب النفسي. وتحتاج تلك المشكلات في دراستها وعلاجها أو الوقاية منها إلى إسهامات المتخصصين في علم النفس. وكثيراً ما تنشيء المجتمعات مراكز للبحث العلمي يكون بين أهدافها دراسة مثل هذه المشكلات ومحاولة علاجها أو الوقاية منها على المستوى القومي. ومن أمثلة ذلك تلك الدراسات التي يقوم بها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بمصر، والتي يشترك فيها علماء النفس ومتخصصوه مع آخرين. وأنَّ نجاح علماء النفس في ذلك لا شكَّ مفيد في تقليل نزف الطاقة البشرية التي تتبدد هباء من جراء انتشار مثل هذه المشكلات الاجتماعية وتفاقمها، وبالتالي يحفظها لتعبأ لصالح تنمية البلاد وتقدمها.

تدريس علم النفس:

لعلَّنا انتهينا الآن إلى قناعة بأهمية علم النفس وإسهاماته التي يمكن أن يقدِّمها لفائدة المجتمع عامة ولصالح التنمية خاصة. وقبل أن ننتهي من مقالنا هذا لا بدَّ من الإشارة إلى الاعتراف المتزايد الذي يلقاه علم النفس من مختلف بلدان العالم شرقه وغربه، وإن كانت اتجاهات هذا العلم التفصيلية وتركيز مجالات اهتمامه تختلف بالضرورة من بلد لآخر تبعاً لاختلاف ما يعتنقه كل بلد من اتجاهات، وما يتعرَّض له من ظروف. فإذا كان علم النفس في أمريكا يتجه أكثر نحو الصناعة وخدمتها، فهو في روسيا يتَّجه أكثر نحو التنشئة الاجتماعية والرعاية النفسية التربوية، دون أن يعني ذاك تجاهل بقية الاهتمامات الأخرى لعلم النفس في كل من البلدين، وإنَّما يعني فقط مراكز ثقل اهتمامات العلم.

وإذا كان اهتمام أمريكا بعلم النفس ليس محل جدل، فإنَّ الاهتمام المتزايد لروسيا بعلم النفس هو حقيقة واقعة أيضاً. فقد كان يوجد بجامعة موسكو قسم لعلم النفس بكلية الفلسفة، وكنتيجة لتزايد الاهتمام والاعتراف بعلم النفس تحول هذا القسم إلى كلية كاملة لعلم النفس بجامعة موسكو منذ عام ١٩٦٦ تدرس علم النفس العام وفروعه المتخصصة المختلفة (١٢ ص

٦٤). إلى جانب أنَّ كل الجامعات في روسيا والمعاهد التربوية بها تدرس مواد علم النفس. وفي مصر ظلَّت هناك شعبة واحدة لتخصص علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس من أوائل الخمسينات حتى أواخر الستينات حيث أضيفت إليها شعبة أخرى لعلم النفس بكلية الآداب بجامعة القاهرة، ومنذ أواخر الستينات وأوائل السبعينات جاهدت هاتان الشعبتان لعلم النفس للانفصال والاستقلال استقلالاً تاماً من السنة الأولى بالجامعة ونجحتا حديثاً في هذا الانفصال والاستقلال مكونة كل منهما قسماً خاصاً بعلم النفس اعترف له في الجامعة بكامل الاستقلال من السنة الأولى للتعليم الجامعي. أمَّا تدريس مواد علم النفس فهو شائع في كافة جامعات مصر ومعاهدها التربوية.

خاتمة:

استعرضنا في هذا المقال نماذج فقط من بعض إسهامات علم النفس التي رأينا أنَّها يمكن أن تسهم بشكل جدِّي وبتأثير كبير على نجاح المجتمع في تحقيق أهداف التنمية به. وإذا كانت بلاد العالم المتقدمة تسعى نحو تحقيق أكبر استفادة ممكنة من إسهامات مختلف العلوم بما فيها علم النفس لخدمة قضايا التنمية بها فإنَّ مجتمعاتنا السائرة في طريق النمو أحوج منها لهذه الاستفادة، وبالتالي ينبغي أن تكون أحرص منها عليها.

ولعلَّ القراء قد اقتنعوا الآن بأهمية علم النفس لبلد نام كالمغرب. وتقديراً لذلك من جانب المسؤولين عن جامعة محمد الخامس، واعترافاً منهم بحاجة المغرب إلى هذا التخصص في الجامعة، فإنَّهم قد استجابوا لاقتراحنا بضرورة إنشاء شعبة خاصة بعلم النفس في كلية الآداب بالجامعة وكلَّفونا بوضع برامجها. وبالفعل تمَّ افتتاحها بالعام الجامعي (١٩٧٤ ـ ١٩٧٥) لتمد المغرب بحاجته التي ولا شك ستتزايد مع الزمن إلى متخصصين في علم النفس، يسهمون إلى جانب زملائهم من التخصصات العلمية الأخرى في دفع عجلة التنمية ببلادهم لتنطلق بأوسع خطى ممكنة.

وفي بداية العام الجامعي (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) ثار جدل شديد بين بعض أساتذة الجامعة، واشتركت فيه بعض الصحف حول حاجة المغرب إلى مثل هذا التخصص في الوقت الحاضر، وما إذا كان الصالح العام يقتضي بقاء هذا التخصص داخل الجامعة أم يقتضي إلغاءه. وفي النهاية انتصر الرأي القائل بضرورة استبقاء هذا التخصص لعلم النفس بالجامعة مع العمل على تدعيمه، لأنّه في نهاية الأمر هو الرأي الذي يساير التطور. ويتفق والمنطق.

المـــراجع

١ ـ سوسن إسماعيل عبد الهادي: العلاقة بين مستوى القلق وغياب العمال في المجال الصناعي ـ في قراءات في علم النفس الصناعي ـ للدكتور فرج عبد القادر طه ـ القاهرة ـ مكتبة سعيد رأفت ـ ١٩٧٣.

٢ ـ فارس حلمي أحمد: سيكلوجية العامل المتغيب ـ في ـ قراءات في علم النفس الصناعي السابق ذكره.

٣ ـ دكتور فرج عبد القادر طه: العلاقة بين الإصابات في الصناعة والصفحة النفسية للذكاء ـ القاهرة ـ المجلة الاجتماعية القومية ـ المجلد السادس ـ العدد الثالث ـ سبتمبر ١٩٦٩.

٤ ـ دكتور فرج عبد القادر طه: سيكلوجية العامل المشكل في الصناعة ـ القاهرة ـ المجلة الاجتماعية ـ المجلد التاسع ـ العدد الثاني ـ مايو ١٩٧٢.

٥ ـ دكتور فرج عبد القادر طه: علم النفس في مؤسسات العمل ـ الرباط ـ المناهل ـ العدد الثالث ـ يونيه ١٩٧٥.

٦ ـ دكتور قدري محمود حفني: دراسة تجريبية لأثر الجمود الإدراكي والجمود الحركي على التعرض للإصابات في الصناعة ـ في قراءات في علم النفس الصناعي السابق ذكره.

٧ ـ دكتور محمود السيد أبو النيل: علاقة الاضطرابات السيكوسوماتية بالتوافق المهني في الصناعة ـ في قراءات في علم النفس الصناعي السابق ذكره.

٨ ـ **Brill, A**; Basic Principles Of Psycho-Analysis: Simon Q. Schuster.Inc.. 1972.

٩ ـ **Frazer, J**; Psychology, Pitman Publishing; 1971.

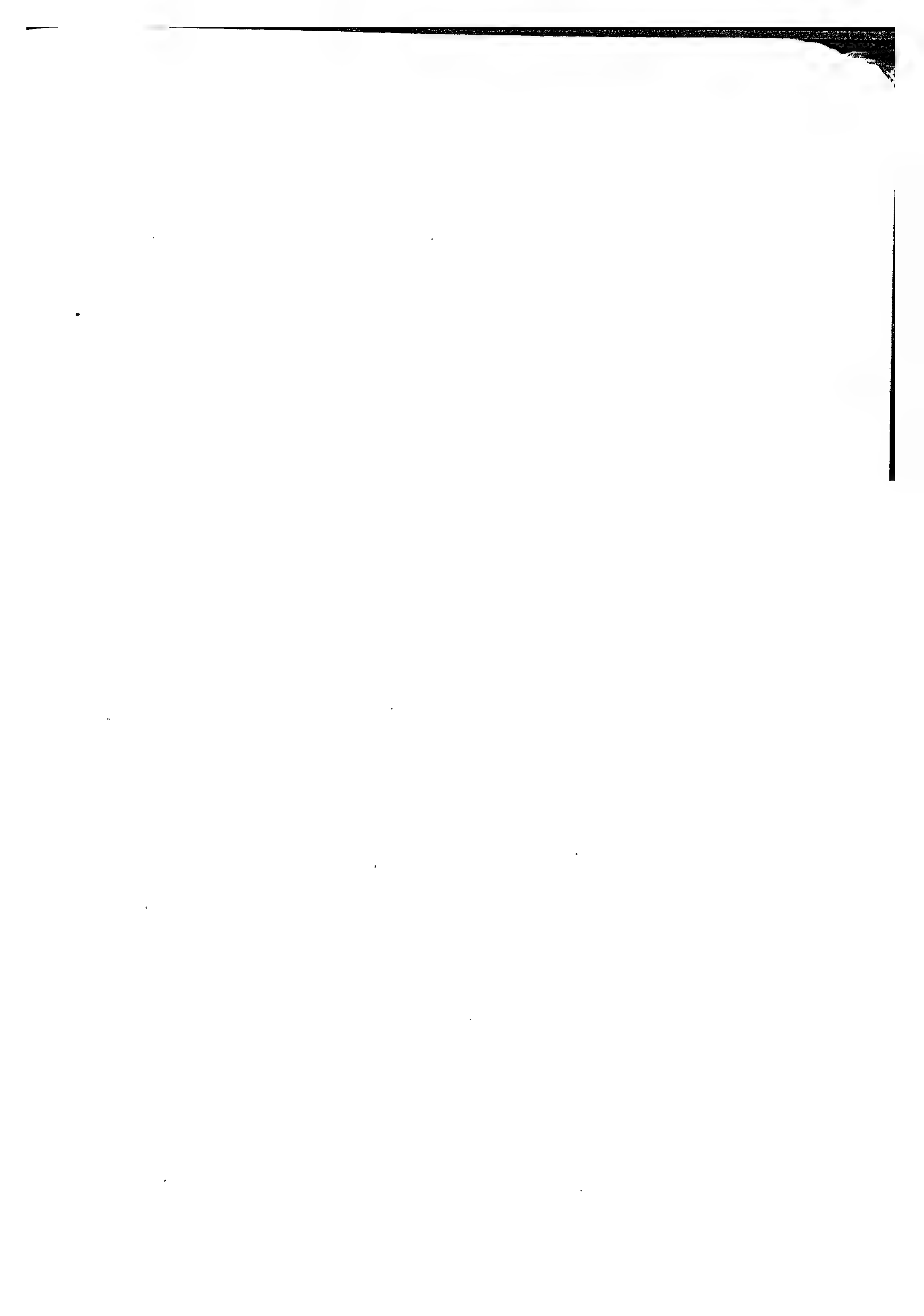
١٠ - **Ghiselli, E**; And C. Brown; Personnel And Industrial Psychology Mc Graw - Hill, 1955.

١١ - **Johnson, R; And, G. Medinnus**; Child Psychology, John Willy Q Sons, 1974.

١٢ - **Lur,a A**; L,enseignement de La Psychologie A L, Université de Moscou, Bulletin de Psychologie, XXV 294, 1971 - 1972. (Paris).

١٣ - **Klein, M**; The Psycho - Anallysis Of Children, The Hogarth Press, 1975.

١٤ - **Valentin, C**; The Normal Child, Pelican Book, 1956.

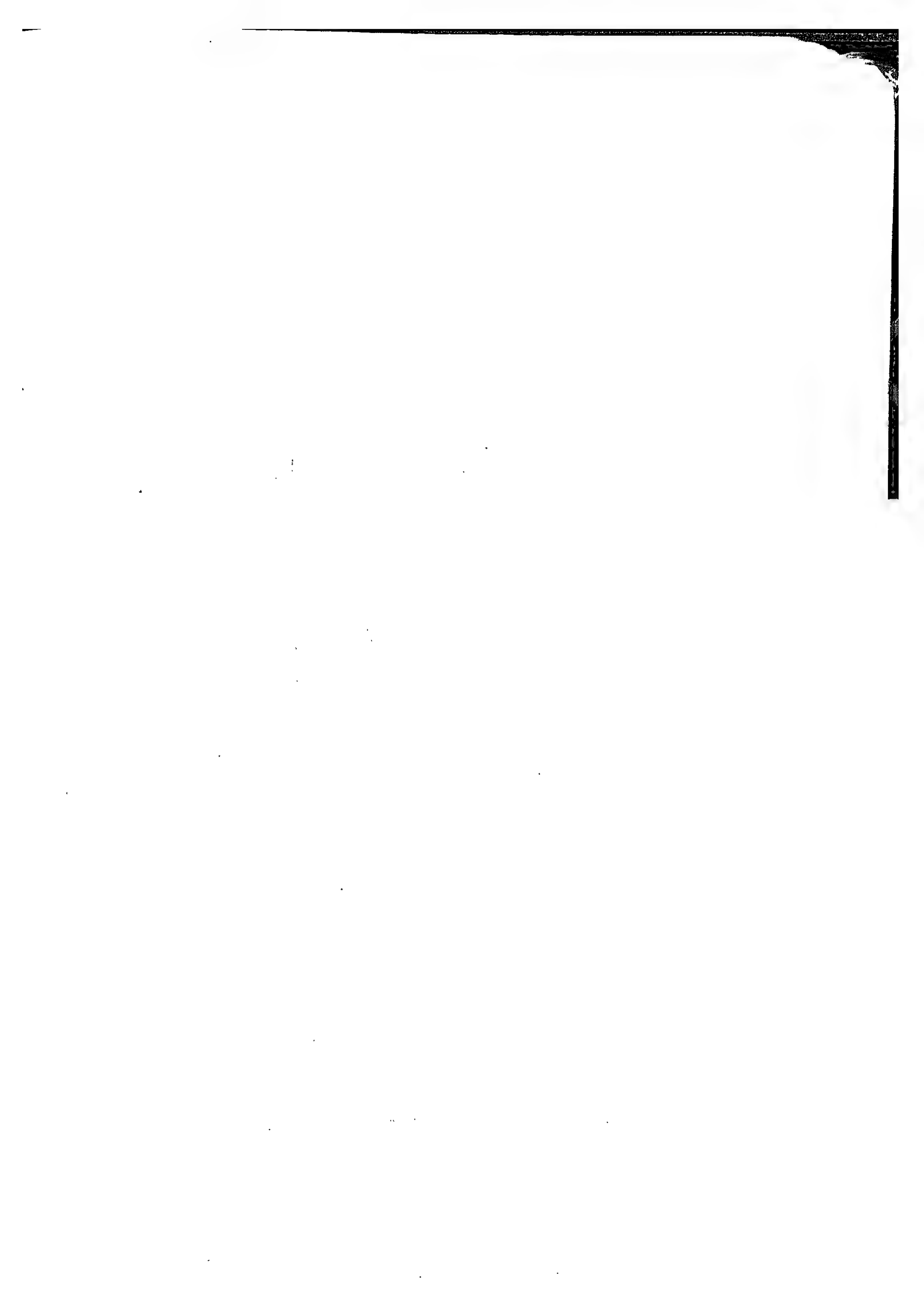


الفصل الرابع

علم النفس والمدرسة (*)

* تمهيد.
* شخصية التلميذ أو (الطالب) وخصائصها.
* شخصية المعلم أو (الأستاذ) وخصائصها.
* طريقة التدريس.
* طريقة إدارة المدرسة.
* خاتمة.

(*) نشر هذا البحث في مجلة «البحث العلمي» المغربية ـ عدد ٢٥ ـ يونيو ١٩٧٦.



تمهيد:

تكاد تتركز أهداف المدرسة في عمليتين أساسيتين متكاملتين ومتداخلتين هما عملية التعليم (أي إكساب النشء القدرة على القراءة والكتابة وإحاطته بالمعارف العامة والمتخصصة وبكيفيات البحث العلمي ومناهجه وبطرق التفكير الموضوعي المنظم) وعملية التربية (أي تربية النشء جسمياً ونفسياً واجتماعياً). وتبدو كفاءة المدرسة لتحقيق أهدافها في نسبة نجاح تلاميذها ومستوى تحصيلهم الدراسي ومدى توفيق خريجيها في دراستهم العليا وفي مجالات الحياة والعمل المختلفة.

ونظراً للأهمية الشديدة للمدرسة في أي مجتمع فإنَّ مختلف العلوم تحاول الإسهام بنصيب في رفع كفاءة المدرسة، وفي هذه الدراسة نبحث الإسهامات التي يمكن أن يقدمها علم النفس لمساعدة المدرسة على تحقيق أهدافها.

عوامل نجاح المدرسة:

يتوقف نجاح المدرسة في تحقيق أهدافها على عوامل أربعة أساسية ـ إذا استثنينا الخطوط والسياسة العامة التي تضعها الدولة وتكون موحدة في المدارس ـ وتتكامل هذه العوامل الأربعة وتتفاعل فيما بينها عاملة على نجاح المدرسة أو إخفاقها. أمَّا هذه العوامل الأربعة فهي:

١ ـ شخصية التلميذ (أو الطالب) وخصائصها.
٢ ـ شخصية المعلم (أو الأستاذ) وخصائصها.
٣ ـ طريقة التدريس.
٤ ـ طريقة إدارة المدرسة.

أولاً ـ شخصية التلميذ (أو الطالب) وخصائصها:

من المعروف أنَّه لا يمكن أن يتعلم الفرد إلاَّ إذا توفر له شرطان أساسيان، أحدهما القدرة اللازمة لنوع التعلم والآخر الدافع إلى هذا التعلم. ولا بد لهذين الشرطين أن يتوافرا معاً وبالقدر اللازم وإلاَّ استحالت عملية التعليم أو انخفضت كفاءتها، فعلى سبيل المثال لو أنَّنا حاولنا تعليم طفل في الشهر السادس من عمره القيام بعمليات حسابية بسيطة كالجمع والطرح لاستحال علينا ذلك، لأنَّ قدرته العقلية لم تتم بعد إلى الدرجة اللازمة لعملية التعلم هذه. وما ينطبق على تعلم الأمور العقلية يصدق بالمثل على تعلم الأمور الحركية. فهذا الطفل في هذه السن نفسها مهما درَّبناه لا يمكن له أن يقود دراجة. وإذا كان هذا بالنسبة إلى ضرورة توافر القدرة اللازمة للاستفادة من التعلم المعين فإنَّ الأمر يشبه ذلك بالنسبة إلى ضرورة توافر الدوافع إلى هذا التعلم. ففي حالة غياب الدافع إلى التعلم لا يتعلم الفرد شيئاً حتى لو توافرت له القدرة اللازمة لهذا التعلم، فالتعلم كظاهرة سلوكية لا يحدث إلاَّ إذا كان وراءه دافع يدفع الفرد إلى القيام به. فمن المسلمات المعروفة في علم النفس أنَّ كل سلوك لا بدَّ وأن يكون وراءه دافع.

(أ) القدرة:

ينبغي أن نطمئن إلى أنَّ طاقات التلميذ العقلية والجسمية، تتناسب ونوع التعليم الذي يقدم له. فلقد وجد سيمون[1] Simon في بحث له عن

(١) R, Johnson And Medinnus, G. Ghild Psychology, Behav, Or And Development New - York John Willy And Sons, 1974, 377.

الخصائص الجسمية والاستعداد الدراسي ـ نشره في عام ١٩٥٩ ـ أنَّ التلاميذ الذين رسبوا في السنة الأولى (الإبتدائية) كانوا أقل نضجاً من الناحية الجسمية، عن مجموعة الناجحين. كما وجد ميديناس[1] Medinnus في بحث له عن الاستعداد الدراسي والتوافق ـ نشره في عام ١٩٦١ ـ معامل ارتباط موجب قدره ٠,٥ بين نسب ذكاء التلاميذ التي حصلوا عليها من تطبيق مقياس ستانفورد بينه Sianford. Binet قبل دخولهم المدرسة وبين درجات تحصيلهم في نهاية السنة الأولى (الإبتدائية).

هذا، وفي بعض الحالات نجد أنَّ طاقات التلميذ أقل من المستوى اللازم للنجاح الدراسي، كما هو الحادث بالنسبة لضعاف العقول الذين يوجدون في مدارس التعليم العامة والتي يدرس بها التلاميذ العاديون. فنظراً لحاجة التعليم العام إلى قدرة عقلية متوسطة على الأقل في مستواها فإنَّ ضعاف العقول هؤلاء يفشلون في مواصلة دراستهم أو يتخلفون في التحصيل عن أقرانهم، وهذا أمر يسبب الكثير من المشاكل والحيرة بالنسبة للمعلمين، فهل ينزل المعلم إلى مستواهم في الفهم الضعيف والبطيء فيعيد الشرح كثيراً من المرات حتى يستطيعوا أن يفهموا؟ (وهو إن فعل هذا ضيَّع وقت التلاميذ العاديين والمتفوقين في مستواهم العقلي إذ لا يستفيدون من هذا التكرار بل بالعكس غالباً ما يضيقون به فينصرفون عنه إلى المشاغبات والفوضى في قاعة الدراسة، هذا علاوة على أنَّ تكرار الشرح يعطل المعلم عن استكمال المنهج المقرر تدريسه لتلاميذه خلال العام الدراسي المحدد) أم يقوم المدرِّس بتجاهل ضعاف العقول هؤلاء ويشرح الدرس بالمعدَّل العادي فيفهمه العاديون والمتفوقون ويتخلف عن فهمه ضعاف العقول؟ (وهو إن فعل هذا ضيع إمكانية الاستفادة والتعلم على ضعاف العقول، وخان أمانة ألقاها المجتمع على كاهله هي إفادة تلاميذه وتعليمهم مما يخالف ضميره المهني وينتقص من ثقته في كفاءاته الذاتية في أداء عمله).

(١) المرجع السابق بنفس الصفحة.

وتحلُّ هذه المشكلة بإنشاء مدارس خاصة لضعاف العقول، وهي كثيرة الانتشار على وجه خاص في البلاد المتقدمة. ويسهم علم النفس بدور فعَّال في اختيار التلاميذ لهذه المدارس وذلك عن طريق تطبيق الاختبارات النفسية وعلى رأسها اختبارات الذكاء لتقدير مدى أحقيَّة الفرد في دخول هذه المدارس ومدى استفادته المتوقعة من نوع التعليم فيها. كما يسهم بدور فعَّال أيضاً في حلِّ المشكلات المختلفة التي تعترض تعليم ضعاف العقول وتدريبهم في هذه المدارس. ولعلَّ مما تجدر الإشارة إليه أنَّ اهتمام علم النفس بمشكلاتِ التعليم والدراسة، قد أسهم إسهاماً فعَّالاً في وضع البذور الأولى للقياس والاختبارات النفسية التي تطوَّرت حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن من تنوعٍ وما تؤدِّيه لمجالات النشاط المختلفة من خدمات. فمؤرخو علم النفس لا ينسون بهذا الخصوص فضل روَّاد أوائل مثل[١] أسكيرول Esqorol وسيجوان Seguin وبينيه Benet ومحاولاتهم تصنيف وتدريب وتعليم ضعاف العقول وابتداعهم لذلك وسائل وأجهزة ومقاييس كان لها أكبر الأثر في نشأة وتطوير الاختبارات النفسية عامة واختبارات الذكاء خاصة.

وما دمنا بصدد الحديث عن مدارس الضعف العقلي فينبغي ألَّا ننسى الدور الذي يضطلع به أخصائيو علم النفس في علاج اضطرابات التوافق لدى ضعاف العقول من التلاميذ سواء كان هذا الاضطراب في مجال المدرسة بصفة خاصة أم في مجال الحياة عامة. ولهذا تعدُّ الخدمة النفسية ركناً أساسياً في مدارس ضعاف العقول ومؤسساتهم.

وإذا كان ما سبق ينطبق على التعليم العام فإنَّ التعليم النوعي بدوره يحتاج إلى قدرات مختلفة تلائم كل نوع منه، وينبغي أن تتوافر في طالبه وإلَّا فشل فيه أو ضعف تحصيله منه. فمثلاً نجد أنَّ التعليم في أقسام الميكانيكا سواء كان ذلك بالمدارس أو الكليات يلزمه استعداد مرتفع في الميكانيكا،

---

(١) A. Annastasi; Psychological Testing, The Macmillan Company 1970, 5 - 11.

ودراسة الفن المعين سواء كان رسماً أم نحتاً أم زخرفة أم موسيقى أم غناء، وسواء كان بالمدارس أم المعاهد أم الكليات يحتاج إلى توافر الاستعدادات العقلية النوعية اللازمة لكل نوع من هذه الفنون. وعلم النفس في كل هذه الحالات وأمثالها هو الذي يقوم بدراسة وتحليل كل نوع من أنواع التعليم هذه لتحديد الاستعدادات والقدرات العقلية المختلفة اللازمة له. كما يقوم بوضع وتصميم وإعداد الاختبارات اللازمة والصالحة لقيامها، ويقوم أخصائيوه بتطبيقها وتصحيحها وتفسيرها واختبار التلاميذ بناء على نتائجها أو توجيههم لنوع الدراسة الملائم لكل منهم.

ويقول دوجلاس فراير بهذا الصدد: «بينت مئات من الأبحاث صحة اختبارات القدرة العامة للدراسة الجامعية في التنبؤ بالتفوق في الدراسة الجامعية ويعتبر اختبار الـ (هـ أ ت A C B) السيكولوجي نموذجاً للاختبارات الشائعة الاستعمال للقدرة الجامعية. ويذكر سيجال Segal أنَّ متوسط ٤٣ معاملاً من معاملات الارتباط بين نتيجة هذه الاختبارات مع تقديرات السنة الأولى بالكلية يبلغ ٤٨,٠ وكان المدى الربيعي لهذه المعاملات بين ٤٠,٠ و ٥٥,٠ وكانت معاملات الارتباط مع التفوق في السنوات الثانية والثالثة والرابعة أقل من ذلك على وجه العموم، إلَّا أنَّ اختبارات الكلية المؤلفة خصيصاً لكلية خاصة غالباً ما تعطي معاملات ارتباط أعلى من السابقة، مع تقديرات الكلية حيث تبلغ ٧٠,٠ ويفهم من ذلك أنَّ اختبار القدرة على الدراسة الجامعية الذي يؤلف ويقنن لموقف خاص هو عادة أفضل الاختبارات»[١] ويمكن أن يصدق هذا على اختبارات التوجيه والاختيار للمدارس والمعاهد.

هذا ويمكن إدخال طاقة الفرد النفسية، على الدراسة ضمن القدرات

---

(١) دوجلاس فراير: سيكولوجية المهن الحرة ـ ترجمة الدكتور السيد محمد خيري ـ في ميادين علم النفس ـ المجلد الثاني ـ أشرف على تأليفه جيلفورد ـ وأشرف على ترجمته الدكتور يوسف مراد ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٥٦ ـ ص ٩١٣ ـ ٩١٤.

اللازمة لنجاحه في التحصيل. فالفرد المريض نفسياً الذي ينهكه الصراع النفسي ويبدد طاقته، يصبح أقل قدرة على مواصلة الانتباه والتركيز والجهد اللازم لمتابعة شرح المعلم أو استذكار الدرس أو القيام بعمل البحث، كما تعوزه الطاقة اللازمة لكل ذلك كنتيجة لتبديدها في القلق والصراع النفسي مما يؤدي به إلى الفشل الدراسي أو نقص التحصيل. هذا إضافة إلى اضطراب علاقته بزملائه وأساتذته مما ينعكس بالتالي على مستوى تحصيله فيزيد من فشله دراسياً أو يخفض من مستوى تحصيله أكثر وأكثر. وهناك الكثير من البحوث التي أيّدت هذا الرأي نذكر منها بحث فيلدهسن وثرستون وبننج[1]. Feldhnsen, Thurstou And et Bening ـ المنشور عام ١٩٧٠ ـ والذي درسوا فيه العلاقة بين التحصيل الدراسي وكل من السلوك العدواني (مثل إحداث فوضى في الفصل وكثرة الغضب وحب السيطرة والتأخير أو الغياب بدون عذر والإجابة بفظاظة وبعدم احترام والكذب والسلوك الشرير) والسلوك المقبول اجتماعياً (مثل الجد والإنتاج وطيب الخلق والطموح والتعاون والصدق وإنجاز الواجبات في أوقاتها). وكانت عينة الدراسة عبارة عن مجموعتين من تلاميذ المدارس. ومن دراستهم البيئة العائلية لكل من المجموعتين تبين أنَّ التلاميذ العدوانيين كان آباؤهم يظهرون عاطفة أقل نحوهم، ويشرفون عليهم بدرجة غير كافية، كما كان هؤلاء الآباء أقل قدرة على تكوين علاقات أسرية متماسكة، وأقل في المستوى التعليمي والمهني وأقل إسهاماً وفاعلية في حياة المجتمع وخدماته في المقارنة بآباء مجموعة التلاميذ المقبول سلوكهم اجتماعياً. وبعد خمس سنوات عملت مقارنة بين التحصيل الدراسي لكل من المجموعتين فتبين أنَّ مجموعة التلاميذ العدوانيين أقل في القراءة والكتابة والدراسات الاجتماعية والعلوم والرياضيات من المجموعة الأخرى.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ ـ لـ Johuson And Medinnus.

(ب) الدافع :

إذا كانت قدرات التلميذ العقلية وطاقاته النفسية تؤهله لمزيد من التحصيل والتفوق الدراسي لملاءمتها وكفايتها لنوع الدراسة التي يواصلها، فإنَّ هذا وحده لن يكفي، بل لا بدَّ من أن يتوافر إلى جانبه دافع قوي للتحصيل والتفوق على نحو ما سبق أن ذكرنا. والدافع هنا ـ كقوة دافعة داخل الفرد ذاته هو الذي يستثير حماسه للتحصيل ويواصله، فيستفيد عندئذٍ من قدراته وطاقاته ويستثمرها في التحصيل والتفوق. وبناء على هذا المبدأ النفسي ينصح علماء النفس بضرورة تقوية الدافع عند التلميذ للتحصيل إلى الحد الذي يمكنه من استغلال قدراته على أمثل وجه.

وعلى هذا ينصح علماء النفس بأن يوجه التلميذ بقدر الإمكان إلى نوع الدراسة الذي يميل إليه بمعنى الذي يستهويه ويريده ويحبه. فهذا الميل في حد ذاته يقوي دافعه نحو الاستفادة والتحصيل. كما ينبغي أن نهيء الظروف المختلفة التي تخلق وترفع مستوى الدافع لدى التلميذ للدراسة والتحصيل مثل تهيئة علاقات طيبة بين المعلمين والتلاميذ، وبين التلاميذ بعضهم البعض، وتهيئة المدرسة وإمدادها بوسائل النشاط التي تشبع هوايات التلاميذ المختلفة كالترفيه والرياضة والنشاطات الاجتماعية والفنية المختلفة. والعمل على علاج ما ينشأ بين التلاميذ بعضهم وبعض أو بينهم وبين المسؤولين من خلافات أو مشكلات هذا بالإضافة إلى ضرورة تهيئة الظروف الفيزيقية المناسبة والمريحة في قاعات الدرس وفي المدرسة عموماً، مثل التأثيث والأدوات والأجهزة الكافية والإضاءة والتهوية والحرارة المناسبة، إذ أنَّ كل ذلك يزيد من الميل إلى الدراسة ويقلل من الضيق الذي ينتاب التلاميذ من مواصلتها ويجذبهم أكثر نحو مدرستهم.

وإلى جانب كل ذلك فإنَّ طريقة التدريس وما يقع فيها من نظم وأساليب ذات تأثير كبير على دافع التلميذ نحو الحصول على نحو ما سنرى فيما بعد عند بحثنا للعامل الثالث من عوامل نجاح المدرسة.

وبناء على ما سبق أن ذكرناه عن شخصية التلميذ وخصائصها ومدى تأثير ذلك على نجاحه الدراسي فإنَّ الإخصائي النفسي في المدرسة يضطلع بدور هام في تشخيص وعلاج مشكلات التخلف الدراسي، فيبحث عن العوامل المسؤولة عن التخلف الدراسي لدى التلميذ المعين هل هو يرجع إلى ضعفه العقلي فيوصي بناء على ذلك بتحويله إلى مدرسة ضعاف العقول، أم إلى عدم توافر القدرات والاستعدادات والطاقات العقلية والنفسية الخاصة التي يتطلبها التعليم في هذه المدرسة أو في هذا القسم فيوصي بتوجيه التلميذ إلى مدرسة أخرى أو إلى قسم آخر يرى من دراسته لشخصية التلميذ وخصائصها أنَّه أكثر ملاءمة له وأنَّ احتمال نجاحه فيه أكبر، أم أنَّ الفشل الدراسي لهذا التلميذ راجع إلى مشكلات انفعالية أو اضطرابات نفسية فيقوم هو بعلاجها ـ إن كان يستطيع ذلك ـ أو يحولها إلى المتخصصين في علاجها حتى تستقيم الحالة النفسية للتلميذ أو تخف حدَّة الاضطراب النفسي عنده فيستطيع عندئذٍ متابعة الدراسة، أم أنَّ الفشل الدراسي لهذا التلميذ راجع إلى مجموعة من هذه العوامل وغيرها فينصح بما ينبغي اتباعه لعلاجه.

ثانياً ـ شخصية المعلم (أو الأستاذ) وخصائصها:

العامل الثاني الذي يعتمد عليه نجاح المدرسة في قيامها بدورها التعليمي والتربوي هو شخصية المعلم وخصائصها. وكفاءة المعلم في القيام بواجبه يعتمد على نفس العنصرين اللذين سبق ذكرهما بالنسبة للتلميذ: وهما القدرة والدافع. فما لم تتوافر لدى المعلم القدرة على التدريس والدافع إلى القيام به على وجه مرض لن ينجح في عمله.

(أ) القدرة:

نناقش فيما يلي أهم عوامل هذه القدرة على التدريس:

١ ـ **المعرفة الواسعة في مجال التخصص**: لا شكَّ أنَّ أول ما يتبادر إلى الذهن فيما يتعلَّق بضرورة توافر القدرة عند المعلم هو ضرورة توافر

المعرفة على أوسع درجة ممكنة في مجال تخصصه. فمعلم الحساب مثلاً يكون أوَّل شرط لنجاحه في أداء عمله هو الإلمام إلماماً واسعاً قدر المستطاع بالمعارف والمعلومات والمهارات الخاصة بمادة الحساب وموضوعاتها المختلفة. ومعلم اللغة بالمثل لا بدَّ وأن يكون إلمامه باللغة ومفرداتها وقواعدها وآدابها على درجة عالية من الدقة والشمول. ولما كان فاقد الشيء لا يعطيه فإنَّ المعلم الضعيف في مادة تخصصه يكون من الصعب عليه تدريسها بكفاءة عالية، كما أنَّه يتعرض أثناء تدريسه لها إلى مواقف صعبة أو إلى أسئلة واستفسارات تتعلَّق بها من تلاميذه يعجز عن الإجابة الصحيحة عليها في حينها مما ينقص من قيمته لدى تلاميذه ومن ثقته في نفسه. وبالتالي تقل كفاءته في القيام بواجباته وإفادة تلاميذه الفائدة المرجوة.

ولعلَّ المؤهلات العلمية والتربوية التي يشترط حصولها للتعيين في وظائف المعلمين تستوفي هذا الجانب إلى حد لا بأس به.

المهارات اللغوية والشفهية خاصة: إنَّ مهارة المعلم اللغوية والشفهية خاصة وخلوه من عيوب النطق وقدرته على الإقناع وعلى التفكير المنظم المنطقي بصوت عالٍ (مما يدخل ضمن مهارة الفرد اللغوية والشفهية) من ألزم الأمور التي تمكن المعلم من أداء دوره بنجاح، إذ تمكنه من شرح موضوعات مادته لتلاميذه وإفهامهم أسسها وإقناعهم بمنطقها فيسهل عليهم فهمها واستيعابهم، أمَّا إن كان المعلم يعاني من عيوب النطق ولا تمكنه مهارته اللغوية من التعبير السليم عن أفكاره فسوف يكون من الصعب عليه شرح موضوعات مادته لتلاميذه وإفهامهم إياها، وإيصال فكره ومعلوماته إليهم.

٣ ـ الذكاء: يعتبر ذكاء المعلم من أهم العوامل التي تؤثر على كفاءته في القيام بواجبه التعليمي. ولذا ينبغي أن يكون ذكاؤه فوق المتوسط أو متوسط على أقل تقدير. ومن الجدير بالذكر أنَّ تصنيف المهن وفقاً للدرجات في اختبار الجيش الأمريكي (اختبار التصنيف العام ـ وهو اختبار ذكاء أساساً)

حسب ما أورده موريس فيتلس[1] في فصل كتبه عن علم النفس المهني في كتاب ميادين علم النفس يضع مهنة المدرِّس على اعتبار أنها المهنة الثانية في ترتيب المهن التي أوردها من حيث مستوى الذكاء المرتفع الذي يقابلها، إذ يتضح من الجدول الوارد به هذا التصنيف أنَّ وسيط مهنة المدرس هو ١٢٤ درجة معيارية على أساس أنَّ متوسط مجموعة التقنين ١٠٠ وانحرافها المعياري ٢٠: ومهنة المدرس في هذا الجدول تلي مهنة المحاسب على اعتبار أنَّها المهنة التي تقابلها أعلى درجة ذكاء للمهن جميعاً، إذ كان وسيط مهنة المحاسب ١٢٩. كما يقول دوجلاس فراير بهذا الصدد: «تستعمل كليات المدرسين غالباً (قاصداً بلده بطبيعة الحال وهي الولايات المتحدة الأمريكية) اختباراً للقدرة العامة (أي للذكاء) كوسيلة للتمييز في منح الشهادات أو لتوجيه الطالب في مهنة التدريس»[2].

٤ ـ الطاقة النفسية: أمَّا طاقة المعلم النفسية على القيام بواجبات التدريس والتعليم فهي شديدة الأهمية بالمثل. فاتزان المعلم النفسي وخلوّه من الاضطرابات والصراعات النفسية الشديدة، وتحرره من القلق العنيف يحفظ له كل ذلك طاقته النفسية التي يحتاج إليها في القيام بواجبات التدريس والتعليم كما أنَّ ثقته المعتدلة في نفسه، وذكاءه الاجتماعي المرتفع، وميله المعتدل للانبساط دون الانطواء يدعم كفاءته وقدرته في مهنته.

هذا، وتتضح أهمية الطاقة النفسية للمعلم بشكل أكثر عندما نذكر أنَّ مهمته ليست قاصرة فقط على تعليم تلاميذه مهارات علمية معينة بل إنَّها تمتد إلى العناية والرعاية المتعلقة بالجوانب الانفعالية والنفسية لهم على نحو ما

---

(١) موريس فيتلس: علم النفس المهني ـ ترجمة الدكتور أحمد زكي صالح ـ في ميادين علم النفس ـ المجلد الثاني ـ أشرف على تأليفه جيلفورد ـ وأشرف على ترجمته دكتور يوسف مراد ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٥٦ ـ ص ٧٦٧.

(٢) المرجع السابق لدوجلاس فراير ص ٩٢٢.

يقرر جونسون وميديناس[١]. فلا شكَّ أنَّ المعلم الأكثر إتزاناً من الناحية النفسية يكون أكثر كفاءة في تحقيق هذه المهمة. ويراعي الأخصائيون النفسيون الذين يكلفون باختيار أو توجيه المعلمين كل هذه القدرات المعرفية والخصائص العقلية والنفسية، ويذكر فالنتين[٢] Valentine بهذا الخصوص أنَّ البحوث بيَّنت أنَّ حوالي ربع الناس عامة في انجلترا يعانون من الاضطرابات النفسية المعروفة بالعصاب Neurosis وأنَّ الاختيار الدقيق لطلبة مهنة التدريس سيؤدي إلى خفض هذه النسبة. وأنَّ بعض هذه الاضطرابات النفسية تجعل المدرس يستجيب استجابات عنيفة وغير متعقلة للتصرفات الطفلية غير المقبولة من التلاميذ. كما يضيف فالنتين تأكيداً لهذا الرأي ما تبين من بحث نشره كلارك Clark ـ عام ١٩٥١ ـ أجرى على مائتي معلم اختيروا عشوائياً من ثمان وعشرين مدرسة ابتدائية بالولايات المتحدة الأمريكية من وجود اتجاه بين المعلمين الأكثر صحة نفسية لأن يكونوا أقل ضيقاً عن الآخرين في حالة وجود بعض المظاهر السلوكية غير المقبولة بين التلاميذ كالإهمال وعدم الانتباه وارتداء ملابس قذرة و(مضغ اللبان).

ولعلَّ من أوضح البحوث دلالة على تأثير المعلم على التوافق النفسي لتلاميذه بحث بيرت وهوارد[٣] Burt And Haward عن طبيعة وأسباب سوء التوافق بين الأطفال في سن المدرسة ـ والذي نشره في عام ١٩٥٢ ـ حيث اتَّضح منه تحسن تام في ٧٣ في المائة من حالات التلاميذ من بين ١٢٤ تلميذاً سيء التوافق بسبب الظروف المدرسية ـ فيما يبدو ـ وبخاصة المدرسين، بعد أن انتقلوا إلى مدارس أخرى (وتغير مدرسوهم).

(ب) الدافع:

القيام بالتدريس شأن قيام الفرد بأي سلوك، لا بدَّ له من دافع فمهما

(١) المرجع السابق. Johnson And Medinnus P. 882.

(٢) C. W. Valentine, The Normal Child And Some Of His Abnorm alities, Pelican Books, 1956, 175 - 179.

(٣) المرجع السابق ص ١٧١.

توافرت للمعلم من طاقة جسمية وعقلية ونفسية مناسبة لمهنة التدريس لا بدَّ له من توافر دافع قوي إلى القيام بواجبات هذه المهنة إذا كنا نرجو له نجاحاً فيها. فالدافع يزيد من طاقة الفرد على القيام بواجبات المهنة من جانب، كما يدفعه إلى إنجازها على أحسن مستوى ممكن من جانب آخر. ونناقش فيما يلي أهم عوامل هذا الدافع.

١ ـ **الميل**: يعتبر ميل الفرد إلى مهنة التدريس من أقوى دوافعه للنجاح فيها. فالفرد عادة إن مال إلى عمل معين فضَّل أن يقضي فيه وقتاً طويلاً دون أن يحس من جراء ذلك بسرعة التعب أو الملل، كما يستمتع بصرف جزء كبير من طاقته في أدائه، ولا يدخر جهداً في تنمية مهارته ومعلوماته في مجاله. وليس قليلاً ما نسمعه عن تطوع البعض للقيام بواجبات تعليمية بدون مقابل اللهمَّ إلاَّ إشباع ميلهم إلى مهنة التدريس واستمتاعهم الشخصي من القيام بها. ويؤكد فيتلس أهمية ميل الفرد لعمله فيقول: «ولا شكَّ أنَّ قياس الميل ذو قيمة وخاصة في التوجيه المهني، لأنَّه يبين ما إذا كان الفرد يميل إلى العمل في المهنة التي يتقدَّم إليها ميلاً كافياً يجعله يستمر فيها وكذلك ما إذا كان الفرد سيجد نفسه بين زملاء له في العمل مشابهين له في العمل والميل. ولاقتراح مجالات أخرى غير المهنة التي قد لا يكون له ميل فيها[١] كما يضيف أنَّه «يمكن استعمال قياس الميول في بعض الأحوال في التنبؤ بدرجة النجاح في المهنة، بيد أنَّه في ضوء الأدلة الحالية ومع تأجيل النظر في الأدلة المستقبلة، يحسن أن نقصر مسؤولية اختبارات الميول على التنبؤ برضى الفرد عن عمله وليس على درجة النجاح الإنتاجي في العمل[٢].

٢ ـ **الضمير الحي**: كما أنَّ الضمير الحي ـ والذي يعتبر مكوناً هاماً من مكونات الشخصية عامل أساسي يدفع المعلم إلى الاجتهاد في أداء واجباته التعليمية على أحسن مستوى يستطيعه. فالمعلم الذي يمتاز بالضمير الحي

(١) المرجع السابق لفيتلس ص ٧٩٤.

(٢) المرجع السابق بنفس الصفحة.

يراعي بذلك كل ما يستطيع لكي يفهم جميع تلاميذه الدروس. ولا يضيق بالتكرار والإعادة إن تبين له أنَّ الدرس صعب أو لم يفهمه البعض ـ حتى يطمئن إلى أنَّه أصبح مفهوماً. كما أنَّه يوزع اهتمـامه بعـدالة ومسـاواة وموضوعية على كافة تلاميذه دون تحيز مبني على عوامل مصلحية أو أهواء شخصية، فإذا به يهتم بكل تلميذ ويحاول أن يفيده ما استطاع ذلك، ولا يرتاح له ضمير إن هو أهمل القيام بواجبه نحو أحد تلاميذه. أو تحيَّز لتلميذ واهتمَّ به وبتحصيله وتجاهل آخر وأهمـل إفادتـه وتعليمه، واحترم هذا واستصغر ذاك. . ولذلك يقال عن مهنة التدريس ـ خاصة ـ أنها مهنة ضمير. ويلاحظ أنَّ مشكلة الضمير هذه مشكلة خلقية تقع على الأسرة خاصة والمجتمع عامة مهمة تكوينه وتنميته وتربيته على صورة فاضلة عند الأفراد. ولهذا فإنَّ فساد المجتمع أو صلاحه لا بد منعكس في نهاية الأمر على ضمائر أبنائه ومنهم المعلمين بطبيعة الحال.

٣ ـ الحوافز: تعتبر الحوافز من المثيرات الأساسية التي تستثير حماس الفرد للقيام بواجباته على أفضل ما يستطيع. ويتحدَّث عنها جون فريزر John Fraser فيقول: «كلمة (Incentive) تستخدم بكثرة هذه الأيام، وهي عندما تتعلَّق بالناس في عملهم تعني ـ بصفة عامة ـ شيئاً يجعل الناس تعمل باجتهاد أكثر»[١] كما يذكر راسل ليفانواي[٢] Russell Levanway أنَّ الحوافز تؤثر على الأداء على نحو ما وجد يونج Young في بحثه المنشور عام ١٩٤٧، وأنَّ المكافأة نفسها تؤثر أيضاً على الأداء على نحو ما وجد ولف وكابلون Wolfe And Kaplon في بحثهما المنشور عام ١٩٤٢ ـ كما يضيف ليفانواي أنَّ زيمون Zeamon أثبت في بحثه ـ المنشور عام ١٩٤٩ ـ أنَّ تغيير مقدار المكافأة يؤثر فوراً على الأداء.

---

(١) J. M. Fraser, Psychology; General Industrial, Soicoial, Pitman Publishing, London, 1971, 228.

(٢) R. W. Levanway, Advanced, General Psychology, Davis Company Philadelphia, 1972, 288.

هذا، «والبواعث (الحوافز) التي أمكن بحثها لدى الإنسان تقسم عادة إلى: (١) معرفة النتائج (٢) المكافآت (٣) العقاب (٤) المدح (٥) التأنيب (٦) التسهيل الاجتماعي (٧) التنافس (٨) التعاون»[١]. فإذا ما أحسن استخدام مثل هذه الحوافز مع المعلمين وطُبِّقت تطبيقاً سليماً عادلاً وموضوعياً أدَّى ذلك إلى ربع كفاءتهم في عملهم إلى حد كبير. ولا يتسع المقام هنا لعرض كثير من البحوث التي أثبتت تأثير كل نوع من أنواع الحوافز تلك. لذا نشير ـ على سبيل المثال فقط ـ إلى التجربة التي قام بنشرها بوك ونرفل[٢] Book And Norvell ـ عام ١٩٢٢ ـ حيث تبين أنَّ نسبة الزيادة بعد معرفة النتائج كانت ٨٢ و٤٦ للرجال و٢٧ و٤٢ للنساء. ولعلَّ هذا يوحي بضرورة أن يقوم المفتشون الذين يتولون تقييم عمل المعلمين باطلاعهم على تقاريرهم وبيان رأيهم صراحة في عملهم حتى يحفزهم هذا على تحسينه. بل يمكننا في ضوء هذا أن نقول إنَّ التقارير السرية عن كفاءة الموظف أو العامل والتي يقوم رئيسه بكتابتها لا تؤتي الفائدة منها بالدرجة المرجوَّة إلاَّ إذا عرفها الموظف أو العامل المعني. وبالتالي فإنَّ سريتها تفقدها الكثير من فائدتها علاوة أيضاً على الكثير من موضوعيتها.

ونظراً للاعتراف المتزايد بأهمية الحوافز فإنَّ الكثير من نظم الترقي وتقدير المكافآت والأجور والمرتبات تربطها بمستوى الإنتاج، بحيث يرقى ويرتفع أجر أو مكافأة أو مرتب الأكفأ إنتاجاً، بل ويهدد بالفصل من العمل كل ذي مستوى ضعيف في إنتاجه. وبهذا يعمل المسؤولون على رفع الدافع إلى الإنتاج لدى العاملين.

هذا ومما يزيد من أهمية شخصية المعلم أنَّها تعتبر ـ إلى حد كبير ـ امتداداً لشخصية الأب أو الأم، وكثيراً ما تحل محلهما أو تضاف إليهما كسند وجداني للتلميذ يستعين به في مواجهة مشاكله وإشباع عواطفه وتحقيق

(١) المرجع السابق لدوجلاس فراير ص ٧٢١.
(٢) المرجع السابق ص ٧٧٢.

استقراره النفسي. كما أنَّ شخصية المعلم كثيراً ما تصبح المثل الأعلى للتلميذ الذي يحاول أن يقتدي به في سلوكه ويتلقى عنه مثله وقيمه. ولهذا يذكر جونسون وميدناس[1] أنَّ المعلمين يؤثرون على تحصيل تلاميذهم عن طريق نوعية العلاقات التي يقيمونها معهم. وأنَّ هناك تشابهاً كبيراً بين القيم التي يتّخذها المعلم وتلك التي يتخذها التلاميذ ذوو التحصيل المرتفع عنه بين قيم المعلم وتلك التي يتخذها التلاميذ ذوو التحصيل المنخفض، على نحو ما أوضح بحث ماكدافيد Me David الذي نشره عام ١٩٥٩. لهذا كلما كانت شخصية المعلم سوية متزنة وعلى درجة عالية من الكفاءة والخلق الطيب توقعنا أن يكون ذا أثر حميد على تلاميذه الذين هم جيل المستقبل وعماده. ومن هنا فإنَّ المجتمعات يجب أن لا تألوا جهداً في سبيل اختيار وتكوين وإعداد المعلمين سواء من النواحي العلمية أو التربوية أو النفسية لإكسابهم أقصى درجة ممكنة من الصلاحية لمهنة التدريس. بل إننا نجد في كثير من البلاد مراكز ومؤسسات خاصة ليس فقط لتخريج المعلمين بل وأيضاً لإعطاء العاملين منهم بالفعل دورات تدريبية بين الحين والآخر لرفع مهاراتهم وكفاءاتهم في عملهم واطّلاعهم على الجديد والمفيد في مجال تخصصهم وعملهم والمناسب من أساليب تربية النشء وطرق تعليمه وكيفية التعامل معه. كما توجه المعلمين وتدفعهم إلى ما ينبغي أن يقوموا به باستمرار من تنمية لمهاراتهم ومعارفهم وذواتهم، وذلك من تلقاء أنفسهم عن طريق متابعة الجديد في مجال تخصصهم وفي أساليب تدريسه وما إلى ذلك.

ثالثاً ـ طرق التدريس:

والعامل الثالث الذي ذكرنا أنَّه من أهم عوامل نجاح المدرسة في أهدافها هو النظم والطرق التي يؤدي بها المعلمون واجباتهم التعليمية فهي ذات أثر فعّال في تحصيل التلاميذ واستفادتهم من التعليم. وهناك الكثير من الدراسات والتجارب التي قام بها علماء النفس وعلماء التربية وتزخر بها

---

(١) المرجع السابق لـ Johnson And Medinnus P. 389.

كتبهم توضح النظم والطرق المثلى لرفع كفاءة التعليم. ونظراً لضيق المقام هنا سوف نكتفي فقط بذكر أمثلة لهذه النظم وتلك الطرق.

(أ) التنظيم الأمثل لطول الحصص وتوزيعها:

ينبغي أن يكون طول الحصة مناسباً لمستوى التلميذ وقدرته على مواصلة التركيز فمعروف مثلاً أنَّ التلميذ في المرحلة الإبتدائية لا يستطيع مواصلة التركيز على موضوع معيَّن لمتابعته إلاَّ لفترة قصيرة. بينما تزيد قدرته على مواصلة التركيز. لمدَّة أطول في المرحلة الثانوية. وتزيد هذه القدرة أكثر وأكثر في المرحلة الجامعية مع إشرافه على مرحلة الرشد والنضج في استعداداته وقدراته. ولهذا وجب أن تكون الحصة قصيرة في المدرسة الإبتدائية (بين ٣٠ و ٤٠ دقيقة على سبيل المثال)، وأطول قليلاً في المدرسة الثانوية (بين ٤٠ و ٦٠ دقيقة على سبيل المثال)، وأطول أكثر في المرحلة الجامعية أو ما يعادلها (بين ٦٠ و ١٢٠ دقيقة على سبيل المثال). ولا نستطيع تحديد هذا الطول بدقَّة إلاَّ بعد القيام بدراسات تجريبية ميدانية تحدد لنا الطول الأمثل للحصة في كل مرحلة دراسية خاصة.

كما أنَّنا في حاجة أيضاً إلى دراسات تجريبية وميدانية توضح لنا أمثل توزيع للحصص ولفترات الراحة (وطولها) على اليوم الدراسي. وينبني ذلك على دراسة منحنى التعب الخاص بكل مرحلة دراسية معينة.

أمَّا نظام توزيع المواد الدراسية على حصص اليوم الدراسي (أو ما يعرف بجدول الحصص) فينبغي أن يكون متفقاً وطبيعة هذه المواد الدراسية. فالمواد النظرية مثلاً يحسن أن تكون في بداية اليوم الدراسي قبل أن يحل التعب بالتلميذ ثمَّ تليها المواد العملية. وذلك لأنَّ المواد النظرية تحتاج إلى قدرة أكبر على التفكير المركَّز تكون متوافرة أكثر قبل أن يتعب التلميذ، في حين أنَّ المواد العملية تتطلب نشاطاً حركياً أكثر، والنشاط الحركي بطبعه يذهب الخمول الذي يعتري التلميذ في أواخر حصص اليوم الدراسي، هذا

من جانب ومن جانب آخر فإنَّ النشاط الحركي لا يتطلب من تركيز التفكير الشيء الكثير الذي تحتاجه المواد النظرية.

(ب) الشرح والإفهام:

إنَّ طريقة التدريس القائمة على الشرح والإفهام أكثر فائدة من تلك القائمة على الحفظ و(حشو الذهن) بالمعلومات دون الفهم، فالتدريس القائم على الشرح والإفهام يمكن التلميذ من استخدام ذكائه في التحصيل ومن فهم موضوعات المادة فيحسن تحصيله ويقاوم النسيان. كما يستطيع التلميذ نتيجة فهمه للمادة أن يحسن الاستفادة التطبيقية منها في الحياة الواقعية، وهذا هدف أساسي للتعليم. أمَّا الحفظ الآلي و(حشو الذهن) بمعلومات غير مفهومة فلن يغير كثيراً من شخصية المتعلم بل يجعله يقوم بترديد ما حفظ ترديداً آلياً دون فهم مما يعوقه عن الاستفادة التطبيقية مما حصله، كما النسيان يسارع إلى ما حفظه دون فهم. فالفهم من آثاره أن يساند عملية الحفظ ويقاوم النسيان. ولعلَّ فيما يقوم به طلبة علم النفس التجريبي من تجارب مبسطة عن المقارنة بين سرعة تعلم المادة المفهومة وسرعة تعلم المادة غير المفهومة وبين سرعة نسيان المادة المفهومة وسرعة نسيان المادة غير المفهومة ما يؤيد ذلك، إذ يتبين من مثل هذه التجارب أنَّ المادة غير المفهومة (كالكلمات التي لا معنى لها أو الجمل غير المفهومة) أصعب في تحصيلها وأسرع في نسيانها من مثيلاتها المفهومة (أو الحاصلة على معنى). ولذلك يصبح من الأهمية بمكان أن يقوم المعلمون بالتركيز على شرح المادة ومراعاة أفهام تلاميذهم واستبصارهم بالأسس التي تقوم عليها موضوعاتها. وينبغي أن يستعين المعلم على تحقيق ذلك بكل ما يستطيع من شرح وأمثلة وتجارب ووسائل إيضاح ومواد وأجهزة مختلفة، وأن يقوم بتكرار الشرح والإيضاح إذا تطلب الأمر ذلك.

ويؤيد هوراس انجلش[1] هذا الرأي فيشير إلى أنَّ هناك تجارب كثيرة

(١) هوراس انجلش. علم النفس التربوي - ترجمة الدكتور السيد محمد خيري - في ميادين علم =

قد أوضحت أنَّ التعليم يكون منتجاً بمقدار ما تكون للمادة المتعلمة من معنى على نحو ما بينت دراسة ما كجوك Mcgeoeh المنشور عام ١٩٣٠، ويذهب هوراس انجلش إلى أبعد من ذلك فيقول: «وفي الحقيقة لو أسقطنا من اعتبارنا نوع التعليم الذي يظهر بوضوح في الاستجابة الشرطية أمكننا أن نفترض أنَّ وجود المعنى ضرورة أوَّلية للتعليم»[1].

(جـ) توجيه المتعلم وإرشاده:

لا شكَّ أنَّ التلميذ في حاجة إلى توجيه وإرشاد مستمر من جانب معلمه يشرح له فيه الصواب ويصحح له فيه الخطأ. إلَّا أنَّ المعلم ينبغي له أن يعرف متى يكون التلميذ في حاجة إلى توجيهه وإرشاده ومتى يكون من الأفيد له تركه ليحاول حل مشاكله وحده والاعتماد على ذاته في محاولات الفهم والاستبصار والتعلم والتحصيل، حتى إذا ما تأكَّد للمعلم عجز تلميذه وحاجته إلى مساعدته تدخل المعلم في الوقت المناسب حيث تكون فائدة المساعدة أكثر. بمعنى أنَّ المعلم يجب عليه أن يترك للتلميذ فرصة المحاولة وحده حتى لو أخطأ التلميذ، ففي ذلك فائدة مزدوجة للتلميذ، فهو من جانب ينمي في التلميذ روح الاعتماد على النفس والثقة فيها، ومن جانب آخر فإنَّ التلميذ يستفيد من خطئه بعد أن يقوم المعلم بتصويبه له فيقلُّ الاحتمال أن يقع فيه مرة أخرى.

هذا، ومما يفيد التلميذ كثيراً معرفة نتائج تعلمه، وإلى أي حد وصل فيه، وأين أخطأ وأين أصاب. فهذا يعطي التلميذ فكرة صحيحة عن مدى تحصيله ومستواه العلمي الحقيقي فيصح بهذا فكرته عن ذلك، وهي فكرة كثيراً ما تكون منحرفة. فضعيف التحصيل أحياناً يتصور نفسه متقدماً في التحصيل فيقعده هذا عن الاستزادة. لكن لو عرف أنَّه ضعيف فسوف يبذل

= النفس ـ المجلد الأول ـ أشرف على تأليفه جيلفورد ـ أشرف على ترجمته دكتور يوسف مراد ـ القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥، ص ١٩٤.

(١) المرجع السابق بنفس الصفحة.

جهداً أكبر ليتقدم، في حين أنَّ المتقدم في تحصيله قد يتصور نفسه ضعيفاً في التحصيل، وبذلك فمعرفة حقيقة مستوى تحصيله تكسبه ثقة أكبر في نفسه وفي إمكانية أن يحقق تفوقاً أكثر. وبذلك تكون معرفة التلميذ لحقيقة المستوى الذي وصل إليه في تحصيله من عوامل دفعه أكثر- في غالب الأحوال- نحو مزيد من التحصيل سواء كان تحصيله ضعيفاً أم متفوقاً. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنَّ معرفة حقيقة مستوى تحصيل التلميذ يبين له أين أخطأ وأين أصاب، وفي أي المواد هو متفوق وفي أيها هو ضعيف: ومن شأن ذلك أن يجعله يبذل مزيداً من الجهد لتصحيح أخطائه وتقوية تحصيله في المواد التي تبين له ضعف مستواه فيها.

ويؤيد هوراس انجلش هذا الرأي فيقول: «وهناك تجارب كثيرة تبين أنَّ معرفة النتائج تساعد على التعلم بل تكون وسيلة مساعدة لا يمكن الاستغناء عنها. وأغلب التجارب التي كان الغرض منها بيان أثر المدح أو التأنيب والثواب أو العقاب يمكن أن تفسر ببساطة على أنَّها اختبارات لمعرفة أثر أخطار المتعلم بنتيجة ما يعلمه ودرجات التفوق في العمل المدرسي تعتبر (مفيدة) بقدر نجاحها في اطلاع التلميذ على مدى تفوقه، بينما قيمتها كبواعث للتعليم تعتبر أقل أهمية والتجارب في هذا الموضوع متفقة على وجه العموم. فمعرفة النتائج تسهل التعليم في كل الظروف»[1] كما يضيف: «والدراسات التجريبية في المعمل (حتى الدراسات التجريبية على الفيران) والدراسات التي أجريت في الظروف المدرسية تتفق تماماً في نتائجها فاجعل المتعلم يقف تماماً على مكان خطئه ومداه إن كنت تريد له التقدم»[2]. وهكذا يقابل ما سبق أن ذكرناه عند الحديث عن معرفة النتائج كحافز للمعلم.

وإضافة إلى كل ذلك فإنَّه ينبغي على المعلم أن يسارع بإرشاد التلميذ

(١) المرجع السابق لهوراس انجلش ص ٢٠٨.
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

إلى الصواب بمجرد أن يلحظ خطأه قبل أن يثبت لديه هذا الخطأ ويصبح من الصعب بعدئذٍ محوه وإحلال الصواب محله. ومن هنا يبدو لنا واضحاً مدى قيمة الامتحانات الدورية التي تعطى للتلميذ ومدى استفادتهم من معرفة نتائجها أولاً بأول.

(د) التفاعل الاجتماعي:

كلّما اعتمدت طريقة المعلم في تدريسه على التفاعل الاجتماعي بينه وبين تلاميذه، وبين تلاميذه بعضهم وبعض، وكلما أتاحت فرصة للنقاش المتبادل بينه وبينهم، كانت طريقة التعليم أجدى، إذ يزداد التلاميذ فهماً للمادة المدروسة وإزالة لما يعتريها من غموض، كما يرتفع دفعهم في نفس الوقت نحو تحصيلها. «ولقد وجد بعض علماء النفس الألمان منذ بداية هذا القرن أنَّ العمل يتحسن في الظروف الاجتماعية، وقد وجدوا أنَّ الواجبات المدرسية التي يقوم بها التلميذ في منزله تكون أقل دقَّة وأكثر بطئاً من الأعمال التي يقوم بها في مثل هذه الظروف الاجتماعية التي تهيئها قاعة الدراسة. وقد أجريت دراسات معملية كثيرة بعد ذلك في ألمانيا وفي أمريكا فأيَّدت أنَّ مجرد وجود أشخاص آخرين مع الشخص الذي يقوم بالعمل يؤدي على وجه العموم إلى تحسين في العمل (على نحو ما وجد البورت Allport في دراسته المنشورة عام ١٩٢٠)»[١] كما «وجد باتون Barton في بحثه (المنشور عام ١٩٢٦) أنَّ أربعة أيام استغرقت في مناقشة مسائل الجبر أنتجت تفوقاً مستمراً عظيماً في التحصيل على الطريقة العادية الفردية إذا ساوينا بين قدرة التلاميذ الذين أجريت عليهم المقارنة وتدريبهم. وقد وجد بين Bane (في بحثه المنشور عام ١٩٢٥) أيضاً أنَّ المناقشة ساعدت على استيعاب المادة لمدَّة أكثر، وقد يكون السبب أنَّ المناقشة قد ضمنت اشتراك التلاميذ اشتراكاً فعَّالاً ومحاولتهم فهم العلاقات الموجودة في المادة المحفوظة»[٢].

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٨ ـ ١٩٩.
(٢) المرجع السابق ص ١٩٩.

(هـ): الثواب والعقاب:

يعتبر كل من الثواب والعقاب من أهم البواعث للتحصيل وللإنتاج، بل ولالتزام المعايير المرغوبة في السلوك: ولكل منهما أشكال عدَّة تتفق في حالة الثواب في رغبة الفرد في الحصول عليها، وفي حالة العقاب أن يتجنب المجازاة. فمثلاً نجد من أشكال الثواب المكافآت المالية والجوائز والمنح. ومن أشكال العقاب الحرمان المالي والضرب والتأنيب. ويرجع أثر الثواب والعقاب إلى أنَّ الفرد عادة يميل إلى الحصول على اللَّذة (والتي تأتيه عن طريق الثواب) وإلى تجنب الألم (والذي يأتيه عن طريق العقاب). وهذا ما يعرف بمبدأ طلب اللذة وتجنب الألم الذي تخضع له الحياة النفسية للبشر ضمن ما تخضع له من مبادىء.

ويشير دوجلاس فراير إلى أهمية العقاب قائلاً: «فلدى نزلاء السجون وغيرها من المنشآت الجنائية لا تنجح الجهود التي تبذل لتوجيه سلوكهم إلاَّ قليلاً إذا لم يصاحبها على الأقل التهديد بالعقوبة. ولعلَّ كل أم تعرف كم تحتاج إلى استعمال التأنيب أو العقاب مع أطفالها حتى تجعلهم يسيرون طبقاً للأشكال المقبولة من السلوك الاجتماعي»(١) كما يضيف أنَّه «قد وجد بوجه عام أنَّ الصدمة الكهربائية إذا استعملت كعقوبة فإنَّها تعمل على زيادة الكفاية في التعلم ورد الفعل. ففي التجربة التي قام بها جوهانسون Johanson (المنشورة عام ١٩٢٢) وجد أنَّ الصدمة الكهربائية قد أنقصت زمن الرجع بما يعادل ١٥ في المائة. وقد ذكر فون وديزرنس و Vaughn Diserenes أنَّ تعلم السير في متاهة التعلم المعدني Stylus Maze تطلب عدداً أقل من المحاولات وقدراً أقل من الأخطاء وقدراً أقل من الزمن في حالة إعطاء صدمات كهربائية خفيفة من عدمه»(٢) ومن الجدير بالذكر أنَّ العقاب الذي ينبغي أن يوجهه المعلم للتلميذ المهمل في أداء واجباته أو غير الملتزم

---

(١) المرجع السابق لدوجلاس فراير ص ٧٢٣.

(٢) المرجع السابق ص ٧٢٣ - ٧٢٤.

للمعايير السلوكية المقبولة ينبغي أن يكون معتدلاً حتى يؤتي الأثر المطلوب منه. فإن كان العقاب شديداً أو طائشاً أدّى غالباً إلى اضطراب التلميذ وخوفه الشديد مما يرفع نسبة القلق لديه فتضطرب قدرته على التحصيل.

وللثواب أيضاً تأثيره الكبير على التحصيل والإنتاج. فعلى سبيل المثال وجد لوبا[1] Leuba في بحثه المنشور عام ١٩٣٠ ـ أنه قد حدث تقدم ذو دلالة إحصائية في مستوى أداء أطفال من الحادية عشرة في العمر عندما كانوا يقومون بعمليات ضرب عند مكافآتهم بقطع من الشيكولاتة.

لقد عرض دوجلاس فراير[2] جدولاً يلخّص نتائج أربع دراسات مختلفة لبعض العلماء على أطفال صغار وتلاميذ مدارس وطلبة كليات بهدف دراسة أثر كل من المدح والتأنيب. وفي تعليقه على هذه الدراسات يقول: «ففي هذه الدراسات نرى أنّ كلاًّ من المدح والتأنيب عادة يحدث زيادة في الأداء إلاَّ أنَّه قلَّما يحدث فرق له دلالة إحصائية بين أثرهما»[3] كما يضيف: «وتسفر الدراسات الأخرى في هذا المجال عن نتيجة مشابهة وهي أنَّ المدح والتأنيب يمكن أن يعبرا على وجه العموم كبواعث للعمل وأنَّ المدح يتفوق قليلاً في أثره الدافع على التأنيب خاصة وأنَّ أثره يمتد إلى مدَّة أطول»[4].

هذا ولا شك أننا سنجد فروقاً فردية كبيرة بين تأثير الأشكال المختلفة من الثواب والعقاب على الأفراد سواء في التحصيل أو في الإنتاج، باختلاف ظروف كل منهم وتكوينه النفسي. فهذا يجدي معه نوع معين من الثواب أكثر من غيره، وذاك يجدي معه نوع من العقاب أكثر من غيره، وآخر يجدي معه العقاب بصفة عامة أكثر مما يجدي الثواب.. وهكذا. مما يجعل من الأفضل أن يستخدم المدرِّس (أو المعلِّم) أكثر من نوع من أنواع الثواب وأكثر من نوع

---

(١) المرجع السابق ص ٧٢٥.
(٢) المرجع السابق بنفس الصفحة.
(٣) المرجع السابق بنفس الصفحة.
(٤) المرجع السابق ص ٧٢٦.

من أنـواع العقاب في نفس الـوقت وبدرجـة كبيرة من المـرونة والفهم والاعتدال. وهذا ما يـؤكِّد ضرورة إحاطة المعلم بالكثير من أسس التربية وعلم النفس ونظرياته ودراساته، خاصة تلك المتعلّقة بالطفولة والنمو النفسي وسيكولوجية الشخصية وديناميات الجماعة.

رابعاً ـ طريقة إدارة المدرسة:

لإدارة أية مؤسسة أو جماعة أثر كبير في نجاحها أو إخفاقها سواء كانت هذه المؤسسة أو الجماعة مصنعاً أم مصلحة حكومية أم ناد رياضي أم مدرسة، وكتب علم النفس وخاصة منها ما تعلق بفرعي علم النفس الصناعي وعلم النفس الاجتماعي تخصص فصولاً كثيرة مطوَّلة تستعرض فيها الكثير من الدراسات والتجارب التي تؤيد التأثير الكبير للإدارة وكيفيتها على إنتاج المؤسسة وعلى الروح المعنوية والراحة النفسية للعاملين فيها. وتكاد تجمع هذه الدراسات على ضرورة الإدارة الديمقراطية للمؤسسة حتى تحقق أكبر نجاح ممكن. وعلى الإدارة الديكتاتورية مضرة على وجه خاص بالروح المعنوية والراحة النفسية للعاملين في المؤسسة، وأنَّ الإدارة الفوضوية مضرَّة على وجه خاص بالإنتاج.

ولهذا ينبغي أن تكون إدارة المدرسة (مديرها أو ناظرها ومساعدوه) على درجة عالية من الكفاءة الشخصية وأن تراعى وتطبق في عملها الأسلوب الديمقراطي في إدارة المدرسة بحيث تهتم بآراء العاملين بالمدرسة وتناقشها وتحترمها في اتخاذ القرارات الخاصة بالمدرسة أو بتخطيط عملها ووضع سياستها.

ولعلَّ مجالس الآباء المعروفة في المدارس تمثل شكلاً من أشكال الديمقراطية المتفقة وطبيعة تكوين المدرسة وظروف وخصائص عملها. ولهذا فمن الأهمية بمكان مراعاة الدقة في اختيار أعضاء إدارة المدرسة وتعيينهم وتدريبهم على أصلح الأساليب الإدارية وأكفأها.

وما يصدق على إدارة المدرسة ككل، يصدق إلى حد لا بأس به على إدارة المعلم لتلاميذه أثناء الحصة أو خارجها، إذ ينبغي عليه كلما كان من الممكن ذلك أن يأخذ بعين الاعتبار آراء التلاميذ وأن يناقشها معهم فيقتنع بها أو يقنعهم بغيرها. والإنسان بعد الاقتناع بالرأي يكون أكثر استعداداً لتبنيه وتنفيذه والدفاع عنه.

خاتمة:

استعرضنا في هذا البحث أهم العوامل التي رأينا أنَّها ذات تأثير كبير على نجاح المدرسة وتحقيقها لأهدافها في ضوء علم النفس، مع التركيز على الإسهامات والتوجيهات التي يمكن لعلم النفس أن يقدِّمها في مجال المدرسة (أو أي مؤسسة أخرى تعليمية)، حتى يشترك مع غيره من العلوم في خدمة المدرسة ورفع كفاءتها. ولقد تبين لنا أنَّ علم النفس يمكن أن يقدم الكثير في هذا المجال سواء ما يتعلق فيه بالتلميذ أو بالمعلم وبطرق التدريس وتنظيم التدريس واستخدام الثواب والعقاب وكيفية الإدارة بالمدرسة.

وإذا كانت البلاد المتقدمة قد استعانت بإسهامات علم النفس في مدارسها وفتحت له أوسع الأبواب، وهيَّأت له أنسب الظروف لكي يمارس تطبيقاته، فإنَّ البلاد النامية أولى منها بذلك وأشد حاجة حتى يمكنها أن تخفض هذه النسبة العالية فيها من الأمية وأن ترفع هذا المستوى المنخفض فيها من التعليم.

المـــراجع

- دوجلاس فراير: سيكولوجية المهن الحرة - ترجمة الدكتور السيد محمد خيري - في ميادين علم النفس - المجلد الثاني - أشرف على تأليفه جيلفورد - وأشرف على ترجمته دكتور يوسف مراد - القاهرة - دار المعارف - ١٩٥٦.

٢ - موريس فيتلس: علم النفس المهني - ترجمة الدكتور أحمد زكي صالح - في ميادين علم النفس - المجلد الثاني - أشرف على تأليفه جيلفورد وأشرف على ترجمته دكتور يوسف مراد - القاهرة - دار المعارف ١٩٥٦.

٣ - هوراس انجلش: علم النفس التربوي - ترجمة الدكتور السيد محمد خيري - في ميادين علم النفس - المجلد الأول - أشرف على تأليفه جيلفورد وأشرف على ترجمته دكتور يوسف مراد - القاهرة - دار المعارف ١٩٥٥.

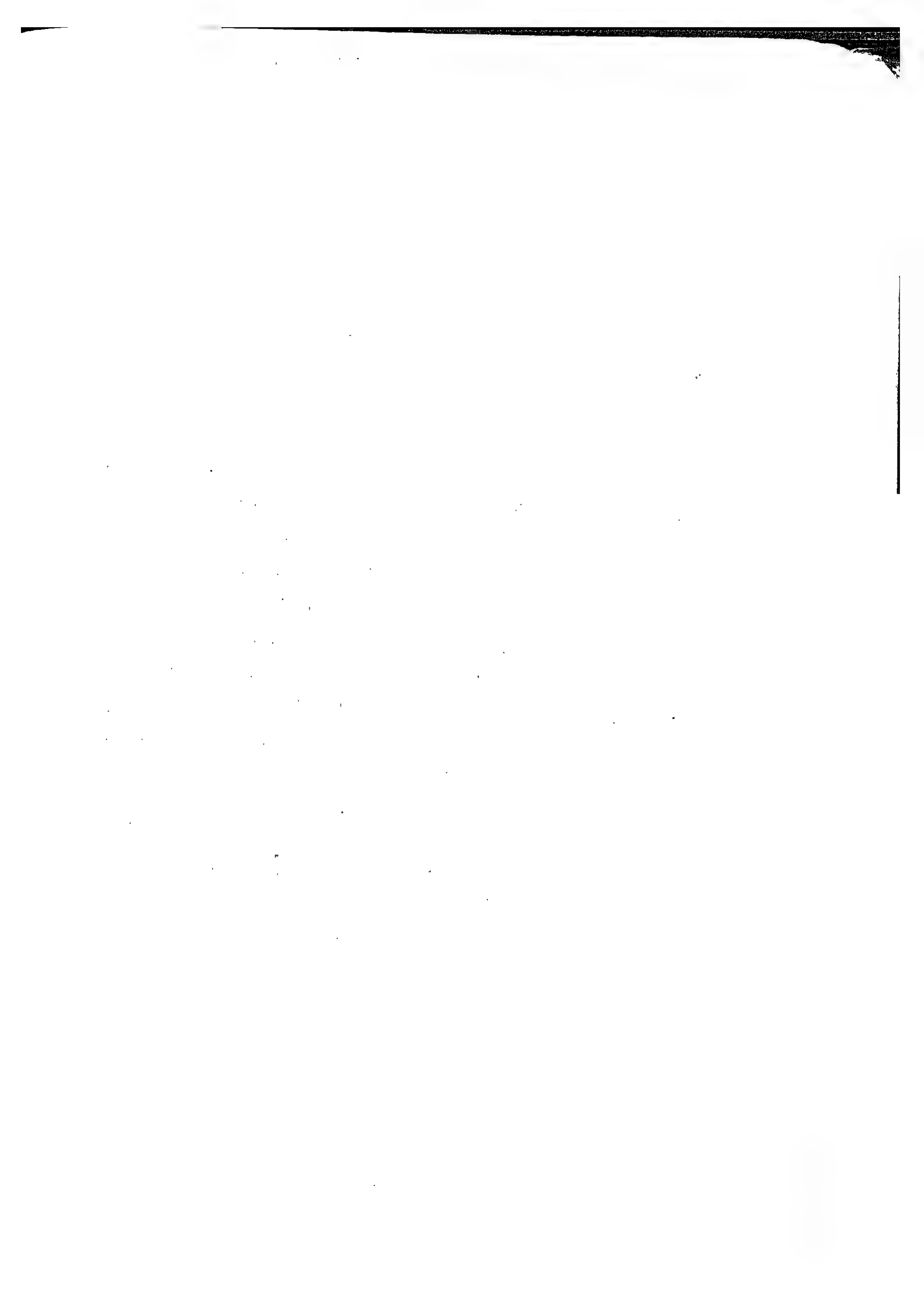
٤ - **Anastasi, A.** Psychologicat Testing, Macmillan Company, 1970.

٥ - **Fraser, J**; Psychology: General, Industrial, Social, Pitman London 1971.

٦ - **Johnson, R.** And G. Medinnus, Ghild Psychology; Behavior and Developement, John Willy Et Sons, New York; 1974.

٧ - **Levanway, R.** Advanced General Psychology, Davis Company Philadelphia, 1972.

٨ - **Valentine C.** The Normal Child and Some Of His -Abnorma - Lities Pelican Books, 1956.



الفصل الخامس

علم النفس الصناعي والإدارة(*)

* تمهيد.
* ما هو علم النفس الصناعي.
* مجالات علم النفس الصناعي.
* تدريس الجامعة لعلم النفس الصناعي.
* خاتمة.

(*) البحث الذي اشترك به المؤلف في المؤتمر العربي الأول لتدريس العلوم الإدارية بالقاهرة عام ١٩٧١ تحت عنوان: علم النفس الصناعي - حاجة الإدارة إليه وتدريس الجامعة له.
ونشر بعد ذلك بمجلة العلوم الإدارية - مجلد ١٣ - عدد ٣ ديسمبر ١٩٧١.

تمهيد:

هناك ثلاثة أهداف أساسية ينبغي على الإدارة في مؤسسة العمل أن تعمل على تحقيقها في الدول النامية بقدر ما تستطيع، وهي:

١ ـ الوصول بالإنتاج إلى أعلى حد ممكن، سواء بالنسبة للناحية الكمية (مقدار الإنتاج) أو الناحية الكيفية (جودة الإنتاج ونوعيته).

٢ ـ تحقيق أكبر قدر ممكن من الرضا بالعمل في المؤسسة والراحة النفسية للعاملين فيها.

٣ ـ القدرة على تصريف منتجات المؤسسة «إذا كانت المؤسسة تنتج منتجات للبيع».

وينبغي أن يكون تقييمنا لأيَّة إدارة (أو لأي رئيس في عمل) مبنياً أساساً على مدى النجاح في تحقيق هذه الأهداف في المؤسسة التي تتولى إدارتها (أو العمل الذي يقوم الرئيس برئاسته).

هذا ـ وتسهم العلوم المختلفة في ترشيد الإدارة لتحقيق أهدافها، بما تقوم به من دراسات وبحوث عن المشاكل التي تعترض تحقيقها، وبما تنتهي إليه من اكتشافات ونتائج علمية على أساسها تقدم حلولاً وتوصيات للتغلب على هذه المشاكل وعلاجها. وكل هذا ـ في نهاية الأمر ـ يسهِّل مهمة الإدارة ويعمل على تحقيق أعلى مستوى ممكن من النجاح لها.

ولم يتخلَّف علم النفس عن المشاركة في هذه المساهمة، إذ قدَّم ـ ولا زال يقدم ـ الكثير من الأسس السيكولوجية التي تستفيد من تطبيقاتها الإدارة في مؤسسات العمل، وقام ـ ولا زال يقوم بالكثير من الدراسات والبحوث للتعرف على أفضل الوسائل التي يمكن الاستعانة بها على حل المشاكل التي تعترض العمل والإنتاج. ولقد بلغ اهتمام علم النفس بتحقيق هذا حداً بعيداً إلى درجة أن خصص أحد فروعه والمعروف «بعلم النفس الصناعي» لخدمة هذا وحده.

ما هو علم النفس الصناعي؟

إنَّ المستعرض لمختلف التعريفات التي ذكرت عن علم النفس الصناعي سواء بقواميس علم النفس أو كتبه ـ العربية أو الأجنبية ـ يجد أنَّها جميعاً تدور حول فكرة أساسية عنه خلاصتها أنَّه: أحد فروع علم النفس الذي يهدف إلى تطبيق نتائج هذا العلم، ونظرياته، ومناهجه في البحث، في ميدان الصناعة بصفة خاصة والعمل بصفة عامة، وذلك بهدف الوصول إلى أفضل الحلول الممكنة للمشاكل التي تبرز في هذا الميدان.

هذا ـ ويمكننا أن نفصل الهدف الشامل لعلم النفس الصناعي إلى الأهداف الفرعية التي يذكرها فيتلس Viteles فيما يلي: ـ

١ ـ زيادة الكفاية الصناعية.

٢ ـ زيادة توافق العامل في عمله.

٣ ـ إنشاء نوع من الاستقرار الصناعي بإزالة مصادر الشكوى والمنازعات بين العمال وأصحاب العمل[١].

ونضيف إليها ـ بالنسبة للبند الأول ـ زيادة الكفاية الإنتاجية سواء

---

(١) موريس س فيتلس، في فصل علم النفس المهني، من كتاب ميادين علم النفس الذي أشرف على تأليفه جيلفورد، ترجمة دكتور أحمد زكي صالح، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٦ ص ٧٥٥.

صناعية أم غير صناعية، وبالنسبة للبند الثالث، إزالة مصادر الشكوى والمنازعات بين العاملين من جانب وبين الإدارة أو ممثليها أو نظمها أو لوائحها من جانب آخر.

مجالات علم النفس الصناعي:

فإذا كانت هذه الأهداف الهامة هي ما يهدف علم النفس الصناعي إلى تحقيقه وإذ كانت بلادنا تخوض هذه الأيام معركة ضارية لتحقيق نهضة صناعية جديرة بنقلنا إلى المجتمع الصناعي العصري، وإذا كان تحقيق هدف النهضة الصناعية في نهاية الأمر - أمانة تحملها الإدارة بمفهومها الواسع، فإنَّه ينبغي علينا إلقاء بعض الضوء على المجالات المختلفة التي يقدم فيها علم النفس الصناعي خدماته محاولين إبراز ما يمكن تحقيقه في هذه المجالات إسهاماً منه في مساعدة الإدارة على تحقيق أقصى قدر ممكن لها من النجاح. ولا شك أنَّ هذه المجالات يصعب حصرها حصراً شاملاً، لهذا سوف نكتفي بقصر هذا الحديث على المجالات الأكثر أهمية، والأجدر بالتركيز عليها، وهي مجالات الاختيار المهني - والتوجيه المهني - والتدريب المهني - والتأهيل المهني - والهندسة البشرية - وظروف العمل الطبيعية - وتقييم العمل - وإصابات العمل - وقياس مدى كفاءة العامل - والعلاقات الإنسانية في مجال العمل - وحوافز العمل - والروح المعنوية للعاملين - والإرشاد النفسي لهم - والدعاية للمنتجات.

١ - الاختيار المهني Vocational Selection:

نقصد بالاختيار المهني أن نختار للتعيين في العمل أفضل من تقدم للعمل صلاحية لشغله، فنعينهم فيه. فإذا كان العمل - على سبيل المثال - في حاجة إلى تشغيل ١٠٠ فرد وتقدم ٢٠٠ فرد بطلبات للالتحاق بهذا العمل فإنَّ الاختيار المهني هنا تكون مهمته انتقاء أصلح ١٠٠ من هؤلاء الـ ٢٠٠ لتعينهم في هذا العمل. وفي هذه الحالة يقوم الأخصائي بتحليل العمل الذي

تريد المؤسسة الاختيار له، لكي يحدد الخصائص النفسية والجسمية المختلفة التي ينبغي أن يتصف بها الفرد حتى ينجح في القيام بهذا العمل مثل الطول والقوة العضلية والذكاء والذاكرة والقدرة الميكانيكية والقدرة الحسابية والقدرة اللفظية والاتزان النفسي. . . إلخ. كما يحدد الأخصائي في تحليل العمل المقدار الذي ينبغي أن تكون عليه كل خاصية من تلك الخصائص حتى تكون مناسبة لهذا العمل. وبالتالي يكون الفرد الذي تتوافر فيه هذه الخصائص بالمقادير المناسبة ذا استعداد طيِّب للنجاح في هذا العمل. ثمَّ بعد ذلك يقوم الأخصائي بتصميم أو اختيار بناء على نتائج تحليل العمل هذا ـ مقاييس ووسائل (مثل الاختبارات النفسية والمقابلة) لتقدير مدى توافر هذه الخصائص في المتقدمين هؤلاء (الـ ٢٠٠ متقدماً).

وإذا نجحت الإدارة في القيام بالاختيار المهني على أسس علمية موضوعية سليمة دون أن تتأثر بأيَّة أهواء شخصية، فإنَّها تستطيع بذلك تحقيق فوائد ملموسة، ففي بعض الأحيان بلغ متوسط إنتاج العمال الذين اختيروا على أسس الاختيار المهني السليم أربعة أمثال متوسط من عينوا في العمل بطريقة الاختيار العشوائي[١]. ومن بحث لبنيت وفير[٢] Bennett and Fear (عام ١٩٤٣) عن اختيار عمَّال ميكانيكيين تبين لهما أنَّ اختباري الفهم الميكانيكي ومهارة اليدين في استخدام الأدوات كانت لهما قدرة عالية على التمييز بين الممتازين في عملهم والضعاف من الميكانيكيين. وبناء على هذا طبق هذان الاختباران على عمال ميكانيكيين جدد. وبعد عام من العمل لهؤلاء العمال قدِّر بعضهم بأنَّه ممتاز في عمله والبعض بأنَّه جيِّد، والبعض بأنَّه متوسط، والبعض بأنَّه أقل من المتوسط والبعض الآخر بأنَّه ضعيف، كما قسم نفس العمَّال بناء على درجات الاختبارين مندمجين إلى أربعة

---

(١) دكتور السيد محمد خيري، علم النفس الصناعي وتطبيقاته المحلية، القاهرة، النهضة العربية: ص ٢٠٩

(٢) المرجع السابق ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

مستويات، أ، ب، جـ، د، بحيث كان مستوى أيضم أعلى العمال درجات في الاختبارين معاً، و د أقل العمال درجات. والجدول في الصفحة التالية يلخص نتائج هذه الدراسة.

ومن هذا الجدول تتضح العلاقة الوثيقة بين درجات الاختبارين وبين النجاح في العمل، حيث إننا لا نجد في المستويين الضعيفين في العمل (الأقل من المتوسط والضعيف في العمل) فرداً واحداً كان ممتازاً في الاختبارين كما أننا لا نجد فرداً واحداً ممتازاً في العمل وقع ضمن من حصلوا على الدرجات الضعيفة في الاختبارين (المستوى د).

وهذا يشير إلى أن استخدام الوسائل المناسبة لاختيار العمال الجدد على أساسها يمكننا من اختيار أصلح العمال للنجاح في الغمل واستبعاد ذوي الاستعداد الضعيف للأداء الفعلي للعمل.

جدول يوضح العلاقة بين مستوى الأداء الفعلي
في العمل ومستويات درجات الاختبارين معاً

مستوى الأداء الفعلي	مستوى الدرجات في الاختبارين مندمجين				
	أ	ب	حـ	د	المجموع
	٪	٪	٪	٪	٪
ممتاز في العمل	٥٠	٤١	٩	صفر	١٠٠
جيد في العمل	٣١	٤٤	٢١	٤	١٠٠
متوسط في العمل	١٨	٣٦	٣٦	١٠	١٠٠
أقل من المتوسط	صفر	٤٣	١٩	٣٨	١٠٠
ضعيف في العمل	صفر	٢٥	٢٥	٥٠	١٠٠

ولو تركنا مجال الصناعة إلى مجال آخر من مجالات العمل هو مجال النقل، لنرى ما يمكن للإدارة أن تحققه من كسب إن هي عملت على تهيئة

عملية اختيار مهني سليمة تعين على أساسها العاملين في مؤسستها فإننا نجد أمثلة كثيرة واضحة الدلالة من أهمها تلك الدراسة التي قام بها لاهي[1] Lahy، فقد لاحظت شركة النقل المشترك بباريس ارتفاعاً ملحوظاً في عدد حوادث سائقيها مما كان يكلفها الكثير حيث بلغت حوادثها في عام ١٩٢٢ ثمانية عشر ألف حادثة أودت بحياة الكثيرين من الركاب والمارة وكلفت الشركة خسائر مادية ومعنوية ضخمة. فدعت في عام ١٩٢٣ لاهي لدراسة المشكلة ووضع خطة كاملة لعلاجها. فقام بتحليل دقيق لعمل السائق أدّى به إلى اكتشاف الاستعدادات النفسية والمهارات الحركية اللازمة للنجاح في مهنة السواقة. ووضع لكل منها اختباراً أو أكثر لقياسها. ثمَّ بدأ يختار السائقين للشركة على أساس تطبيق هذه الاختبارات. فكان من أهم نتائج هذا الاختبار المهني السليم ما يلي:

١ ـ أن انخفضت نسبة السائقين الذين كانوا يستبعدون أثناء التدريب لعدم صلاحيتهم من ٢٠٪ قبل استخدام الاختبارات إلى ٤٪ فقط بعد استخدامها.

٢ ـ أن نقصت المدة التي كانت تلزم لتدريب السائقين من خمسة عشر يوماً قبل استخدام الاختبارات إلى عشرة أيام بعد استخدامها، فوفر ذلك للشركة حوالي ثلث نفقات التدريب.

٣ ـ أن انخفض معدَّل حوادث سائقي الشركة عاماً بعد عام، حتى إنَّ متوسط عدد حوادث السنة الواحدة بالنسبة للسائق في عام ١٩٢٣ ـ والذي كان ٢و٢ حادثة ظلَّ ينخفض حتى أصبح نصف حادثة عام ١٩٤٨.

من هذه البحوث وغيرها يتبين لنا أنَّ عملية الاختيار المهني السليم تحقق للإدارة فوائد جمَّة، فهي تساعدها على أن تصل بإنتاجية المؤسسة التي

---

(١) الدكتور يوسف مراد، دراسات في التكامل النفسي، القاهرة، مؤسسة الخانجي ١٩٦٨، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٨.

تتولى إدارتها إلى معدَّل مرتفع كماً وكيفاً، مع خفض معدلات الحوادث أثناء عملية الإنتاج، كما تجعل العامل أكثر استعداداً للإفادة من التدريب وأكثر سرعة في اكتساب المهارات المتطلبة للنجاح في العمل.

وإذا كان الاختيار المهني السليم يحقق للإدارة كل هذه المكاسب فيما يتعلَّق بالإنتاج كهدف أساسي لإدارة المؤسسة، فإنَّه بالمثل يحقق للإدارة هدفها الأساسي الآخر من حيث رضا العاملين بعملهم في المؤسسة وراحتهم النفسية. فالعامل الذي يختار للعمل الذي يتناسب وإمكانياته الجسمية والنفسية سوف ينجح فيه. وتبعاً لذلك سوف يزداد أجره وترتفع قيمته في نظر المسؤولين، فتنفتح أمامه سبل التقدم والترقي. ولا شكَّ أنَّه لا يوجد شيء أدعى من ذلك لتحقيق رضا العامل بعمله وراحته النفسية فيه. بل إنَّ سوء الاختيار المهني يؤدي بالفرد في نهاية الأمر إلى أن يبلغ فشله في العمل وضيقه به درجة يضطر معها إلى تركه للعمل برغبته أو فصله منه بالرغم عنه. ففي دراسة لبيل Bill[1] عام ١٩٢٣ على ١٣٣ عاملاً كانوا يعملون في خمس حرف تمثل خمسة مستويات من الذكاء المتطلب للنجاح فيها، قام بتطبيق اختبار للذكاء على هؤلاء العمال، وبعد عامين ونصف أحصى الذين استمروا في أعمالهم، فتبين له أنَّ الممتازين في ذكائهم تركوا الحرفتين اللتين تتطلبان مستوى منخفضاً من الذكاء للنجاح فيها، أمَّا الحرفة التي تتطلب مستوى ممتازاً من الذكاء فقد استمر ٥٧٪ من الممتازين عقلياً فيها في مقابل ٧٪ فقط من ضعافه. لهذا فإنَّ الاختيار المهني لو تمَّ على أسس علمية سليمة وبعد عن الأهواء الشخصية فإنَّه ينجح بدرجة كبيرة في وضع الفرد في العمل الذي يناسبه، وبذلك يسهم إلى حد بعيد في استمرار العامل في عمله، وإبعاد خوفه من احتمال فقدانه لمصدر رزقه وما يتعرَّض له بسبب ذلك من متاعب جمَّة مادية ونفسية. وهكذا يتحقق للعامل قدر أكبر من الرضا بالعمل في

---

(١) دكتور السيد محمد خيري «الصحة النفسية والصناعة» مجلة الصحة النفسية عدد ١ ـ مجلد ١ ـ ١٩٥٨ ص ٥٨ ـ ٥٩.

المؤسسة والراحة النفسية. ولو أضفنا إلى ذلك أنّ بعض الدراسات تشير إلى أنَّ متوسط التكاليف التي تنتج عن ترك العامل الواحد للمؤسسة ثمَّ إعادة تعيين غيره وما يستتبع ذلك من ضرورة تدريبه حتى يصل إلى مستوى مناسب للإنتاج. يصل في البلاد الصناعية إلى ٢٠٠ دولار[1] لأدركنا مدى أهمية انخفاض دوران العمل... Turnover كهدف تسعى إدارة المؤسسة بقدر استطاعتها لتحقيقه. وهكذا فإنَّ عملية الاختيار المهني السليم تساعد الإدارة على تحقيق أهدافها إلى حد بعيد.

لكن هناك تساؤلاً كثيراً ما يتبادر إلى الذهن عن الخلفية الإنسانية لعملية الاختيار المهني على الأساس العلمي، إذ يظن البعض أنَّ عملية الاختيار المهني السليم إنما تحسن فقط إلى فريق من الناس هم من يختارون للعمل المطلوب التعيين فيه دون أن تهتم بالفريق الكبير الذي يستبعد أثناء عملية الاختيار هذه. إلَّا أنَّ هذا الظن مردود عليه إذا ما ذكرنا مع أيزيك Eysenck «أنَّ الشخص الذي يلمع في عمل معين قد يكون فاشلاً تماماً في غيره ومتوسطاً في ثالث. فارتباطات النجاح في أوجه نشاط مختلفة تكون ضعيفة نسبياً، مما يشير إلى أن المهن الصناعية المختلفة تتطلب بالأحرى أنماطاً مختلفة من القدرة»[2] ويؤيد مبدأ الفروق الفردية هذا الرأي حيث يقرر أن أي فرد كان يمتلك كل قدرة بدرجات متفاوتة، وأنَّ الفروق بين الأفراد ليست كيفية (بمعنى امتلاك الفرد القدرة أو عدم امتلاكه لها) وإنما هي فروق كمية فقط (بمعنى أنَّ الذي يفرق بين فرد وآخر من حيث قدرة معينة هو فقط أنَّ هذه القدرة تتوافر بدرجة أعلى أو أقل في هذا الفرد عن الآخر). كما أنَّ الارتباط بين القدرات المختلفة ارتباط ضعيف. بمعنى أنَّ الفرد قد يكون ضعيفاً في الاستعداد الميكانيكي قوياً في الاستعداد

(١) الكتاب السابق للدكتور السيد محمد خيري ص ٢١٤.

(٢) H. J, Eysenck: Uses and Abuses Of Psychology, Pelican Book, 1953. P. 102.

اللغوي... وهكذا. وبالتالي فإنَّ من يستبعد في عملية الاختيار المهني لعمل معين قد يكون من أوائل المقبولين للتعيين في عمل آخر يتطلب استعدادات معينة بدرجات تختلف عن العمل الأول. فكما أنَّ الأفراد تختلف عن بعضها في درجات توافر الاستعدادات الجسمية والنفسية، فبالمثل أيضاً نجد أنَّ الأعمال تختلف فيما بينها فيما تتطلبه من استعدادات بدرجات معينة. وهكذا تكون مهمة الاختيار المهني تحقيق أكبر قدر ممكن من الملاءمة بين استعدادات الفرد ومتطلبات العمل الذي يختار له. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنَّه إذا كان الذين يمتلكون الاستعدادات الجسمية والنفسية بدرجات عالية نسبة قليلة من المجتمع، فإنَّ نسبة الأعمال التي تتوافر في المجتمع وتتطلب هذه الاستعدادات بدرجات عالية هي أيضاً قليلة. وإذا كانت نسبة الذينَّ يمتلكون هذه الاستعدادات بدرجات متوسطة تمثل غالبية المجتمع فإنَّنا بالمثل أيضاً نجد أنَّ نسبة الأعمال في المجتمع والتي تتطلب هذه الاستعدادات بدرجات متوسطة تمثل غالبية الأعمال. وكذلك أيضاً إذا كانت نسبة الذين يمتلكون هذه الاستعدادات بدرجات منخفضة تمثل نسبة قليلة من المجتمع، فإننا أيضاً نجد أنَّ نسبة الأعمال التي تتطلب هذه الاستعدادات بدرجات منخفضة هي نسبة قليلة في المقارنة بما يتوافر في المجتمع من أعمال. وهكذا يجد كل في المجتمع العمل الذي يتناسب واستعداداته، ولا تسيء عملية الاختيار المهني السليم إلى أحد كما يظن البعض. ولو أضفنا إلى ذلك أنَّ العمل الذي يحتاج إلى تعيين ١٠٠ فرد فيه ولا يتسع لغيرهم، سوف يقوم بتعيين ١٠٠ عامل فقط سواء عن طريق الاختيار المهني السليم (والذي يتم على أساس موضوعي بعيداً عن الأهواء الشخصية) أو عن طريق غير علمي (كالاختيار العشوائي إن كانت النية صافية أو الاختيار بناء على الأهواء الشخصية والانحيازات الذاتية) ولا شك أن اختيار هؤلاء الـ ١٠٠ عامل بالطريق العلمي الموضوعي أفضل من اختيارهم بالطريق غير العلمي طالما كنا سوف نحسن فقط (بتعبير من ينتقدون طريقة الاختيار المهني السليم) إلى ١٠٠ من أفراد المجتمع في كلا الحالتين.

ويهذا يتحقق لكل من العامل والإنتاج مصلحتهما المتكاملة بعملية الاختيار المهني السليم.

٢ ـ التوجيه المهني: (Vocational Cuidancc):

إذا كان المقصود بالاختيار المهني هو انتقاء أصلح المتقدمين لشغل عمل معيَّن، فإنَّ المقصود بالتوجيه المهني هو انتقاء أنسب عمل لشخص معين. أي أننا في الحالة الأولى (الاختيار المهني) يكون عندنا أشخاص كثيرون متقدمون لعمل معين، وتتلخص المهمة في أن ننتقي من بينهم أصلحهم للقيام بهذا العمل فنعينهم فيه، بينما في الحالة الثانية (التوجيه المهني) يكون عندنا شخص واحد وأمامنا أعمال عديدة، وتتلخص مهمتنا في أن ننتقي له من بين هذه الأعمال الكثيرة أنسب عمل تؤهله له استعداداته الجسمية والنفسية فنوجهه للالتحاق به لهذا فإنَّ الهدف النهائي لكل من عمليتي التوجيه والاختيار واحد، ألا وهو وضع الشخص في العمل الذي يتناسب واستعداداته الجسمية والنفسية. ومن هنا فإنَّ الخطوتين الأساسيتين في عملية الاختيار، وهما تحليل العمل للكشف عن الاستعدادات اللازم توافرها في الشخص حتى ينجح فيه، وتحليل الشخص لقياس مدى توافر تلك الاستعدادات فيه بنفس الدرجة المطلوبة، هما أيضاً الخطوتان الأساسيتان في عملية التوجيه. وقد تجمع الإدارة بين العمليتين في وقت واحد حسب ظروف التشغيل في المؤسسة بصفة خاصة وفي السوق بصفة عامة، كأن تكون الأيدي العاملة نادرة في السوق فيضطر المسؤولون إلى اختيار الصالح من المتقدمين لعمل معين وتوجيه غير الصالحين منهم لهذا العمل، إلى أعمال أخرى داخل نفس المؤسسة يتبين من استعداداتهم أنهم يصلحون لها.

ولا تقل الفائدة التي يمكن أن تحققها الإدارة من الاستعانة بعمليات التوجيه المهني السليم عن تلك التي تحققها عن طريق الاختيار المهني السليم، وهي تلك الفوائد التي تعود من وضع الفرد في العمل الذي يتناسب

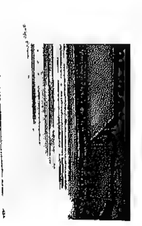
واستعداداته الجسمية والنفسية على نحو ما ذكرنا عند مناقشة فوائد الاختيار المهني. وفي الدراسة التي اشتهرت بتجربة برمنجهام للتوجيه المهني[1] خير دليل على ذلك. ففي هذه التجربة قام الباحثون بتتبع ١٦٣٩ طفلاً لمدَّة سنتين، واستمروا في تتبع ٦٠٣ منهم لمدَّة أربع سنوات. وقد وفِّر لنصف هؤلاء الأطفال التوجيه المهني على أسس نفسية سليمة. بينما لجأ النصف الآخر إلى مكاتب العمل العادية التي لا يوجد بها أخصائيون نفسيون طالبين نصحها. وقسم كل فريق منهما إلى فئتين إحداهما ضم الذين التحقوا بالعمل طبقاً للنصيحة التي قدمت لهم والأخرى تضم الذين خالفوا هذه النصيحة والتحقوا بأعمال أخرى. ولما تتبع الباحثون هؤلاء الأطفال لمدة سنتين وبعضهم لمدة أربع سنوات تبين لهم أنَّ ٩٠٪ من الذين طبق عليهم التوجيه المهني على أسس نفسية وعملوا بتوجيه الأخصائي النفسي كانوا بعد عامين من التحاقهم بالعمل سعداء به راضين عنه غاية الرضا، وذلك في مقابل ٣٦٪ فقط من الذين خالفوا توجيه الأخصائي النفسي فالتحقوا بأعمال أخرى غير التي اختارها لهم، وبعد أربع سنوات أصبحت النسبتان المقابلتان هما ٩٣٪ و٣٣٪ على التوالي. ويدل هذا بوضوح على أنَّ الالتحاق بالعمل حسب عملية توجيه مهني على أساس نفسي سليم يؤدي إلى إحساس للعامل بالرضا عن عمله بالمؤسسة فيسعد به ويتحقق له قدر أكبر من الراحة النفسية كهدف أساسي تسعى الإدارة إلى تحقيقه للعاملين في المؤسسة. أمَّا بالنسبة لمن توجهوا لمكاتب العمل العادية (التي لم يتوافر فيها التوجيه النفسي) طلباً لنصيحتها ثمَّ عملوا بهذه النصيحة فالتحقوا بالأعمال التي اختارتها لهم مكاتب العمل هذه، فقد تبين بعد مرور سنتين من التحاقهم بالعمل أنَّ نسبة الراضين عن أعمالهم منهم كانت ٦٤٪ ولم تزد عن ذلك بعد مرور أربع سنوات من التحاقهم بالعمل، بينما كانت نسبة الراضين عن أعمالهم من أولئك الذين التحقوا بأعمال تخالف ما اختارته لهم مكاتب العمل العادية هذه

(١) الدكتور عبد المنعم المليجي: خبراء النفوس ـ مكتبة مصر، القاهرة ١٩٥٦ ص ٧٦، ٧٩.

بعد سنتين من التحاقهم بالعمل أعلى، إذ بلغت ٧٦٪ ثمَّ ارتفعت إلى ٧٨٪ بعد مضي أربع سنوات من التحاقهم بالعمل. وهذا يعني أنَّ الذين عملوا حسب نصيحة مكاتب العمل هذه كانوا أقل رضا عن أولئك الذين تجاهلوا نصيحتها والتحقوا بأعمال تخالفها. وهذا يدلل على أنَّ الوسائل النفسية العلمية التي يلجأ إليها الأخصائي النفسي في التوجيه المهني تساعد الفرد كثيراً على اختيار العمل الذي يرتاح له ويسعد به، وأنَّ مكاتب العمل العادية لا تستطيع أن تفي بهذا الغرض ما لم يتوافر لها أخصائي نفسي للتوجيه المهني.

وإذا تابعنا هذه التجربة لنرى أثر التوجيه المهني في تحقيق نجاح الفرد في عمله وتوفيقه فيه كما يدل عليه احتفاظه بالعمل وعدم تركه له أو فصله منه. لوجدنا أنَّ ٦٠٪ من الذين التحقوا بأعمال طبقاً لتوجيه الأخصائي النفسي ظلوا بها طوال السنتين، واستمر ٤٦٪ منعهم طوال السنوات الأربع من تتبعهم. أمَّا الذين التحقوا بأعمال مغايرة لتوجيه الأخصائي النفسي فلم يستمر في العمل منهم في السنتين الأوليين سوى ١١٪ فقط، واستمرَّت نفس النسبة مدة السنوات الأربع أيضاً، أما الذين التحقوا بأعمال نصحتهم بها مكاتب العمل العادية فقد تبين أنَّ ٣٧٪ منهم استمروا في عملهم لمدة السنتين، ثمَّ هبطت هذه النسبة إلى ٢٧٪ بعد مضي فترة السنوات الأربع. في حين أنَّ الذين خالفوا نصيحة مكاتب العمل العادية والتحقوا بأعمال أخرى غير التي نصحتهم بها استمرَّت منهم في أعمالهم نسبة ٣٣٪ لمدة سنتين و ٢٦٪ لمدة السنوات الأربع. وهكذا لا نجد فروقاً تكاد تذكر بين من عملوا بتوجيه مكتب العمل العادي ومن خالفوه، بعكس الأمر بالنسبة لمن عملوا بتوجيه الأخصائي النفسي ومن خالفوه.

وهكذا، فإنَّ التوجيه المهني على أسس نفسية علمية سليمة ينجح في توجيه الفرد إلى العمل الذي يناسب قدراته واستعداداته، فيتحقق له بذلك الرضا عن عمله والسعادة به والقدرة على أدائه والإقبال عليه والاستمرار فيه،



فيزداد تبعاً لذلك إنتاجه، ويحسن توافقه في عمله. ولا شك أنَّ هذه كلها أهداف تسعى إدارة أية مؤسسة لتحقيقها. وبهذا يشارك التوجيه المهني على أسس علمية نفسية سليمة في مساعدة الإدارة على تحقيق أهدافها، ويعمل على إنجاحها.

٣ ـ التدريب المهني **Vocational Training**:

إنَّ كلًّا من عملية الاختيار المهني وعملية التوجيه المهني بناء على أسس علمية نفسية سليمة لا تكفي لتحقيق كل التوفيق والنجاح المنشودين للفرد في عمله، والحفاظ عليهما في مستوى مرض، بل ينبغي أن تتبع ذلك عمليات تدريب لرفع مستوى كفاءة الفرد في أدائه لعمله، ولمساعدته على تحقيق أكبر قدر من التوافق والتوفيق فيه. ويكون من أهم مسؤوليات الإدارة وواجباتها أن تعمل على تهيئة برامج تدريبية مناسبة تساعد الفرد على اكتساب الكثير من المهارات والمعارف اللازمة لتطوير كيفية أدائه لواجبات عمله ولرفع كفاءته فيه.

ولا شكَّ أنَّ لبرامج التدريب المناسبة فوائد كثيرة تؤدي إلى مساعدة الإدارة على تحقيق أهدافها وتعمل على إنجاحها. فعلى سبيل المثال تبين من إحدى الدراسات[١] أنَّ الوقت اللازم لتغيير أسلحة مقص متحرك كان في المتوسط ٢٩ دقيقة حيث لم يطرأ عليه تحسن خلال ست سنوات. وعندما تلقى العاملون برنامجاً تدريبياً مناسباً انخفض هذا الوقت حتى أصبح حوالي ١٨ دقيقة في المتوسط، أي انخفض بمقدار يزيد عن الثلث، مما وفَّر للمؤسسة مبالغ طائلة. كما يعمل التدريب أيضاً على التقليل من كمية التلف في الآلات والمواد المستخدمة في عملية الإنتاج. ففي أحد البحوث[٢] قل

---

(١) نورمان ماير: علم النفس في الصناعة، ترجمة للدكاترة محمد عماد الدين إسماعيل وصبري جرجس وأمين كمال محمد، القاهرة مؤسسة الحلبي ١٩٦٧ ص ٤١٤.

(٢) المرجع السابق ص ٤١٥.

استبدال عجلات التجليخ بالتدريج مع ازدياد فترة التدريب، حتى بلغ معدَّل الاستبدال بالنسبة لمن تلقوا تدريباً لمدة ١٢ أسبوعاً نصف معدله للعمال ذوي خبرة لمدة ٣٦ أسبوعاً، مما يشير إلى أنَّ البرامج التدريبية المنظمة أفضل قيمة من الخبرة غير المنظمة والتي يحصل عليها العامل تلقائياً. كما أنَّ التدريب يعمل أيضاً على خفض معدلات غياب العاملين وخفض معدلات دوران العمل، مما يدل على أنَّ التدريب يرفع مهارة العامل وفي نفس الوقت يرفع روحه المعنوية ويزيد رضاه عن العمل وراحته النفسية فيه.

ويوضع برنامج التدريب لرفع المهارة في أداء عمل معين بناء على نتائج دراسات تحليل هذا العمل ونتائج دراسات الوقت والحركة فيه. فمن تحليل العمل يتبين لنا مختلف المهارات والقدرات والخبرات اللازمة للنجاح والتوفيق في أداء هذا العمل فنستفيد من ذلك في التعريف على المهارات والقدرات التي يلزم أن يستهدف برنامج التدريب رفعها لنضع في البرنامج فقرات تساعد على تحقيق ذلك.

أما عن الاستفادة من نتائج دراسات الوقت والحركة في العمل فإنَّها توقفنا على الحركات التي يقوم بها العامل أثناء تأديته لعمله مما يمكننا من دراسة كل حركة دراسة شاملة لتبين ما إذا كانت لازمة ومسهمة في عملية الإنتاج، أم طائشة غير مسهمة في الإنتاج وعبئاً عليه تستغرق وقتاً وجهداً دون لزوم، أم تحتاج إلى تعديل لتصبح أكثر راحة وأسرع وأكثر اقتصاداً لعملية الإنتاج. وبناء على هذا يمكننا في وضع برنامج التدريب على هذا العمل أن نستفيد أيضاً من نتائج دراسات الوقت والحركة هذه، بجعل برنامج التدريب يركِّز على تمرين العامل على الاحتفاظ بالحركات اللازمة لعملية الإنتاج وعلى استحداث الحركات اللازمة التي لم يكن يمارسها من قبل، وعلى التخلي عن الحركات الطائشة، وعلى تعديل الحركات التي يلزم تعديلها حتى تصبح أكثر راحة للعامل وأكثر اقتصاداً لوقته، وبهذا يصان للعامل وقته وطاقته اللذان كانا يتبددان في نشاط غير مسهم في الإنتاج، ويوجهان توجيهاً

مركزاً لعملية الإنتاج ولعلَّ دراسات تيلور. Tayler وتابعيه منذ أوائل القرن الحالي، خير مثال لفوائد التدريب على أسس تحليل العمل ودراسات الوقت والحركة. فعن طريق استخدام تيلور[١] لأسس رئيسية ثلاثة هي. اختيار أصلح الأفراد للعمل (الاختيار المهني) وتدريبهم على طرق الأداء الأكثر كفاية والحركات الأكثر اقتصاداً في خدمة الإنتاج (التدريب المهني)، ومنحهم مكافآت تشجيعية عبارة عن رفع الأجر كلما زاد الإنتاج (الدوافع النفسية وحوافز العمل) نقول عن طريق هذه الأسس استطاع تيلور أن يرفع إنتاجية العامل لأربعة أمثالها. كما استطاع أيضاً جلبرت Gilbreth[٢] أن يرفعها إلى حوالي ثلاثة أمثالها.

ولعلَّ مثل هذه الأمثلة التي ذكرناها عن فوائد التدريب المهني هي التي تدفع غالبية إدارات مؤسسات العمل ومصالحه إلى إفراد أقسام خاصة بها لتدريب العاملين على كافة مستوياتهم. لكن يتبقى علينا أن نوضح دور علم النفس الصناعي في مجال التدريب المهني فالأخصائي النفسي الصناعي يشترك في عمليات تحليل العمل الذي يراد وضع برنامج تدريبي له، وفي دراسات الزمن والحركة الخاصة بهذا العمل، وفي وضع وتنسيق فقرات برنامج التدريب عليه. وهو يشترك مع مختلف الأخصائيين في ذلك (سواء فنيين، مهندسين، إداريين. . .) حيث يطبق الأسس النفسية العلمية التي تؤدي في النهاية إلى رفع كفاءة التدريب وتحقيقه للهدف المنشود منه. فإذا كان الأمر في عملية التدريب لا يخرج عن تناول إنسان لتعليمه طرقاً ومهارات واتجاهات تفيده في عمله، وتدريبه على التخلي عن طرق واتجاهات غير صالحة أو لا تفيده في العمل، فإنَّ الاستفادة التطبيقية من الأسس النفسية

---

(١) براون: علم النفس الاجتماعي في الصناعة، ترجمة الدكاترة: السيد محمد خيري وسمير نعيم ومحمود الزيادي، دار المعارف، ١٩٦٠ ص ١١.

(٢) Michael Argyle, Psychology and Social Problems, Associate Book Publishers, London, 1967, P. 103.

العلمية المتعلقة بالجوانب النفسية للفرد كالقدرات والاستعدادات، والدوافع والحوافز، والملل والتعب.. إلخ في تنظيم وتنفيذ البرامج التدريبية أمر ولا شك لازم لإنجاحها ورفع كفايتها.

٤ ـ التأهيل المهني: Vocational Rehabilition:

قد يصاب الفرد بعاهة تقعده عن الاستمرار في مزاولة عمله (كما يحدث في إصابات العمل أو الحروب أو الحوادث المختلفة)، أو قد يكون الفرد معوقاً بحالته الراهنة عن تأدية عمل يحقق فيه الكفاية الإنتاجية بدرجة مرضية، تحقق له مستوى مناسباً من الكسب ومن رضا الإدارة بإنتاجيته. وفي هذه الحالة يأتي دور التأهيل المهني، فيجمع أساساً بين العمليتين السابق التعرض لهما وهما: التوجيه المهني والتدريب المهني، ليخدم فلسفة تقوم على أساسين: أحدهما تحقيق ذاتية العامل وكرامته وإنسانيته (عن طريق إيجاد عمل شريف ينتج فيه ويؤجر عليه) وثانيهما هو تعبئة كافة طاقات المجتمع لخدمة الإنتاج (عن طريق إعادة الفرد المعوق إلى العمل بكفاية إنتاجية مرضية).

وتكون مهمَّة الأخصائي النفسي في مجال التأهيل المهني هي الاشتراك ضمن فريق التأهيل المهني (والذي يتكوَّن أساساً من أخصائيين في الطب والعلاج الطبيعي والخدمة الاجتماعية والتدريب المهني والخدمة النفسية) في دراسة الفرد المصاب وتقديم كافة الخدمات له لعلاج حالته، ومساعدته على إيجاد عمل مناسب، وتدريبه عليه وتعيينه فيه. فيقوم الأخصائي النفسي بدراسة الفرد المصاب بالعاهة من حيث إمكانياته وقدراته الجسمية والنفسية الحالية ليوجهه إلى العمل الذي يرى أنَّه أنسب له بحالة عجزه الراهنة، ثمَّ يساعد في وضع برنامج تدريبي له حتى يجيد هذا العمل. ويتخلل ذلك تقديم جوانب أخرى من العون مثل المساعدة عن طريق الإرشاد النفسي (والعلاج النفسي) على تقبل حالة العجز هذه والتقليل من آثارها على حالة الفرد النفسية، ومثل مساعدته على الالتحاق بالعمل الذي أختير له، ومتابعته

بعد تعيينه في هذا العمل لمساعدته على حل ما يجابهه من مشاكل في عمله تؤثر على توافقه المهني وراحته النفسية.

وإذا كان التأهيل المهني يعتبر في المرتبة الأولى خدمة إنسانية إذ تحقق للفرد استمراره في العمل والإنتاج فيحفظ له بذلك كرامته كإنسان يبغي العمل لكسب العيش ولتحقيق الذات، فإننا نجد من جانب آخر، أنَّ الدراسات والتقارير التي كتبت عن الكفاية الإنتاجية والتوفيق المهني لذوي العاهات تشير إلى أنَّهم يحققون مستوى مرضياً في كليهما. فمن الدراسة المقارنة التي قام بها ماك فارلاند[1] Mc Farland وقارن فيها بين ٦٨٥ عاملاً من ذوي العاهات وعدد مماثل من الأسوياء تبين أنَّ نسبة الفصل المسبب كانت أعلى بمقدار ٦و٥٪ بين الأسوياء وأنَّ ذوي العاهات حصلوا على زيادة في الأجور بنسبة ٦و٤٪ كما كان معدَّل غيابهم أقل بنسبة ٧٪ عنه لدى الأسوياء. ومن بحث كوساريس وهاموند[2] Kossaris and Hammond على ٤٠٠ عامل من ذوي العاهات و ٦٥٠٠ عامل من الأسوياء يعملون في ٤٧ مؤسسة تبين أنَّ ذوي العاهات كانوا أكثر إنتاجاً بنسبة ٢٪، وأنَّ سجلات حوادثهم كانت أفضل بدرجة واضحة من سجلات حوادث الأسوياء. كما قام موفيس[3] Movis بدراسة على ١٠٠٨ عمال من ذوي العاهات في ٦٣ مؤسسة تبين منها أنَّ كفايتهم الإنتاجية فوق المتوسط (حسب تقارير أصحاب الأعمال) وأنَّ نسبة تعرضهم للحوادث غير ملحوظة، وأنَّهم أكثر انتظاماً في العمل من زملائهم الأسوياء. ويخرج هاملتون Hamilton من مثل هذه الدراسات برأيه الذي يسجله حيث يقول: «ويمكن الخروج من هذه الدراسات بنتيجة هامة، مؤداها أنَّ كفاية ذوي العاهات وأهليتهم للعمل

(١) كينيث هاملتون: أسس التأهيل المهني - ترجمة الدكتور سيد عبد الحميد مرسي - القاهرة - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٦٢ ص ٣٥١ - ٣٥٢.
(٢) المرجع السابق ص ٣٥١.
(٣) المرجع السابق ص ٣٥٤.

مشابهة لتلك الخاصة بالأسوياء، ولا تختلف عنها»[1]. وهكذا لا تؤدي عملية التأهيل المهني خدمة للعامل فقط، حيث تعيد لأولئك الذين ساءت حظوظهم فأصيبوا بالعجز صلاحيتهم للعمل وقدرتهم على الإنتاج فلا يصبحون عالة على المجتمع، بل وأيضاً تؤدي خدمة جليلة للإنتاج حيث يستفيد من تعبئة كافة الطاقات البشرية لخدمته فلا يستثنى منها حتى من أصابته عاهة. وهكذا، أيضاً يتضح لنا كيف أنَّ عملية التأهيل المهني تساعد الإدارة على تحقيق أهدافها خاصة تلك المتعلقة بالكفاية الإنتاجية والراحة النفسية للعاملين في مؤسسة العمل.

٥ ـ الهندسة البشرية : Human Engineering :

تعتبر الهندسة البشرية أو ما يسمى أحياناً بعلم النفس الهندسي En-gineering Psychology أحدث فروع علم النفس الصناعي أو مجالاته، ويتلخص هدف الهندسة البشرية (أو علم النفس الهندسي) في تصميم أو تعديل الآلة حتى تتناسب والإمكانيات والاستعدادات النفسية لمن يعمل عليها من بشر، ذلك أنَّه إذا كان لنا أن نختار الإنسان الذي يعمل على الآلة (على نحو ما ذكرنا محاولين وضع الشخص في المكان الذي يناسبه)، وأن نحور ونعدل من سلوكه ومهاراته (عن طريق التدريب أو التأهيل) لكي يصبح أكثر صلاحية للعمل عليها، فإنَّه يجب علينا من الجانب الآخر أن نقوم بتكييف الآلة لإمكانيات الإنسان المحدودة، فنعدِّل من تصميمها حتى تصبح أكثر ملاءمة لإمكانيات من يعمل عليها، ولقد أشار فتز[2] Fits إلى أنَّ ما نحصل عليه من تحسن في كفاية العامل الإنتاجية بواسطة تغييرات بسيطة في تصميم

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٤.

(٢) موريس فيتلس: في فصل «علم النفس المهني» من كتاب: «ميادين علم النفس» الذي أشرف على تأليفه جيلفورد ـ ترجمة الدكتور أحمد زكي صالح ـ القاهرة دار المعارف ١٩٥٦ ص ٨٦٨.

الآلة يكون في العادة أكثر مما نحصل عليه عن طريق الاختيار الدقيق للعمال وتدريبهم لفترة طويلة.

لهذا فإنَّ عالم النفس الصناعي يشترك مع المهندسين أثناء إعدادهم وتصميمهم للآلات والمعدات فيمدُّهم بالمعلومات اللازمة عن خصائص السلوك البشري المتعلقة بعمل الإنسان على الآلة، ويشترك معهم منذ الخطوات الأولى في تصميمها أو تعديلها حتى تكون أكثر ملاءمة لخصائص السلوك البشري وإمكانياته. وفيما يلي مثال لما يمكن أن يؤديه عالم النفس الصناعي في مجال الهندسة البشرية: «طلب من المهندس ـ مثلاً ـ أن تكون الآلة التي يصنعها مزوَّدة بجهاز للتنبيه يستتبع من العامل (أو الجندي) أن يصدر رد فعل معين بأقصى سرعة ممكنة.

هنا يكون دور عالم النفس أن ينبه المهندس إلى أنَّ الإشارات الضوئية تختلف عن الإشارات الصوتية في سرعة الرد الذي يترتب على كل منهما، التنبيهات السمعية تستتبع رد فعل أسرع مما تستتبعه التنبيهات البصرية (هذا نعرفه من دراساتنا التجريبية المعملية. بهذه المعلومة الصغيرة تزداد قدرة المهندس على أن يقرر أي الإشارتين يختار وهو على بيِّنة من أن إحداهما تزيد من كفاءة آلته[1].

لكن «كيف يؤدي عالم النفس هذه المهمة؟ هناك طريقتان: إما أن يعود إلى المراجع (وهو أدرى بمسالكها من غيره) فيستخلص منها القدر المطلوب من المعلومات ويقدمه في لغة مفهومة لزملائه المهندسين: وإما أن يجري هو نفسه تجربة أو يضع تجارب يتوصل بها إلى المعلومات المطلوبة وهو طبعاً أقدر من غيره على إجراء تجربة تتناول جوانب السلوك البشري المختلفة»[2].

---

(١) دكتور مصطفى سويف. علم النفس الحديث ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٧ ص ١١٠.
(٢) المرجع السابق ص ١٠٩.

بالإضافة إلى هذا فإنَّ عالم النفس الهندسي يقوم «بالاشتراك مع المهندسين في تقييم جهاز (الآلة ـ الإنسان) وهو يعمل. وقد استعين بعلماء النفس فعلاً في تقييم مئات الأجهزة كسماعات التليفون، والعدادات المختلفة، وغرفة الإرسال التليفزيوني وأجهزة التحكم في الصواريخ والرادار، وترتب على تقييمهم إدخال تغييرات وتعديلات لا حصر لها طلباً للمزيد من الكفاءة في أداء الجهاز لوظيفته، والسبب الرئيسي في الاستعانة بهم في هذه المهمة هو أنَّ التقييم هنا لا ينصب على الآلة ولكن على الجهاز المركب من الإنسان والآلة»(١).

وفي الحرب العالمية الثانية أجريت دراسات لتطبيق علم النفس الهندسي في مجال إنتاج وتطوير المعدات الحربية مما حقق نتائج هامة فيما يتعلّق بتشغيل هذه المعدات بسهولة أكبر ودقّة أكثر. وهكذا يمكن لعلم النفس الهندسي أن يشارك في تصميم الآلة وتعديلها بما يحقق تكييفها لحدود قدرات الإنسان وخصائصه الجسمية والنفسية، بحيث يصبح العمل عليها أيسر وأدق وأأمن، فتزيد الكفاية الإنتاجية ويتحقق للعامل نصيب أوفر من التوفيق في عمله والراحة النفسية في مؤسسته. وبهذا تخدم الهندسة البشرية أو علم النفس الهندسي إدارة مؤسسة العمل على نحو ما ذكرنا. ومما هو جدير بالذكر أنَّ هذا الفرع من علم النفس لم ينل الاعتراف الرسمي به إلاَّ في عام ١٩٥٦ حيث أفردت له جمعية علم النفس الأمريكية قسماً خاصاً من أقسامها.

٦ ـ ظروف العمل الطبيعية : Physical Conditions :

لا بدَّ للعامل مهما كانت مهاراته الفنية واستعداداته النفسية للعمل من توافر ظروف طبيعية مناسبة في بيئة عمله كالإضاءة والحرارة والتهوية والهدوء وساعات العمل المحدودة وفترات الراحة الكافية والمنظمة، وذلك حتى

---

(١) المرجع السابق ص ١١٠، ١١١.

يحقق المستوى المنشود من الكفاية الإنتاجية والراحة النفسية، ويظل محافظاً عليهما طوال عمله. وهذه حقائق يعلمها كافة العاملين في مجال الصناعة على اختلاف تخصصاتهم ويشتركون ـ شأنهم في ذلك شأن الأخصائي النفسي الصناعي ـ في الدراسات والتطبيقات الخاصة بتهيئة أنسب هذه الظروف في بيئة العمل.

ولمّا كان المجال لا يتسع لذكر أمثلة توضح أهمية توافر جميع الظروف المناسبة للعمل، فإننا سوف نقصر حديثنا على ظرفين فقط ـ كمثال ـ هما الضوضاء والتعب. فالعمل في الضوضاء يكلّف العامل استنفاداً أكثر من طاقته وجهده وراحته النفسية عنه في الجو الهادىء، مما يتسبب عنه رفع في مستوى شعور العامل بالضيق والتعب وخفض في كفايته الإنتاجية. ولقد أوضحت التجارب التي أجريت في إنجلترا في صناعة النسيج زيادة في الكفاية الفردية للعامل بمقدار ٥و٧٪ في حالة استعمال وقايات للأذن تضعف شدّة الضوضاء بنسبة ٥٠٪ تقريباً، وبالإضافة إلى ذلك زادت من شعورهم بالارتياح[١]. كما أوضحت الدراسات بالنسبة لتحديد ساعات العمل اليومي أنّ زيادتها عن الحد المناسب لا يتبعه زيادة في الإنتاج، ففي بداية الحرب العالمية الأولى كانت إنجلترا في حاجة إلى مزيد من إنتاج مصانع الذخيرة، فزودت ساعات العمل بها، لكن الإنتاج لم يرتفع بعكس ما كان متوقعاً، الأمر الذي اضطر المسؤولين إلى دراسة المشكلة فتبين لهم[٢] أنه بخفض ساعات العمل الأسبوعي من ٢ و٥٨ إلى ٦و٥٠ زاد الإنتاج في الساعة بنسبة ٣٩٪ كما زاد الإنتاج الكلي في الأسبوع بنسبة ٢١٪ أي أنّ تخفيض ساعات العمل عن الحد المناسب سوف يؤدي بالضرورة إلى انخفاض في كمية الإنتاج. وإضافة إلى ذلك فإنّ التعب إذا كان يعمل على خفض الإنتاج ـ على نحو ما رأينا فإنّه

---

(١) المرجع السابق لموريس فيلتس ص ٨٧٠.

(٢) المرجع السابق للدكتور عبد المنعم المليجي ص ٩٠.

أيضاً يعمل على زيادة تعرض العامل لإصابات العمل. فمن دراسة لفرنون[1] Vernon تبين أنَّ للتعب أثراً كبيراً على معدَّل الإصابات حيث كان معدَّل الإصابات يزداد في نهاية يوم العمل عنه في بدايته كما كان تأثير التعب على الإصابات من الوضوح بحيث إنَّه خلال يوم العمل البالغ ١٢ ساعة حدث للعاملات مثلان ونصف مثل للإصابات التي حدثت لهنَّ خلاله بعد أن خفض إلى ١٠ ساعات فقط. وهذا يشير بوضوح إلى أنَّ طول فترة العمل عن الحد المناسب يؤدي إلى التعب والإرهاق، فتقل بذلك قدرة العامل على الاستقرار في بذل نشاطه وتوجيهه نحو عملية الإنتاج بالكفاءة المطلوبة، بالإضافة إلى انعكاس ذلك على الحالة النفسية للعامل فيحس بالضيق من العمل وعدم الرغبة في استمراره، فتقتل كفاءته في أداء العمل، ويتعرض لإصاباته.

ومما لا شك فيه أنَّ مدى تأثير ظروف العمل هذه على عملية الإنتاج وعلى العامل نفسه سوف يختلف من مهنة لأخرى، بل ومن بيئة لغيرها بالنسبة لنفس المهنة. لكن ما هو دور أخصائي علم النفس الصناعي في هذا المجال؟ يمكننا أن نلخص أهم ما يقوم به فيما يلي:

١ - إمداد الإدارة بالمعارف المتوفرة لديه عن أنسب الظروف الطبيعية في مجال العمل.

٢ - القيام باستخدام المنهج السيكلوجي في بحث هذه الظروف ودراستها دراسة علمية للوقوف على أنسبها، إذا ما اقتضى الأمر ذلك، حتى تتخذ نتائج هذه الدراسات أساساً لتحسين ظروف العمل.

٣ - استخدام الوسائل السيكلوجية المختلفة لتحسين اتجاهات العمال النفسية نحو التغير المطلوب لظروف العمل وتأييده، وذلك أنَّ التغييرات التي تقوم بها الإدارة لتحسين ظروف العمل ما لم يصاحبها اتجاه إيجابي من العاملين فلن تؤتي فائدة، بل بالعكس قد تضر إذا كان اتجاه العاملين سلبياً

(١) Tiffin and Wc. Cermick: Industrial Psychology, Prentice Hall 1968, P. 563.

نحو هذا التغيير إلى الأفضل، وتجارب الهاوثون[1] Hawthorne الشهيرة خير دليل على هذا الرأي.

٧ ـ تقييم العمل: **Job Evaluation**:

نعني بتقييم العمل وضع قيمة مالية للعمل، أي تحديد الأجر أو المرتب الذي ينبغي أن يعطى لمن يزاول هذا العمل أو يعين فيه. ولا شك أنَّ الوصول إلى هذا التقييم بشكل موضوعي عادل بعيد عن الأهواء الشخصية هدف أساسي ينبغي أن تحققه الإدارة للعاملين في مؤسستها. بل إنَّه قد صدرت في مصر قرارات جمهورية (كالقرار الجمهوري رقم ١٥٩٨ لسنة ١٩٦١) تلزم الإدارة في مؤسسات العمل بوضع سياسة عادلة للأجور والمرتبات وتقييم الأعمال وتصنيفها في فئات أو درجات مالية.

ولا شك أنَّه كلما تحققت العدالة والموضوعية في تقييم الأعمال بالمؤسسة تحققت لها الكفاية الإنتاجية والراحة النفسية والأمن لعمالها. فالشعور بالغبن شيء مدمر لكفاية الفرد الإنتاجية ولروحه المعنوية في العمل على حد سواء. ويشترك الأخصائي النفسي الصناعي مع غيره من الأخصائيين في مجال العمل في القيام بعملية التقييم على أسس علمية موضوعية عادلة.

ويتم تقييم العمل أساساً بناء على تحليل هذا العمل، حيث يوضح التحليل المهارات المتطلبة للعمل، والخبرات والمؤهلات اللازمة له ومقدار الجهد البدني أو الذهني الذي يبذل في أدائه ومقدار المسؤوليات الملقاة على عاتق القائم به، والظروف التي يؤدى فيها العمل، وهي في مجموعها تمثل أهم العناصر التي تؤخذ في الاعتبار عند تقييم العمل بأي طريقة نستخدمها، سواء في ذلك طريقة الترتيب المتدرج أو طريقة مقارنة العوامل أو طريقة النقط، وهي أشهر طرق التقييم.

---

(١) دكتور أحمد عزَّت راجح: علم النفس الصناعي ـ القاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ ١٩٦٥ ص ٣١٢.

ويشارك الأخصائي النفسي الصناعي في تحليل العمل كما يشارك في عملية التقييم هذه. وبذلك يقوم بدور أساسي في إتمام تقييم العمل على أساس علمي موضوعي سليم بعيد عن الأهواء الشخصية، والانحيازات الذاتية.

٨ ـ إصابات العمل: Accidents:

إنَّ الدراسة العلمية لإصابات العمل والحوادث التي تقع من العمال أو لهم تبين أنَّ هناك أفراداً معينين يكثر تورطهم في الحوادث، وآخرين يبتعدون عن الحوادث. ففي دراسة للباحث(١) عن حوادث سائقي «شركة أبو رجيلة» في عام ١٩٦٠ (قبل التأميم) تبين له أنَّ ٩٪ منهم فقط تورط في ٣١٪ من جملة الحوادث كلها، في حين أنَّ ٢٧٪ من السائقين لم يتورط في أي حادثة، كما تبين أنَّ معامل الارتباط بين حوادث نصف السنة الأول وحوادث نصف السنة الأخير كان ٣٥٥, ٠، وأنَّ معامل الارتباط بين حوادث الستة أشهر الفردية (يناير ـ مارس ـ مايو ـ يوليو ـ سبتمبر ـ نوفمبر) وحوادث الستة أشهر الزوجية (فبراير ـ أبريل ـ يونيو ـ أغسطس ـ أكتوبر ـ ديسمبر) (كان + ٤١٣, ٠، وكان المعاملان دالين إحصائياً عند مستوى ٠٠١, ٠ وهذه النتائج كلها تؤيد ميل الحوادث لأن ترتبط بأفراد معينين وأن تبتعد عن أفراد آخرين، الأمر الذي يشير إلى وجود ما يعرف بالقابلية للحوادث (أو الاستهداف للحوادث) Acci-dent Proneness والتي تعني أنَّ لكل فرد استعداداً نفسياً وجسمياً بدرجة ما لأن تحدث له حوادث وأنَّ هذا الاستعداد ثابت إلى حد ما.

وتكون مهمة الأخصائي النفسي الصناعي في هذا المجال هي البحث عن الخصائص النفسية للفرد ذي القابلية العالية للحوادث في مهنة معينة للتعرف عليها تمهيداً فيما بعد لعلاجها في الفرد (إذا كان ذلك متيسراً) أو

(١) فرج عبد القادر طه: العلاقة بين الإصابات والصفحة النفسية للذكاء ـ رسالة ماجستير غير منشورة، قدِّمت لكلية الآداب جامعة عين شمس في ١٩٦٥.

لنقله إلى عمل آخر أكثر أمناً بحيث لا يسهل له التورط في حادثة (إذا كان علاجها صعباً)، وللاستفادة أيضاً من ذلك في عمليات الاختيار والتوجيه والتدريب والتأهيل التي سبق ذكرها، على نحو ما سبق أن بينا من ضرورة مناسبة خصائص الفرد ومتطلبات العمل الذي يختار له أو يوجه إليه أو يدرب عليه أو يؤهل للعمل فيه. كما أنَّ للأخصائي النفسي الصناعي مهمة أخرى في هذا المجال هي دراسة الظروف البيئية التي يؤدى فيها العمل سواء كانت ظروفاً فيزيقية أو نفسية أو اجتماعية لبيان مدى تأثيرها على تورط العاملين في الحوادث والعمل على علاجها بقدر الإمكان عن طريق ترشيد الإدارة في هذا الشأن حتى يقل معدَّل الحوادث بمؤسسة العمل إلى أقل حد ممكن. وفي البحث الذي سبقت الإشارة إليه لفرنون عن علاقة التعب بحوادث العمل خير نموذج لهذه الدراسات، وما يمكن أن تؤدي إليه من توصيات وفوائد تطبيقية لمجال إصابات العمل.

٩ ـ قياس كفاءة العامل: Proficiency Of Worker:

المقصود بقياس كفاءة العامل تقدير مدى نجاحه في القيام بواجبات عمله وتحمل مسؤولياته. ومن أهم الأهداف التي يحققها قياس كفاءة العامل ما يلي[1]:

١ ـ يستخدم كأساس لترقية العامل، أو نقله أو فصله.

٢ ـ يستخدم كأساس لتقدير ما يستحقه من أجر أو مكافأة تشجيعية.

٣ ـ يستخدم كوسيلة لتقييم مدى فاعلية طرق معينة في تأدية العمل ومدى قيمة أدوات معينة أو معدات لعملية الإنتاج، ومدى تأثير ظروف العمل المختلفة على إنتاجية العامل.

٤ ـ يستخدم كوسيلة لتقييم الوسائل التي اتُّبعت في اختيار العاملين وتصنيفهم وتوجيههم.

---

(١) Ghiselli and brown: Personnel and Industrial Psychology, M c Graw Hill, Tokyo, 1955, P. 60.

هذا وينبغي أن تتحقق للقياس الذي نستخدمه لتقدير مدى كفاءة العامل صفة الدقة في التقدير والموضوعية، بحيث يلغي تأثير التحيزات والأهواء الشخصية. وهناك طرق فنية كثيرة يستطيع بها أخصائي علم النفس الصناعي وضع واستخدام مقاييس دقيقة تحقق لإدارة المؤسسة هذا الهدف. ومما لا شك فيه أنَّ تطبيق هذا المقياس بشكل موضوعي سوف يجعل كل عامل بمؤسسة العمل يحس بأنَّ إنتاجه في العمل سوف يخضع لتقييم دقيق، وأنَّ مستقبله في هذا العمل رهن بهذا التقدير، الأمر الذي سوف يؤدي به إلى رفع إنتاجيته مع إحساسه بالعدالة في عمليات الترقي أو النقل أو الفصل أو المكافآت التي تقوم بها الإدارة.

١٠ ـ العلاقات الإنسانية : Human Relations:

مجال العلاقات الإنسانية في ميدان العمل مجال واسع إلى حد كبير. حيث إنَّها تعني «السلوك الإداري الذي يقوم على تقدير كل فرد، وتقدير مواهبه وإمكانياته وخبراته، واعتباره قيمة عليا في حد ذاته، والذي يقوم على الاحترام المتبادل بين صاحب العمل أو القائم عليه والعامل، وبين العمال بعضهم مع البعض الآخر، وبين المشتغلين في مؤسسة من المؤسسات والمتصلين بهذه المؤسسة، والذي يقوم على حسن النية نحو الآخرين وحسن القصد في العمل، والذي يقوم على الدراسة الموضوعية العلمية الجماعية لمشكلات الإدارة على هدي من المصلحة العامة، والذي يقوم على شعور وإيمان عميق بانتماء الفرد إلى الجماعة التي يعمل فيها[١]».

وبالتالي فإنَّ تحسين العلاقات الإنسانية داخل مؤسسة العمل يقتضي من الإدارة تهيئة الظروف المناسبة لتطبيق نتائج الدراسات والبحوث والنظريات السيكلوجية عن الدوافع النفسية وسيكلوجية الإدارة وسيكلوجية

(١) الدكتور سيد عبد الحميد مرسي: العلاقات الإنسانية في مجال الإدارة ـ المعهد القومي للإدارة العليا بالقاهرة، عدد ٣٩ من سلسلة الدراسات ١٩٧٠ ص ١٣.

الجماعة، واتخاذ القرارات... إلخ في مجال العمل، مع القيام بدراسات لبيان العوامل النفسية وراء المشكلات التي تشير إلى وجود علاقات إنسانية سيئة في مجال العمل وذلك تمهيداً للعمل على علاجها والقضاء عليها ووقاية المؤسسة من تكرارها في المستقبل.

وكمثال لما يمكن لعلم النفس أداؤه في مجال العلاقات الإنسانية من خدمات نشير إلى أنَّ دراسات ليفين وليبيت وهوايت[1] Lewin, Lippit and White أثبتت أنَّ الرئيس الديمقراطي أصلح من الرئيس الاستبدادي ومن الرئيس الفوضوي سواء كان ذلك بالنسبة للإنتاج من حيث كمه ونوعيته أو بالنسبة للعلاقات الإنسانية داخل مجال العمل. إذ تبين أنَّ المجموعة التي كانت تحت الرئاسة الفوضوية كانت أقل مستوى من المجموعتين الأخيرتين من جميع النواحي، حيث كان الرئيس الفوضوي أقل نصيباً من حيث حب واحترام وتقدير الأعضاء له، كما كانت مجموعته أقل إنتاجاً وأقل حباً للعمل. كما كانت المظاهر العدوانية أكثر ظهوراً في سلوك أعضاء المجموعة الاستبدادية نحو بعضهم البعض عنها في المجموعة الديمقراطية، وكانت العلاقة بين الأعضاء والرئيس الديمقراطي علاقة صداقة وتفاهم في حين كانت العلاقات بالرئيس الاستبدادي علاقة خضوع. كما كان تعاون أعضاء المجموعة الديمقراطية واتحادهم أكثر وضوحاً. بالإضافة إلى كل هذا كان الابتكار والاتقان في العمل يختفيان بمجرد اختفاء الرئيس في المجموعة الاستبدادية عكس الأمر في المجموعة الديمقراطية. ويشير هذا كله إلى ضرورة تدريب الرؤساء والمديرين على أساليب الرئاسة والإشراف والإدارة الديمقراطية.

وهناك بعض التوجيهات التي استخلصها أوبرداهم Oberdahm[2]

(1) المرجع السابق لماير ص ١٨٦، ١٩٠ والمقال السابق للدكتور السيد محمد خيري ص ٦٢.
(2) المقال السابق للدكتور السيد محمد خيري ص ٦٢، ٦٣.

والتي من شأنها خلق علاقات طيبة بين الرئيس ومرؤوسيه (فيتحسن بذلك مستوى العلاقات الإنسانية في مجال العمل)، مثل معاملة الرئيس للمرؤوسين على وجه يشعرهم باحترامه لشخصياتهم وكرامتهم، ومرونته في تطبيق قوانين العمل ولوائحه عليهم ومعاونتهم على تحقيق النمو والتقدم المهني، ومعاملة كل منهم المعاملة التي تتناسب وخصائصه المميزة، وتحمل المسؤولية عن المرؤوسين عندما يقعون في أخطاء، وأن يكون الرئيس ممثلاً أميناً لمطالب المرؤوسين وآرائهم لدى الهيئات العليا. . . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أهمية تكوين مجموعات العمل سواء طاقم العمل على آله واحدة أو مجموعة العمل في قسم واحد أو عنبر واحد، على أساس من الاختيارات السوسيومترية المتبادلة ليعملوا بعضهم مع البعض، الأمر الذي يحقق الوئام والوفاق بين أعضاء مجموعة العمل الواحدة، فتتحسن العلاقات الإنسانية داخل العمل.

وما دمنا بصدد الحديث عن العلاقات الإنسانية في مجال العمل فإنَّه ينبغي أن نتعرض لظاهرتي التعاون والتنافس لما لهما من أثر في هذا المجال. ففي حالة التعاون يسود قدر أكبر من الود والتفاهم بين الزملاء، ربما كان على حساب الإنتاج في بعض الحالات، بينما في التنافس يرتفع الإنتاج لكن على حساب العلاقات بين الزملاء، حيث تميل هذه العلاقات إلى الفساد وتزداد مظاهر العدواة بين الزملاء، بعضهم البعض. ففي دراسة لستوك وويات Stock and Wyatt[1] عن أثر المنافسة بين الزملاء في العمل تبين أنَّ العاملات في مؤسسة للف الورق زاد إنتاجهنَّ بنسبة ٤٦٪ عند استحداث المنافسة بينهنَّ ثمَّ استطاع الباحثان عن طريق زيادة حدَّة المنافسة بين العاملات أن يحصلا على زيادة إضافية في الإنتاج بلغت نسبتها. . ٣٠٪، إلاَّ أنَّه كان من نتيجة ذلك وضوح فساد كبير في العلاقات المتبادلة

(١) المقال السابق للدكتور السيد محمد خيري ص ٦٤، ٦٥.

بينهنَّ، فبينما كنَّ قبل استحداث المنافسة يتحدَّثن سوياً ويتبادلن الرأي في حرية وتفاهم وود متبادل أحدثت المنافسة بينهنَّ مظاهر كثيرة واضحة من المنازعات والغيرة والحسد، فارتفع عدد الشكاوى ضدَّ بعضهنَّ البعض، وعدد الشكاوى عن ظروف العمل ورداءة المواد المستخدمة، في حين أنَّها لم تكن قد تغيَّرت. وبمعنى آخر فإنَّ العلاقات الإنسانية قد فسدت بين العاملات نتيجة حدَّة المنافسة. ولهذا اقترح الباحثان إجراء المنافسة في مؤسسات العمل بطريقة جمعية لا فردية مع العمل بقدر الإمكان على أن تكون المجموعات المتنافسة متعادلة القوَّة لكي تنجح جماعة في مرة وأخرى في مرة غيرها. فالمنافسة الجمعية فيها توفيق بين ظاهرتي التعاون والتنافس، حيث يتعاون أعضاء الجماعة الواحدة وتتنافس الجماعة كوحدة مع غيرها، فيتحقق بذلك التوازن بين ظاهرتين أساسيتين إحداهما هي اندماج الذات في الجماعة (حيث تحدث في موقف التعاون) والأخرى تأكيد الذات والاعتداد بها (حيث تحدث في موقف التنافس) كما اقترح الباحثان أنَّه في حالة المنافسة الفردية التي لا مفرَّ منها ينبغي ترتيب مواضع الأفراد بحيث يكون الأفراد المتجاوزون متعادلي القوَّة على وجه التقريب.

وهكذا يسهم علم النفس الصناعي في إسداء النصح لإدارة مؤسسة العمل في مجال العلاقات الإنسانية لكي يرتفع الإنتاج، وفي نفس الوقت تتحسن العلاقات الإنسانية داخل مؤسسة العمل.

١١ ـ حوافز العمل: Work Incentives:

لا بدَّ لكل سلوك يقوم به الإنسان من دوافع Motives تدفعه إلى القيام بهذا السلوك، إذ يستحيل على عامل أن يذهب إلى مؤسسة العمل ويؤدي واجبات عمله دون أن تكون هناك دوافع نفسية تحفزه على ذلك، بحيث يصبح العمل بمثابة استجابة لهذه الدوافع وإرضاء لها. ولا شكَّ، أنَّ العمل يرضي فينا دوافع كثيرة يصعب حصرها، كالحاجة إلى المأكل والملبس

والمسكن وتأكيد الذات والانتماء إلى الجماعة والإحساس بالأمن وبالحب وبالتقدير. . . إلخ.

وتستخدم الحوافز[1] لإثارة همم العاملين حتى يبذلوا أقصى طاقاتهم في العمل والإنتاج فيحققوا أقصى ما يمكنهم فيه من نجاح وتوفيق. ويعتبر المال الذي يعطى للعامل كأجر أو مكافأة تشجيعية من أهم الحوافز الأساسية في مجال العمل. وبطبيعة الحال فالمال ليست له قيمة في حد ذاته وإنما قيمته تأتي من استخدامه كوسيلة لإشباع حاجات الفرد الأساسية وإرضائها، كالحاجات التي سبق أن أشرنا إليها من مأكل وملبس. . . إلخ لذلك تهتم الإدارة بتطبيق أفضل نظم حساب الأجور ودفعها، وحساب المكافآت وصرفها تحقيقاً لرفع الإنتاجية واستثارة لحماس الأفراد للعمل. فهل من الأفضل أن يدفع الأجر أو تحسب المكافآت على حسب مدى إنتاج العامل أم على حسب اليومية بغض النظر عن الإنتاج، أم على حسب الأقدمية فمن تكون له مدّة خدمة أطول يكون أجره أعلى بغض النظر عن الاعتبارات الأخرى، أم على حسب حاجة العامل بحيث يعطى الأجر الأكبر لمن يكون أكثر حاجة بسبب مسؤولياته العائلية مثلاً، أم على أساس نظام متوسط يجمع بين نظامين أو أكثر من طرق حساب الأجر هذه؟ وعلى كل حال فإنَّ الدراسات العلمية والاعتبارات الإنسانية هما وحدهما اللذان سوف يقرران أفضلية نظام على غيره في المواقف المعينة.

وهناك إلى جانب الحافز المالي حوافز أخرى لها قيمتها الكبرى وهي الحوافز المعنوية، كالترقية (وإن كانت في جانب منها تعتبر حافزاً مالياً) وكالمدح والثناء لإشباع حاجة الفرد لأن يعترف به الآخرون ويقدرونه ويحبونه، وكؤوس الإنتاج التي يفوز بها من هم أكثر إنتاجاً، وأنواط الجدارة

(١) الدكاترة عصمت المعايرجي وسيد عبد الحميد مرسي ونجيب اسكندر: الحوافز ـ المعهد القومي للإدارة العليا بالقاهرة ـ عدد ٤٠ من سلسلة الدراسات ـ ١٩٧٠.

التي تهدى إلى كل من أدّى عملاً ممتازاً، والمصايف والرحلات والمزايا المختلفة التي يختص بها المتفوقون في أعمالهم، ولوحات الشرف التي تدرج بها أسماء الممتازين في أعمالهم.. إلخ.

ولما سبق أن ذكرنا فإنّ نظام الحوافز في مؤسسة العمل ينبغي أن تضعه الإدارة بناء على دراسات ميدانية واقعية توضح أكثر هذه النظم فعالية، وبناء أيضاً على اعتبارات إنسانية معينة كالحفاظ على كرامة العامل وإحساسه بالأمن في عمله. وليس نظام الحوافز الذي يصلح في مؤسسة معينة بالضرورة يكون مناسباً في غيرها، كما أنّ نظام الحوافز الذي يصلح لمؤسسة معينة في مجتمع ذي نظام اقتصادي اجتماعي معين قد لا يصلح لمؤسسة شبيهة في مجتمع ذي نظام اقتصادي اجتماعي مختلف.. إلخ، والدراسات الواقعية وحدها هي الفيصل في تحديد أي نظم الحفز يكون أكثر فاعلية لمؤسسة معينة، ويشترك أخصائي علم النفس الصناعي بمناهج البحث السيكولوجي وأساليبه في تصميم وإجراء هذه الدراسات ومعالجة نتائجها والخروج منها بتوصيات عمّا ينبغي أن يكون عليه نظام الحوافز في المؤسسة.

١٢ ـ الروح المعنوية للعاملين: **Morale**:

يقصد بالروح المعنوية للعاملين تلك الروح السائدة بين العاملين في المؤسسة والتي تتميز بالثقة في المؤسسة وفي جماعة العمل وبالتقدير الذاتي لدور كل عامل في المؤسسة وأهميته لجماعة العمل، وبالولاء والإخلاص لمؤسسة العمل وبالاستعداد للكفاح والنضال من أجل تحقيق أهداف المؤسسة والعمل على إنجاحها والمحافظة عليها والدفاع عنها ضدّ أي تهديد لها. ولا شكّ أنّ العمل على رفع الروح المعنوية للعاملين والإبقاء عليها في مستوى عال هدف ينبغي أن تسعى كل إدارة إلى تحقيقه فبدون الروح المعنوية العالية لن تحصل الإدارة على الإنتاجية المرضية، ولن يتحقق للعاملين الراحة النفسية المنشودة.

ولا شكَّ أنَّ مراعاة الإدارة لتطبيق النتائج والأسس السيكولوجية المتعلقة بالموضوعات التي ناقشناها حتى الآن (العلاقات الإنسانية ـ الاختيار المهني ـ التوجيه المهني ـ التدريب ـ التأهيل ـ ظروف العمل الطبيعية ـ تقييم العمل ـ حوافز العمل. . . إلخ) سوف تعمل على رفع مستوى الروح المعنوية لدى العاملين مما سوف يؤدي في نهاية الأمر إلى رفع الكفاية الإنتاجية، وزيادة مستوى الرضا بالعمل في المؤسسة والراحة النفسية للعاملين. ويمكن أن نضيف إلى ذلك إشراك العاملين في إدارة المؤسسة عن طريق ممثليهم. وتنظيم المؤسسة لرحلات يشترك فيها العاملون بمبالغ رمزية، وعمل حفلات ترفيهية بين آن وآخر، وإشراك العاملين في نوادٍ ونشاطات رياضية، وتهيئة خدمات طبية للعاملين وأسرهم بأجور رمزية، وتهيئة مساكن اقتصادية للعاملين، وتهيئة سبل مواصلات ميسَّرة لهم. . . إلخ إذ إنَّ كل ذلك سوف يسهم في رفع روح العاملين المعنوية.

١٣ ـ الإرشاد النفسي للعاملين: Psychological Counseling:

يقصد بالإرشاد النفسي علاج المشكلات التوافقية التي يتعرض لها الفرد ولا تصل في شدَّتها حد المرض النفسي الذي نجده في حالات العصاب أو الذهان لا شكَّ أنَّ وضع الفرد في عملٍ يناسبه جسمياً ونفسياً، وتدريبه لرفع قدرته على أدائه، وتهيئة علاقات إنسانية حسنة داخل مجال العمل، وتوفير ظروف طبيعية مناسبة للعمل، وتكييف الآلة لحدود الإمكانيات الشخصية للعامل، ورفع روح العامل المعنوية بالوسائل المختلفة. . . سوف يقلل من مشكلات العامل التوافقية ويحقق له مستوى أعلى من الراحة النفسية، إلاَّ أنَّ هذا لا يقضي تماماً على مشكلات العامل التوافقية ولا يضمن له تحقيق الراحة النفسية بالدرجة المطلوبة، إذ إنَّ العامل إنسان له حياته الخاصة ومشكلاته المختلفة التي تأتيه عن طريق علاقاته المتعددة في بيئته التي يعيش فيها خارج العمل، ولا شكَّ تؤثر بالضرورة على نشاطه في العمل. لهذا لا بدَّ لنا ـ أيضاً ـ من الاستعانة بالإرشاد النفسي للعامل حتى

نقلل قدر المستطاع من مشكلاته التوافقية ونعمل على علاجها أو التخفيف من حدَّتها حتى لا تؤثر كثيراً على نجاحه في عمله وتقعده عن تأديته له على مستوى مرض. ومن أبرز مظاهر فشل الفرد في عمله وسوء توافقه النفسي فيه ما نلاحظه من كثرة غيابه، وسوء علاقاته مع الآخرين، وتعرضه لإصابات العمل ـ وادعائه المرض. . . إلخ.

ومن دراسة للباحث[1] عن سيكلوجية العامل المشكل في الصناعة (باعتباره العامل الذي يمثل عقبة مباشرة أو غير مباشرة في سبيل زيادة إنتاج المؤسسة كمياً أو كيفياً) تبين أنَّ الاضطرابات النفسية كانت أوضح في العامل المشكل عنها في العامل غير المشكل، وهكذا تكون للإرشاد النفسي أهميته القصوى في التقليل من مظاهر سوء التوافق بين العامل وعمله، حيث يعاون العامل على تحقيق التوافق داخل مجال العمل وخارجه عن طريق تناول مشكلاته بالدراسة المتعمقة والوصول معه فيها إلى علاج يزيل أسبابها أو يخففها. وأذكر مثالاً لما يمكن أن يحققه الإرشاد النفسي بالنسبة لأحد مظاهر سوء التوافق المهني هو التعرض للحوادث، أنَّ حوادث[2] ١٥٤ عاملاً ممن تكرر تعرضهم لحوادث وعولجوا لمدة عام في عيادة لتلافي وقوع الحوادث بشركة ملووكي للسكك الحديدية والكهرباء قد نقصت في المتوسط من ٢,٨ قبل العلاج إلى ٠,٥١ حادثة بعده، وهو متوسط يقل كثيراً عن متوسط وقوع الحوادث لجميع العمال بالشركة.

وهكذا يتبين كيف يمكن للإرشاد النفسي أن يؤدي خدمة كبيرة في خفض مظاهر سوء التوافق بين العامل وعمله مما يحقق للإدارة أهدافها سواء زيادة الإنتاج كماً وكيفاً أو بتحقيق الراحة النفسية للعاملين بالمؤسسة. أمَّا في حالات الاضطرابات النفسية الشديدة، كتلك التي نجدها في حالات مرضى

---

(١) فرج عبد القادر طه: سيكلوجية العامل المشكل في الصناعة، رسالة دكتوراه غير منشورة قدمت لكلية الآداب جامعة عين شمس في ١٩٦٨.

(٢) المرجع السابق لفيتلس ص ٨٥٠.

العصاب أو الذهان، فإنّها تحتاج إلى علاج نفسي شامل وعميق، وفي هذه الحالة يقوم المرشد النفسي بتحويلها إلى أخصائي في العلاج النفسي. فيعمل هذا على تناول البناء الأساسي لشخصية المريض بالدراسة العميقة والعلاج الشامل إلى أن يحقق للمريض الشفاء النفسي المطلوب.

١٤ ـ الدعاية للمنتجات: Propaganda:

يعتمد نجاح الإدارة إلى حد كبير، وفي كثير من مؤسسات العمل، على نجاحها في تسويق منتجاتها وتصريفها. وهو أمر يعتمد إلى حد كبير على نجاح الدعاية التي تتم لهذه المنتجات. فالإنسان كائن له رغبات بيولوجية ونفسية مختلفة لا تكف عن دفعه لإشباعها، ويقوم الإنتاج أساساً لإشباع هذه الحاجات. والمنتج الناجح هو الذي يحسن استغلال هذه الحقيقة السيكلوجية فيصطنع مختلف الأساليب الممكنة لتصريف منتجاته بتعريف الجمهور بها، ودفعه للاعتقاد بأنّها تشبع للمستهلك رغبات أساسية لا ينبغي له أن يهملها أو يملها، وأن الثمن الذي يدفع مقابلها لا يوازي نسبة تذكر من الاستفادة التي تحققها له. ولهذا تلجأ إدارة المؤسسة إلى أساليب الدعاية والإعلان عن منتجاتها بهدف توجيه اتجاهات الناس نحو طلب هذه المنتجات بالذات، والتأثير على آرائهم حتى يحبذوا شراءها. والمؤسسة في هذا لا تكتفي بمحاولة تحويل الناس عن طلب سلعة من غير منتجاتها إلى طلب سلعتها التي تنتجها هي، بل إنها أيضاً تجاهد لغرس حاجة جديدة لدى الناس لشراء سلعتها هذه. وتستخدم إدارة المؤسسة مختلف وسائل الإعلام التي تمتلك التوجيه في الرأي، والتأثير في الاتجاه، كالإذاعة والتليفزيون والسينما والجرائد والمجلات والملصقات والنشرات، لتعلن بطريقها عن منتجاتها.

ويقدم علم النفس الأساس السيكلوجي للدعاية الناجحة، وذلك بتطويع وتطبيق الحقائق السيكلوجية عن الدوافع والإيحاء والإدراك الحسي والتذكر وتغيير الاتجاهات وتأثير الجماعة على الفرد. وغير ذلك من الجوانب النفسية

التي تؤثر على فاعلية الدعاية والإعلان سواء في التصميم أو التنفيذ. ويحتاج الأمر من الأخصائي النفسي في مجال الدعاية أن يستفيد من نتائج الدراسات السابقة في تصميم وتنفيذ الدعاية والإعلان، وأن يقوم في كثير من الأحيان بعمل دراسات ميدانية أو معملية ترشده إلى أنسب تصميم وتنفيذ للدعاية والإعلان حتى يصل إلى أكبر عدد من الأفراد ويتناول آراءهم بالتغيير حتى يحبذوا السلعة المعينة التي تنتجها المؤسسة ويقبلوا بالفعل على شرائها كنتيجة لنجاح الدعاية والإعلان في استثارة الرغبة النفسية لدى الناس في استهلاكها.

وبهذا العرض السريع للمجالات التي يقدم فيها علم النفس الصناعي خدماته لإدارة مؤسسة العمل يتبين بوضوح أنَّه يسهم إسهاماً فعَّالاً في إنجاح الإدارة ومساعدتها على تحقيق أهدافها الأساسية، إذا ما طلبت الإدارة منه ذلك وهيأت له فرصة الدراسة والتطبيق والإفادة، وما أحوج الإدارة إلى ذلك.

لكن يتبقى سؤال عمَّا إذا كان علم النفس الصناعي بما يقدمه من خدمات في مجال العمل يخدم الإنتاج على حساب مصلحة العامل الشخصية، بحيث يبدو موقفه غير إنساني. إنَّ الإجابة عن هذا السؤال (وربما استشفها القارىء من ثنايا هذا البحث) هي أنَّ علم النفس الصناعي في كل مجال من مجالات خدماته إنَّما يحقق فائدة متكاملة لكل من الإنتاج والعامل على نحو سواء[١].

تدريس الجامعة لعلم النفس الصناعي

بعد أن أوضحنا الأهمية الخاصة لعلم النفس الصناعي في خدمة الإدارة مساعدة لها على تحقيق أهدافها والوصول بها إلى أعلى مستوى ممكن من النجاح والتوفيق، ينبغي أن نتحدَّث عن موقف الجامعات المصرية من

(١) دكتور فرج عبد القادر طه: علم النفس بين خدمة العامل وخدمة الإنتاج، مجلة الفكر المعاصر، مارس ١٩٧٠.

تدريس هذا العلم لطلبة اليوم ومديري مؤسسات العمل المختلفة وأقسامها في الغد.

ولسهولة العرض والمناقشة، سوف نقوم بتقسيم هذا الحديث إلى ثلاث فقرات: الأولى نقصرها على الحديث عن تدريس علم النفس الصناعي في أقسام التخصص بالجامعات، والثانية عن تدريسه بالدبلومات العالية في التخصصات المختلفة، والثالثة عن إعداد رسائل الماجستير والدكتوراه فيه.

أولاً ـ تدريسه في أقسام التخصص:

ونعني بأقسام التخصص هنا تلك الأقسام الموجودة بكليات الجامعات والتي تعطي درجة الليسانس في تخصص علم النفس وحده (كما في كلية الآداب ـ بجامعة عين شمس) أو في تخصص مشترك بين علم النفس وغيره من العلوم كالفلسفة أو الاجتماع (كما هو الحادث في كلية الآداب بجامعة القاهرة وكلية الآداب بجامعة الإسكندرية).

والحقيقة تقال، أنَّ أقسام التخصص هذه قد أدركت أهمية تدريس علم النفس الصناعي ضمن موادها حتى تعد الصالحين لممارسة دور الأخصائي النفسي الصناعي في مؤسسة العمل. ويتراوح عدد الساعات المخصصة لتدريس علم النفس الصناعي بها بين ساعتين وثلاث أسبوعياً ولمدة عام دراسي كامل وتشتمل فقرات علم النفس الصناعي بها على:

١ ـ مواد نظرية تشتمل على بيان أهمية علم النفس الصناعي ومجالاته ولمحة عن تاريخه، مع دراسات ومناقشات مستفيضة لموضوعات علم النفس الصناعي الأساسية ونتائج أهم الدراسات والبحوث والتجارب في كل منها كموضوعات تحليل العمل ـ تحليل الفرد ـ الاختيار المهني ـ التوجيه المهني ـ التدريب المهني ـ التأهيل المهني ـ الهندسة البشرية ـ تقييم العمل ـ تقييم الأداء ـ ظروف العمل الطبيعية ـ الأمن الصناعي ـ سيكلوجية القيادة والإدارة ـ الروح المعنوية ـ الاختبارات النفسية في ميدان الصناعة ـ الدعاية

والإعلان . . . إلخ. وتهدف جميعها إلى إكساب المتخصص وعياً بالأسس السيكلوجية لكل هذه الموضوعات، وقدرة على نقد البحوث والدراسات التي أنجزها العلماء في هذه الموضوعات، واستعداداً لدراسة الأسس النفسية الكامنة وراء المشكلات التي تبرز في ميدان العمل بطريقة منهجية علمية، ومهارة في تطبيق الأسس السيكلوجية لخدمة ميدان الصناعة بصفة خاصة والعمل بصفة عامة.

٢ ـ تدريب الطالب عملياً على إمكانية التطبيق العملي لما درسه نظرياً كتدريبه على كيفية تحليل العمل، وتطبيق الاختبارات النفسية، وإجراء المقابلة المهنية وتحليل المواد الدعائية في الصحف أو الإذاعة.. إلخ.

٣ ـ قيام الطلبة بزيارة بعض المؤسسات التي يمارس الأخصائي النفسي الصناعي فيها دوراً ملموساً للتعرف على جوانب هذا الدور وكيفيات ممارسته.

٤ ـ تكليف الطالب ببحوث ودراسات نظرية وعملية عن بعض موضوعات علم النفس الصناعي يقوم بها الطالب لكي تؤخذ في الاعتبار عند تقدير درجة أعمال السنة له. وقد يكتفي بتقديم هذه البحوث والدراسات على هيئة بحث مكتوب يقدم لأستاذ المادة، أو يضاف إلى ذلك تكليف الطالب بعرضه على هيئة محاضرة أمام زملائه ومناقشته فيه سواء من جانب أستاذ المادة أو الزملاء. وذلك لزيادة استيعاب الطالب للمادة وإكسابه خبرة بالبحث النظري والعملي في موضوعاتها.

وبطبيعة الحال قد لا تسمح ظروف التدريس بتغطية كل هذه الفقرات وما تشتمل عليه من موضوعات تغطية كافية وعلى مستوى مرض، ولكنه في اعتقادنا أنَّ أي أستاذ يقوم بتدريس مادة علم النفس الصناعي للمتخصصين بالجامعات يحاول قدر طاقته، وحسب الظروف، القيام بتغطية كل هذه الفقرات بموضوعاتها المختلفة على نحو مرض، حتى يحقق طلبته الاستفادة

المنشودة من تدريس هذه المادة ويعدهم إعداداً سليماً للقيام مستقبلاً بدور الأخصائي النفسي الصناعي في أي مؤسسة للعمل.

ثانياً ـ تدريسه بالدبلومات العالية بالتخصصات المختلفة:

نقصد بالدبلومات العالية بالتخصصات المختلفة تلك الدبلومات التي تقبل طلبتها من خريجي الجامعة ومن تخصصات مختلفة لتدرس لهم ما تهدف منه أساساً إلى رفع كفاءة هؤلاء الطلبة ومهاراتهم بالنسبة للوظائف التي يقومون بأدائها في مؤسسات العمل المختلفة. وبطبيعة الحال نجد أنَّ الكثير من هذه الدبلومات لا يتقيد بقبول طلبته من خريجي الجامعة في تخصص معين. بل نجده يقبل طلبته من خريجي الكليات والأقسام المختلفة بالجامعة بحيث يدرس هذا الدبلوم ذوو التخصصات المختلفة كدبلوم إدارة الأعمال الصناعية بكلية تجارة عين شمس، حيث يدرس به طلبة من خريجي كليات الآداب والحقوق والتجارة والهندسة والزراعة.. إلخ، جنباً إلى جنب ويحصلون في نهايته على نفس المؤهل. وتهتم بعض هذه الدبلومات في التخصصات المختلفة كدبلوم إدارة الأعمال الصناعية بكلية تجارة عين شمس والسابق ذكره، ودبلوم علم الاجتماع الصناعي بكلية آداب جامعة القاهرة ودبلوم العلاقات الصناعية بكلية آداب جامعة عين شمس بتدريس مادة علم النفس الصناعي ضمن المواد المفروض دراستها للحصول على الدبلوم، ويختلف عدد الساعات المخصصة أسبوعياً ولمدة عام دراسي كامل لتدريس علم النفس الصناعي بمثل هذه الدبلومات من ساعتين (كما في دبلوم إدارة الأعمال الصناعية بتجارة عين شمس) إلى أربع ساعات (كما في دبلوم الاجتماع الصناعي بآداب القاهرة).

ولا تختلف طريقة تدريس علم النفس الصناعي والموضوعات والفقرات فيه عن طريقتها في أقسام التخصص على نحو ما سبق أن ذكرناه إلاَّ في إضافة بعض موضوعات من فروع مختلفة لعلم النفس سبق أن درسها المتخصص (كالقياس السيكلوجي ـ وعلم النفس المرضي ـ وعلم النفس

الإكلينيكي ـ وعلم النفس التجريبي ـ وعلم النفس الدينامي . . . إلخ). والتي نرى ضرورة الإلمام بها حتى يسهل تدريس موضوعات علم النفس الصناعي، حيث إننا لا نفترض مسبقاً إلمام الطالب بها في مثل هذه الدبلومات، لذا ينبغي أن تقوم بتدريسها ضمن موضوعات علم النفس الصناعي حسب النسق المناسب لتدريس المادة. لهذا تدرس لمثل هؤلاء الطلبة بالإضافة إلى موضوعات وفقرات علم النفس الصناعي ـ السابق الإشارة إليها ـ موضوعات مثل الفروق الفردية ـ مبادىء الفروق ـ الدوافع النفسية وأنواعها ـ الشخصية وجوانبها المختلفة ـ كيفية تصميم الاختبار النفسي والتأكيد من اكتمال مواصفات القياس الجيد فيه. . إلخ.

ثالثاً ـ إعداد رسائل الماجستير والدكتوراه فيه:

إنَّ عدد رسائل الماجستير والدكتوراه التي ناقشتها الجامعات المصرية في علم النفس الصناعي أو سجلتها ولم ينتهِ منها بعد أصحابها آخذ في الازدياد بنسبة تزيد عن مثيلتها في فروع علم النفس الأخرى. ورسائل الماجستير والدكتوراه التي نوقشت بقسم علم النفس بكلية آداب عين شمس خير دليل على ذلك.

وربما كان ذلك راجعاً إلى الإحساس المتزايد من جانب المتخصصين بأهمية هذا الفرع من علم النفس وتطبيقاته لخدمة نهضتنا الصناعية وتقدم مجتمعنا بصفة عامة. لكن هناك بعض العقبات التي تواجه القيام بمثل هذه البحوث العلمية، وربما كان من أبرزها:

١ ـ عقبات التمويل: إذ لا يخفى على أحد أنَّها تتم عن طريق التمويل الذاتي من جانب الباحث نفسه. فهو الذي يتحمَّل كافة الأعباء المالية التي يتطلبها إتمام رسالته، مما يجعل البعض يحجم عن مثل هذه الدراسات، ويجعل آخرين يتأخرون عن إتمامها في وقت مناسب أو بشكل مرض. وكل هذا في نهاية الأمر خسارة تلحق بالبحث العلمي وتعود على المجتمع.

والأمل معقود على أن تتولى الجامعات أو مؤسسات العمل المختلفة مستقبلاً الإنفاق على هذه الدراسات وتحمل كافة تكاليفها تشجيعاً للطالب، وتيسيراً عليه، وخدمة للبحث العلمي.

٢ ـ عدم تفرغ الطالب لمثل هذه البحوث: فالغالبية العظمى من طلّاب الماجستير والدكتوراه ملتحقة بوظائف رسمية، ويخضعون لقيود هذه الوظائف من حيث الحضور والانصراف والتواجد في مكان العمل ولوائح الاجازات... إلخ. وكلها قيود تعوق السرعة المطلوبة في إنهاء هذه البحوث بل وتشجع على الانصراف عنها بالنسبة لمن ابتدأها. وحبذا لو استصدرت الجامعة قانوناً يجبر مؤسسات العمل على منح تفرغ في حدود مدّة معينة ـ بناء على طلب المشرف على الرسالة ـ للطالب الموظف بها، حتى تساعده وتحفزه على إنهائها على خير وجه وفي أقصر وقت.

٣ ـ نقص وعي بعض المسؤولين بأهمية البحوث العلمية وقيمتها. وبالتالي يتراخون عن تقديم المساعدات والتسهيلات اللازمة لإنجاز البحث على خير وجه إذا ما كان الباحث في حاجة إلى مساعدتهم. بالإضافة إلى أنّهم يتراخون ـ أيضاً ـ عن تطبيق ما يصل إليه الباحث من نتائج أو يقدّمه من توصيات بعد أن ينتهي من بحثه.

٤ ـ نقص المراجع والدوريات والأدوات والأجهزة العلمية الحديثة، والتي تمكن الباحث من الاستفادة في بحثه من أحدث ما وصل إليه العلم.

٥ ـ نقص البعثات أو الإجازات الدراسية إلى الخارج في المقارنة بشدّة حاجاتنا إليها، وبذلك تضيع على كثير من الباحثين المتخصصين فرصة الإلمام بالتكنيكات الحديثة التي تلزمهم لبحوثهم، كما يصعب عليهم التعرف على أحدث ما وصل إليه العلم من نتائج ومكتشفات في مجال تخصصهم وبحوثهم.

٦ ـ عدم وجود مؤسسة تتولى نشر الرسائل الجامعية وتوزيعها لتعم الاستفادة منها، ولتحفز الباحث مادياً ومعنوياً لاستكمال بحثه.

٧ ـ عدم وجود نظام تضعه الجامعة وتلتزم به لإيفاد أساتذتها كل مدَّة محدَّدة وبشكل دوري إلى الخارج لزيارة الجامعات والمؤسسات الأجنبية والتعرف على أحدث الأساليب المستخدمة في التدريس والتدريب والتطبيق وأحدث ما توصل إليه العلم في الخارج وحتى يظل الأستاذ مسايراً للتقدم العلمي غير متخلف عنه سواء من حيث المادة التي يلقنها للطالب أو المنهج الذي يعلمه إياه أو الموضوعات التي يقررها عليه، أو الإنتاج الذي يقوم به.

ولا شك أنَّ ما ذكرناه في هذا البند وما ذكرناه سابقاً في البند الرابع، مما يمثل ـ أيضاً مشكلة بالنسبة لتدريس علم النفس الصناعي بصفة عامة سواء في أقسام التخصص أو الدبلومات العالية.

خاتمة:

وبعد، فقد حاولنا في هذا البحث أن نوضِّح حاجة الإدارة إلى مساهمات علم النفس الصناعي لترشيدها فيما يتعلَّق بتحقيق أهدافها الأساسية من وفرة للإنتاج وتحسين لنوعيته وتصريف له وتحقيق للراحة النفسية والرضا للعاملين في المؤسسة التي تديرها. ولقد ضربنا الأمثلة من واقع الدراسات الإحصائية والتجريبية التي أبرزت لنا الفوائد الضخمة التي تعود من مساهمات علم النفس الصناعي في مجال الصناعة بصفة خاصة والعمل بصفة عامة، ورجاؤنا أن يعمل المسؤولون عن الإدارة في مجتمعنا على الإستفادة قدر المستطاع من تطبيقات علم النفس الصناعي وأسسه في ميدان العمل والإنتاج. أمَّا في نهاية البحث فقد حاولنا إعطاء صورة تقريبية لما عليه الحال من تدريس علم النفس الصناعي بالجامعات المصرية والمشاكل التي تعترضه. راجين أن يعمل المسؤولون بالجامعة على إدخال مادة علم النفس الصناعي في المقررات المفروضة على الأقسام التي تخرج متخصصين في المجال الصناعي أو الإداري (سواء كانت هذه الأقسام تابعة لكليات التجارة أم الحقوق أم الهندسة أم الآداب أم غيرها) مع العمل على علاج مشكلات تدريسه على نحو ما عرضنا.

المـــراجع

١ ـ أ. براون: علم النفس الاجتماعي في الصناعة ـ ترجمة الدكاترة السيد محمد خيري وسمير نعيم ومحمود الزيادي ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٦٠.

٢ ـ أحمد عزّت راجح: علم النفس الصناعي ـ القاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥.

٣ ـ السيد محمد خيري: علم النفس الصناعي وتطبيقاته المحلية ـ القاهرة ـ النهضة العربية.

٤ ـ السيد محمد خيري: الصحة النفسية والصناعة ـ مجلة الصحة النفسية ـ مجلد: ١ عدد: ١، ١٩٥٨.

٥ ـ سيد عبد الحميد مرسي: العلاقات الإنسانية في مجال الإدارة ـ المعهد القومي للإدارة العليا بالقاهرة ـ عدد ٣٩ من سلسلة الدراسات ـ ١٩٧٠.

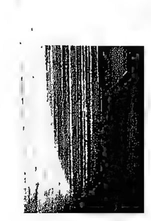
٦ ـ عبد المنعم المليجي: خبراء النفوس ـ مكتبة مصر ـ القاهرة ١٩٥٦.

٧ ـ عصمت المعايرجي سيد عبد الحميد مرسي ونجيب اسكندر: الحوافز ـ المعهد القومي للإدارة العليا بالقاهرة ـ عدد ٤٠ من سلسلة الدراسات ـ ١٩٧٠.

٨ ـ فرج عبد القادر طه: العلاقة بين الإصابات في الصناعة والصفحة النفسية للذكاء ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ قدمت لكلية الآداب جامعة عين شمس ـ ١٩٦٥.

٩ ـ فرج عبد القادر طه: سيكلوجية العامل المشكل في الصناعة ـ رسالة دكتوراه غير منشورة ـ قدمت لكلية الآداب جامعة عين شمس ـ في ١٩٦٨.

١٠ ـ فرج عبد القادر طه: علم النفس بين خدمة العامل وخدمة الإنتاج مجلة الفكر المعاصر ـ مارس ١٩٧٠.



١١ ـ كنيث هاملتون: أسس التأهيل المهني ـ ترجمة الدكتور سيد عبد الحميد مرسي ـ القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٦٢.

١٢ ـ مصطفى سويف: علم النفس الحديث ـ القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٦٧.

١٣ ـ موريس فيتلس: في فصل «علم النفس المهني» من كتاب ميادين علم النفس الذي أشرف على تأليفه جيلفورد ـ ترجمة الدكتور أحمد زكي صالح ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٥٦.

١٤ ـ نورمان ماير: علم النفس في الصناعة ـ ترجمة الدكاترة محمد عماد الدين إسماعيل وصبري جرجس وأمين كمال محمد ـ القاهرة ـ مؤسسة الحلبي ـ ١٩٦٧.

١٥ ـ يوسف مراد: دراسات في التكامل النفسي ـ القاهرة ـ مؤسسة الخانجي ـ ١٩٥٨.

١٦ ـ **Eysenck. H. J:** Uses and Abuses Of Psychology, Pelican Book, 1955.

١٧ ـ **Ghiselli and Brown:** Personel and Industrial Psychology, Mc Graw Hill, Tokyo, 1955.

١٨ ـ **Michael Argyle:** Psychology and Social Problems, Associated Book Publishers, London, 1967.

١٩ ـ **Tiffin and Mc Cormick:** Industrial Psychology, Prentice Hall, 1968.

الفصل السادس

التعليم والتدريب والإنتاجية (*)

* تمهيد.
* التعليم والتدريب.
* التعليم والتنمية.
* الأمية في الدول العربية.
* مستقبل جهود محو الأمية في العالم العربي.
* التعليم وتخطيط القوى العاملة.
* الإنتاج والكفاية الإنتاجية.
* الكفاية الإنتاجية والتعليم.
* الكفاية الإنتاجية ومشكلات العمالة.
* عوامل رفع الكفاية الإنتاجية.
* خاتمة.

(*) البحث الذي اشترك به المؤلف في مؤتمر «دور تعليم الكبار في تكوين القوى العاملة» الذي عقدته جامعة الدول العربية: الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار في القاهرة بين ٢٧ نوفمبر وأول ديسمبر ١٩٧٧. وألقي البحث في جلسة ٢٨ نوفمبر ١٩٧٧.

تمهيد:

يسعى كل مجتمع إلى تحقيق أكبر قدر يستطيعه من التنمية، سواء في ذلك المجتمع الاشتراكي أو المجتمع الرأسمالي، المجتمع المتقدم أو المجتمع المتخلف، حتى يستطيع المجتمع بذلك أن يرفع مستوى معيشة أفراده، ويوفر لهم ما يحتاجون من ضروريات وما يتطلعون إليه من كماليات.

ويعتمد نجاح المجتمع في تحقيق معدلات تنمية عالية على مصدرين أساسيين: أولهما موارد المجتمع الطبيعية، وهي موارد حبته الطبيعة بها، مثل الأرض الخصبة الصالحة للزراعة والمياه اللازمة لها، والمعادن في باطن الأرض أو عليها. أما المصدر الثاني لنجاح المجتمع في تحقيق تنميته فهو قوى هذا المجتمع البشرية، ومدى ما تتمتع به من كفاية إنتاجية وتنظيم، فهذه القوى هي التي يتوقف عليها حسن استغلال هذه الموارد الطبيعية أو تبديدها وسوء استغلالها..

ولما كانت موارد المجتمع الطبيعية شيئاً أقرب إلى القدر الصعب تغييره فإنَّ أهمية القوى البشرية للمجتمع، وضرورة تنمية إمكانياتها وترشيد استغلالها، تحتل المكانة العظمى في عملية التنمية. ومن هنا كانت أهمية تعليم وتدريب القوى البشرية لصالح الكفاية الإنتاجية المؤدية بدورها إلى التنمية المنشودة للمجتمع.

التعليم والتدريب:

التعليم هو إكساب الفرد المعرفة والمهارة العقلية والحركية اللازمة له لإزالة ما يعانيه من أمية في المجالات المختلفة، سواء كانت هذه الأمية في مجال القراءة والكتابة ومبادىء الحساب والعلوم البسيطة (على نحو ما هو شائع عن معنى الأمية) أو سواء كانت هذه الأمية في مجال الثقافة والفكر والعمل والإنتاج على نحو ما ينبغي أن يشمله تعريف الأمية. أمَّا التدريب فهو في نهاية الأمر ليس أكثر من عملية تعليم مقصودة لإجادة مهنة معينة أو نشاط معين والتدريب عليه.

والفرد منذ بداية وعيه في حاجة إلى التعليم والتدريب، حتى يصبح عضواً منتجاً في مجتمعه يسهم في بنائه وتقدمه ونموِّه.

ونظراً لأهمية القراءة والكتابة ومعرفة المبادىء الأولية للحساب والعلوم، أصبحت المجتمعات تتبارى في محو أمية القراءة والكتابة ومبادىء العلوم. ولهذا أصبحت الدراسة الابتدائية تعليماً إلزامياً في معظم المجتمعات، والتزاماً مجانياً من جانب معظم الدول حيال أفرادها.

ولا شكَّ أنَّ محو الأمية - بالمعنى الشائع - يعتبر من ألزم الأمور لتنفيذ برنامج تدريبي ناجح نظراً للاعتبارات التالية:

١ - التدريب في حاجة إلى إجادة القراءة والكتابة ومعرفة بعض المبادىء العلمية الأولية التي تعتبر قاعدة ينطلق منها التدريب والوعي بالعمل الذي يتدرَّب عليه وبما يلزمه.

٢ - التدريب في حاجة إلى كتابة مذكرات ومراجعة دروس نظرية وعملية متعلقة بالموضوعات التي يتدرب عليها.

٣ - محو الأمية ينمي الاتجاه المنهجي العلمي في التفكير والعمل والوعي بأهمية الدقَّة والضبط والتحديد، وهي جميعاً أمور لازمة لنجاح التدريب.

ولهذا فإنَّ اشتراط كثير من المؤسسات محو الأمية للتعيين فيها، أو لاستمرار العمل بها، ليس تعسفاً إدارياً، وليس من قبيل الترف الثقافي، بل وعياً بأهمية محو الأمية لإجادة استيعاب ما يتطلبه العمل من برامج تدريبية أو أوليات معرفية.

التعليم والتنمية:

ليس التدريب فقط هو الذي يتطلَّب محواً للأمية ومستوى تعليمياً مناسباً، بل إنَّ التنمية بصفة عامة في أي مجتمع تتطلب محواً للأمية، ويلزمها مستوى تعليمياً عالياً بين أفراد المجتمع الذي ينشدها ويحققها. فلا تنمية بغير محو للأمية، وبغير مستوى مناسب من التعليم يسود أفراد المجتمع. فالأمية من أكبر معوقات التنمية في أي مجتمع، وتكفي النظرة العامة دون الحاجة الماسة إلى لغة الأرقام ـ على مجتمعات العالم ليتبين لنا الارتباط الوثيق بين مستوى التنمية واندحار الأمية. فمجتمعات العالم التي حققت أعلى مستويات التنمية والتقدم كأمريكا وروسيا والصين والدول الأوروبية تكاد تختفي فيها الأمية، في حين أنَّ مجتمعات العالم التي تئن تحت وطأة التخلف ولا تكاد التنمية فيها تصل درجة محسوسة تنتشر فيها الأمية حتى أنَّها تعم معظم سكانها، كما هو الحال في إفريقيا على سبيل المثال. ويتأكد بنفس الأمر عندما نبحث العلاقة بين الأمية من جانب وبين مستوى التحضر والتصنيع ودخل الفرد من جانب آخر. حيث تتضح مباشرة تلك العلاقة السالبة. فالأمية أكثر انتشاراً في الريف عنها في المدن، وفي البدو عنها في الحضر، وبين ذوي الدخول المنخفضة عنها بين ذوي الدخول المرتفعة. وهناك دراسات إحصائية لا حصر لها تؤكد هذه الحقائق.

وإذا أمعنَّا النظر لكشف سر هذه العلاقة السالبة بين الأمية أو نقص التعليم من جانب وبين التنمية من الجانب الآخر لوجدنا أنَّها متركزة حول اعتبارات شديدة الشبه بالاعتبارات الثلاثة التي سبق أن ذكرناها عن علاقة التدريب بمحو الأمية. فالشخص المتعلم أقدر على فهم عمله وإجادته

وابتكار الجديد لأدائه، كما أنَّه أقدر على الاختراع والابتكار، وأقدر على الإدارة والتنظيم، علاوة على أنَّه أقدر على اكتساب الجديد والاستفادة منه لخدمة بلده. كما أنَّه أقدر على التفكير العلمي وعلى استخدام المنهج العلمي في حل مشكلاته ومواجهة متطلبات عمله بصفة خاصة، ومجتمعه بصفة عامة. والمتعلم في نهاية الأمر أوعى بظروف مجتمعه وواقع حضارته مما يمكنه من تحقيق أكبر استفادة منهما، ليس فقط لصالحه الشخصي، بل أيضاً لصالح مجتمعه في نفس الوقت.

الأمية في الدول العربية:

إذا كان للأمية كل هذا التأثير السلبي على قضية التنمية في أي مجتمع فإنَّه لمن سوء حظ العالم العربي أن يكون لدوله نصيب كبير من انتشار الأمية هو بلا شك مرتبط أشد الارتباط بتخلف التنمية فيها حتى الآن. ففي وثيقة «استراتيجية محو الأمية في البلاد العربية» التي قدمت لمؤتمر الإسكندرية الثالث لمحو الأمية الذي انعقد في بغداد بديسمبر من عام ١٩٧٦، نقرأ في صفحة (٨) بها هذه الفقرة:

«وتشير معظم الوثائق المعنية بتقدير حجم مشكلة الأمية والجهود التي بذلت في مواجهتها، إلى أنَّ الموقف فيها قد وصل إلى مرحلة من الجمود، بل إنَّه في تراجع في بعض الأحيان. فخطر الأمية ما زال متفاقماً رغم الجهود الطويلة المبذولة، وهو بذلك يقتضي بالضرورة وقفة تاريخية للانطلاق إلى عمل حاسم وجاد في إطار مسؤولية قومية وتاريخية تقع على عاتق الأمة العربية حكومات وشعوباً، إنَّ مشكلة الأمية قد أصبحت عبئاً ينوء بها كل قطر عربي لقصور الإمكانات البشرية والمادية والفنية عن التصدي لمصادرها ومظاهرها وآثارها»[١].

ونظرة على ما هو متاح من إحصاءات عن واقع الأمية في العالم العربي تؤكد هذه الحقائق. ففي دراسة تحليلية للدكتور سعد زغلول (خبير السكان

(١) الوثيقة المذكورة من منشورات الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار، مطبعة دار التأليف.

بالمركز الديموجرافي بالقاهرة) عن السكان والأمية في الوطن العربي يذكر: «لا زالت نسب الأمية مرتفعة في الوطن العربي رغم انخفاضها المستمر من ٨٠٪ إلى ٧٣٪ إلى ٦٣٪ في الأعوام ١٩٦٢، ١٩٧٠، ١٩٧٥ على الترتيب»[١].

كما نقتبس الجدول التالي من نفس الدراسة للمقارنة بين انتشار الأمية في الأعمار المختلفة في بعض الدول العربية:

النسب المئوية للأمية حسب العمر والنوع في بعض دول الوطن العربي[٢].

فئات السن	مصر ١٩٦٠		اليمن الشمالي ١٩٧٥		الكويت ١٩٧٠		كويتيون فقط ١٩٧٠	
	ذكر	أنثى	ذكر	أنثى	ذكر	أنثى	ذكر	أنثى
١٠ -	٤٧	٦٦	٧٠	٩٤	٨	١٧	٧	٢٣
١٥ -	٥٠	٧٣	٧١	٩٦	٢٢	٣٦	١٢	٤٣
٢٠ -	٥١	٧٩	٧٠	٩٧	٣٣	٤٤	٢٣	٦٢
٢٥ -	٥٥	٨٥	٧٢	٩٩	٣٣	٥٣	٣٣	٧٨
٣٠ -	٥٦	٨٨	٧٧	٩٩	٣٣	٦٠	٣٨	٨٤
٤٠ -	٦٢	٩١	٧٧	٩٩	٣٦	٦٩	٤٧	٨٨
٤٥ -	٦٣	٩٣	٧٩	١٠٠	٤١	٧٦	٥٧	٩٢
٥٠ -	٦٦	٩٤	٧٧	٩٩	٤٥	٨٢	٦٢	٩٤
٥٥ -	٦٩	٩٥	٧٩	١٠٠	٥٦	٩٠	٦٩	٩٨
٦٠ -	٦٨	٩٦	٨٤	٩٩	٥٧	٩١	٧١	٩٧
٦٥ -	٧٢	٩٧	٨١	٩٩	٧٠	٩٤	٧٩	٩٨
٧٠ -	٧٣	٩٧						
٧٥ -	٧٩	٩٨	٨٢	٩٩	٨٢	٩٧	٨٧	٩٩
٧٥ +	٧٣	٩٨						

(١) الدكتور سعد زغلول: دراسة تحليلية للسكان والأمية في الوطن العربي، تعليم الجماهير، العدد التاسع، السنة الرابعة، مايو ١٩٧٧ (تصدر عن الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار)، ص ٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١.

ويتضح من الجدول السابق أنَّ الأمية أكثر انتشاراً بين الإناث عنها بين الذكور، وبين الأعمار الكبيرة عنها بين الأعمار الصغيرة. ولعلَّ ذلك راجع في أساسه إلى أوضاع المرأة العربية الخاصة، وإلى زيادة الوعي بأهمية التعليم في وقتنا الحاضر عنه في الماضي مما يدفع بأولياء الأمور إلى الاهتمام بتعليم أبنائهم.

مستقبل جهود محو الأمية في العالم العربي:

أما عن المستقبل القريب لمحاولات محو الأمية في العالم العربي فإنَّه لا يبشر بالخير حتى الآن. ففي التلخيص الذي قام به الدكتور سيد عبد العال لوثيقة: «أوضاع الأمية في البلاد العربية» التي عرضت على مؤتمر الإسكندرية الثالث لمحو الأمية والذي سبقت الإشارة إليه نقرأ التالي:

«باستعراض الوضع الحالي نجد أنَّ عدد الأميين على مستوى الوطن العربي (سبع عشرة دولة) قد بلغ عام ٧٤/٧٣ حوالي خمسة وثلاثين مليوناً ونصف المليون بينما بلغت أعداد الدارسين المقيدين في فصول محو الأمية لنفس العام ٧٠١,٦١٦ دارساً فقط بنسبة لا تتعدَّى ١٩٨ لكل عشرة آلاف أي حوالي ٢٪ فقط من الأميين الموجودين.

«كما أنَّ عدد الناجحين في نفس العام قد بلغ ٢٢٠,٨٦٨ دارساً مفروض أن أميتهم قد محيت، ومعنى ذلك أنَّ نسبة الناجحين إلى الأميين لا تتعدى ٦ في الألف أي أقل بكثير من ١٪، ومعنى ذلك أيضاً أنَّه إذا كنَّا نمحو أمية حوالي ١٪ سنوياً فنحن نحتاج إلى مائة سنة كي نمحو أمية الأميين الحاليين مع افتراض ثبات جميع الظروف والمتغيرات بما فيها بطبيعة الحال ثبات حجم الأميين الحاليين على ما هو عليه دون زيادة جديدة، وهو افتراض خاطىء في ظل التسرب من التعليم الابتدائي وعدم الوصول إلى الاستيعاب الكامل للملزمين»[1].

---

(١) أوضاع الأمية في البلاد العربية: تلخيص الدكتور سيد عبد العال، تعليم الجماهير نفس العدد السابق الرجوع إليه، ص ٥٦.

ومن الواضح أنَّ هذا النص في غنى عن أي تعليق. ونظراً للأهمية الكبرى لمحو الأمية، ولفشل الجهود المبذولة فيها حتى الآن، فإنَّ هذا يدعونا إلى إعادة النظر في برامجنا لمحو الأمية، واتخاذ إجراءات حاسمة في هذا الشأن دون إبطاء حتى لا يزداد تخلفنا عن ركب الحضارة الحالي. وأقترح لذلك ما يلي:

١ ـ القيام ببحوث علمية يعاد فيها تقييم برامجنا ووسائلنا وخططنا لمحو الأمية للبحث عن عوامل فشلها واكتشاف وسائل علاجها، وتطبيق هذه الوسائل. ولعلَّ المجال هنا يكون مناسباً لدراسة تجارب الدول التي سبقتنا في القضاء على أمية مواطنيها ونقل الوسائل التي استخدمتها لذلك إلى بيئتنا طالما كانت ملائمة لها، أو تعديلها بما يتناسب وظروفنا.

٢ ـ رفع حافز المواطنين لمحو أميتهم كربط برامج محو الأمية بتعلم مهنة رابحة تفيدهم في تحسين أوضاعهم المالية وحياتهم المعيشية، ومثل اشتراط محو الأمية للتعيين وللترقي داخل مؤسسات العمل.

٣ ـ تخصيص جزء من الخدمة الإجبارية لكل من يتخرج من الجامعة أو غيرها من المؤسسات التعلمية من الجنسين لمحو أمية عدد معين من المواطنين يتحدَّد بناء على تخطيط معين يوضع لمحو الأمية في الدولة في زمن مناسب لا يتعدَّى السنوات العشر، واعتبار ذلك شرطاً ضرورياً وواجباً حتمياً ملزماً لكل هؤلاء كالتجنيد العسكري تماماً.

٤ ـ تحويل فائض العمالة التي تشكو منها معظم مؤسساتنا ومصالحنا من خريجي الجامعات وغيرها من المؤسسات التعليمية للخدمة في مجال محو الأمية.

٥ ـ هذا مع ضرورة مراعاة أمور عامة مثل تدريب معلمي محو الأمية وزيادة عددهم، وصرف مكافآت تشجيعية مجزية ومغرية لمن ينجح منهم في

محو أمية عدد كبير من المواطنين، ورصد ميزانية مالية أكبر لمؤسسات محو الأمية. وتوجيه عناية أكبر نحوها.

٦ ـ التوسع في فصول المدارس الابتدائية حتى تتسع لكافة الأطفال في سن الإلزام.

٧ ـ ولا يفوتنا أخيراً أن نسجل هنا أنَّ محو الأمية في الدول العربية هو تحد حضاري يواجهها في مستقبلها القريب والبعيد معاً، وأنَّه ما لم تخلص نوايا المسؤولين في ملاقاة هذا التحدي والانتصار عليه، فسوف تصبح كل خطط محو الأمية في البلاد العربية وجهودها مظهراً فقط خال من المضمون، لا يحقق أي تقدم، ولا يرجى منه أي نفع.

التعليم وتخطيط القوى العاملة:

إذا كانت الأمية تحدياً حضارياً يعوق عمليات التنمية في مجتمعاتنا التي تجاهد في سبيل تقدمها، فإنَّ هناك تحدياً آخر أمام محاولاتنا للتنمية هو عدم اتساق نظمنا التعليمية وبرامجنا في المؤسسات القائمة بالتعليم في بلادنا مع احتياجاتنا الفعلية. وهذا يقتضي منا أن نعيد النظر في برامجنا التعليمية لتتوافق مع احتياجاتنا الفعلية من نوعيات القوى العاملة اللازمة لبرامج التنمية ونسب هذه النوعيات. ولا نستطيع أن ننجح في هذا إلَّا إذا قمنا بتخطيط للقوى العاملة اللازمة لبرامج التنمية في السنوات المقبلة، بحيث يصبح لنا سابق علم بنوعيات وأعداد المتخصصين في كل مجال مما يلزم لكل عام أو فترة من فترات المستقبل تمشياً مع طموحاتنا في التنمية، ثمَّ بناء على علمنا هذا نكيِّف أعداد الداخلين للدراسة أو التدريب في كل نوع من هذه التخصصات، بحيث يتناسب عدد الخرِّيجين منه مع العدد المطلوب لبرامج التنمية في كل سنة. وبعبارة أخرى، وعلى سبيل المثال، إذا كانت الخطة الموضوعة للتنمية تقرر حاجتنا في عام ١٩٨٣ إلى ألف مهندس ميكانيكي وأنَّ توقعاتنا أن يكون لدينا بالفعل منهم سبعمائة في هذا العام، وجب علينا

ألاّ نسمح بالدخول لأقسام الميكانيكا بكليات الهندسة في عام ١٩٧٨ إلاّ لثلاثمائة طالب أو أكثر قليلاً. وهكذا يكون تعليمنا موجهاً ليواكب احتياجاتنا الفعلية لعملية التنمية. أما ما يحدث الآن من ترك الأعداد الهائلة تدخل إلى كليات مثل الحقوق والآداب دون حاجة التنمية فعلاً إلى تخريج كل هذه الأعداد الضخمة من هذه النوعية من التعليم، فإنّه يتسبب في إهدار جزء كبير من الطاقة البشرية للمجتمع وعدم الاستفادة منها الاستفادة المثلى في تنمية مجتمعها وتطويره.

وما يصدق على التعليم العالي يصدق أيضاً وبنفس الكيفية على التعليم في مراحله المختلفة، وبأنواعه المختلفة سواء النظرية أو الفنية، بل ويصدق أيضاً على مراكز ومعاهد التدريب المهنية المختلفة. فإذا كانت التنمية تحتاج في فترة معينة إلى عمال مهرة ونصف مهرة، وإلى مساعدين فنيين من تخصصات معينة، وإلى حاملي مؤهلات نظرية أو فنية متوسطة أو عالية وكل من هؤلاء بأعداد معينة، وجب أن نخطط لتخريج وتهيىء كل هؤلاء ليكونوا متوفرين بنفس الأعداد تقريباً وفي الوقت المحدد للاحتياج لهم، ويقتضي هذا الأمر بطبيعة الحال التوسع في إنشاء مراكز تدريب مهني للعمّال المهرة ولنصف المهرة، ممن لا يعانون من الأمية ولا يشترط بالضرورة حصولهم على أية مؤهلات علمية، كما يقتضي أيضاً التوسع في إنشاء مراكز تدريب للمساعدين الفنيين ممن يحملون مؤهلات دون المتوسط أو متوسطة، حيث نجد أنّ التنمية في أمسّ الحاجة إلى توافر كل هؤلاء في التخصصات المختلفة وبالأعداد المناسبة.

كما نقترح ضرورة، إنشاء مراكز تدريب تقدم خدماتها مجاناً لكل من يريد الالتحاق بها لإجادة حرفة أو مهنة معيَّنة، وذلك دون التقيد بأي شروط من حيث المؤهل أو السن أو الالتزام بالعمل بعد التخرج.. إلخ.

فإذا ما انتقلنا إلى تفاصيل البرامج والمواد والموضوعات التي تدرس نظرياً وعلمياً داخل مؤسساتنا التعليمية وجدناها في حاجة إلى إعادة نظر.

فالسيادة في مرحلة الدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية تكاد تكون تامة للمواد النظرية والتنظيرية مما يتسبب عنه أن يزرع في نفوس النشء امتهان للعمل الحرفي اليدوي، واستصغار لشأنه وقيمته في مقابل تعظيم لشأن العمل الذهني والتنظيري والإداري. ويكون من نتيجة ذلك نقص اليد العاملة الفنية الماهرة ونصف الماهرة في الحرف والمهن الضرورية لبناء المجتمع والانطلاق به في مجال التنمية، على نحو ما نعانيه في مصر في الوقت الحالي في مهن البناء والتشييد والتأثيث والصيانة.. إلخ.

خلاصة القول أنَّ عالمنا العربي اليوم فيما يتعلَّق بأمر التعليم يعاني معاناة عديدة من انتشار الأمية، ومن قصور تخطيط التعليم في مراحله المختلفة وتوجيه النسب الملائمة من طلبته إلى كل نوع منه حسب الاحتياج الفعلي للمجتمع في الحاضر والمستقبل، كما يعاني أيضاً من إهمال التعليم والتدريب الحرفي والمهني والعملي واليدوي واستصغار شأنه في وقت نجد فيه حاجة الدول الهادفة للتنمية ماسة إلى مثل هذا النوع من التعليم والتدريب. ونحن هنا في حاجة إلى تضافر العلوم والجهود المختلفة لتتكاتف لبحث وحل مشكلات التعليم والتدريب هذه.

الإنتاج والكفاية الإنتاجية:

يهم المجتمعات النامية بصفة خاصة أن يرتفع فيها الإنتاج في مختلف صوره وأشكاله إلى أعلى حد ممكن من الناحيتين الكمية والكيفية، بحيث تحقق وفرة في الإنتاج، وجودة في نوعه معاً. وينبغي أن يتحقق ذلك مع مراعاة مبدأ الكفاية الإنتاجية، الذي يعني الإنتاج العالي من أجود نوع وبأقل قدر من التكلفة، مع كفالة أكبر قدر من الراحة الجسمية والنفسية للعاملين.

إنَّ التنمية في أي مجتمع تعتمد على كفايته الإنتاجية. فما لم يحقق المجتمع درجة كبيرة من الكفاية الإنتاجية لن يتحقق له معدَّل النمو الذي ينشده ويخطط له. فالمجتمع ذو الكفاية الإنتاجية العالية هو الذي يرتقي

أسرع في درجات التقدم. وبالمثل فإنَّ مؤسسة العمل ذات الكفاية الإنتاجية العالية هي التي تتمكن من تحقيق أهدافها بشكل أسرع وبدرجة أكبر. ومن هنا كانت الكفاية الإنتاجية هدفاً يتطلع إليه كل مجتمع نام بمختلف مؤسساته وتنظيماته. ولعلَّ في رفع المجتمعات النامية لشعار «مجتمع الكفاية» ما يؤيد هذه الحقيقة. وإذا كانت الكفاية الإنتاجية تصلح مقياساً لتقدم المجتمع النامي خاصة، فإنَّ النظرة العامة على مجتمعاتنا تؤيد الارتباط الكبير بين التخلف فيها ونقص كفايتها الإنتاجية، سواء في ذلك على مستوى المجتمع الواحد ككل، أو على مستوى مؤسسات العمل والإنتاج فيه كوحدات جزئية داخل المجتمع، ومن هنا وجب الاهتمام برفع مستوى الكفاية الإنتاجية داخل كل دولة عربية ككل، وفي كل مؤسسة عمل وإنتاج بالدولة على حدة.

الكفاية الإنتاجية والتعليم:

سبق أن تحدَّثنا عن مشكلات الأمية والتدريب والتعليم في بلادنا العربية. ونعود هنا لنؤكد أنَّه بغير الفرد المدرب والمتعلم لن تصل إلى مستوى الكفاية الإنتاجية الذي نطمح إليه لتحقيق المستوى المنشود من تنمية بلادنا، ذلك المستوى الذي نعلِّق عليه الأمل الأكبر للحاق بركب الدول المتقدمة، وتضييق ما بيننا وبينها من هوة تبدو في الوقت الحالي وكأنَّها تزداد اتساعاً على عكس أمانينا القومية المتركزة في تضييقها. إنَّ ما سبق أن أشرنا إليه. وما لم نشر إليه من دراسات عن الأمية والتنمية تؤيد الحقيقة القائلة بارتباط الأمية بالتخلف، وبارتباط التعليم بالتقدم والتصنيع والتحضر والمستوى الاقتصادي الاجتماعي المرتفع. بل تؤيد هذه الدراسات الحقيقة القائلة بأنَّ الأمية ونقص التدريب والتعليم في الدول المتخلفة يعتبر حجر العثرة الذي يقف في سبيل تنميتها، و«يأكل» مجهودات التنمية فيها. إنَّ اهتمامنا بمحو الأمية وبتخطيط التدريب والتعليم وتوجيههما وفق احتياجات التنمية ـ على نحو ما سبق أن اقترحنا سوف يساعدنا كل ذلك في خلق المواطن ذي الكفاية الإنتاجية العالية ولا شك. فعلى سبيل المثال فقط نجد

أننا لا نتوقع من معلم لم يحصل العلم بدرجة مناسبة ولم يتدرب على كيفية التدريس التدريب اللازم أن يكون معلماً ناجحاً لأبنائنا، بل نتوقع أن تكون كفايته الإنتاجية في عمله منخفضة. ولعلَّ الشاعر معروف الرصافي أصاب بحسِّه المرهف قلب الحقيقة حين قال.

إذا ارتوت البلاد بفيض علم   فعاجز أهلها يمسي قديرا

الكفاية الإنتاجية ومشكلات العمالة:

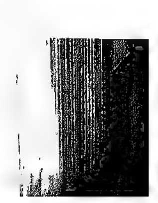
تعاني البلاد العربية في وقتنا الحالي مشكلات عمالة خطيرة، تؤثر تأثيراً سيئاً على الكفاية الإنتاجية في مؤسسات العمل ومنظماته بصفة خاصة، وفي المجتمع كحصيلة نهائية بصفة عامة.

وفيما يلي نناقش بعضاً من هذه المشكلات:

١ ـ مشكلة العمالة الزائدة:

يلاحظ أنَّ معظم مؤسساتنا ومصالحنا تشكو من تكدُّس أعداد هائلة من الموظفين والعاملين فيها إسماً واللاعاملين فعلاً. ولقد بلغت هذه المشكلة حداً كبيراً في مصر جعل صحافتنا كثيراً ما تتناولها بالنقد والشكوى.

ويلاحظ أنَّ لهذا التكدُّس أثراً سلبياً خطيراً على الإنتاج، فالموظف الذي لا عمل له يصبح مشكلة بين زملائه يشغلهم معه في قتل وقت فراغه أثناء العمل فيصرفهم بذلك عن عملهم، كما أنَّه يصبح أمامهم مثلاً يقتل فيهم طموحهم المهني وحماسهم للعمل والإنتاج. هذا إلى جانب أن وجود موظف بلا عمل ولا دور يؤديه في مؤسسة عمله يبعث في نفسه مزيجاً من أحاسيس انخفاض الروح المعنوية وفقدان الانتماء الفعلي لمؤسسة العمل، ونقص الأهمية واعتبار الذات. وكل هذه أحاسيس مدمرة لكيان الشخصية وبنائها. يضاف إلى كل هذا تحمل ميزانية الدولة مرتبات لموظفين بلا إنتاج مما يرهقها. هذا



علاوة على حرمان المجتمع من طاقة بشرية كان من الممكن استغلالها لصالح بناء المجتمع وتنميته.

ويرجع تكدُّس العمالة وفائضها بين خريجي الجامعات المصرية إلى التزام الدولة بتشغيل خريجيها مع عدم تناسب نوعيات الخريجين وأعدادهم مع المتطلبات الفعلية للدولة، كما يحدث بالنسبة لخريجي الحقوق والآداب، ولا شك أنَّ التزام الدولة بتعيين خريجيها مبدأ لا غبار عليه، بل هو مطلب ينبغي أن يتمسك به الخريجون شريطة أن تلتزم الدولة بإيجاد الوظائف التي تحتاجهم فعلاً، وتفتح أمامهم الأعمال التي ينتجون فيها فعلاً. ولن تستطيع الدولة أن تحقق ذلك إلَّا بتخطيط التعليم وتخطيط القوى العاملة وإيجاد تنسيق جيد بين هذين التخطيطين على نحو ما سبق أن أشرنا.

على أنَّ فائض العمالة (سواء في مصر أو غيرها) يمكن أن يوجه إلى العمل في برنامج قومي شامل لمحو الأمية في الدولة فتتحقق بذلك فائدة مزدوجة هي القضاء على الأمية من جانب وإيجاد عمل فعلي منتج للموظف الذي لا عمل له من جانب آخر.

٢ ـ مشكلة العمالة الناقصة:

لعلَّ من التناقض الصارخ في ميدان العمالة بالدول العربية أن تعيش مشكلة العمالة الناقصة جنباً إلى جنب مع مشكلة العمالة الزائدة. فبينما نجد في مصر على سبيل المثال آلاف الموظفين المكتبيين الذين لا عمل لهم، لا نكاد نجد العامل الماهر الفني في معظم الحرف اليدوية إلَّا بصعوبة. فما تكاد تلتقي بشخص ينشىء عمارة سكنية حتى يحدِّثك عن نقص البنائين والسباكين والنجارين والمبلطين والمبيضين، وعن الارتفاع الشديد لأجرهم، وعن عدم انتظامهم في العمل بسبب نقص عددهم وزيادة الطلب عليهم. ونفس النقص نجده في معظم المهن والأعمال الفنية الأخرى.

وإذا كانت للعمالة الزائدة سلبياتها التي تحدثنا عنها، فإنَّ للعمالة

الناقصة بالمثل سلبيات خطيرة، لعلَّ أهمها توقف بعض ما نحن في حاجة إلى إنتاجه أو انخفاض كميته ونوعيته مما يصعب معه تحقيق النجاح لبرامج التنمية والإنتاج.

ومشكلة العمالة الناقصة هنا لا تكاد تعالج إلاَّ بما اقترحناه من علاج لمشكلة العمالة الزائدة عن طريق التخطيط المتكامل بين التعليم والتدريب من جانب وبين القوى العاملة التي يحتاجها المجتمع بالفعل من جانب آخر.

٣ ـ مشكلة سوء توزيع العمالة:

تعاني البلاد النامية عموماً من سوء توزيع العمالة بها واختلال نسبها، حيث نجد النسب الكبيرة من العمالة في مهن أقل أهمية وأقل عائد وأتفه إسهاماً في الاقتصاد القومي، بينما نجد النسب الصغيرة من العمالة في المهن الأكثر أهمية والأكبر عائداً والأضخم إسهاماً في الاقتصاد القومي. وأنقل فيما يلي جدولين[١] عن الدكتور محمود عمر محمود (خبير القوى العاملة والأجور والإنتاج بمعهد التخطيط القومي بالقاهرة) ومصدرهما هو: Ilo, Year Book Of Labour Statistics, Geneva, 1975.

ويبدو واضحاً من هذين الجدولين مقدار الخلل في هيكل القوى العاملة بالبلاد العربية ومدى انخفاض نسبة الفنيين والمهنيين في المقارنة بما هي عليه في الدول المتقدمة. فعلى الرغم من إيماننا بحاجة المجتمع إلى كافة أنواع العمل والعاملين إلاَّ أنَّه في بلادنا العربية تقل الأيدي العاملة الماهرة المدربة والخبراء الفنيين. ومما يزيد من تعقيد هذه المشكلة ما يلاحظ من عدم اكتراث المسؤولين بتشغيل الفرد في العمل المؤهل له، فهذا رئيس مخزن لقطع الغيار بينما هو من خرِّيجي كلية الزراعة، وهذا مدير جمعية تعاونية من خريجي كلية الحقوق، وهذا مدير شؤون العاملين من خرِّيجي كلية الآداب. . إلخ.

(١) دكتور محمود عمر محمود: المعالم الأساسية لهيكل العمالة ونوعيتها في الوطن العربي منشورات الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار ـ ١٩٧٦ ص ٩، ١٠.

التوزيع النسبي لقوة العمل حسب المجموعات المهنية الرئيسية في بعض الدول العربية

المجموعة المهنية	المهنيون والفنيون ومن إليهم	الإداريون والمديريون	الكتابيون ومن إليهم	عمال البيع	عمال الخدمات	الزراعة (*)	عمال الإنتاج (**)	عمال غير مصنفين	آخرون (***)	الجملة	السنة
البحرين	٨,٠	١,٧	٨,٦	٨,٦	١٦,٥	٧,٠	٤٦,٥	١,٩	١,٢	١٠٠,٠	١٩٧١
الجزائر	٣,٤	٠,٨	٣,٥	٤,٨	٨,٥	٤٩,٧	١٧,١	٠,٧	١١,٥	١٠٠,٠	١٩٦٦
سوريا	٤,٣	٠,٤	٣,٩	٦,٩	٤,٥	٤٩,٠	٢٧,٢	٣٨,٨	-	١٠٠,٠	١٩٧٠
الكويت	١٠,٥	٠,٧	١١,٦	٨,٧	٢٣,٧	١,٦	٣٩,٦	,٢	٣,٤	١٠٠,٠	١٩٧١
ليبيا	٣,١	١,٤	٤,٨	٦,٠	١٠,١	٣٧,٤	٢٥,٦	١١,٦	-	١٠٠,٠	١٩٦٤
مصر	٤,٤	١,٦	٥,٠	٥,٨	٦,٩	٤٥,٦	١٩,٥	١١,٢	-	١٠٠,٠	١٩٦٦
المغرب	٤,٠	٣,٠	-	٥,٦	٨,٢	٥١,٤	١٩,٢	٨,٦	-	١٠٠,٠	١٩٧١
تونس	٤,٠	٠,٧	٢,٧	٥,٤	٥,٩	٣٨,٩	٣٦,٥	٥,٩	-	١٠٠,٠	١٩٦٦
لبنان	٩,٢	١,٩	٧,٩	١١,٥	١١,٠	١٧,٨	٣٢,١	٢,٨	٥,٨	١٠٠,٠	١٩٧٠

المصدر: تمّ تجميع هذا الجدول من: Ilo, Year Book of Labour Statistics, Geneva, 1975.

(*) تشمل عمال الزراعة وتربية الحيوانات والنباتات وصائدي البر والبحر.

(**) تشمل عمال الإنتاج ووسائل النقل والمناجم والمحاجر.

(***) تشمل الباحثين عن عمل لأوّل مرة والمتعطلين.

نسبة المهنيين والفنيين ببعض الدول الصناعية إلى إجمالي قوّة العمل

الدولة	النسبة	السنة
كندا	١٤,٠	١٩٧٥
بلجيكا	١١,١	١٩٧٠
الولايات المتحدة	١٣,٨	١٩٧٠
النمسا	٨,٧	١٩٧١
تشيكوسلوفاكيا	١٩,٤	١٩٧٠
ألمانيا الاتحادية	٩,٨	١٩٧٠
المجر	١٠,٩	١٩٧٠
النرويج	١٤,٤	١٩٧٤
سويسرا	١٢,١	١٩٧٠
السويد	٢١,١	١٩٧٤
المملكة المتحدة	١١,١	١٩٧١

المصدر: تمّ تجميع الجدول من:
Ilo, Year Book Of Labour Statistics, Geneva, 1975.

وهذه المشكلة بدورها هي حصيلة المشكلتين السابقتين وتعكسهما بوضوح، مما يؤكد حاجة البلاد العربية إلى تخطيط سياسة التعليم والتدريب والتشغيل فيها لتتمشى والاحتياجات الفعلية لخطط التنمية والنهوض بها.

٤ ـ مشكلة التسيب وانعدام القدوة الصالحة:

إنَّ معظم البلاد النامية ـ ومنها بلادنا العربية ـ تعاني من مشكلة خطيرة في ميدان العمل هي انعدام الإحساس بالمسؤولية المتعلقة بواجبات الوظيفة. فنحن كثيراً ما نسمع أو نقرأ شكوى مثل أن تكون لك حاجة تريد قضاءها من مصلحة أو إدارة فتصدم بمعوقات كثيرة تستنفذ وقتك وطاقتك حتى تنجح في

قضائها. فهذا الموظف يحيلك إلى ذلك، وذلك يحيلك إلى غيرهما، وهذا لا يهتم بحاجتك ولا يريد إتعاب نفسه في قضاء واجباته حيالها وذاك في حاجة إلى رشوة. . . ، حتى إذا ما ضقت بكل هذا فذهبت إلى رئيسهم تطلب مساعدته غالباً ما تجده أفسد منهم وأقل إحساساً بالمسؤولية، وأقل اكتراثاً بواجبات وظيفته. وبعبارة أخرى فإنَّ التسيب يعم كثيراً من العاملين في البلاد النامية، كما أنَّ رؤساءهم في كثير من الحالات لا يقلُّون تسيباً عنهم، وبهذا تنعدم أمام العاملين القدوة الصالحة لهم في رؤسائهم، فيزداد فسادهم ويضطرب وفاؤهم بما عليهم من واجبات وظائفهم.

وخطورة هذه المشكلة علاوة على أنَّها تقلل الكفاية الإنتاجية، تتمثل في تعطيل مصالح أفراد المجتمع وتبديد طاقاتهم ووقتهم الذي كان ينبغي استثماره في عمل منتج يسهم في تنمية بلدهم، كما أنَّه من جانب آخر يهز ثقة المواطن في مجتمعه ويقلل من روحه المعنوية ومن اعتزازه بوطنيته، ويزيد إحساسه بالاغتراب وهو في وطنه. ويضاف إلى كل السلبيات تردد البلاد الغنية التي تريد مساعدتنا عندما تفقد الثقة في جديتنا وانضباطنا وضميرنا في العمل.

ولا شك أنَّ تلك المشكلة الخَطيرة تحتاج إلى حل حتى نوقف أو نقلل من آثارها المدمرة على مجتمعنا. ولعلَّ من أهم ما نقترحه من حلول لها هو رفع دافع الموظف نحو أداء واجبات وظيفته عن طريق المكافآت المالية وزيادة الراتب أو الأجر، الذي يكفل له حياة كريمة. وعن طريق أيضاً تقديم القدوة الحسنة في رؤسائه. فرئيس المؤسسة أو المصلحة الذي تعرف عنه الرشوة، واستغلال النفوذ، إنما هو يبرر لكافة من يعمل معه ويسوغ قبول الرشوة واستغلال النفوذ، ولن يستطيع أن يحاسب أحدهم مخافة أن يقوموا بكشف أمره. في حين أنَّ الرئيس النزيه يعتبر قدوة صالحة يقتدى بها من هم دونه في السلم الإداري، وإذا ما سولت لهم أنفسهم العبث بواجبات وظيفتهم واستغلُّوها استطاع هو أن يحاسبهم دون

خشية. ولهذا فإنَّ فساد هذا الرئيس يكون له من الآثار السلبية ما يفوق فساد مئات ممن هم أقل منه في السلم الإداري. ولعلَّ هذا ما يدعو إلى ضرورة الاهتمام بالرؤساء في المصالح والمؤسسات ومتابعة انحرافاتهم وتنحيتهم بمجرد ثبوتها.

عوامل رفع الكفاية الإنتاجية:

سبق أن أشرنا إلى أنَّ البلاد النامية تعاني من نقص في الكفاية الإنتاجية بشكل ملحوظ، الأمر الذي ينعكس على معدل التنمية بها، حتى أنَّها في بعض البلاد تكاد تتوقف أو تسير بخطى بطيئة لا تكاد تحس. والآن نعرض بعض العوامل التي نرى أنَّها شديدة الفاعلية إذا طبَّقناها لرفع الكفاية الإنتاجية.

١ ـ محو الأمية ورفع مستوى التعليم:

وذلك على نحو ما سبق أن ناقشنا في هذا البحث، وانطلاقاً من حقيقة ارتباط تقدم المجتمع بمستوى التعليم فيه على نحو ما سبق أن ذكرنا.

٢ ـ علاج مشكلات العمالة:

على نحو ما سبق أن فرغنا منه الآن.

٣ ـ استخدام الأساليب العلمية في اختيار وتوجيه وتدريب المتدربين.

سبق أن ذكرنا أنَّ البلاد النامية عموماً تعاني من نقص الحرفيين المهرة والفنيين والخبراء ومساعديهم، وذكرنا لعلاج هذا النقص أن نهتم بإنشاء مراكز مختلفة في مستوياتها للتدريب. وحتى تؤدي هذه المراكز دورها بنجاح في تدريب ورفع مهارة المتدربين على الحرف المختلفة ينبغي أن يتم اختيار طلبة التدريب أو توجيههم إلى أقسام التدريب وفق خطة علمية للاختيار والتوجيه، تقوم على أساسين:

أولهما: تحليل العمل أو الحرفة التي سيتدرب عليها طالب التدريب

لمعرفة الاستعدادات الجسمية والعقلية والمعرفية والشخصية اللازمة للنجاح فيها.

وثانيهما: تحليل طالب التدريب نفسه للاطمئنان إلى أنَّ الاستعدادات الجسمية والعقلية والمعرفية والشخصية اللازمة للنجاح في العمل أو الحرفة تتوافر فيه. ويتم هذا التحليل باستخدام الأساليب المختلفة في القياس النفسي كالاختبارات النفسية والمقابلة وغيرها.

فإذا ما تمَّ اختيار طلبة التدريب في الأقسام المختلفة وتوجيههم مع مراعاة هذين الأساسين ضمناً أن يتدرب كل متدرب في المهنة أو العمل الذي يناسبه، مما سوف يرفع بالضرورة من كفايته عندما ينتهي من تدريبه عليه ويعمل بالفعل فيه.

كما ينبغي اتِّباع أساليب التدريب الحديثة وأسسه العلمية والفنية حتى ترتفع درجة استفادة المتدرب منه، وتحقق مراكز التدريب ومؤسساته الهدف منها. ويحدد لنا كل من الفنيين وخبراء التدريب والخبراء النفسيين أفضل أساليب التدريب ويزيدونا وعياً بأسسه وبما ينبغي اتباعه لرفع كفاءته.

٤ ـ استخدام الأساليب العلمية في اختيار وتوجيه وتعليم تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات والدراسات العليا:

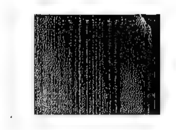
ونقصد بذلك أن يتم اختيار التلاميذ والطلبة وتصنيفهم وتوجيههم إلى أنواع وأقسام التعليم بمراحله المختلفة وفق استعدادات الطالب الجسمية والعقلية والمعرفية والشخصية ومدى ملاءمتها لنوع الدراسة الذي سوف يتلقاه. ويتم هذا بنفس الكيفية التي شرحناها في البند السابق عن المتدربين. ولا شك أنَّ نجاحنا في ذلك سوف يؤدي إلى رفع مستوى كفاءة مدارسنا ومعاهدنا العلمية، وإلى تحقيق أعلى نسبة نجاح ممكنة بين طلبتها، طالما كان كل منهم يدرس المادة التي تتفق واستعداداته المختلفة.

٥ ـ استخدام الأساليب العلمية في اختيار وتدريب العاملين:

إنَّ العاملين على اختلاف مستوياتهم ونوعياتهم ينبغي أن يتم اختيارهم أو توجيههم إلى نوع العمل الذي يتناسب واستعداداتهم الجسمية والعقلية والمعرفية والشخصية. ولن ترتفع كفاية العامل أو الموظف الإنتاجية إلاَّ إذا وضع في العمل الذي يناسبه، وهذا ما يعرف بمبدأ «وضع الرجل المناسب في المكان المناسب».

أما كيف يتم ذلك، فنقول إنَّه ينبغي أن يتم على أساس من تحليل العمل الذي تختار له العامل أو الموظف أو نوجهه إليه لنتبين ما يتطلبه هذا العمل من خصائص واستعدادات جسمية وعقلية ومعرفية وشخصية، ثمَّ يتم تحليل لطالب العمل لقياس وبيان مدى توافر هذه الخصائص المطلوبة فيه لكي يختار أو يوجه إلى نوع العمل الذي يتناسب واستعداداته المختلفة. ولا تكاد الأساليب العلمية هنا تختلف عن مثيلاتها في البندين السابقين[١].

وعلينا أن نلاحظ أنَّ أساليب العمل في تطور وتغير مستمرين، ولهذا ينبغي أن نتنبه إلى أهمية التدريب المستمر للعامل والموظف، كلما دعت الضرورة لذلك، حتى يلاحق أحدث تطورات أساليب العمل ووسائله وأدواته من جانب، وحتى يكتسب مهارة أكبر في مواجهة مشكلاته من جانب آخر. ولذا فإنَّ كثيراً من مؤسسات العمل تعقد دورات تدريبية بين الحين والآخر للعاملين فيها على مختلف مستوياتهم، على نحو ما يحدث في القوات المسلحة للدول المتقدمة، إذ تحتم قوانينها عدم الترقي إلاَّ بناء على النجاح في الدورات التدريبية التي تعقدها لكل مستوى على حدة. وينبغي أن نستعين لزيادة كفاءة التدريب بالأسس والوسائل العلمية والفنية على نحو ما سبق أن ذكرنا في البند الأسبق (البند الثالث).



---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى كتابنا: «علم النفس الصناعي والتنظيمي»، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ (الفصلين الثالث والرابع).

٦ ـ وضع سياسة عادلة للأجور والحوافز والترقي:

يقول علم النفس إنَّ كل سلوك وراءه دافع. ولذا ينبغي أن نعمل بكل ما نستطيع لزيادة دافع العامل أو الموظف نحو العمل والإنتاج. ولعلَّ من أهم العوامل التي تزيد دافع العامل أو الموظف نحو أداء واجبات وظيفته على الوجه الأكمل هو وضع سياسة عادلة وموضوعية يتحدد بناء عليها أجره دون ظلم، ويمنح بناء عليها حوافز إن أصاب دون محاباة، ويجازى على أساسها إن أخطأ أو أهمل دون تعسف أو تعنت، ويرقى وفقها إن كان يستحق الترقية دون مجاملة أو واسطة.

إن المساواة والعدالة والموضوعية في كل هذا سوف ترفع روح العاملين المعنوية وتحفزهم على الاهتمام بالعمل والإنتاج، وتفتح أمامهم باب الطموح لتحسين وضعهم وتحقيق أمانيهم، وتجعلهم مطمئنين على حاضرهم ومستقبلهم.

ويلاحظ أنَّ البلاد النامية ـ نتيجة سيادة العلاقات والقيم القبلية المختلفة فيها ـ تتجاهل إلى حد كبير العدالة والموضوعية في هذه الأمور، مما يعود على الكفاية الإنتاجية بأضرار جسيمة.

٧ ـ العناية باختيار الرؤساء وترشيد الإدارة:

سبق أن أشرنا عند مناقشة مشكلات العمالة (المشكلة الرابعة) إلى أهمية صلاحية رئيس المؤسسة. ونعود هنا لنؤيد أهمية اختيار الرؤساء والمديرين المناسبين لرفع الكفاية الإنتاجية لمؤسسة العمل. فمن المعروف أنَّه في أحد تقارير الأمم المتحدة عن أسباب فشل المشروعات التي حاولت أن تعين بها بعض البلدان النامية ذكرت أنَّ هذا الفشل يرجع في الجزء الأساسي منه إلى عدم توفر الإدارة الناجحة لهذه المشروعات في البلاد النامية.

فالمدير المرتشى أو المستغل لنفوذه أو الفاسد الضمير، أو غير المؤهل

من حيث كفاءته لإدارة مؤسسة ما أو مصلحة ما، أو قسماً ما، سوف يتسبب لا محالة في خفض الكفاية الإنتاجية لما يديره. ومن هنا كانت ضرورة مراعاة الدقة في اختيار الرؤساء والمديرين، والاطمئنان إلى سلامة ضمائرهم وإلى ارتفاع مستوى قدراتهم ومهاراتهم وخبراتهم وتأهيلهم فيما يتعلَّق بنوعية ما تسند إليهم من إدارة أو رئاسة. ومن الواضح أنَّ هذا البند يتفق وما سبق أن ناقشناه في البند الأسبق (البند الخامس) ويقوم على نفس أسسه وأسبابه.

وينبغي ألَّا نكتفي باختيار الصالح من الرؤساء والمديرين فقط، بل لا بدَّ وأن نضيف إلى ذلك ضرورة ترشيدهم أو توعيتهم بأساليب الإدارة والرئاسة المثلى، تلك الأساليب التي تعمل على خلق الجو الاجتماعي والنفسي الملائم للعمل، وترفع في نفس الوقت الروح المعنوية للعاملين تحت رئاستهم وإدارتهم، فترتفع تبعاً لذلك الكفاية الإنتاجية للمؤسسة. فلقد أثبتت الدراسات والبحوث أنَّ هناك أساليب معينة ترفع الإنتاجية والروح المعنوية والراحة النفسية للعاملين في نفس الوقت، مثل دراسات ليفين وليبيت وهوايت عن ميزات الجو الإداري الديمقراطي في المقارنة بالجو الديكتاتوري والجو الفوضوي[١].

ولقد تنبَّهت كثير من المجتمعات إلى أهمية ترشيد الرؤساء والإدارة، وخصصت لهم مراكز ومعاهد ودورات لتدريبهم على أفضل أساليب الإدارة والرئاسة، وأفضل الحلول والإجراءات لمواجهة مشكلات العاملين ورفع روحهم المعنوية ودوافعهم نحو العمل والإنتاج، وتبصير هؤلاء الرؤساء والمديرين بأسس العلاقات الإنسانية وأهميتها داخل جماعات العمل، وآثارها على الكفاية الإنتاجية.

(١) لمزيد من التفاصيل عن أساليب الإدارة وأهميتها لرفع الكفاية الإنتاجية يمكن الرجوع إلى كتابنا سابق الذكر في الفصلين الخامس عشر والسادس عشر.



٨ ـ تهيئة ظروف العمل الطبيعية المناسبة:

لكي يعمل الإنسان بكفاية إنتاجية عالية، لا يلزمه فقط أن يكون العمل مناسباً لاستعداداته وأن تكون الإدارة صالحة رشيدة، بل لا بدَّ وأن تضاف إلى هذا وذاك ظروف طبيعية مناسبة في مجال عمله. فعلى سبيل المثال لا نتوقع لفرد أن يعمل بكفاية إنتاجية عالية إذا كانت درجة الحرارة في بيئة عمله مرتفعة أكثر من الحد المناسب أو منخفضة عن الحد المناسب، أو كانت درجة الرطوبة أعلى عن الحد المناسب، أو كانت درجة التهوية أقل مما يجب، أو كانت الإضاءة غير مناسبة خفوتاً أو شدَّة... إلخ.

وهناك الكثير من الدراسات والتجارب التي تؤيد تأثير الظروف الطبيعية المختلفة على الكفاية الإنتاجية للعاملين[١]. ولذا ينبغي أن نهيىء هذه الظروف المناسبة في بيئة العمل بقدر استطاعتنا. كما ينبغي أن يصمم مكان العمل ومواضع الآلات والأدوات والخامات على الشكل الملائم المدروس. ولا شك أنَّ إمداد العامل بالآلات الجيدة والأدوات والخامات المناسبة، سوف يكون له أيضاً أثر كبير في رفع كفايته الإنتاجية.

خاتمة:

أشرنا في البداية إلى قيمة العنصر البشري في بناء المجتمع وتقدمه. وذكرنا أنَّ إعداد العنصر البشري الصالح لتحقيق هذه الغاية يتم أساساً من خلال عمليات التعليم والتدريب الرشيدة.

وفي الصفحات السابقة ناقشنا بعض القضايا والحقائق المتعلقة بكل من الأمية والتعليم والتدريب والكفاية الإنتاجية. ولعلَّ العلاقة الوثيقة بين كل من محو الأمية ورفع مستوى التعليم والتدريب من جانب وبين الكفاية

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى كتابنا سابق الذكر في الفصل الرابع عشر منه.

الإنتاجية من جانب آخر قد اتَّضحت. ولا شك أنَّه قد اتضح لنا الآن أنَّ انتشار الأمية، وانخفاض مستوى التعليم والتدريب مشاكل وعقبات تحول بين الدول النامية وبين نجاحها في تحقيق تقدمها، وتكاد تهدد جهودها التي تبذلها في برامج التنمية. ولذا ينبغي أن تخلص نوايا المسؤولين نحو الأمية ورفع مستوى التعليم والتدريب والكفاية الإنتاجية على نحو ما اقترحنا، وإذا كنا نهدف حقاً إلى اللحاق بالدول المتقدمة، وإلى رفع مستويات شعوبنا ومواطنينا، فعلينا أن نعلم أنَّه بدون تعليم وتدريب، وبلا كفاية إنتاجية، لن تتم أية تنمية.

المــراجع

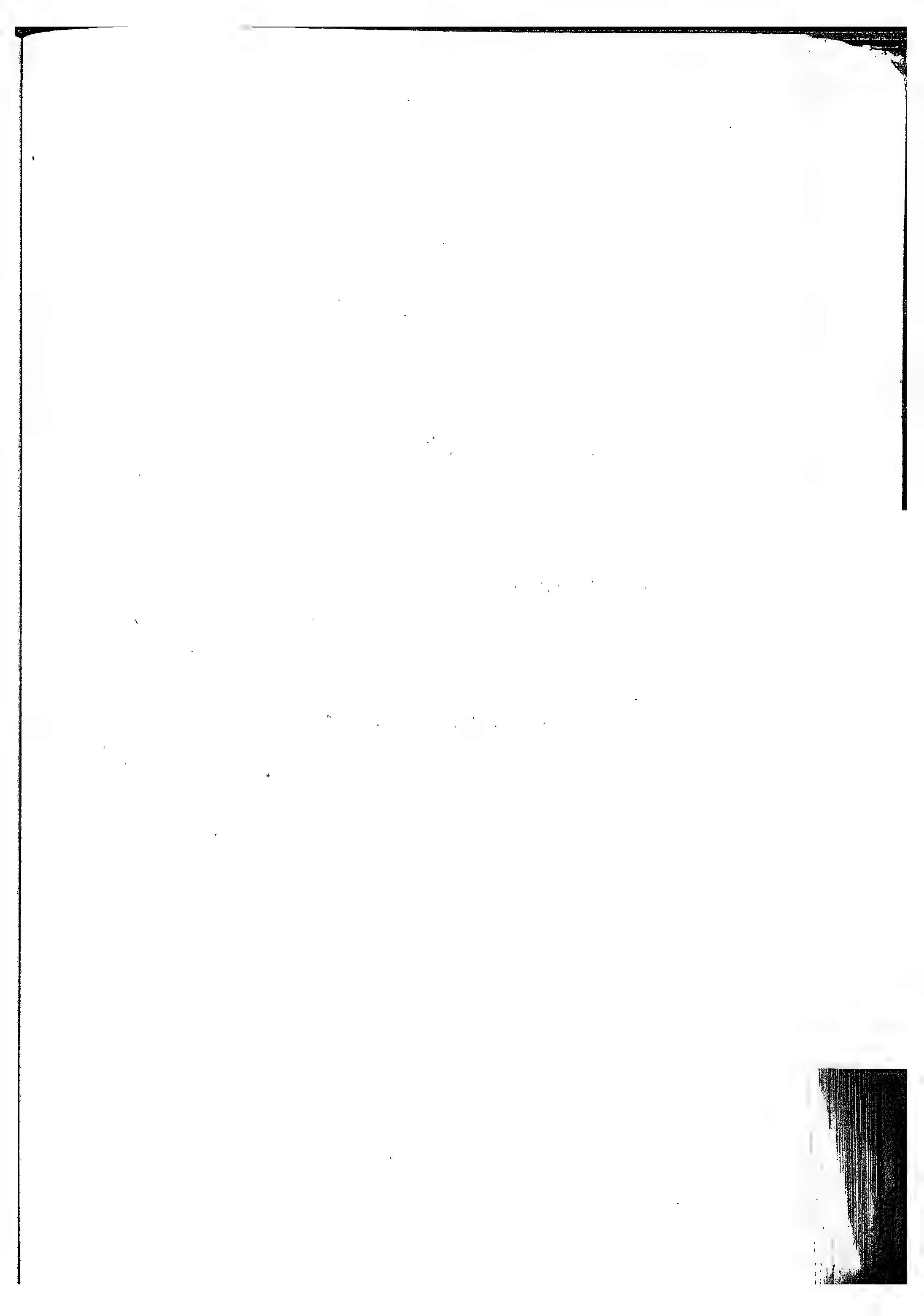
١ ـ دكتور سعد زغلول: دراسة تحليلية للسكان والأمية في الوطن العربي ـ تعليم الجماهير ـ عدد: ٩ ـ مايو ١٩٧٧.

٢ ـ دكتور فرج عبد القادر طه: علم النفس الصناعي والتنظيمي ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٠.

٣ ـ دكتور محمود عمر: المعالم الأساسية لهيكل العمالة ونوعيتها في الوطن العربي ـ من منشورات الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار ـ ١٩٧٦.

٤ ـ الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار: أوضاع الأمية في البلاد العربية ـ تلخيص د: سيد عبد العال ـ تعليم الجماهير ـ عدد: ٩ ـ مايو ١٩٧٧.

٥ ـ الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار: استراتيجية محو الأمية في البلاد العربية ١٩٧٦.

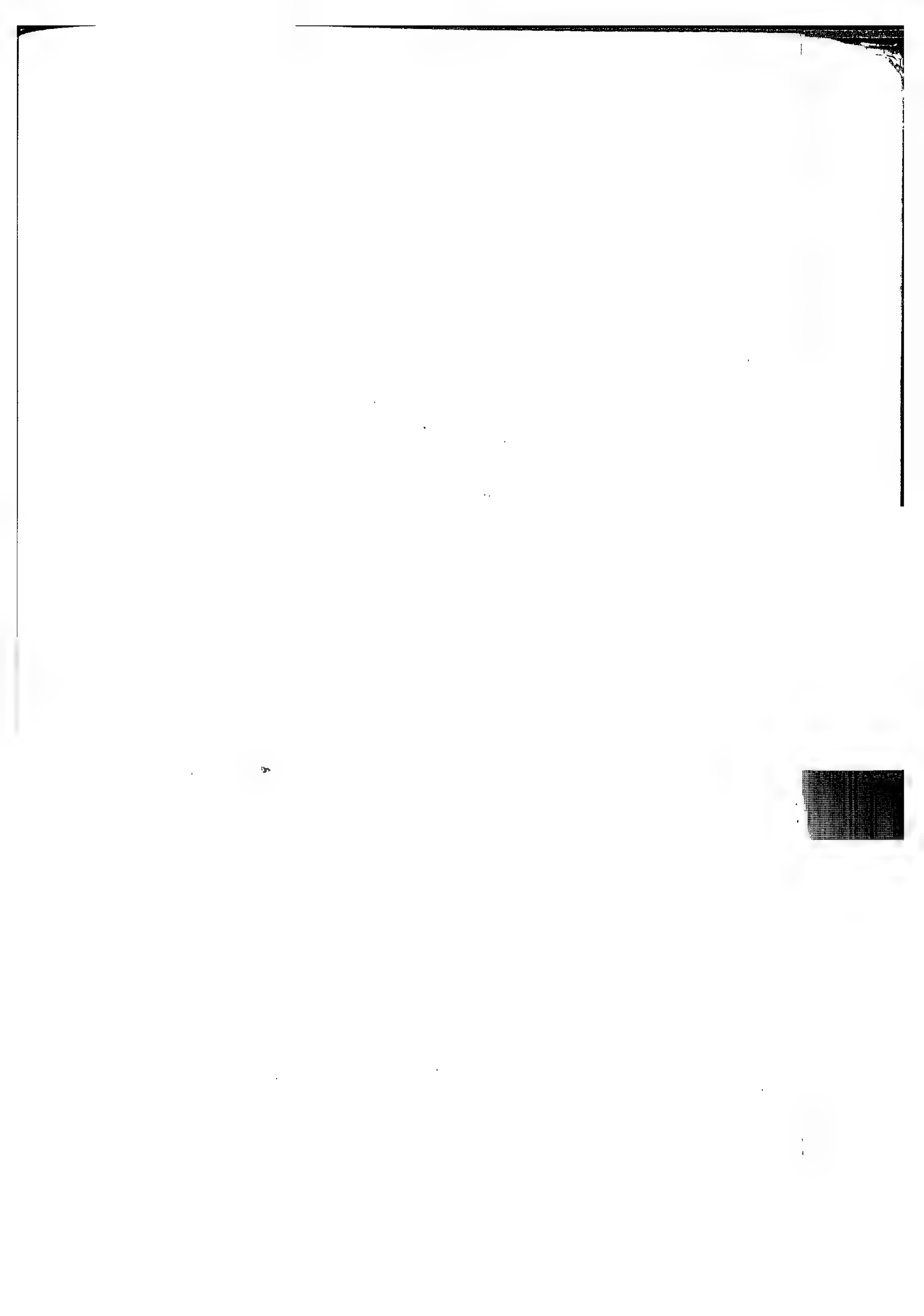


الفصل السابع

ترشيد سياسات الإختيار والتوجيه المهني للتلاميذ الصناعيين (*) "منظور سيكلوجي"

* تمهيد.
* التدريب والإنتاجية.
* التلمذة الصناعية والتدريب.
* التلمذة الصناعية في مصر.
* الاختيار المهني والتلمذة الصناعية.
* التوجيه المهني والتلمذة الصناعية.
* هيئة للتلمذة الصناعية.
* خاتمة.

(*) البحث الذي اشترك به المؤلف في «مؤتمر تقويم مراكز التدريب المهني في مصر» الذي عقد بجامعة الإسكندرية في إبريل من عام ١٩٨١. وقد عرض البحث ونوقش في الجلسة الثانية من جلسات المؤتمر.



تمهيد:

نقدم في الصفحات التالية اجتهاداً يمثل وجهة نظر سيكلوجية في ترشيد سياسات الاختيار والتوجيه المهني للتلاميذ الصناعيين، يتسع طموحها بقدر ثقتنا في مجتمعنا المصري النامي، وتضيق حدودها بقدر تخصصنا العلمي المحدَّد بما يفسح مجالاً واسعاً للتخصصات العلمية الأخرى أن يقدم كل منها منظوراً آخر لنفس القضية ـ حسب مدى اهتمامه بها ـ لا شك يكمل ويتكامل مع المنظور السيكلوجي في رسم سياسة ترشيدية أمثل للقضية التي نبحثها.

ومنذ البداية علينا أن نذكر بأنَّ التحدي الحقيقي الذي يواجه المجتمع المصري كمجتمع نام هو قضية التنمية، والتي هي في نهاية الأمر قضية العمل والإنتاج. إنَّ الإنجاز الكفء لواجبات العمل الملقاة على عاتق أفراد المجتمع والكفاية الإنتاجية لهم (التلميذ في مدرسته، والطالب في جامعته، والمتدرب في معهد تدريبه، والعامل في مصنعه، والباحث في معمله، والأستاذ في معهده والمفكر في مجاله، والعالم في ميدانه، والرئيس في مركز رئاسته، والمشرف في موقع إشرافه، والطبيب في مستشفاه، والزارع في حقله... إلخ) هي التي تحدد في النهاية مدى التنمية التي حققها المجتمع، ومستوى التقدم الذي وصل إليه والرقي الذي حقَّقه. ولقد كانت لعلم النفس

في كـل ذلك إسهـامات لا تنكـر[1] كأحـد فروع المعـرفة الإنسـانيـة، والتخصصات العلمية، التي خلقها المجتمع البشري وطوَّرها لخدمته.

التدريب والإنتاجية:

التدريب في نهاية الأمر ليس أكثر من عملية تعليم مقصودة ومنظمة ومقنَّنة لتعليم وإجادة مهنة معينة أو عملاً معيناً. فنحن نعلم الفرد القراءة والكتابة وندرِّبه عليهما كما نعلِّمه مهنة معينة أو عملاً معيناً وندرِّبه عليه. والفرد منذ بداية وعيه في حاجة إلى التعليم والتدريب حتى يصبح عضواً منتجاً في مجتمعه، يسهم في بنائه وتقدمه وتنميته. وبهذا لا يصبح عالة عليه يأخذ منه فقط ما هو في حاجة إلى استهلاكه، بل يعطيه أيضاً من طاقته وإنتاجه ما يفوق على ما يأخذه.

وتدريب الفرد من أكبر العوامل التي تؤدي إلى رفع مستوى إنتاجيته وهذا ما جعل كافة المجتمعات تقريباً تهتم بالتدريب وتوليه عناية خاصة. فعن طريق التدريب يتعلَّم الفرد سريعاً العمل المعيَّن أو المهنة المعينة التي يتدرب عليها، وعن طريقه أيضاً ترتفع مهارته بسرعة في العمل المعين أو المهنة المعينة التي كان ضعيف المهارة فيها أو متوسطها. فبعد التدريب عليها تزداد كفاءته على أدائها ويرتفع مستوى مهارته فيها بسرعة تفوق ما يكتسبه عن طريق الخبرة العشوائية التي يتعرض لها إن مارس العمل دون تدريب منظم مبرمج كما يحدث في برامج التدريب الخاصة أو مراكزه المعينة. فعلى سبيل

---

(١) يرجع لمناقشة ذلك باستفاضة إلى:

أ ـ دكتور فرج عبد القادر طه: علم النفس وقضية التنمية، مجلة «المناهل» المغربية، مجلد ٣ عدد ٦، يوليو ١٩٧٦، والوارد أيضاً بكتابنا: علم النفس وقضايا العصر، دار المعارف القاهرة، ١٩٧٩.

ب ـ دكتور فرج عبد القادر طه: علم النفس الصناعي والإدارة، المؤتمر العربي الأول لتدريس العلوم الإدارية بالقاهرة، ١٩٧١ والمنشور أيضاً بكتابنا السابق.

جـ ـ دكتور فرج عبد القادر طه: علم النفس بين خدمة العامل وخدمة الإنتاج، مجلة الفكر المعاصر مارس، ١٩٧٠.



المثال تبين من إحدى الدارسات[1] أنَّ الوقت اللازم لتغيير أسلحة مقص متحرك كان في المتوسط ٢٩ دقيقة حيث لم يطرأ عليه تحسن خلال ست سنوات وعندما تلقَّى العاملون برنامجاً تدريبياً مناسباً انخفض هذا الوقت حتى أصبح ١٨ دقيقة في المتوسط، أي انخفض بمقدار يزيد عن الثلث مما وفَّر للمؤسسة مبالغ طائلة. كما يعمل التدريب أيضاً على التقليل من كمية التلف في الآلات والمواد المستخدمة في عملية الإنتاج. ففي أحد البحوث[2] قل استبدال عجلات التجليخ بالتدريج مع ازدياد فترة التدريب، حتى بلغ معدَّل الاستبدال بالنسبة لمن تلقوا تدريباً لمدَّة ١٢ أسبوعاً نصف معدله للعمال ذوي خبرة مدة ١٦ أسبوعاً، مما يؤكد أن البرامج التدريبية المنظمة أفضل قيمة من الخبرة غير المنظمة والتي يحصل عليها العامل بشكل تلقائي وعشوائي.

لكن لنا أن نتساءل عن السبب وراء كل هذه الفائدة التي نحققها من التدريب. إنَّ السبب وراء ذلك يرجع بصفة أساسية إلى أنَّ برامج التدريب عادة ما توضع على أسس علمية مستفيدة في ذلك من نتائج دراسات تحليل العمل الذي يختص البرنامج فيه ونتائج دراسات الوقت والحركة، لهذا العمل أيضاً. فمن تحليل العمل تتبين لنا مختلف المهارات والقدرات والخبرات والخصائص الشخصية اللازمة للنجاح في هذا العمل والتوفيق في أدائه، فنستفيد من ذلك في التعرف على المهارات والقدرات التي يلزم أن يستهدف برنامج التدريب رفعها ونضع في برنامج التدريب على هذا العمل فقرات تدريبية نظرية وتطبيقية تساعد على تحقيق ذلك. ويضاف إلى ذلك نتائج دراسات الوقت والحركة (بالنسبة للأعمال التي يمكن أن تخضع لمثل هذه الدراسات وهي الأعمال الحركية والعضلية أساساً)، إذ توقفنا هذه الدراسات على الحركات التي يقوم بها العامل أثناء تأديته لعمله مما يمكننا من دراسة

---

(١) نورمان ماير: علم النفس في الصناعة، ترجمة الدكاترة محمد عماد الدين إسماعيل وصبري جرجس وأمين كمال محمد، مؤسسة الحلبي القاهرة، ١٩٦٧، ٤١٤.

(٢) المرجع السابق ص ٤١٥.

كل حركة دراسة شاملة لتبين ما إذا كانت لازمة ومسهمة في عملية الإنتاج، أم طائشة غير مسهمة في الإنتاج وعبئاً عليه تستغرق الوقت والجهد دون لزوم لذلك، أم تحتاج إلى تعديل لتصبح أكثر راحة وأسرع أداء وأكثر اقتصاداً لعملية الإنتاج. وبناء على هذا يمكننا في وضع برنامج التدريب على هذا العمل أن نركز على تمرين العامل على الاحتفاظ بالحركات اللازمة لعملية الإنتاج أو تعلمها وعلى استحداث الحركات اللازمة أو التي لم يكن يمارسها من قبل وعلى التخلي عن الحركات الطائشة، وعلى تعديل الحركات التي يلزم تعديلها لتصبح أكثر راحة للعامل وأكثر اقتصاداً لوقته وطاقته.

وبهذا يصان للعامل وقته وطاقته اللذان كانا يتبددان في نشاط غير مسهم في الإنتاج، ويوجهان توجيهاً مركزاً لعملية الإنتاج. ولعلّ دراسات تيلورTaylor الشهيرة وجلبرت Gilberth من بعده خير مثال على ذلك إذ استطاع تيلور عن طريق التدريب على هذه الأسس العلمية أن يرفع إنتاجية عمال الشحن إلى حوالي أربعة أضعافها[١] كما استطاع جلبرت أن يرفع إنتاجية عامل البناء إلى ثلاثة أضعافها تقريباً[٢].



التلمذة الصناعية والتدريب:

التدريب في مفهومه العام أمر يصلح ويصدق على أية برامج تدريبية على أية مهن أو أعمال مهما كان نوعها أو مستواها، فالتدريب أمر يحتاجه العمل اليدوي، كما يحتاجه العمل الذهني، كما يحتاجه العمل الإداري، كما يحتاجه العمل الفني، كما يحتاجه العمل الإشرافي، يحتاجه العمل المدني، بمثل ما يحتاجه العمل العسكري.. كما أنّ التدريب أمر يحتاجه الأفراد أيضاً في ظروفها المختلفة، فيحتاجه العامل الجديد ليعرف كيفية أداء

---

(١) Fraser; J; Industrial Psychology, Pergamon Press, Oxford 1969, 28.

(٢) Argyle, M; Psychology and Social Problems, Associate Book Publishers, London, 1967, 103.

عمله، ويحتاجه العامل القديم لرفع مستوى مهارته في أدائه لعمله أو في التعريف على أساليب العمل الجديدة وطرق أدائه، ويحتاجه المرؤوس عند ترقيته إلى وظيفة رئاسية أو إشرافية لمعرفة واجباتها وكيفية أدائها. ومن هنا كان انتشار التدريب في كافة مؤسسات العمل ولكافة مستويات العاملين وتخصصاتهم.

والتلمذة الصناعية تمثل أحد أنواع التدريب حيث «يهدف إلى تدريب الناشئين على المهارات في المهن التي تظهر الحاجة إليها. وتزويدهم بالمعلومات النظرية إلى جانب رفع المستوى الثقافي العام لدى هؤلاء ليكونوا مواطنين صالحين وتوجيههم لمتابعة التعليم بما يتلاءم مع تدريبهم العملي إلى أقصى حد»[1].

كما تؤيد ذلك مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهني بوزارة الصناعة فنقول عن الغرض من نظام التلمذة الصناعية «يهدف هذا النظام إلى إعداد العمال المهرة في المهن والتخصصات الدقيقة التي تحتاج إليها قطاعات الصناعة المختلفة. وهو النظام الذي يمكن التلميذ من اكتساب المهارات العملية والخبرة والمعرفة من خلال التدريب العملي المكثف والدراسات النظرية للمواد الثقافية والفنية التي تعطى له مرتبطة بالمهنة التي يتخصص فيها. مثل مجموعة مهن المعادن ـ السيارات ـ الكهرباء ـ التبريد وتكييف الهواء ـ الآلات الدقيقة ـ الطباعة ـ الغزل والنسيج ـ التعدين»[2] وتحدد مصلحة الكفاية الإنتاجية الشروط الواجب توافرها للالتحاق بهذا النوع من التدريب في ثلاثة شروط هي: (١) الحصول على الشهادة الإعدادية

---

(١) المهندس عبد العزيز شعراوي: التلمذة الصناعية طريقنا لإعداد العمال المهرة في الصناعة، الكفاية الإنتاجية، وزارة الصناعة، القاهرة، العدد الرابع، السنة الواحدة والعشرون، ١٩٧٧، ٤٠.

(٢) مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهني (وزارة الصناعة بالقاهرة): خطة البرامج التدريبية لعام ١٩٧٨ (الصفحات بالمرجع غير مرقمة).

العامة (الدراسة باللغة العربية). (٢) تتراوح السن بين ١٥ و١٩ سنة. (٣) اجتياز الاختبارات النفسية والشخصية والطبية لمعرفة مستوى ذكاء التلميذ واستعداده الشخصي للمهنة وصلاحيته للعمل»[١]. كما تضيف المصلحة عن مدَّة برنامج التدريب في نظام التلمذة الصناعية أنَّه «٣ سنوات، الأولى بمركز التدريب والثانية والثالثة بموقع العمل بالمصانع والشركات على أن يعود (التلميذ المتدرب) للمركز يومين في السنة الثانية ويوماً في السنة الثالثة أسبوعاً لتلقي دراساته النظرية»[٢].

هذا، وينتشر بمصر ما يزيد عن ٤٠ مركزاً تدريبيّاً بمختلف محافظاتها للتدريب المهني بنظام التلمذة الصناعية. وهي تدرب على أعمال مختلفة في مهن متنوعة مثل أعمال البرادة والخراطة والسباكة والحدادة واللحام في مهن تشغيل المعادن، ومثل ميكانيكا السيارات وكهربائي السيارات في مهن السيارات، ومثل كهربائي عام وكهربائي آلات في مهن الكهرباء، ومثل الإلكترونيات والراديو والتليفزيون في مهن الآلات الدقيقة، ومثل درفلة الصلب والحدادة الميكانيكية في مهن الفلزات، ومثل الحفر الميكانيكي وتشغيل الأوناش في مهن المناجم والتعدين، ومثل الجمع اليدوي والجمع الآلي والمونوتيب والمونتاج والتجليد والتسطير في مهن الطباعة والتجليد، ومثل الغزل وتحضيرات الغزل والنسيج وتحضيرات النسيج وميكانيكي غزل وميكانيكي نسيج وعامل صيانة وطباعة وتجهيز بمهن الغزل والنسيج، ومثل دباغ جلود بمهن دباغة الجلود»[٣] ومن الجدير بالذكر أنَّ نظام التلمذة الصناعية نظام معترف به دولياً ومنتشر في أنحاء كثيرة من العالم نظراً لأهميته وقيمته في تخريج العمال المهرة في المهن المختلفة. «فمثلاً تعرف منظمة

(١) المرجع السابق ذكره (الصفحات به غير مرقمة).
(٢) المرجع السابق.
(٣) مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهني (وزارة الصناعة بالقاهرة)، نظم التدريب المهني (بدون تاريخ)، ص ١٣ ـ ١٩.



العمل الدولية التلمذة الصناعية بأنّها نظام يرتبط بمقتضاه صاحب عمل ما بعقد لاستخدام شخص في سن الشباب ليدربه بنفسه، أو يعهد به لمن يقوم بتدريبه بطريقة منظمة ليتعلّم حرفة أو مهنة معروفة على أن يحدد مقدماً فترة التدريب والتزام التلميذ نحو صاحب العمل أثناء التدريب[١]. هذا ويقدر عدد المسجلين على نظام التلمذة الصناعية بما يقرب من خمسة عشر مليون تلميذ[٢].

التلمذة الصناعية في مصر:

منذ إنشاء وزارة الصناعة بمصر عام ١٩٥٦ وجهت اهتمامها إلى نظام التلمذة الصناعية، حتى تعد القوى العاملة الماهرة والمتعلمة التي تنهض بالصناعة والإنتاج. «وفي أكتوبر عام ١٩٥٧ افتتح أوّل مركز للتدريب المهني. وتوالى إنشاء المّراكز المختلفة والتي تضمنتها الخطط الخمسية الثلاث للتصنيع والتنمية. وبلغت مشروعات هذه المراكز ٦٤ مشروعاً، بعضها يتبع نظام التلمذة الصناعية، والبعض الآخر يعمل على نظام التدريب السريع ورفع مستوى المهارة. كما ألحقت بعض المراكز عام ١٩٦٧ بوزارات أخرى ومؤسسات نوعية. وأطردت الأعداد الملتحقة بنظام التلمذة الصناعية من ٥٠ تلميذاً عام ١٩٥٧ إلى أكثر من ستة آلاف تلميذ عام ١٩٧٥ كما تخرج منه خلال هذه الحقبة أكثر من ٤٠ ألف خريج من العمال على مستوى من المهارة تقبلته وتسعى إليه مواقع متعددة بالصناعة والوحدات الإنتاجية والخدمات الأخرى وبالقطاع الخاص أيضاً. وقد مارست الغالبية العظمى منهم العمل المهني في فرق الصيانة وخطوط الإنتاج والقليل في الأقسام الفنية والتخطيط والمتابعة ومراقبة الجودة»[٣]. وفي إحصائية أخرى عن عدد

---

(١) المرجع السابق للمهندس عبد العزيز شعراوي ص ٣٩.

(٢) المرجع السابق بنفس الصفحة.

(٣) مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهني (وزارة الصناعة بالقاهرة): مؤتمر التدريب على نظام التلمذة الصناعية (إسكندرية، مارس) ١٩٧٦ ص ٥ - ٦.

التلاميذ المهنيين الذين تخرجوا من مراكز التدريب المهني حتى عام ١٩٧٨ نجد أنَّهم قد بلغوا ٤٢٤٠٩ خريجاً[١]. ولقد تقدَّم للالتحاق بمراكز تدريب التلمذة الصناعية التابعة لمصلحة الكفاية الإنتاجية عام ١٩٨٠ حوالي اثني عشر ألف تلميذ التحق منهم بالمراكز بعد نجاحهم في اختبارات القبول قرابة سبعة آلاف تلميذ[٢].

ويشير هذا بوضوح إلى نظام التلمذة الصناعية بمصر وقد أشرف على استكمال ربع قرن من الزمان يتزايد نمواً وتدعيماً، مما يؤكد نجاحه وحاجة البلاد إليه.

الاختيار المهني والتلمذة الصناعية:

من المبادىء العلمية المعروفة أنَّ الأعمال تختلف فيما بينها من حيث طبيعتها وظروفها وصعوبتها وواجباتها. وبالتالي فإنَّها تختلف فيما تتطلبه من شروط وخصائص وصفات وقدرات ومهارات وسمات وخبرات ومؤهلات.. تتوافر للفرد حتى ينجح في أدائها ويوفق فيها. وإذا كان هذا مبدأ علمياً معروفاً عن الأعمال، فإنَّ المبدأ العلمي المقابل لذلك عند الأفراد يحظى بنفس التأيد والاعتراف، وهو أن الأفراد تختلف فيما بينها أيضاً بالنسبة لذات الشروط والخصائص والصفات والقدرات والمهارات والسمات والخبرات والمؤهلات.. اللازمة للأعمال.

ومن هنا فإنَّ القضية الهامة والملحة بالنسبة للنشاط الصناعي بوجه خاص والعمل والإنتاج بشكل عام هي وضع الشخص المناسب في المكان المناسب. وبمعنى آخر ضرورة أن يتعلم كل طالب نوع التعليم الذي يناسب استعداداته وجوانب شخصيته المختلفة، وأن يعمل كل فرد في العمل الذي

---

(١) المهندس رضا محمود سليمان: التدريب المهني: مصلحة الكفاية الإنتاجية، القاهرة (بدون تاريخ)، ص ١٦.

(٢) إحصائيات بمصلحة الكفاية الإنتاجية لم تنشر بعد.

يناسب أيضاً استعداداته وجوانب شخصيته المختلفة. فلا ينبغي أن يلتحق طالب بنوع من التعليم يتطلب ـ على سبيل المثال ـ ذكاء عالياً وهو ضعيف الذكاء، أو يتطلب ذاكرة قوية وهو ضعيف الذاكرة، أو يتطلب ميل الشخصية للانبساط وهو يميل للانطواء. وبالمثل لا ينبغي أن يلتحق شخص بعمل يتطلب قوَّة عضلية وهو ضعيفها، أو يتطلب تآزراً حسياً ـ حركياً ينقصه، أو يتطلب طلاقة لفظية هي قاصرة عنده، أو يتطلب تخصصاً علمياً يجهله، أو يتطلب اتزاناً نفسياً لا يتوافر له...

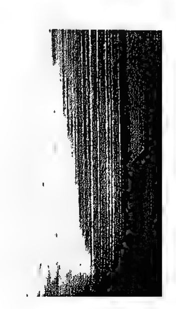
ومن هنا وجب على برنامج اختيار تلاميذ التدريب المهني لأحد مراكز التدريب بنظام التلمذة الصناعية أن يتضمن خطوتين أساسيتين:

الأولى: هي تحليل العمل الذي يدرب عليه المركز ويطلب التلميذ التدريب عليه. وفي هذا التحليل تجري دراسة علمية تفصيلية على العمل بهدف تحديد ووصف واجباته ومسؤولياته وظروف أدائه ومخاطره ومتطلباته من خصائص وقدرات واستعدادات وسمات في الشخص حتى ينجح في التدريب عليه تلميذاً واكتساب المهارات والمعارف اللازمة له، وحتى ينجح أيضاً في العمل فيه بعد أن يتخرج من مركز التدريب المهني ويلتحق به. وفي هذا التحليل يستعين القائم بالتحليل (والذي قد يكون أصلاً أخصائياً نفسياً) في جمع البيانات اللازمة لهذا التحليل من مصادر عدَّة، لعلَّ من أهمها الدراسات السابقة عن هذا العمل والتي تقدم معلومات عنه تساعدنا في التعرف عليه وعلى متطلباته وشروطه. كما أنَّ منها أيضاً ملاحظة عامل يقوم بالعمل وتسجيل كل ما نلاحظه بدقة وتفصيل من واجبات يؤديها وكيف يؤديها ولماذا يؤديها وما هي المهارات والصفات التي ينبغي أن تتوافر في الفرد حتى يؤدي هذه الوجبات بكفاءة ونجاح، ومن هذه المصادر أيضاً إجراء مقابلة للعامل الذي يؤدي العمل أو رئيسه والاستفسار أثناء هذه المقابلة عن كل ما يريد القائم بتحليل العمل جمعه عن العمل من بيانات ومعلومات، ومن هذه المصادر أيضاً ملء استبيان يقوم به العامل أو رئيسه يسأل فيه القائم بتحليل

العمل عن البيانات التي يريد معرفتها وجمعها عن العمل مثل مسؤولياته وواجباته وظروف أدائه وأخطاره وما يتطلبه من مهارات وقدرات واستعدادات وخبرات ومؤهلات.. ومنها أيضاً الإحاطة بمواصفات وخصائص وتركيب وعمل وطبيعة ونوعية الأدوات والأجهزة والخامات التي يستخدمها العامل في هذا العمل موضع التحليل. كما أنَّ منها قيام أخصائي تحليل العمل نفسه بممارسة العمل - إن كان ذلك ممكناً بالنسبة له دون خطورة أو ضرر - فيخبر بنفسه مدى الجهد الذي يبذل في هذا العمل وكيفية أداء واجباته، وظروف أدائها ومخاطر العمل، والاستعدادات الجسمية والعقلية والنفسية اللازمة لأدائه، كما يخبر بنفسه مختلف الأحاسيس والمشاعر التي يحسها العامل أثناء قيامه بعمله. وكلما كان في إمكان القائم بتحليل العمل أن يستعين بأكثر من مصدر لجمع البيانات عن العمل الذي يقوم بتحليله كان ذلك أفضل، حيث نجد أنَّ لكل مصدر ميزة تكمل غيره من المصادر. كما تسد النقص في المعلومات الذي يتخلف عن غيره من المصادر. لهذا حبذا لو استطاع القائم بتحليل العمل أن يستفيد من معظم أو من كل هذه المصادر في جمع المعلومات والبيانات اللازمة عن العمل أثناء قيامه بتحليله.

وبعد جمع البيانات المختلفة عن العمل على النحو السابق يقوم أخصائي تحليل العمل باستقراء كل هذه البيانات ومعالجتها والانتهاء منها إلى ملء نموذج عن هذا العمل يعرف باستمارة تحليل العمل تلخص وتتضمن وتنظم المعلومات التي تريد أن تحصل عليها عن العمل والتي تمثل هدف التحليل، ومن أهمها بطبيعة الحال لعملية الاختيار لتلاميذ مراكز التدريب المهني تلك الاستعدادات والقدرات العقلية والسمات والميول الشخصية المطلوبة في التلميذ حتى ينجح في التدريب على هذا العمل في مركز التدريب، وحتى يوفق في مزاولة هذا العمل بعد تخرجه في المؤسسات التي يتوافر بها هذا العمل وتحتاج من يشغلونه.

أمّا الخطوة الثانية اللازم أن يشتمل عليها برنامج اختيار تلاميذ مراكز



التدريب المهني بعد الخطوة الأساسية السابقة (تحليل العمل) فهي الخطوة المقابلة لها والمعروفة بتحليل الفرد. فبعد انتهائنا من تحليل العمل ووقوفنا على ما يلزمه من مهارات وقدرات واستعدادات وسمات وميول. . . ينبغي لنا أن نقيس كل هذه الأمور في التلميذ المتقدم للتدريب على هذا العمل في مركز التدريب، وذلك بهدف الإطمئنان إلى أنَّ كل هذه الاستعدادات العقلية والنفسية والشروط الشخصية المختلفة اللازمة للنجاح في التدريب وفي العمل بعد التخرج متوافرة في التلميذ بالمستوى المناسب واللازم. بمعنى أنها ليست أقل عمَّا هو مطلوب للنجاح في التدريب وفي العمل، وليست مرتفعة كثيراً عن هذا المستوى المطلوب، ذلك أنَّ الارتفاع كالانخفاض في هذه الشروط يؤدي كل منهما إلى الفشل في التدريب وعدم التوفيق في العمل . .

ونستعين في قياس خصائص التلميذ واستعداداته وميوله الشخصية بعدَّة وسائل لعلَّ أهمها الاختبارات النفسية والمقابلة الشخصية، إذا استثنينا بطبيعة الحال الاختبارات والفحوص الطبية التي تخرج عن حدود هذا البحث.

فبالنسبة للاختبارات النفسية يوضع اختبار نفسي لقياس كل قدرة أو خاصية نفسية مطلوبة يراعى أن تتم عليه دراسات تقنينية تطمئن إلى صلاحيته للقياس، ويحسن أن يكون الاختبار جمعياً اقتصاداً للوقت والجهد والنفقات. وتكون الاختبارات العديدة التي يلزم تطبيقها مجتمعة على المتقدمين طالبي التدريب في مهنة معينة بطارية هذه المهنة. وعادة لا تكون كل اختبارات بطارية الاختبار لمهنة معينة من نوع الاختبارات الجمعية، بل إنَّ بعضها يكون فردياً، حيث تشتمل البطارية على اختبارات لفظية وأخرى عملية ولهذا يحسن أن تطبق الاختبارات الجمعية أولاً ومن ينجح فيها تطبق عليه الاختبارات العملية، خاصة إذا كان الاختبار العملي كاختبار فردي يستغرق وقتاً طويلاً في تطبيقه. وفي كافة الأحوال يحسن أن يتم تطبيق الاختبارات النفسية أولاً، ومن ينجح فيها يتقدم للمقابلة، ذلك لأنَّ الاختبارات النفسية لا تستغرق من

الجهد والوقت والطاقة ما تستغرقه المقابلة نظراً لأنَّ غالبية الاختبارات النفسية في مثل هذه المواقف تتم بشكل جمعي. أمَّا المقابلة الشخصية فتتم كل جلسة منها مع فرد واحد، وفي أحيان قليلة مع عدد قليل جداً لا يتجاوز الثلاثة غالباً. وبالتالي فإنَّ تقدم الاختبارات النفسية في تطبيق سوف يستبعد من يشير الاختبار النفسي إلى عدم صلاحيتهم فيقل العدد المتقدم للمقابلة، ويتوفر تبعاً لذلك بعض الجهد والوقت.

وإذا كانت هناك شروط لا بدَّ من توافرها للاطمئنان إلى صلاحية الاختبارات النفسية للقياس، الأمر الذي يوجب القيام بدراسات مستفيضة عليها تجريبية وإحصائية في جوهرها مع وجوب مراجعة هذه الاختبارات كلما مضى عليها الوقت، نقول إذا كانت هناك هذه الشروط بالنسبة لصلاحية الاختبار النفسي فإنَّ هناك شروطاً أيضاً لا تقل أهمية لصلاحية المقابلة لتقدير سمات شخصية التلميذ وصلاحيته للعمل المعين الذي يطلب التدريب عليه. إلاَّ أنَّ هذه الشروط تتعلق أساساً بمدى كفاءة وصلاحية ومهارة أخصائي المقابلة في إدارة المقابلة وفي تفسير محتواها(*).

(*) لمزيد من التفاصيل عن الاختيار المهني وتحليل العمل وتحليل الفرد يرجع إلى الفصول المتعلقة بها في:

١ ـ الدكتور أحمد عزت راجح: علم النفس الصناعي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

٢ ـ الدكتور السيد محمد خيري: علم النفس الصناعي، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٨.

٣ ـ الدكتور فرج عبد القادر طه: علم النفس الصناعي والتنظيمي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.

٤ ـ مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهني (وزارة الصناعة ـ بالقاهرة) الاختيار السيكولوجي لتلاميذ مراكز التدريب المهني. القاهرة ١٩٧٦.

٥ ـ Schultz, D; Psychology and Industry (Edited), The Macmillan Company, London, 1970.

٦ ـ Tiffin, J. and Mc Cormick, E: Industrial Psychology, George Allen and Unwin Ltd, London, 1968.

وتقوم مصلحة الكفاية الإنتاجية باتباع هذا الأسلوب العلمي في اختيار تلاميذ التدريب الذين يقبلون بمراكز التدريب التابعة لها كل عام، وذلك عن طريق القسم النفسي بالمصلحة والذي يقوم بمهمة تحليل الأعمال وإعداد بطاريات الاختبارات النفسية الخاصة بكل مهنة وإجراء الدراسات اللازمة لها وتطبيقها على المتقدمين للتلمذة الصناعية، مع استخدام المقابلة الشخصية أيضاً والتي يقوم بها الأخصائيون النفسيون المؤهلون لذلك بالمصلحة وذلك منذ إنشاء المصلحة حتى الآن. ولقد تمَّ حتى الآن للقسم النفسي بالمصلحة إعداد بطاريات اختبار لحرف المعادن. ولحرف الجلود، ولحرف الزجاج، ولحرف النسيج ولحرف الطباعة ولحرف التعدين. ولقد نشرت دراسات البطاريات الثلاث للحرف الثلاث الأولى في كتيب «الاختيار السيكلوجي لتلاميذ مراكز التدريب المهني» والذي أصدرته مراقبة الاختبارات النفسية بالمصلحة عام ١٩٧٦، أما البطاريات الثلاث الخاصة بالحرف الثلاث الأخرى فلم تنشر دراساتها بعد. وفي هذا الكتيب الذي نشرته مراقبة الاختبارات النفسية بالمصلحة إشارة إلى أنَّها تجري تجارب لاستكمال تقنين بطاريات جديدة لحرف البناء والنجارة ولحرف الآلات الدقيقة. كما أنَّها أعدَّت بطاريات خاصة لاختيار تلاميذ لمراكز التدريب المهني التابع لمصلحة الطيران المدني من بين الحاصلين على الثانوية العامة. ولا يخفى على أحد الجهد المضني والوقت الطويل والإمكانيات الضخمة اللازمة لإعداد مثل هذه البطاريات ومراجعاتها المستمرة على أساس علمي دقيق.

ومن الجدير بالذكر أنَّ هناك مراكز تدريب على نظام التلمذة الصناعية بمصر تتبع مؤسسات وهيئات أخرى غير مصلحة الكفاية الإنتاجية. إلَّا أنَّها نادرة ولا تتوافر عنها بيانات مسجلة يسهل الحصول عليها ويمكن حصرها والاعتماد عليها.

---

٧ - Ghiselli E. and Brown, C; Personneg and Industrial Psychology. Mc Graw - Hill 1955.

٨ - Cilmer, B; Industrial and Organizational Psychology, Mc Graw - Hill, 1971.

التوجيه المهني والتلمذة الصناعية:

يتم الاختيار المهني للتلاميذ الصناعيين لانتقاء من يصلح للتدريب وللعمل في مهنة معينة أو في مجموعة حرف متشابهة في بعض الظروف أو الأمور، كالتعامل مع خامة واحدة مثل حرف المعادن والتي تشتمل على حرفة البرادة وحرفة الخراطة وحرفة السباكة وحرفة الحدادة.. وبالتالي فإنَّ بطارية اختيار حرف المعادن تركز على قياس الاستعدادات الشخصية المشتركة اللازمة لهذه الحرف مع أنَّ كل حرفة لا بـدَّ مختلفة بعض الشيء في الاستعدادات الحاصلة لها عن غيرها. ومن هنا ينبغي أن يتم توجيه مهني أو لنقل بمعنى أدق تصنيف مهني لتلاميذ كل مركز تدريب بعد قبولهم به إلى أقسامه المختلفة أو إلى حرفه المتخصصة الموجودة به، بحيث يتخرج التلميذ بعد ذلك متخصصاً في البرادة أو في الحدادة أو في الخراطة.... وليس ممارساً عاماً في مختلف حرف المعادن. ويتطلب هذا لكي يتم على أساس علمي سليم برنامجاً طموحاً لتوجيه أو تصنيف تلاميذ كل مركز تدريب عن طريق إعداد وتطبيق بطاريات اختبارات خاصة بكل حرفة تقيس استعداداتها الخاصة بها تطبق على من يريد التخصص في هذه الحرفة وتلحق من تثبت البطارية صلاحيته بالتدريب الخاص بتلك الحرفة. بل إنَّ هذا التصنيف أو التوجيه المهني لتلاميذ مراكز التدريب المهني ينبغي أن يتم عند بدء قبول التلميذ بالمركز وقبل تعاقد التلميذ مع الشركة أو المؤسة التي سوف يعمل بها بعد تخريجه، وذلك حتى تكون الشركة أو المؤسسة قبل التعاقد على بينة من تخصص التلميذ وفي حاجة فعلية إليه.

هذا بالنسبة لمن ينجح في بطارية الحرفة التي يريد التخصص فيها أما من لا ينجح فيها فيوجه إلى حرفة أخرى من الحرف التي يتخصص فيها المركز بعد أن يجتاز بطارية هذه الحرفة بنجاح، أو تثبت الاختبارات النفسية ملاءمة استعداداته لحرفة معينة فيوجه إليها.

فالتوجيه المهني اللازم للتلمذة الصناعية هنا هو شيء بين الاختيار



المهني والتوجيه المهني والتصنيف المهني على نحو ما هو معروف في علم النفس الصناعي والتنظيمي، وليس توجيهاً مهنياً بالمعنى الحرفي فقط لهذا الاصطلاح.

وواضح أنَّ التوجيه المهني بهذه الكيفية أمر يحتاج إلى جهود مضاعفة لإعداد بطاريات جديدة لكل حرفة على حدة بناء على تحليل عمل جديد للحرفة الواحدة. فإذا علمنا أنَّ عدد الحرف التي تدرّب عليها مراكز التدريب يزيد عن الثمانين حرفة[1] لأدركنا مدى الجهد المطلوب من المراقبة النفسية للقيام بذلك على الأسس العلمية المناسبة إلَّا أنَّ الطرق الطويلة يبدأ قطعها بخطوة، وبالتالي فإنَّ برنامج التوجيه هذا يمكن البدء فيه بإعداد بطاريات لعدد قليل من الحرف التي يشتد الطلب عليها في الوقت الحالي، ثمَّ يوضع ترتيب أوليات لإعداد بطاريات الحرف الأخرى بعد ذلك.

هيئة للتلمذة الصناعية:

إنَّ عملية تنمية المجتمع التي تستهدفها مصر ويزداد الحديث عنها هذه الأيام تستلزم مشروعات تنمية ضخمة بما يصحبها من استخدام مكثف للتكنولوجيا الحديثة في كافة مجالات النشاط سواء ما تعلق منه بالصناعة أو الزراعة أو الثروة الحيوانية أو الإنشاء والتعمير أو الخدمات. . . ومن شأن هذا أن يزيد طلب المجتمع على العمال المهرة الفنيين والمؤهلين، فهم العمود الفقري الذي يقع عليه العبء الأكبر في استخدام الآلات والأجهزة والتكنولوجيا الحديثة التي تحتاج إلى المعرفة الفنية إلى جوار المعرفة العلمية والثقافية. أي أنَّ مصر في أمس الحاجة الآن والسنوات المقبلة إلى أعداد هائلة من خريجي مراكز التدريب المهني على نظام التلمذة الصناعية، فهو النظام الذي يخرج هذه النوعية من العمال المهرة الفنيين المؤهلين.

ولعلَّ هذا ما جعل مصر تتجه في تخطيطها للسنوات القادمة إلى توجيه

---

(١) يرجع إلى حصر لها أورده المهندس رضا محمود سليمان في مرجعه السابق ص ١٧ ـ ١٨.

قرابة ثلثي خريجي المدارس الإعدادية للتعليم الفني والسماح للثلث الآخر بالتعليم العام، بعد أن كان يدخل التعليم الفني أقل من النصف. وإذا كانت الإحصائيات تشير إلى أنَّ خريجي المدارس الإعدادية يقتربون من النصف مليون سنوياً فإنَّنا نتوقع بناء على كل هذا أن يوجه نحو ثلث مليون تلميذ سنوياً للتعليم الفني والذي تمثل التلمذة الصناعية أحد روافده إلى جانب التعليم الثانوي الصناعي والتعليم الثانوي الزراعي والتعليم الثانوي التجاري... ومن بين كل هذه الأنواع من التعليم الفني نجد أنَّ التلمذة الصناعية أهمها جميعاً لنهضتنا الصناعية ولعمليات التنمية المختلفة في المجتمع.

وبناء على كل ذلك فإني أقترح أن تخصص الدولة للتلمذة الصناعية هيئة خاصة تتكون من ممثلين لوزارة الصناعة ولوزارة العمل ولوزارة التربية والتعليم تعطى من الميزانية المالية والصلاحيات الخاصة ما يمكنها من تنفيذ مايلي:

١ ـ مضاعفة مراكز التدريب المهني على نظام التلمذة الصناعية عدَّة أضعاف حتى تستوعب نحو مائة ألف تلميذ جديد سنوياً أو أكثر.



٢ ـ تجهيز هذه المراكز بأفضل وسائل وأدوات التدريب المناسبة على الحرف المطلوبة.

٣ ـ إمداد هذه المراكز بأخصائيين في التدريب على الحرف المهنية المختلفة وبالأساتذة في المواد العلمية والفنية اللازمة للتلمذة الصناعية.

٤ ـ مضاعفة عدد الأخصائيين النفسيين العاملين في مجال التلمذة الصناعية عدة أضعاف مما يمكنهم من سرعة إعداد بطاريات الاختيار والتوجيه والتصنيف للحرف المختلفة على نحو ما سبق أن أشرنا في هذا البحث.

٥ ـ إعداد بطاريات اختبارات نفسية تقيس القدرات والاستعدادات

النفسية الأساسية لدى التلميذ تطبق عليه مع امتحانات الإعدادية العامة وتتخذ أساساً مبدئياً يصنف بناء عليه التلاميذ ويوجهون تبعاً له بعد حصولهم على الإعدادية إلى التعليم الثانوي العام أو التلمذة الصناعية أو التعليم الثانوي الزراعي أو الثانوي التجاري... إلخ ويتم إعداد هذه البطارية وفق نفس الأسس العلمية التي تتبع لإعداد بطاريات الحرف المختلفة التي تدرب عليها مراكز تدريب التلمذة الصناعية. ولعلَّ إشراك ممثلي وزارة التربية في هذه الهيئة التي نقترحها ييسر هذه العملية.

٦ - القيام بدراسات مستمرة توضح الأعداد اللازمة التي يحتاجها المجتمع من العمالة الماهرة المثقفة من التخصصات الفنية المختلفة في السنوات التالية، لتلائم بين أعداد الخريجين من التلمذة الصناعية في كل تخصص وبين مدى الحاجة إليهم فعلاً حتى تضمن اشتغال الخريج في نفس تخصصه فلا تضيع تكلفة التدريب هباء.

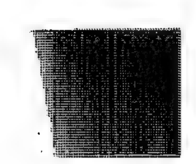
٧ - مجابهة كل مشاكل التلمذة الصناعية بالحلول الجذرية مثل انخفاض دافع التلاميذ نحو الالتحاق بالتلمذة الصناعية، يعمل ما من شأنه أن يحفزهم على ذلك مثل إتاحة فرص الترقي لخريجي التلمذة الصناعية دون قيود بدرجة معينة تقف الترقية عندها، ومثل إتاحة فرصة استكمال الدراسة الجامعية للمتقدمين منهم دون عراقيل تحبطهم أو مصاعب تحول دون تحقيق طموحهم للدراسة العليا، ومثل المتابعة والإشراف والإرشاد النفسي والاجتماعي المستمر للتلاميذ المتدربين.... حتى بعد تخرجهم.

٨ - القيام ببحوث مستمرة عن القضايا المتعلقة بالتلمذة الصناعية والتطوير المستمر في هذا النظام وعلاج مشكلاته بما يساعده أكثر على تحقيق الأهداف التي ينتظرها منه المجتمع مثل مقدار دوران العمل بالنسبة لخريجيه ومدى كفايتهم الإنتاجية وتوفيقهم ونجاحهم في عملهم، ومدى التحاق كل منهم بالعمل الذي تدرب عليه ومزاولته له... إلخ.

خاتمة:

أخيراً تبقى كلمة لا بدَّ منها، تلك أننا كمجتمع نامٍ نشكو من نقص الإنتاج وزيادة السكان المستهلكة فلا حيلة لنا إلّا زيادة الإنتاج. ولا تتأتى زيادة الإنتاج إلّا باستخدام الأسلوب العلمي لعلاج نقصه. ولقد علّمتنا الدراسات في تراث العلم أنَّ الأسلوب العلمي يرفع الإنتاج مع تقليل التكلفة والجهد. وبالتالي إذا كانت المجتمعات المتقدمة تستعين بالأسلوب العلمي لرفع مستوى إنتاجها فإنَّ المجتمعات النامية أولى بهذا وأشد حاجة لنقص إنتاجيتها.

فإذا أضفنا إلى ذلك أنَّ كثيراً من البلاد العربية تعتمد على العامل المصري الماهر خاصة فيها: وإننا نشكو مر الشكوى من ندرة العمال المهرة بما رفع من مستوى أجورهم رفعاً لا يكاد يطاق. وبما جعل أغلب منشآتنا وصناعتنا تقام بشكل غير مرضٍ تبينت لنا مدى الحاجة إلى العامل الفني الماهر الذي تخرجه لنا التلمذة الصناعية، عاملاً أختير بأسلوب علمي ودرب بأسلوب علمي مع تلقي معرفة علمية، وبالتالي يجمع في عمله بين العلم والتدريب والعمل فترتفع بالضرورة كفايته الإنتاجية. لا بدَّ إذن من التخطيط العلمي المبني على دراسة عملية لمشكلاتنا. والعمل بأسلوب علمي حتى نرفع مستوى القوى العاملة في مجتمعنا ونبنيها بما يحقق التنمية المنشودة في وقت قصير.





المـــراجع

١ ـ الدكتور أحمد عزت راجح: علم النفس الصناعي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

٢ ـ الدكتور السيد محمد خيري: علم النفس الصناعي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨.

٣ ـ المهندس رضا محمود سليمان: التدريب المهني، مصلحة الكفاية الإنتاجية بوزارة الصناعة، القاهرة (بدون تاريخ).

٤ ـ المهندس عبد العزيز شعراوي: التلمذة الصناعية طريقنا لإعداد العمال المهرة في الصناعة، الكفاية الإنتاجية، (وزارة الصناعة)، القاهرة، العدد الرابع، السنة الواحدة والعشرون، ١٩٧٧.

٥ ـ الدكتور فرج عبد القادر طه: علم النفس الصناعي والتنظيمي، دار المعارف، ١٩٨٠.

٦ ـ الدكتور فرج عبد القادر طه: علم النفس وقضايا العصر. دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩.

٧ ـ الدكتور فرج عبد القادر طه: علم النفس بين خدمة العامل وخدمة الإنتاج: مجلة الفكر المعاصر، مارس ١٩٧٠.

٨ ـ ماير، نورمان: علم النفس في الصناعة، ترجمة الدكاترة محمد عماد الدين إسماعيل وصبري جرجس وأمين كمال محمد، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٧.

٩ ـ مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهني: (وزارة الصناعة)، الاختيار السيكولوجي لتلاميذ مراكز التدريب المهني. القاهرة، ١٩٧٦.

١٠ ـ مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهني: نظم التدريب المهني (بدون تاريخ).

١١ ـ مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهني: مؤتمر التدريب على نظام التلمذة الصناعية ١٩٧٦.

١٢ ـ مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهني: خطة البرامج التدريبية لعام ١٩٧٨.

١٣ ـ **Argyle, M;** Psychology and Social Problems, Associate Book Publishers, London, 1967.

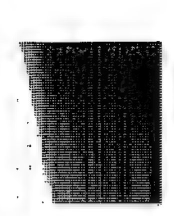
١٤ ـ **Fraser, J;** Industrial Psychology, Pergamon Press, Oxford, 1969.

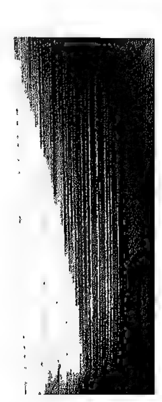
١٥ ـ **Ghiseli, E. and Brown, C;** Personnel and Industrial Psychology, Mc Graw - Hill, 1955.

١٦ ـ **Gilmer, B;** Industrial and Organizational Psychology, Mc Graw - Hill, 1971.

١٧ ـ **Schultz, D;** Psychology and Industry (Edited), The Macmillan Company, London 1970.

١٨ ـ **Tiffin, J. and Mc Cormick, E;** Industrial Psychology, George Allen and Unwin Ltd, London, 1968.





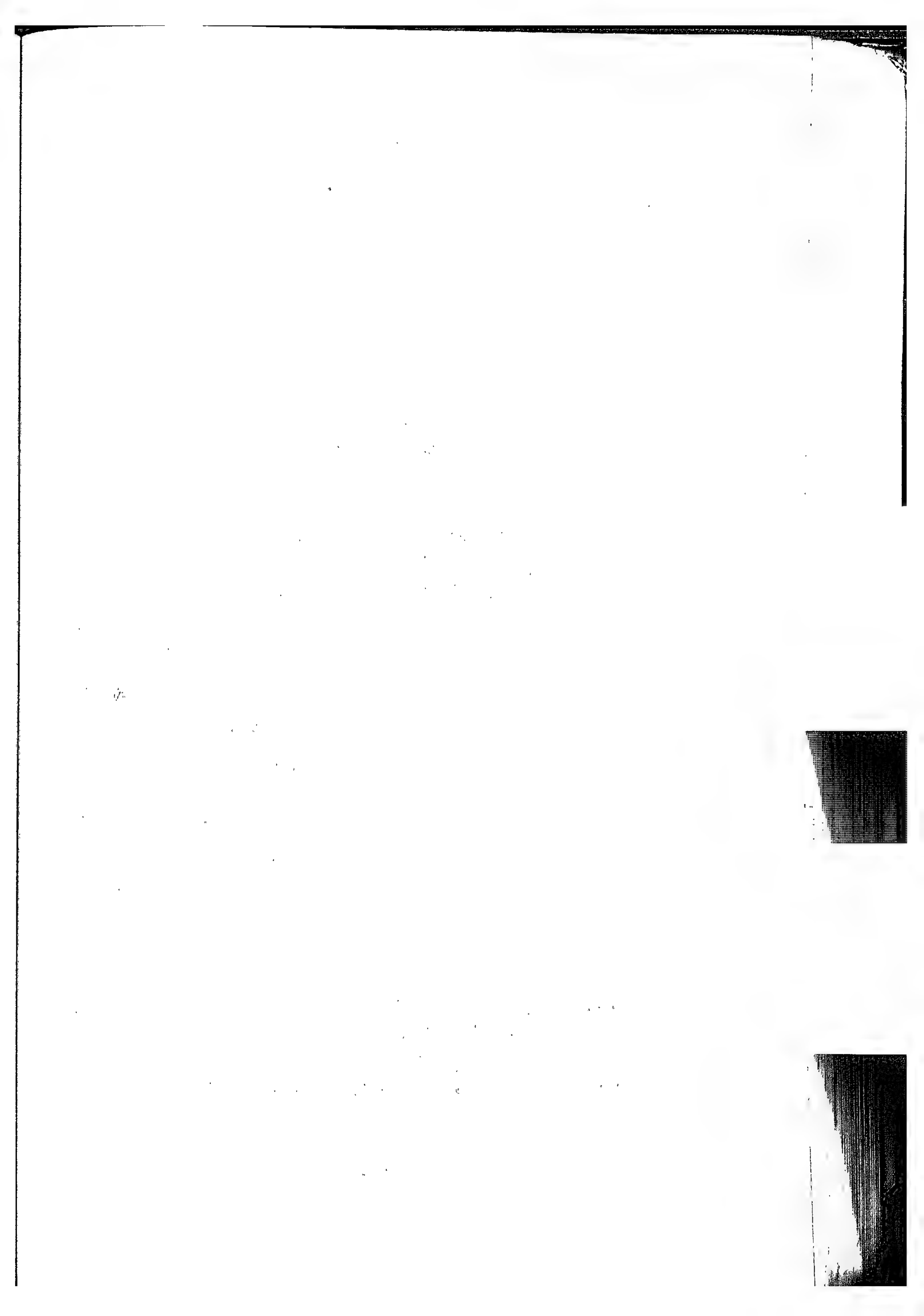
الفصل الثامن

حول المؤتمر الدولي الثاني والعشرين لعلم النفس بليبزج (*)

* تمهيد.
* موقف الكتلة الشرقية من فونت.
* الموقف من القياس النفسي.
* العلم والأيديولوجيا.
* دولية علم النفس وقومية علمائه.
* خاتمة.

(*) اشترك المؤلف في المؤتمر الدولي الثاني والعشرين لعلم النفس، والذي عقد بمدينة ليبزج (في جامعتها) بألمانيا الشرقية في المدة بين ٦ و١٢ من يوليو عام ١٩٨٠.

ويمثل هذا الفصل محاضرة ألقيناها عن هذا المؤتمر بدعوة من المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة يوم ١٩٨١/٥/١٦، وذلك ضمن الموسم العلمي الثقافي الذي نظمه المركز بمقره.



تمهيد:

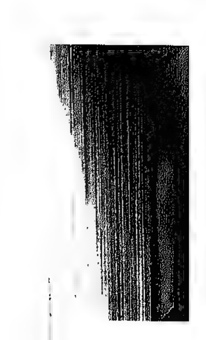
في صيف عام ١٩٨٠، وعلى وجه التحديد بين السادس من شهر يوليو والثاني عشر منه، عقد المؤتمر الدولي الثاني والعشرون لعلم النفس بمدينة ليبزج وفي مقر جامعتها في ألمانيا الشرقية. ويعقد المؤتمر الدولي لعلم النفس كل أربعة أعوام في إحدى الدول التي تشترك جمعية علم النفس بها في الاتحاد الدولي لعلم النفس. وفي هذه الحالة فإنَّ الاتحاد الدولي لعلم النفس هو الذي ينظم المؤتمر ويعدُّ له بالاشتراك مع جمعية علم النفس بالدولة المضيفة للمؤتمر. ويعتبر المؤتمر الدولي لعلم النفس أكبر المؤتمرات الدولية التي تعقد لعلم النفس في العالم كله وأهمها، حيث يمثل بحق مهرجاناً عالمياً لعلم النفس، كما يغطي كافة فروع علم النفس واهتماماته.

ولقد كان لاختيار الاتحاد الدولي لعلم النفس مدينة ليبزج ومقر جامعتها بالذات مكاناً لعقد المؤتمر الثاني والعشرين مغزى عميقاً. ذلك أنَّ جامعة ليبزج بالذات لها مكانة خاصة في قلوب علماء النفس ومتخصصيه. ففي قسم الفلسفة بها أنشأ فونت (Wundt) أوَّل معمل لعلم النفس في العالم كله عام ١٨٧٩، حيث كان أستاذاً للفلسفة بهذه الجامعة. ومنذ ذلك الحين تتلمذ على يديه بمعمله كثير من علماء النفس في أنحاء كثيرة من العالم شرقه وغربه، وعندما عادوا إلى بلادهم تولوا نشر معامل علم النفس بجامعاتها. وإذا كان هذا هو المغزى العميق لاختيار مكان انعقاد المؤتمر، فإنَّ هناك

مغزى آخر للربط بين توقيت المؤتمر ومكانه، ذلك أنَّ مجيء عام ١٩٨٠ يعتبر اكتمالاً لقرن كامل على نشأة معمل علم النفس وفاتحة لقرن جديد. ومما يزيد الأمر أهمية أنَّ كثيرين من علماء النفس يعتبرون أنَّ تاريخ فتح معمل ليبزج هو تاريخ ميلاد علم النفس وتبلوره كعلم مستقل له كيانه الخاص بعد أن كان مجرد فرع من فروع الفلسفة أو موضوع من موضوعاتها، وذلك بعد أن اصطنع لنفسه منهجاً جديداً لدراساته هو المنهج التجريبي مخالفاً بذلك المنهج الفلسفي الذي يعتمد أساساً على التأملات النظرية ومن هنا فقد كان التجمع العالمي لعلماء النفس بليبزج في صيف عام ١٩٨٠ بمثابة تجديد لذكرى فونت ومعمله، وبمثابة احتفال بانقضاء قرن كامل على ميلاد علم النفس ومطلع قرن جديد.

ولعلَّ هذا ما جعل نسبة كبيرة من علماء النفس في العالم تحرص على المشاركة في هذا المؤتمر، فقد اشترك فيه حوالي ثلاثة آلاف ونصف الألف من الأعضاء من قرابة خمسين دولة من دول العالم المختلفة المواقع والاتجاهات والنظم. فكان من ألمانيا الشرقية وحدها حوالي ثلث الأعضاء (وذلك نظراً لسهولة الاشتراك في المؤتمر بالنسبة لهم وسهولة تدبير الإقامة)، ومن الولايات المتحدة الأمريكية حوالي ٢١٥، ومن اليابان حوالي ١٧٥، ومن الاتحاد السوفيتي حوالي ١٦٠، ومن تشيكوسلوفاكيا حوالي ١٣٠، ومن بولندا حوالي ١١٥، ومن المجر حوالي ١١٥، ومن كندا حوالي ٦٠، ومن بلجيكا حوالي ٣٠، ومن استراليا حوالي ٣٠، ومن إسبانيا حوالي ٣٠، ومن السويد حوالي ٣٠، ومن يوغسلافيا حوالي ٢٠، ومن الصين حوالي خمسة أعضاء. ونكتفي بذكر ذلك على سبيل المثال لا الحصر.

ولقد قدم في المؤتمر حوالي ألف بحث ودراسة، وكانت تعقد ندواته ومناقشاته ومحاضراته وأفلامه وفق برنامج زمني على مدى خمسة أيام (باستثناء جلسة الافتتاح وحفل استقباله) تبدأ من الساعة التاسعة صباحاً حتى السابعة إلاّ الربع مساء كل يوم، باستثناء نصف ساعة يتوقف فيها نشاط



المؤتمر ما بين الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر إلى الثانية، وكانت تصل جلسات المؤتمر وحلقاته إلى قرابة العشرين في نفس الوقت صباحاً ومساءً، وينتقي العضو ما يهمه منها لحضوره.

وبالنسبة لنا، فقد كان حضور هذا المؤتمر في غاية الأهمية حيث صحح لنا الكثير من آرائنا وتصوراتنا عن قضايا هامة مثار خلاف وجدل بين المشتغلين بعلم النفس والمهتمين به في مصر والبلاد العربية، خاصة تلك الآراء والتصورات التي تبنتها وروَّجت لها الثورة الروسية الاشتراكية في أوائل عهدها، ثمَّ حذت حذوها، الثورات الاشتراكية الأخرى كالثورة الصينية على سبيل المثال. وسوف يكون هذا الموضوع هو محور هذا الفصل.

أولاً: موقف الكتلة الشرقية من فونت:

اتخذت الثورة الروسية الاشتراكية بعد قيامها موقفاً مناهضاً لمعظم التيارات والاتجاهات السائدة وقتذاك في علم النفس كالقياس النفسي وعلم النفس الصناعي والتحليل النفسي. كما تبنت الثورة الروسية على وجه خاص موقفاً عدائياً من فونت ومعمله وأدانتهما بشدة. ويبدو الأمر منطقياً هنا في أن تجمع الثورة الروسية في هجومها بين فونت وبين علم النفس، لما هو واضح من الدور الهام، والأثر الكبير لفونت في علم النفس كما سبق أن أشرنا.

وربما ترجع بدايات إدانة فونت والهجوم عليه في روسيا إلى لينين في كتابه «المادية ونقد التجربة Materialism and Empirio - Criticism» والذي ظهر في عام ١٩٠٩. حيث هاجم فونت ونقده بعنف متهماً إياه بالمثالية والترويج لها وتدعيمها (ارجع إلى الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب والصادرة عن دار التقدم بموسكو عام ١٩٦٧، حيث توجد بها صفحات كثيرة متفرقة تبدأ من صفحة ٤٨ إلى ما بعد منتصف الكتاب توضح رأي لينين في فونت).

لكن إذا كان هذا هو موقف الاتحاد السوفيتي من فونت ومعمله وسيكلوجيته في بداية ثورته الاشتراكية، فهل لا زلنا نجد لهذا الموقف

استمراراً حتى الآن أم أنَّ الروس قد عدلوا موقفهم؟.

لا شكَّ أنَّ موقف الروس والكتلة الشرقية عموماً (على اعتبار الروس طليعتها وقادتها) قد عدلوا من موقفهم إزاء فونت ومعمله، كما تدلل على ذلك اتجاهات علمائهم في هذا المؤتمر، وضخامة نسبة أعضائهم فيه، مما يبين عن مشاركتهم علماء العالم احتفاءهم بذكرى فونت ومعمله. بل إنَّ علماء من الكتلة الشرقية، شأنهم شأن غيرهم، قد أسهموا في ندوات وجلسات عقدت خصيصاً لتخليد ذكرى فونت في هذا المؤتمر.

١ ـ بحث هوفسب:

ونشر بهذا الصدد البحث الذي اشترك به هوفسب Hovsep الروسي (٤، ١٢) في إحدى الندوات التي عقدت تخليداً لذكرى فونت في هذا المؤتمر بعنوان: «فونت في التاريخ العالمي لعلم النفس». ففي هذا البحث يرى هوفسب أننا ينبغي أن نعتبر فونت بدون شك واحداً من أعظم علماء النفس أثراً في توجيه البحث نحو علم نفس جديد، ليس فقط في ألمانيا، بل في كثير من البلدان. كما أنَّه لعب دوراً تاريخياً تقدمياً خلال الخطوات الأولى من الصراع ضدَّ علم النفس الروحاني والجامد. كما يورد في بحثه نقلاً عن بورنج Boring وصفه لفونت بأنَّه أكبر سيكلوجي في تاريخ علم النفس، وأنَّه رجل يمكن بدون أي تحفظ أن نسميه سيكلوجيا بحق. فقبله كان يوجد علم نفس بكثرة، لكن لم يكن يوجد سيكلوجيون. وعندما نسميه منشىء علم النفس التجريبي. فنحن نعني بذلك أنَّه طور فكرة علم النفس كعلم مستقل وأنَّه أكبر علماء النفس معاً. وعندما يورد هوفسب هذه الأفكار عن بورنج دون تعليق فإنَّه بهذا يتبناها عن قناعة شخصية يشترك فيها مع بورنج. ولا شك أنَّ هذا البحث لهوفسب يدلل بشكل واضح على مدى التعديل في الموقف السوفيتي من فونت بحيث قلبه من موقف مدين ومناهض إلى موقف محبذ ومؤيد.



٢ ـ بحث شن ولي:

هذا، وفي نفس الندوة قدّم بحث آخر لعالمين صينيين هما شن ولي Shun and Li (٨، ٩) بعنوان «فونت وعلم النفس الصيني». وفي هذا البحث يشير شن ولي إلى أنَّه باستثناء يون باي Yuan — Pai الذي ربما كان التلميذ الصيني الوحيد الذي حضر محاضرات فونت في ليبزج، فإنَّ علم النفس الفونتي أتى إلى الصين عن طريق اليابان وأمريكا وأوروبا. وأنَّه قد أثر في الصين كثيراً قبل الثورة. لكنه بعد الثورة الصينية تعرض فونت لنقد شديد من علماء النفس الصينيين تحت تأثير الثورة الاجتماعية والثوار الذين رأوا وجوب بحث علم النفس العلمي في ضوء المادية الجدلية. كما يضيفان أنَّه بعد تحطيم عصابة الأربعة أعيد تقييم سيكولوجيا فونت فتبين أنَّها تشتمل على قدر من المادية والعوامل الديالكتيكية. ويزيدان على ذلك أنَّ فكرة فونت الأساسية والتي تؤكد بشدَّة على النظر إلى علم النفس باعتباره علماً مستقلاً أصبحت واسعة القبول في الصين. وأنَّ ذاك سوف يكون له أثر إيجابي على تطوير علم النفس الصيني بمثل ما أثر في علم النفس في العالم كله. ويوضح هذا مدى احتذاء الصين بالنموذج السوفيتي في موقفه من فونت الذي بدأ بالهجوم والإدانة وانتهى أخيراً إلى القبول والإشادة.

ومن الجدير بالذكر أنَّ عالماً كندياً (خارج الكتلة الشرقية) هو فروست Frost (٣، ٣) قدّم في نفس الندوة بحثاً بعنوان «النظرية والمنهج وفيلهم فونت» أشار فيه إلى أن فكر فونت كان ديالكتيكياً بشكل واضح في طبيعته كما كان معارضاً بشدة للنظرة الترابطية الجامدة. وأنَّه في نهاية حياته كان شديد النقد للقيم والحضارة البريطانية والأمريكية. كما أوضح فروست أنَّ فونت نفسه يعتبر المنهج التجريبي محدوداً في صلاحيته وذلك منذ كتاباته الأولى، واعتبره غير مناسب على وجه الخصوص لبحث علم النفس الثقافي، إذ اعتبر أنَّ أفضل صلاحية له هي مناهج الأنثروبولوجيا.

وإذا ما جاز لنا أن نتخذ من اهتمام كلية علم النفس بجامعة موسكو

بمعامل علم النفس دليلاً على تعديل موقف الروس من فونت وعلم النفس التجريبي، فإنَّ ما كتبه عالم النفس السوفيتي لوريا Luria عن تعليم علم النفس في جامعة موسكو يوضح ذلك بجلاء. وفي هذا الصدد يذكر لوريا أنَّ كلية علم النفس بجامعة موسكو بها العديد من معامل علم النفس المخصصة للبحث. ويورد لوريا خمسة معامل علم نفس متخصصة بالكلية هي (١١، ٦٥):

١ ـ معمل علم النفس العصبي.
٢ ـ معمل علم النفس الفسيولوجي.
٣ ـ معمل علم نفس العمل (أي علم النفس الصناعي).
٤ ـ معمل التعليم المبرمج.
٥ ـ معمل علم النفس الارتقائي.

ثانياً: الموقف من القياس النفسي:

كثيراً ما يهاجم القياس النفسي وتدان اختباراته، خاصة من ذوي الاتجاهات الأيديولوجية التقدمية، بحجة أنَّ القياس (الاختبارات النفسية) يعمل على تقسيم الناس إلى فئات أو طبقات، وأن الإيديولوجيات التقدمية تستهدف تذويب الفوارق بين الطبقات والفئات وإلغاء ما بين الناس من فروق بما فيها الفروق السيكلوجية. ويذهبون إلى ما هو أبعد من ذلك فيرون أنَّ الفروق بين الناس في الذكاء والقدرات العقلية المختلفة والاستعدادات والخصائص الشخصية، تختفي إذا ما اختفت الفروق الطبقية أو الفئوية المادية بين الناس، وأنَّ الفروق السيكلوجية ما هي إلا انعكاس مباشر للفروق الطبقية. ويتوهمون بذلك أنَّ الوضع الطبقي أو الفئوي الواحد سوف يؤدي إلى خصائص سيكلوجية واحدة تسود الأفراد فتختفي الفروق بين الأفراد في الجوانب السيكولوجية المختلفة، بحيث يصبحون جميعاً في مستوى ذكاء واحد ومستوى ذاكرة واحدة، ومستوى تحصيلي دراسي واحد، ومستوى فني واحد، ومستوى صحة نفسية واحدة. . . ولقد بلغ الأمر بأصحاب هذا الرأي إلى

إنكار وإدانة نتائج علمية واكتشافات أدّت إليها البحوث الميدانية الواقعية، بل والملاحظات والمشاهدات العادية، مثل التوزيع الاعتدالي لكثير من الاستعدادات والخصائص السيكلوجية للأفراد، والذي يوضح أنَّ قلّة من الأفراد تمتلك هذه الخصائص بدرجات عالية تقابلها قلّة مماثلة تقريباً في نسبتها تمتلكها بدرجات مرتفعة، بينما تمتلك الغالبية هذه الخصائص بدرجات متوسطة، ومثل أيضاً ما يعرف بالتباين داخل الفرد الواحد في الاستعدادات النفسية والقدرات العقلية، بمعنى أنّ الفرد نادراً ما يكون في مستوى واحد بالنسبة للاستعدادات النفسية والقدرات العقلية، بل غالباً ما يكون مرتفعاً في بعضها ومنخفضاً في غيرها بالنسبة لنفسه، فنجده مثلاً مرتفعاً في الذكاء منخفضاً في الذاكرة متوسطاً في القدرة الفنية بالقياس إلى نفسه هو.

وترجع أصول هذا الموقف المدين للقياس السيكلوجي إلى إدانة الاتحاد السوفيتي له بعد ثورته الاشتراكية. وكان ذلك موقفاً مماثلاً. أو فلنقل مقابلاً أو مكملاً لموقفه من فونت ومن سيكلوجيته. وقد كان هذا من وجهة نظرنا موقفاً ميتافيزيقياً ممعناً في الغرابة ومجافياً للحقيقة التي ينبغي على العلم أن يسعى دائماً لاكتشافها وتعليلها، وليس لإنكارها ومجافاتها.

ولما كان القياس النفسي مرتبطاً إلى حد كبير بالإحصاء، فقد لحقت المبادىء الإحصائية ومعاملات الإحصاء واستخدامه في البحوث النفسية بعض الإدانة كتعميم للموقف من القياس الذي تبناه ذوو الاتجاهات التقدمية.

لكننا لاحظنا من البحوث التي قدمت في المؤتمر من جانب علماء النفس السوفيتيين وعلماء نفس الكتلة الشرقية عموماً تعديلاً واضحاً في موقفهم من القياس النفسي والاختبارات النفسية والاستخدامات الإحصائية في البحوث النفسية ونكتفي هنا بذكر نموذجين للتدليل على ذلك:

١ ـ بحث بنج:

فها هو بنج Pung (٦، ٥٨١) من جامعة ولاية تارتو بالاتحاد السوفيتي يقدم بحثاً عن آثار العمل والنشاط الزائد عن الحد المناسب لطاقة الإنسان. وفي هذا البحث درس ٢٥ نوعاً مختلفاً من الوظائف الذهنية والحركية والحسية، واستخدم في ذلك مقاييس لقياس: النبض، وضغط الدم، والاهتزاز، واتساع الرئة، وسرعة الحركات البسيطة ودقتها، ومعدل النقر، وزمن الرجع، وإدراك المسافات الزمنية، والقدرة على الانتباه، والذاكرة القريبة، والقدرة المكانية، وأداء واجبات ذهنية مختلفة، والقدرة على تصحيح أخطاء. وقد عولجت البيانات كلها بمعاملات إحصائية خاصة بتحليل التباين وبالارتباطات وبالتحليل العاملي.

ولقد تبين من هذا البحث التجريبي أنَّ كمية النشاط الواجب على الفرد ممارستها سواء ذهنياً أو عضلياً أو حسياً ينبغي أن تكون معتدلة في حجمها ومناسبة له حتى يصل الفرد لأقصى كفاية له. ففي حالة عبء النشاط المناسب تكون الوظائف النفسية كالإحساس والإدراك والتذكر والانتباه في أقصى اتزان لها وتآزر بينها.

ونلاحظ في هذا البحث تعديلاً واضحاً في موقف السوفييت من القياس والاختبارات النفسية، حيث يلجأ الباحث إلى الاستعانة بالقياس في دراسته، كما نلاحظ أيضاً اعترافاً بأهمية الإحصاء ومعاملاته، فيلجأ الباحث إلى التحليلات الإحصائية المعروفة عالمياً كتحليل التباين والتحليل العاملي وتحليل الارتباطات. وعلاوة على ذلك فإنَّ الباحث الروسي هنا يستخدم التجريب على نفس النحو والطريقة التي استخدمها فونت في معمله بليبزج، بل وفي موضوعات قياس تكاد تتطابق وموضوعات قياس فونت، وفي دراسة ظواهر تذكرنا بما درج فونت وتلاميذه على دراستها في ليبزج.

٢ ـ بحث ستانكاك وزميليه:

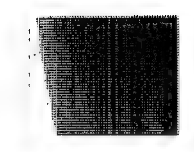
ومن تشيكوسلوفاكيا قدم لنا ستانكاك وفرانك وجازوفا Stancak

Fraenke and Jasova (٩، ٥٤١) في هذا المؤتمر بحثاً بعنوان: «أنماط ذوي الميول الانتحارية وفقاً لطريقة الـ MMPI». والـ MMPI كما نعلم مقياس أمريكي الأصل لقياس جوانب السواء والمرض في الشخصية، مبنى على أسلوب التقرير الذاتي والاستبيانات في قياس سمات الشخصية (وهو بذلك وسيلة من وسائل جمع البيانات في الدراسات السيكلوجية، وليس طريقة أو منهجاً في البحث كما يوحي عنوان هذا البحث). وكان الهدف من البحث هو التعرف على نمط بروفيل الشخصية التي تميل للانتحار كما يوضحه مقياس الـ MMPI فطبق الباحثون مقياس الـ MMPI على مجموعتين إحداهما تميل للانتحار، أولديها استعداد كبير للإقدام على الانتحار، والمجموعة الثانية لا تميل للانتحار. وكانت كل مجموعة مكونة من مائة فرد نصفهم من الذكور والنصف الآخر من الإناث. كما راعى الباحثون أيضاً أن تكون المجموعتان متعادلتين في مستوى الذكاء حسب نسب الذكاء التي تستخرج من تطبيق مقياس وكسلر - بلفيو للذكاء، وهو مقياس أمريكي الأصل أيضاً. ولقد عالج الباحثون نتائج بحثهم باستخدام التحليل العاملي والارتباطات. ولقد تبين من البحث نمطان متمايزان في الصفحة النفسية للذكور الميالين للانتحار أحدهما ارتفع فيه مقياس الانقباض بينما الثاني ارتفع فيه مقياس الانحراف السيكوباتي. أمّا بالنسبة للإناث فقد وجد أيضاً نمطان متمايزان بالصفحة النفسية لذوات الميول الانتحارية، بحيث ساد أحد النمطين ارتفاع في مقياس الانحراف السيكوباتي، بينما ساد النمط الثاني ارتفاع في مقياس البرانويا.

ولهذا البحث الذي قام به التشيكيون الثلاثة وقدموه للمؤتمر أهمية كبيرة للموضوع الذي نناقشه الآن. فتشيكوسلوفاكيا دولة من أهم أقطاب الكتلة الشرقية، هذا إلى جانب أنّ البحث كان لأكثر من باحث مما يدل على مدى قبول وانتشار الاتجاهات الواردة بين علماء النفس في تشيكوسلوفاكيا. هذا علاوة على استخدامه لمقياسين نفسيين لهما شهرة واسعة لدى المشتغلين بعلم النفس (وبالمناسبة فهما مترجمان إلى العربية في مصر

ويستخدمان بها بكثرة الآن ومنذ الخمسينات)، وهما مقياس الـ MMPI (مقياس مينيسوتا المتعدد الأوجه للشخصية) ومقياس وكسلر- بلفيو لذكاء الراشدين والمراهقين. هذا علاوة على استخدام الإحصاء وتحليلاتها، واستخدام فكرة المجموعة التجريبية (مجموعة الميالين للانتحار) والمجموعة الضابطة (مجموعة غير الميالين للانتحار) والتي تتعادل معها من حيث الخصائص الهامة، باستثناء العامل المدروس وهو الميل للانتحار. ومن الملاحظ أنَّ استخدام المجموعتين هنا، كما هو للإحصاء، كما هو للقياس النفسي، قد تمَّ في هذا البحث بنفس الكيفية التي يتم بها في البحوث التي تتم في البلاد الغربية.

فإذا أضفنا إلى هذا وذاك أن جانباً من النقد الذي يوجه إلى القياس النفسي ينصب على استحالة نقل أو ترجمة أو تقنين مقياس نفسي أعد أصلاً لبيئة معينة بحيث يعاد إعداده واستخدامه في بيئة أخرى، لأدركنا مدى أهمية دلالة هذا البحث على دحض هذه الفكرة الفجة، والتي لا زال البعض يرددها حتى الآن. فها هم ثلاثة من العلماء التشيكيين يقدمون دراسة سيكلوجية باستخدام مقياسين من أصل أمريكي إلى أكبر مؤتمر عالمي لعلم النفس. ويدل هذا بشكل واضح على تغير هام في موقف الكتلة الشرقية من القياس النفسي بحيث قلبه من الإدانة والاستنكار والرفض إلى القبول والترحاب. مما يذكرنا بالتغير المقابل من فونت ومعمله والذي ناقشناه في البند السابق.



ثالثاً: العلم والأيديولوجيا:

العلاقة بين العلم والأيديولوجيا علاقة شديدة التعقيد، ومثار كثير من الجدل بين العلماء. ويرجع ذلك أساساً إلى أنَّ الأيديولوجيين يريدون استغلال العلم وتوجيه نتائجه وتطبيقاته نحو خدمة أهداف محددة. وهم في غمرة حماسهم لتحقيق ذلك يخلطون بين العلم ونتائجه من جانب، وبين استغلالهما وتطبيقهما من جانب آخر، وهو خلط في رأينا غير مشروع ويؤدي إلى الكثير من البلبلة. بل يؤدي أيضاً إلى إدانة العلم ورفض نتائجه في كثير

من الأحيان. وفي رأينا أنَّ العلم ونتائجه (طالما كانت مستمدة من منهج علمي) فإنّه لا غبار عليهما، وينبغي أن يكونا مقبولين على طول الخط. بل ينبغي على العلماء بصرف النظر عن اتجاهاتهم الأيديولوجية الخاصة أن يسعوا دون تحيز إلى دراسة الظواهر سواء طبيعية أو إنسانية بهدف اكتشاف قوانينها وتفسيرها والإحاطة بأكبر قدر من المعلومات عنها. أمّا مسألة استغلال النتائج العلمية وتطبيقاتها فهي أمر يخضع بالفعل لأهداف مستغليه ومطبقيه، وهو استغلال وتطبيق يمكن بالفعل أن نباركه أو أن ندينه، وذلك بناء على ما يحققه من أهداف بناءة للمجتمع القومي أو الدولي، أو أهداف مدمرة لواحد منهما أو كليهما. ولنأخذ مثلاً على ذلك الطائرة كإنجاز علمي بني على تراث من التقدم العلمي الذي حققته البشرية حتى الآن. فاختراع الطائرة وتمكين الإنسان بواسطة الإنجازات العلمية من الطيران في الجو أمر طيب محبذ في حد ذاته، يكسب الإنسان قدرة أكبر على مجابهة الطبيعة والانتصار عليها وتحقيق رغباته في يسر وسرعة. فهو يستطيع أن يكون في نصف الكرة الشمالية ينجز عملاً بالصباح وفي نصفها الجنوبي ينجز عملاً بالمساء تقطع بينهما بضعة آلاف من الأميال وذلك دون إرهاق كبير. إلاَّ أنَّ الإنسان يمكن أن يستغل الطائرة نفسها في غزو بلد مسالم وقتل أهله ظلماً وتدمير دياره ومنشآته والاعتداء عليه واحتلاله، كما أنَّه بالمثل يمكن أن يستغل الطائرة في عملية إبادة الحشرات التي تقضي على الإنسان أو المحاصيل الزراعية... إذن يمكن استغلال العلم لصالح المجتمع في نشر الخير وتدعيم التقدم والبناء، كما يمكن أيضاً استغلاله في فرض الظلم ونشر الشرور والدمار، كما يمكن - ثالثاً - استغلاله في رد الظلم والدفاع عن النفس والمجتمع ضد ما يتهددهما. ومن هنا كان رأينا في أنَّ العلم في حد ذاته لا غبار عليه ولا نوافق أية أيديولوجية في موقفها عندما تدينه. وإنما نوافق فقط على إدانة استغلاله الاستغلال الشرير الظالم والمدمر.

ولعلَّ هذا، ما أدركته الأيديولوجية الاشتراكية أخيراً، فبدأت تفصل بين

الأيديولوجية والعلم وتتخلى بشكل واضح عن مواقف الإدانة الشديدة التي كانت تواجه بها فونت والقياس النفسي وعلم النفس عامة، وتقر الواقع الموضوعي المؤيد للعلم والمتقبل له، على نحو ما عرضنا في البندين السابقين.

وهناك اعتقاد شائع حتى الآن وهو أنَّ المجتمعات التي تقوم على عقائد أيديولوجية لا تهتم إلاَّ بالظواهر والموضوعات ذات الدلالة لأيديولوجيتها، ولا تضفي الشرعية العلمية إلاَّ على النتائج التي تتفق مع أيديولوجيتها وتؤيدها. وإن صدق هذا بالنسبة لبعض المجتمعات المختلفة، فإنَّه لا يعود بصدق الآن على المجتمعات الأيديولوجية المتقدمة كمجتمعات الكتلة الشرقية عموماً.

فمن الطريف حقاً أن نجد علماء النفس من الكتلة الشرقية قد اشتركوا تقريباً في كل الموضوعات التي دار حولها نشاط المؤتمر. وكانت بحوثهم لا تختلف من حيث موضوعاتها أو مناهجها أو أدواتها أو نتائجها عن تلك التي قدمها علماء النفس بالكتلة الغربية. حتى أنَّ مجرد قراءة البحث دون معرفة صاحبه لا تمكن القارىء من التخمين الصحيح لما إذا كان صاحبه من الكتلة الشرقية أو الغربية. ونكتفي هنا بإيراد أربعة نماذج لتأييد رأينا هذا:

١ ـ بحث تاتيزاروف ومويرويان:

فها هو تاتيزاروف وزميله مويرويان Taytsarov and Moiroyan (١٠، ٥٠٨) الروسيان يقدمان بحثاً بعنوان «تعديل مفهوم الذات في مرضى الكحول خلال العلاج الجمعي». وفي هذا البحث درس الباحثان تعديل مفهوم الذات في ٣٤ مدمناً كحولياً تعاطوا أربع جلسات علاج نفسي جمعي. وقد طبقا على هذه العينة مقياساً نفسياً لمفهوم الذات هو مقياس (Tscs). وذلك قبل جلسات العلاج وبعدها. فتبين لهما أنَّ العلاج النفسي الجمعي له تـأثير إيجابيّ على تعديل مفهوم الذات. وقد علَّلا هذا التأثير بأنَّه ناجم عن التفاعل بين المرضى وتأثر المريض واستفادته من خبرات زملائه والتوحدات المختلفة

بهم. وكل هذا يعمل على تقوية دور الضبط الواعي لسلوك المريض. ولا شك أنَّ هذا البحث الروسي يمكن أن يكون بموضوعه ومنهجه وأدواته بحثاً أمريكياً أو فرنسياً أو بريطانياً أو مصرياً.

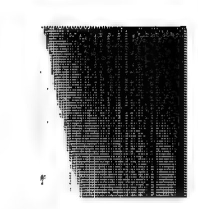
٢ ـ بحث ماريك:

كما قدم ماريك Marek (٥، ٥٣٩) العالم البولندي بحثاً عن الانغلاق على الذات (Autism) كميكانيزم دفاعي في الشخصية. وكانت عينة البحث عبارة عن ١٢٠ حالة فصامية خضعت للملاحظة والدراسة الإكلينكية على مدى عشر سنوات. وانتهى الباحث إلى أنَّ تحليل بياناته تبين أنَّ الفصامي يستخدم الانغلاق على الذات كدفاع ضدَّ مثيرات قوية تأتيه من العالم الخارجي تفوق القدرة البسيطة له على التحمل. ويوصِّي الباحث بناء على ذلك بتقبل المريض وتقديم مشاعر متعاطفة معه حتى نقلل من مخاوفه ونقوي من قدرته على التحمل. وواضح أنَّ هذا البحث مثل سابقه يمكن أن يكون بموضوعه ومنهجه وأدواته ونتائجه وتوصياته بحثاً مصرياً أو فرنسياً أو أمريكياً بمثل ما هو بحث لعالم من الكتلة الشرقية.

٣ ـ بحث شميت:

أمَّا البحث الثالث والذي نريد أن نقدمه كنموذج للتدليل على رأينا فهو بحث شميت Schmidt (٧، ٥٤١) من المجر. وقد قدم بحثه تحت عنوان «طريقة الحياة البناءة على أساس من بحث الصراع». وفي مدخله لبحثه يشير الباحث إلى أنَّ الإحصائيات العالمية التي ظهرت من بضع سنين تبين أنَّ المجر أعلى مجتمع في معدل الانتحار والثاني في معدل الطلاق. وأنَّ هذا هو السبب الذي جعل علماء المجر يهتمون ببحث الصراع. ويضيف الباحث أننا نوضع في مواقف صراعية كثيرة أثناء حياتنا اليومية مما يتسبب عنه توتر. ويعتبر هذا التوتر بمثابة طاقة كامنة تقوم اتجاهاتنا بتحديد ما إذا كنَّا نستخدمها في تحقيق تنمية للشخصية أو في أشكال تدميرية لها. وفي رأي الباحث أنَّه

يمكن ترشيد هذه الاتجاهات وغرس الاتجاهات البناءة في الحياة بين الأفراد. أمَّا طريقة الباحث في دراسته فكانت عبارة عن سؤاله لـ ٧٠٠ طالب أن يقدم كل منهم ذكرياته عن المواقف الصراعية التي مرَّ بها في حياته، كما طبق على ٣٥٠ طالباً اختباراً للتشخيص النفسي. ومن البيانات التي تجمعت لديه قام الباحث بتحليل المضامين الصراعية وتصنيفها إلى ثلاثة أنواع: صراعات «أنا ـ هم» وصراعات «أنا ـ أنت»، وصراعات شخصية ذاتية داخلية «أنا ـ أنا». ويرى الباحث أنَّه بعد أن يتم تحديد مواقف الصراع المختلفة والنمطية يمكن بناء على ذلك القيام بترشيد الاتجاهات لتصبح مناسبة لمواجهة الصراع مواجهة بناءة، كما يمكن تعليم هذه الاتجاهات وغرسها بشكل مقصود ومنظم منذ مرحلة المدرسة الإبتدائية. وبذلك يمكن تحقيق تكامل الذات وتنظيم الصراع والوصول إلى الطريقة البناءة في الحياة. ويرى الباحث إمكانية تحقيق كل هذا بواسطة التدريس الخاص أو التدريب أو المحاضرة أو الإشراف والمتابعة من جانب الأساتذة والمربين. ونلاحظ أنَّ هذا البحث ـ كسابقيه ـ يمكن أن يكون بموضوعه ومنهجه وأدواته ونتائجه وتوصياته بحثاً مصرياً أو فرنسياً أو بريطانياً أو أمريكياً بمثل ما هو بحث لعالم من علماء الكتلة الشرقية، وإن كان قد فاجأنا في مقدمته باحتلال المجر المكانة الأولى في معدل الانتحار والثانية في معدل الطلاق في الإحصائيات العالمية، وهو أمر كنا نستبعده من قبل تماماً بالنسبة لمجتمعات الكتلة الشرقية عامة والمجر خاصة.



٤ ـ بحث آسيف:

أما البحث الرابع والأخير من الأبحاث التي نريد أن نشير إليها تدعيماً لرأينا فهو بحث آسيف Aseyev (٢، ٥٥٧) العالم الروسي. فقد قدم بحثاً في هذا المؤتمر بعنوان «عن العوامل النفسية الاجتماعية التي تستثير نشاط الأفراد في العمل». وفي هذا البحث يرى آسيف أنَّه تقع على إدارة العمل من الناحية النفسية الاجتماعية مسؤولية خلق الظروف التي تحفز العامل

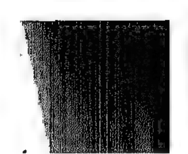
وتقوي دافعه للعمل. وأنّه عادة ما نعمل على رفع الدافع للعمل باستخدام حوافز مختلفة، مادية ومعنوية، إلاّ أنّها في حقيقة الأمر لا تلعب الدور الحاسم، إذ أن الحوافز المادية والمعنوية لا تتحول إلى دوافع حقيقية إلاّ في حالة ارتباطها باتجاه واعٍ للفرد نحو عمله، وبإدراكه للمعنى الاجتماعي للعمل الذي يؤديه ولمسؤوليته الشخصية عنه وعن إنتاجيته. ويقترح البحث ثلاثة «مبادىء» لرفع الدافع السيكلوجي للعامل نحو عمله: أولها هو استخدام الأساليب السيكلوجية الخاصة والتي تستثير الدافع نحو العمل المنتج برفع مستوى وعي العامل بأهمية عمله، وثانيها هو خلق ظروف مهيئة ومشجعة لتعبير العامل عن ذاته وإبراز إمكانياته الكامنة على العمل والإنتاج، مما يتيح للعامل إشباع دافع سيكلوجي هام عنده هو دافع تأكيد ذاته مهنياً. أمّا ثالثها فهو إعطاء الأفراد فرصة متكافئة لضبط عملهم ولزيادة نشاطهم المهني بدرجة أكبر من الحرية، مع الأخذ في الاعتبار الخصائص المتفردة لكل عامل وإعطائه الفرصة لضبط كمية عمله وتنظيمه خلال نوبة العمل أو خلال فترات محددة. ومن الواضح أنّ موضوع هذا البحث ونتائجه وتوصياته يمكن أن تكون مصرية أو فرنسية أو أمريكية، وليست روسية فقط، كما أنّها تذكرنا بدراسة التون مايو Mayo وزملائه في أمريكا على مصنع الهاوثورن عن أهمية الدوافع النفسية الاجتماعية في العمل، وتلتقي مع نتائجها.

ولعلّه قد بدا الآن واضحاً ـ من النماذج الأربعة التي اكتفينا بذكرها ـ أنّ علم النفس في البلاد الأيديولوجية المتقدمة قد انفصل عن الأيديولوجيا واستقل عنها أخيراً، تماماً كما سبق وانفصل بفضل فونت عن الفلسفة منذ قرن من الزمان. وبذلك يكون علم النفس قد صحح مساره، أو بمعنى أدق تكون المجتمعات الأيديولوجية المتقدمة قد تجاوزت موقفها القديم من علم النفس ودعمت موضوعيته العلمية.

رابعاً ـ دولية علم النفس وقومية علمائه:

«دولية العلم وقومية العلماء» عنوان مقال ترجمه الدكتور محمد عبد

الفتاح القصاص عن نرومان ستورر (١، ٦ ـ ٢٥). ونحن نستعيره هنا إذ نعتقد أنَّ هذه العبارة بالغة الدقة في انطباقها على علم النفس على نحو ما برز في مؤتمره الدولي بليبزج. فلقد صنف كل عالم اشترك في هذا المؤتمر حسب الدولة التي يحمل جنسيتها، لكن عند تصنيف البحوث التي قدمت للمؤتمر تمَّ تصنيفها حسب موضوعاتها واهتماماتها دون أدنى اعتبار لقومية العلماء. وهذا ما كان متوقعاً بطبيعة الحال، حتى إننا ما كدنا نجد موضوعاً معيناً أو اهتماماً معيناً انفرد به فقط علماء دولة واحدة أو حتى كتلة واحدة. فكنا نجد على اتساع الاهتمامات وتعدد الموضوعات التي شملها النشاط العالمي للمؤتمر علماء من دول تمثل الكتلة الشرقية ومن دول تمثل الكتلة الغربية ومن دول تمثل العالم الثالث، جنباً إلى جنب يلقون بحوثاً ويتناقشون حول موضوعات تشد اهتمامهم جميعاً، ويتطلعون إلى تعميق فهمهم لها ومعرفتهم بها والاستزادة من الجديد عنها في العلم. لقد استطاعت «دولية علم النفس» أن تتخطى «قومية العلماء» فإذا هم يتكلمون لغة مشتركة هي لغة علم النفس، ويهتمون اهتماماً مشتركاً هو معرفة المزيد عن الظواهر النفسية. ويكونون جماعة دولية واحدة هي جماعة مؤتمر علم النفس.



فإذا أضفنا إلى كل ذلك وحدة منهج البحث في علم النفس بين دول العالم شرقه وغربه، شماله وجنوبه، متخطية بذلك الخلافات الأيديولوجية والقومية، أدركنا مدى اتصاف علم النفس بالدولية والعالمية، مما يدل على مستوى عالٍ من النضج والاستقلال عن القوميات الضيقة قد وصل إليه أخيراً هذا العلم. فها هم العلماء السوفييت شأنهم شأن العلماء الأمريكيين وغيرهم يستخدمون الملاحظة والتجريب والضبط المنهجي والقياس النفسي والتحليل الإحصائي بكيفيات متشابهة في دراسة ظواهر نفسية وموضوعات مشتركة، بحيث يصلون إلى نتائج يقبلونها ويعرضونها دون حساسيات قومية أو أيديولوجية تقاوم العلم، وتبعده عن موضوعيته.

خاتمة :

عرضنا في هذا المقال وناقشنا بعض الأفكار والقضايا الخاصة بعلم النفس والتي نرى ضرورة تصحيحها وتعديلها، خاصة وأنَّ بعض المناقشات والكتابات لا زالت تتخذ منها نفس الموقف القديم الذي تجاوزه أصحابه أنفسهم، كما اتضح لنا من أعمال المؤتمر الدولي الثاني والعشرين لعلم النفس بليبزج والإسهامات التي قدمت فيه. وركزنا بصفة خاصة على الموقف من فـونت ومعمله، والمـوقف من القيـاس النفسي، وعـلاقـة العلم بالأيديولوجية، ودولية علم النفس وقومية علمائه. ولقد عرضنا نماذج لبحوث قدِّمت للمؤتمر تقيم الدليل على ما نقول، وتثبت أنَّ علم النفس وصل من النضج إلى مرحلة جعلته يتجاوز القوميات الضيقة إلى عالمية رحبة تحقق له موضوعيته المنشودة وكيانه المستقل، مع حريته في خدمة قضايا قومية وأخرى دولية، دونما هدف غير خدمة الحقيقة، وتحري الموضوعية، وتحقيق الرفاهية البشرية.

المـــراجع

١ ـ ستورر، نورمان: دولية العلم وقومية العلماء، ترجمة الدكتور محمد عبد الفتاح القصاص، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، العدد الثاني، السنة الأولى، يناير ١٩٧١.

٢ ـ **Aseyev, V. G**; On Socio - Psychological Factors Stimulating Individuals, Labour Activity, In, XXIInd International Congress Of Psychology, Leipzig, C D R, July 6 - 12, 1980, Abstract Guide, 557.

٣ ـ **Frost, B; Theory,** Method and Wilhelm Wundt, The Previous Reference, P. 3.

٤ ـ **Hovsep, T; W.** Wundt In World Psychological Historio - Graphy, The Previous Reference, P. 12.

٥ ـ **Marek, J;** Autism As A Syntono - Autistic Proportion and As A Defence Mechanism Of Personality, The Previous Reference, P. 539.

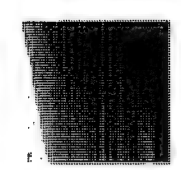
٦ ـ **Pung E;** About Defence Mechanisms Under Mental Overload, The Previous Reference P. 581.

٧ ـ **Schmidt, I;** On The Constructive Way Of Living On The Basis Of Conflict Research, The Previous Reference. P. 541.

٨ ـ **Shun, P. and Li, C;** Wihelm Wundt And The Chinese Psychology, The Previous Reference, P. 9.

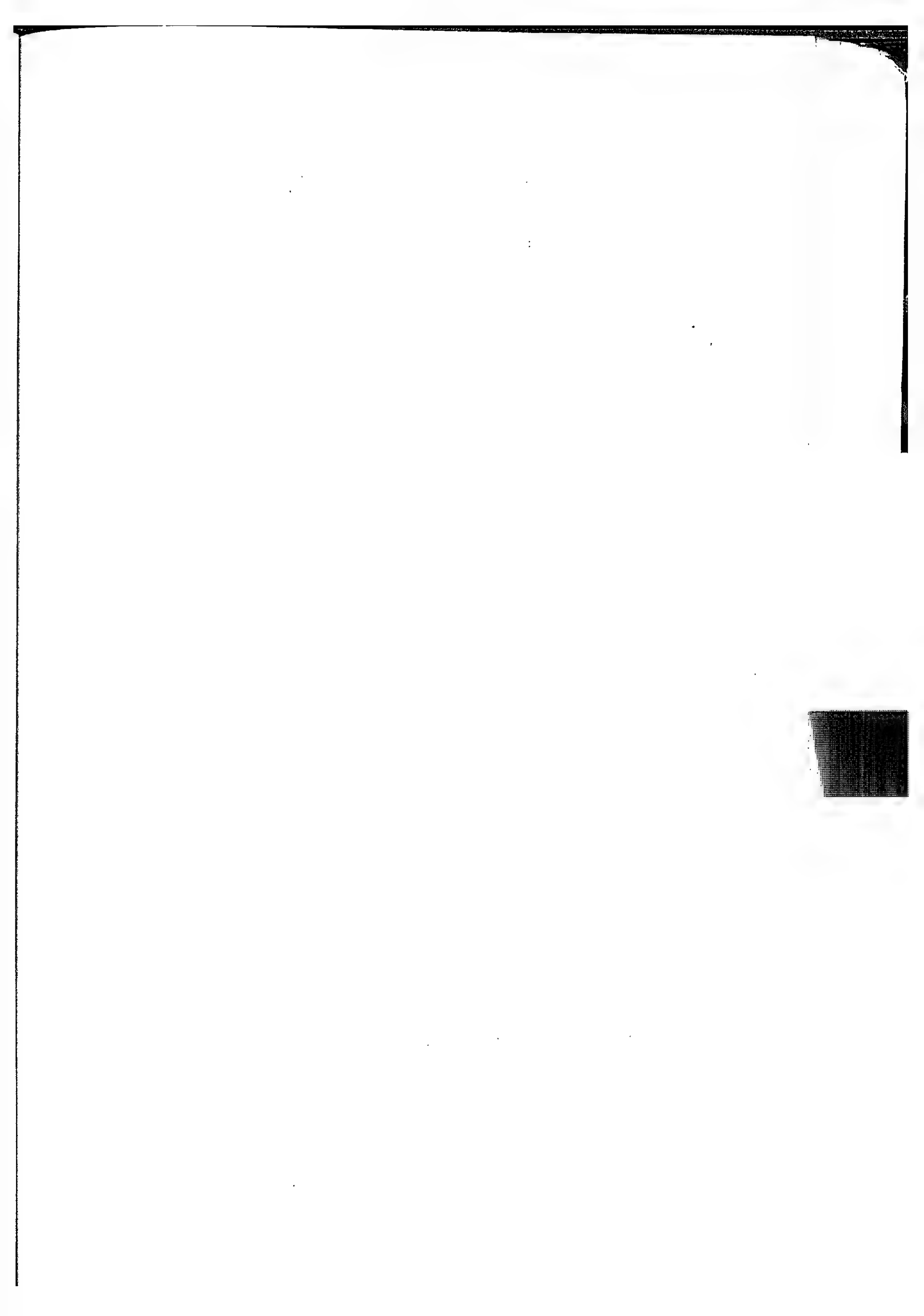
٩ ـ **Stancak, A. and Others;** Suicidal Types According To The method MMPI, The Previous Reference, P. 541.

١٠ ـ **Taytsarov, S. and Moiroyan, A;** Modification Of Self - Concept In



Alcoholic Patients During Group Psychotherapy, The Previous Reference, P. 508.

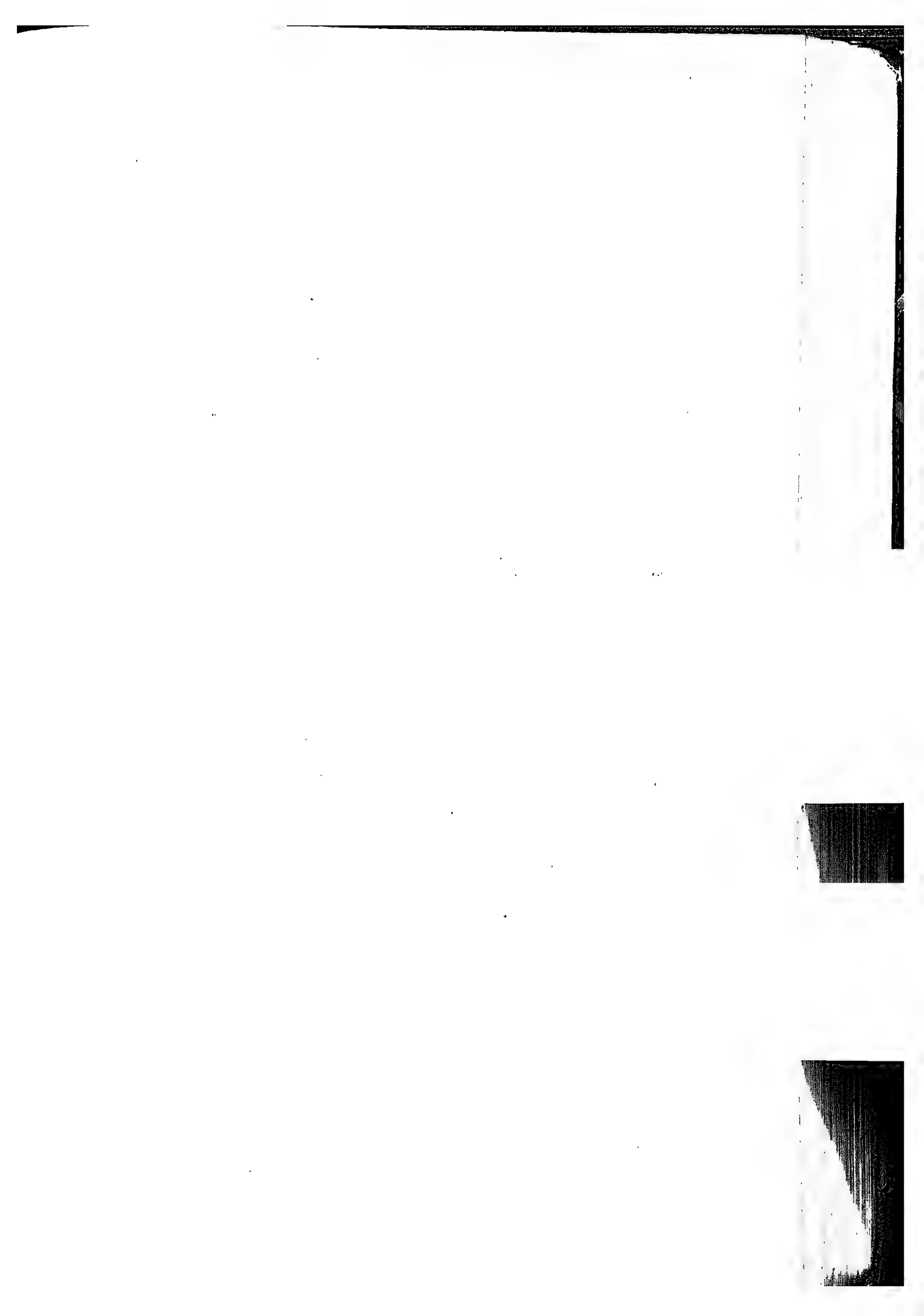
١١ - **Luria, A**; L'enseignement de La Psychologie a L'université de Moscou, Bulleten de Psyochologie No 294. Tome XXV. U. N. E. S. C. O; Paris, 1971 - 1972 - 1.



الفصل التاسع

أضواء على سيكلوجية الشخصية العربية

* تمهيد.
* هل توجد شخصية عربية.
* الخصائص ذات الطابع الانفعالي.
* الخصائص ذات الطابع الفكري.
* مستقبل الشخصية.
* خاتمة.



تمهيد:

«اعرف نفسك» شعار فلسفي رفعه فيلسوف اليونان العظيم سقراط منذ ما قبل الميلاد بأكثر من أربعة قرون. ولقد بقي هذا الشعار بما ينطوي عليه من حكمة بالغة يتردد حتى يومنا هذا، ذلك أنَّ فهم الشيء ومعرفته هو الخطوة الأولى في سبيل التحكم فيه وتطويعه وفق ما نريد أن يكون عليه. ولعلَّ هذا هو أهم الأسباب التي تدعونا الآن إلى إلقاء بعض الأضواء على سيكلوجية الشخصية العربية.

هل توجد شخصية عربية:

من المتفق عليه في الإصطلاحات العلمية للعلوم الإنسانية وجود مصطلح شخصية Personality ويقصد به التنظيم الدينامي لسمات وخصائص ودوافع الفرد النفسية والفسيولوجية والجسمية، ذلك التنظيم الذي يكفل للفرد توافقه وحياته في المجتمع، ولكل شخص تنظيمه هذا الذي يميزه عن غيره. وبمعنى آخر فإنَّ لكل فرد في المجتمع شخصيته الفريدة.

ويمكن بالقياس على تعريف الشخصية هذا أن نقر بوجود ما يعرف بالشخصية القومية، أي الخصائص والملامح التي تميز شعباً عن غيره أو أمة عن غيرها. ويطلق على الشخصية القومية اصطلاح «الطابع القومي National Character» في المصطلحات العلمية لعلم النفس، وفي هذا الصدد يعرف

انجلش وإنجلش الطابع القومي بأنّه «الخصائص الشخصية الثابتة نسبياً والأكثر وجوداً وانتشاراً في أمة معينة»(١).

وبما أنَّ العرب تضمهم جميعاً قومية واحدة، لم يعد وجودها الواقعي محل جدل، حيث اللغة المشتركة، والتاريخ الواحد، والامتداد الجغرافي المتصل، والأماني المشتركة، فإنَّ الشخصية العربية تفرض عندئذٍ وجودها حقيقة قائمة وواقعاً ملموساً لا سبيل إلى نكرانه، وإن اختلف الناس بين مؤيد يريد تقوية هوية الأمة العربية أو معارض يريد تقويضها وهدمها.

والآن، حيث انتهينا إلى الإقرار بوجود شخصية عربية، على نحو ما عرضنا ـ ننتقل إلى بحث علمي نلتزم فيه موضوعية الرأي والعلم قدر استطاعتنا، ونبتعد فيه ـ ما وسعنا الجهد ـ عن الانحيازات القومية والذاتية علّنا نستطيع العثور على بعض الخصائص السيكلوجَية التي تميز الشخصية العربية. وليكن بدؤنا بالخصائص ذات الطابع الانفعالي الأوضح وانتهاؤنا بالخصائص ذات الطابع الفكري الأوضح.

أولاً ـ الخصائص ذات الطابع الانفعالي:

نقصد بالخصائص ذات الطابع الانفعالي تلك الخصائص والسمات التي يسود فيها الجانب العاطفي والوجداني وما يترتب على ذلك من أساليب الشخصية في التعامل مع هذا الجانب وتوجيهه وسياسته، ونرى بهذا الصدد أنَّ من أهم ما يميز الشخصية العربية:

١ ـ الحدة الانفعالية وسهولة تقلبها:

من الملاحظ على الشخصية العربية سهولة استثارتها الانفعالية، فمن السهولة بمكان أن ينقلب التأييد إلى معارضة، أو تنقلب المعارضة إلى تأييد

(١) (English, H. B. and A. C. English: A Comprehensive Diotionary Et Psychological and Psychoanalytical Terms, Longmans 1958).

في أي من البلاد العربية بسبب حدث سطحي تافه. وهذه الخاصية النفسية تناقض ما هو معروف بالبرود الانفعالي والذي تتميز به بعض الشخصيات القومية كالشخصية الإنجليزية على سبيل المثال[1].

ونلمس مصداقاً لهذا كثيراً من الظواهر الاجتماعية في مختلف البلاد العربية. من أمثلة التعصب الشديد لأندية كرة القدم وانتشاره الأشد بين نسبة كبيرة من مواطني البلاد العربية. ومن أمثلة ذلك أيضاً التقلب الوجداني السريع والمتكرر في العلاقات بين كل بلد عربي وآخر. فإذا ما نظرت إلى خلاف بين بلد عربي وآخر وجدت من حدَّة الانفعال ما يجعلك تعتقد أنَّه خلاف سوف يدوم أبداً، ثمَّ يحدث حدث ما فإذا بهذا الخلاف يدفن ليحل محله اتفاق ووفاق يخيل إليك أيضاً أنَّه أبدي لشدة ما يصاحبه من ترحاب وأنفراج وتهليل. وإنك لواجد نفس الأمر بين البلد العربي والبلد الأجنبي بكيفية مشابهة، فإذا بالعدو ينقلب بين يوم وليلة إلى صديق حميم، وإذا بالصديق الودود ينقلب بين يوم وليلة إلى عدو لدود.

وليس الأمر منتهياً عند مجرد الحدَّة الانفعالية وسهولة تقلبها مما يفقد فينا ثقة الصديق ويطمئن العدو، بل إنَّ هذه الخاصية من طبيعتها أنَّها توقف في الإنسان منطق العقل وتعميه عن رؤية الواقع رؤية واضحة، فتكون من نتيجة ذلك ألَّا يكون رد الفعل متأنياً مدروساً بروية ومن وجوهه المختلفة، مما يوقعنا في الكثير من المشاكل، ويجلب علينا الكثير من الأضرار.

إنَّ الأعداء الذين يتربصون بالأمة العربية في محاولة لتبديدها وقبرها يعرفون عنَّا هذه الخاصية ويستثمرونها لتحقيق أهدافهم أبشع استخدام فيكفي - على سبيل المثال - أن يؤجر عدو لنا مواطناً لإحدى البلاد العربية ويكلِّفه بالإساءة لمواطن من بلد عربي آخر، ثمَّ تقوم أجهزة الإعلام بتضخيم

---

(1) (Argyle, M; Psychology and Social Problems, Social Science Paperbacks, London, 1967, P. 31).

هذا الحدث، حتى يسبب هذا أزمة بين البلدين الشقيقين، أو على أقل تقدير تتأثر اتجاهات مواطني بلد المساء إليه نحو مواطني بلد من أساء. وبمعنى آخر فإنَّ الحادث الفردي الذي ينبغي أن يظل محصوراً في صفته الفردية ينقلب بسهولة وبغير منطق عقلاني مقبول إلى حدث عام يؤثر في وجدان بلد بأسره تجاه بلد شقيق بأسره أيضاً. إنَّ هذا الموقف اللامنطقي في هذا المثال الذي ضربناه الآن يشبه في منطقه المرفوض أن نحكم على أفراد شعب معين بأنَّهم خونة وجواسيس على بلادهم لصالح عدوهم لمجرد اكتشاف شبكة تجسس من أعضائها فرد أو اثنان من هذا الشعب المعين.

هذا، وسوف نرجىء مؤقتاً محاولة الإشارة إلى العوامل الأساسية التي أكسبت الشخصية العربية هذه الخاصية الانفعالية، على أن نعود إليها في أماكن أخرى من هذا البحث في الحين المناسب.

٢ ـ التوحد بالمعتدي:

في كتابها «الأنا وميكانيزمات الدفاع» خصصت أنا فرويد الفصل التاسع منه للحديث عن ميكانيزم «التوحد بالمعتدي». وميكانيزم التوحد بالمعتدي هو وسيلة نفسية تلجأ إليها الشخصية إذ تتشبه في بعض جوانبها الأنفعالية والسلوكية بالشخص الذي تخشى عدوانه. وبهذا لا تعود الشخصية مهددة خائفة بل تصبح مهددة مخيفة. وهكذا يعالج الفرد مخاوفه ويتخلص منها إذ يحس القوة والاقتدار. وتلخص أنا فرويد هذا في عبارتها: «فبمحاكاته شخصية المعتدي، يتبنى خصائصه، وبمحاكاته عدوان المعتدي يحيل نفسه من الشخص موضع التهديد إلى الشخص مصدر التهديد»[١].

لقد مرَّت الأمة العربية في الفترة الأخيرة من تاريخها بعدَّة قرون تعرض فيها الشعب العربي للعدوان والهوان، من جانب استعمار طال بقاؤه وتعددت



(١) أنا فرويد: الأنا وميكانيزمات الدفاع ـ ترجمة الدكتور صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق ـ مراجعة الدكتور مصطفى زيور ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ ص ١١٩.

أجناسه واتجاهاته وإن اتَّحدت أهدافه في إذلال الأمة العربية، واستنزاف مواردها الاقتصادية، وتبديد قوميتها العربية، وتفتيت وحدتها التاريخية. وكان من جراء ذلك أن ضعفت الشخصية العربية وأحسَّت بالقصور إزاء مستعمريها، مما مكَّن المستعمر من مضاعفة عدوانه عليها، واستنزافه لقواها المختلفة خاصة إمكانياتها الاقتصادية. وهكذا هيَّأ هذا الظرف التاريخي الذي طالت مدَّته وزادت وطأته على الشخصية العربية أن تلجأ إلى وسيلة التوحد بالمعتدي لتجد فيه إحساساً ذاتياً بالقوة ينفي إحساسها بالقصور إزاء المستعمر، ودرأ للخوف من التهديد المستمر بالعدوان.

وإذا تأملنا نتائج توحد الأمة العربية بالمعتدي (وهو هنا المستعمر) لوجدنا أنَّ بعضها كان ذا فائدة للشخصية العربية في حين كان بعضها الآخر ضاراً بها. فمن أمثلة النتائج الإيجابية امتصاص الشخصية العربية واستدماجها لعلوم وتقنيات وأساليب الإنتاج التي يتميز بها المستعمر، وليست البعثات التدريبية والتعليمية التي خرجت من الوطن العربي إلى أوروبا في عهد محمد علي وما قبله وما بعده، بما حققته من نتائج إيجابية إلاَّ مثلاً واضحاً على ما نقول. وما محاولاتنا حتى الآن الاستفادة من أقصى ما وصل إليه العلم الأوروبي والأمريكي وتطبيقاته ونقلها إلى الوطن العربي للاستفادة منها إلاَّ مثلاً آخر على ما نقول.

لكن التوحد بالمعتدي جلب مع ذلك للشخصية العربية الكثير من الأضرار الخطيرة لعلَّ أهمها:

(أ) في قطاع من الشخصية العربية لا بأس بحجمه استدمجت فيه الشخصية العربية لغة المعتدي حتى كادت تنسى لغتها القومية (كما حدث لعرب الشمال الإفريقي والصومال)، بل إنَّ الأمر تعدَّى ذلك حتى أصبح هذا القطاع يزهو باللغة الدخيلة ويحتقر اللغة القومية، وكأنَّ مجرد التشبه اللغوي بالمستعمر ـ حتى بعد أن رحل ـ هو الدليل الوحيد على القوَّة والتقدم والعصرية. والخطورة في هذا الأمر تتمثل أكثر ما تتمثل في أهمية اللغة

للوحدة العربية، ولنقل التراث الحضاري العربي العظيم عبر أجيال الأمة. ومع إيماننا بأنَّه قد جرت من جانب المستعمر محاولات مقصودة ومدروسة لتغيير لغة قطاعات عريضة من الشعب العربي سواء استخدم فيها الترغيب أو الترهيب إلَّا أنَّ المقاومة التي يلقاها التعريب الآن والتمسك التلقائي بلغة المستعمر في هذه القطاعات - حتى بعد أن رحل المستعمر وانكسرت شوكته - يقوم دليلاً على رأينا.

(ب) لقد وصل التوحد بالمعتدي في قطاع هام ومؤثر من الشخصية العربية إلى حد التوحد بأهداف الاستعمار ذاتها فيما يتعلَّق بتقويض الوحدة العربية وتبديد القوَّة الذاتية للعالم العربي، حتى يتم القضاء نهائياً على الأمة العربية. لقد نجح الاستعمار في تفتيت الأمة العربية إلى كيانات صغيرة يضعف كل منها وحده عن مقاومة الاستعمار والتصدي لأهدافه. فقسم المغرب العربي إلى تونس والجزائر والمغرب وليبيا، وقسم الشام إلى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، وهكذا. . . ثمَّ بذر الاستعمار بذور الشقاق بين هذه الكيانات العربية بعضها البعض ونفخ فيها، واستغلَّ تفككها وضعفها ليزرع فيها ويدعم الكيان الإسرائيلي، هذا الكيان الذي رأى فيه المستعمر خير ضمان لاستمرار استنزاف طاقات الأمة العربية وتجزئتها وضعفها. ولا شكَّ أنَّ الاستعمار كان شديد الذكاء في تحقيق أهدافه هذه، فهي مصلحته الأكيدة، لكن الغريب حقاً أن يتوحد قطاع هام ومؤثر كما قلنا من الشخصية العربية بأهداف المستعمر ويقيمها داخل نفسه هدفاً ذاتياً له.

إنَّ نظرة على ما دار ويدور خلال الحقبة التاريخية الحالية بين كل دولة عربية وشقيقتها (والتي تكون أحياناً جارتها المباشرة) من كثرة الخلافات وتبادل الاتهامات، والحذر والتربص، والتوجيه المتبادل لمظاهر العدوان المختلفة، نقول إنَّ نظرة على كل هذا وغيره كثير يؤكد رأينا في أنَّ قطاعاً هاماً مؤثراً من الشخصية العربية قد توحد بأهداف المعتدي المستعمر وتمثلها وأصبح حريصاً على تحقيقها حرص المستعمر ذاته على تحقيقها، تلك



الأهداف التي ترمي إلى ضعضعة الكيان العربي وتمزيقه، وتبديد قوّته في صراعات جانبية يتلهى بها عن صراعه الأساسي ضدّ المستعمر والعدو الحقيقي ويتأخر بها قيام الوحدة العربية الشاملة.

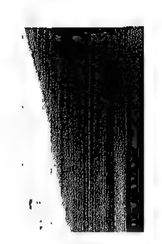
وهنا قد يقول قائل إننا نمعن بهذا في تفسير حركة التاريخ تفسيراً نفسياً يقربه من التفسير المثالي، وهذا ما لم نقصده. إنَّ هذا التفسير النفسي لا شك له أساسه المادي المتمثل أصلاً في الاستفادة النفعية المباشرة والسريعة التي يجنيها أو يحلم بجنيها هذا القطاع المقصود من الشخصية العربية. لكن هذه الاستفادة النفعية ـ والمادية في أساسها ـ لا تبدأ فعلها إلاَّ بعد وصولها إلى البطانة النفسية الشخصية وعياً بمصلحتها، ورغبة في الحفاظ على بقائها، وتلذذاً بتحقيق إشباعاتها ورغباتها. ومن الجدير بالذكر أنَّ هذا الوعي قد يبلغ من الوضوح حد وعي شخصية أي منَّا بمصالحه ودوافعه الذاتية الشعورية. كما أنَّ هذا الوعي قد يكون وعياً غامضاً يتردد صداه داخل الشخصية دون أن يصل بالشخصية إلى مستوى وعيها الشعوري، وبلغة التحليل النفسي يكون الوعي هنا «وعياً لا شعورياً» بالرغم مما يحمله هذا المصطلح من تناقض في الظاهر.

(جـ) إنَّ المعتدي المستعمر كان ينظر ـ وفي الغالب ظل حتى يومنا هذا ينظر ـ إلى العرب نظرة يغلب عليها الاستخفاف بشخصيتهم والاستهانة بكرامتهم وآدميتهم، وكأنَّ المستعمر من طينة والعرب من طينة مخالفة أقل في القيمة والتقدير، وأدعى للازدراء والاحتقار. وكما ذكرنا فقد توحد قطاع هام ومؤثر من الشخصية العربية بالمعتدي، وكان من نتيجة هذا التوحد أن توحد بنظرة المستعمر تلك إلى الشخصية العربية، وليس بغريب اليوم أن نلتقي ببعض العرب الذين هم أشد احتقاراً لزملائهم العرب عن أشد القوميات عنصرية ضدّهم.

وليس من شك في أنَّ هذه السلبيات التي نتجت عن توحد الشخصية العربية بالمعتدي تمارس فعلها الآن بقوّة داخل التفاعلات والتناقضات

الحالية التي تعتمل في الشخصية العربية.

ومن الجدير بالذكر أن ميكانيزم التوحد بالمعتدي هو أظهر الأساليب التي لجأت وتلجأ إليها الشخصية الإسرائيلية حتى يومنا هذا لإقامة إسرائيل وتقويتها. فالاعتداءات والعداوة الشديدة التي لقيها اليهود من المجتمع الأوروبي والتي وصلت إلى قمتها من ألمانيا النازية أدَّت إلى توحد الشخصية الإسرائيلية بالنازية الألمانية (على شاكلة التوحد بالمعتدي وبنفس الدينامية والهدف) فإذا بالشخصية الإسرائيلية تنقلب من شخصية تلقى العدوان النازي وتحس القصور إزاءه إلى شخصية معتدية تهدد بالتدمير فلسطين بأكملها وبقية الأمة العربية. ويعينها الاستعمار بمختلف اتجاهاته ومواقعه، ويكسبها قوَّة تنجح بها في تحقيق المراحل الأولى من أهدافها فتحسن القوة الطاغية المفاجئة. حقاً لقد نجحت وسيلة التوحد بالمعتدي في دفع الشخصية الإسرائيلية نحو تحقيق حلمها في إقامة إسرائيل، لكن ماذا يحدث إذا ظلَّت الشخصية الإسرائيلية متمسكة بهذه الوسيلة في المستقبل!؟ لا شك أنَّ هذه الوسيلة التي كانت من أكبر ما ساعد على قيام إسرائيل وتقويتها سوف تنقلب من حيث أثرها إلى النقيض تماماً فتصبح من أكبر أسباب انهيار إسرائيل وتقويضها. والأمر هنا ليس بمستغرب على الإطلاق. تماماً كما قصد الألمان النازيون إلى إفناء اليهود، فإذا بالنتيجة تكون على العكس تماماً حيث تقوم إسرائيل قوية يدعمها العالم شرقه وغربه كرد فعل معاكس للاضطهاد النازي وتكفير من جانب المجتمع العالمي عمَّا لاقاه اليهود من اضطهاد سواء في أوروبا عامة أو على أيدي النازي خاصة. فاستمرار توحد إسرائيل بالمعتدي وتوجيه عدوانها عنيفاً نحو العرب سوف يؤدي إلى استفزاز رد فعل عدواني مقابل من جانب العرب تجاه إسرائيل، علاوة على أنَّه سوف يؤدي ـ وقد بدأ يؤدي بالفعل ـ إلى انصراف الأنصار والمؤيدين لها من دول العالم عندما تتكشف لها حقائق التعنُّت الإسرائيلي واضحة. عند ذاك سوف يتكرَّر أكتوبر آخر أشد وأعنف، تعاني منه إسرائيل أشد المعاناة وأقساها، حيث أثبت



أكتوبر أنَّ كفاءة المقاتل العربي وشجاعته وسلامة خططه القتالية لا تقل عن مثيلاتها لدى الإسرائيلي. ومما لا شكَّ فيه أنَّ استمرار إسرائيل في القيام بدور المعتدي المتغطرس الذي يدوس على كرامة العربي سوف يدفع العربي إلى مزيد من القناعة بعدالة قضيته وحاجتها للتضحية حتى يمنع عن نفسه العدوان الموجه إليها من إسرائيل.

٣ ـ سمات الشخصية القبلية:

الشخصية العربية تشيع فيها خصائص الشخصية القبلية إلى حد كبير. فمعظم العرب يعيشون على الرعي والزراعة ذات الطابع البدائي حتى عهد قريب. ومن شأن هذا النمط من العمل أن ينمِّي في أفراد المجتمع الانتماء والولاء للقبيلة والتعصب لها. وتصبح علاقات القرابة في ظل هذا النظام أقوى العلاقات الاجتماعية وأوثق الروابط الانفعالية وأكثرها حرارة وقيمة. فإذا بالأخ ينصر أخاه ولو على ظلم، ويعادي من عادى فرداً من قبيلته ولو على حق. ويلخص هذا المثل الشعبي القائل: «أنا وأخويا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب» ظاهرة العلاقات القبلية أبلغ تلخيص.. وسمات الشخصية القبلية فيها إيجابياتها كما أنَّ لها سلبياتها على المجتمع العربي.

ولعلَّ من أبرز إيجابيات سمات الشخصية القبلية.

(أ) وحدة المشاعر العربية في مواجهة العدوان والخطر: فالخطر عادة يوحد الأمة كعامل يقويها في مواجهته والتغلب عليه. فالاعتداء الذي تقوم به إسرائيل على أي جبهة عربية يكون له رد فعل من الغضب النفسي يعم كافة البلاد العربية، ويدفع هذه البلاد نحو التنسيق لملاقاة هذا الاعتداء والانتصار عليه: ويكفي أن نعود بالذاكرة إلى الجو النفسي المشحون والذي عمَّ أفراد الأمة العربية وقت معركة الكرامة، وقبلها وقت العدوان الثلاثي على مصر، ووقت كارثة يونيو، وبعدها وقت معركة أكتوبر. إنَّ الأمَّة العربية في مثل هذه الظروف ينبض قلبها ويتأثر وجدانها ويتوحَّد انفعالها وكأنَّها أسرة واحدة كبيرة،

أو قبيلة واحدة منتشرة تسود أفرادها قرابة دموية، هي في حقيقتها وحدة سيكلوجية قبلية.

(ب) تقوية روابط القومية العربية: إنَّ سمات الشخصية القبلية المنتشرة بين العرب هي التي تعمل على تغذية وتقوية ظاهرة الوحدة العربية، وكأنَّ الأمة العربية قبيلة واحدة ممتدة على مساحة جغرافية متصلة، وفترة تاريخية مستمرة، تتكلم لغة واحدة، وتشيع بين أعضائها روابط مختلفة الدرجة. وتصبح البلاد العربية وكأنَّ كلاً منها يمثل أسرة صغيرة نسبياً من أسر هذه القبيلة الكبيرة. وهكذا نجد للمواطن العربي عضويتين في نفس الوقت، عضوية محلية، وعضوية عربية، تقوم العضوية الأولى مقام الأخوة، بينما تقوم العضوية الثانية مقام أبناء العم في المثل الشعبي سابق الذكر.

أما أبرز سلبيات سمات الشخصية القبلية فإننا نرى من أهمها:

(أ) الذاتية (ونقص الموضوعية)، في تقدير الأمور:

ويعتبر هذا من أكبر عيوب الشخصية التي تحمل الملامح القبلية. فكل ما يفعله الأخوة والأقرباء هو الصواب بعينه، وكل ما يفعله الغرباء هو الخطأ الذي ينبغي أن يقاوم. فينبغي على كل عضو في القبيلة أن يتبنى وجهة نظرها بغض النظر عمّا تحمل من مضمون، وإلاّ عد منشقاً عن القبيلة خارجاً عليها، يطارده غضبها ولعنتها. وهكذا يسكت العقل فلا يعود ينظر للأمور يفحصها بموضوعية وتجرد، ويسلم قياده للأهواء الذاتية التي تتبناها القبيلة، فيرى صائباً ما تراه هي صائباً، ويرى مداناً ما تراه هي مداناً، وهكذا...

ويمتد الأمر حتى يشمل الصديق ومحل الثقة الشخصية من الزملاء أو الحزب ليصبح في منزلة القريب والأخ. عندئذٍ يصبح كل ما يفعله صحيحاً يستحق التدعيم وكل ما لا يرضاه جريمة تستحق العقاب. وتهدر الموضوعية في تقدير الأمور وفي تقييم الرجال. ولا يعطى منصباً ذا شأن إلاّ من كان قريباً أو صديقاً محل ثقة، بغض النظر عن كفاءته لشغل هذا المنصب، وأمانته في تحمل مسؤولياته. ويصبح هذا بالتالي مطمئناً تماماً إلى نمط العلاقة القبلية

الذي يربطه برئيسه أو من عينه والذي سوف يؤدي إلى حمايته من كل سوء. إنَّ القضية التي طرحت للنقاش في بعض أرجاء الوطن العربي بالأمس القريب والتي عرفت «بأهل الثقة أم أهل الخبرة»، والتي لا زالت حتى الآن تروى قصصها ووقائعها في صحفنا ووسائل إعلامنا تمثل مدى التأثير السلبي الذي يعانيه الوطن العربي من جراء نمط العلاقات القبلية هذا.

(ب) نقص التحديد، وقصور الضبط، وقلَّة الدقة:

وسائل الإنتاج وممارسات العمل في الرعي والزراعة البدائية لا تحتاج إلى التحديد القاطع والضبط الشديد والدقة العالية التي تحتاجها وسائل الإنتاج الصناعي والزراعي المتقدم. فالعمل في المصانع الحديثة والمزارع المتقدمة يلتزم بخطوات تفصيلية محددة، وبتوقيتات مضبوطة، وبدقة عالية حتى يخرج المنتج خالياً من العيوب وبالكم المطلوب وما لم يتحقق ذلك اختل العمل، وتعرض المصنع أو المزرعة للأضرار والخسارة. فعلى سبيل المثال إذا تأخَّر عامل من إحدى الجماعات التي تشتغل على خط إنتاج معين خمس دقائق عن موعده تعطل العمل كله على خط الإنتاج هذا. وإذا لم يلتزم العامل على الآلة بتوجيه دقيق لحركاته وخطوات عمله قد تحدث له إصابة يضار منها، أو تتلف منه الآلة أو المنتج مما يعرضه للمسؤولية والمجازاة. وما لم يلتزم العامل بالدقة الشديدة في عمله فإنَّ منتجاته سوف تخرج وبها الكثير من العيوب التي تجعل السوق ينصرف عنها إلى غيرها، مما يضر بصالح المؤسسة التي يعمل بها... إذن فالمجتمع الصناعي يتطلب التحديد والضبط والدقة، وتعتبر هذه السمات من ألزم ما يحتاجه وبالتالي تتطبع الشخصية بها.

وفي المقابل فإنَّ مهنة الرعي والزراعة البدائية لا تتطلب كل هذا التحديد والضبط والدقة. فيمكن للراعي أو المزارع التقليدي أن يتقدم أو يتأخر بعض الوقت في عمله دون تأثير على إنتاجيته. كما يمكن أن يعمل اليوم هنا أو هناك، ويمكن أن يخط بالمحراث خطاً غير مستقيم هنا ومستقيم

هناك، ويعود ليستكمل اليوم ما تركه بالأمس. . . دون أن يضطرب عمله أو عمل غيره أو يتأثَّر أو يتوقف. كما أنَّ العمل الذي يقوم به ابنه الأكبر يمكن أن يقوم به ابنه الذي يليه دون ما تأثير. . إلخ وينتج عن هذا نمط للشخصية لا يهتم كثيراً بالتحديد والضبط والدقة الشديدة، طالما كان التجاوز عنها لا يسبب عرقلة لعملية الإنتاج أو لسير العمل.

ولنتأمل مظاهر هذه السمة في الشخصية العربية فنجد الكثير الذي يدلُّ على توفرها. فالمواعيد قل أن تحترم فيأتي الفرد غالباً متأخراً عن موعده، وإذا ما تصفحت برنامجاً للإذاعة وقابلته بالبث الفعلي فسوف تجد فارقاً كثيراً، وإذا ما قرأت كتاباً أو مقالة مطبوعة ببلد عربي وجدت الكثير من الأخطاء المطبعية، التي يصل بعضها إلى حد الذهاب بالمعنى الذي قصده المؤلف أو الكاتب، وإذا ما قارنت بين منتج أجنبي وآخر عربي من نفس الصنف وجدت فارقاً في دقَّة الصناعة (وتشطيبها) لصالح المنتج الأجنبي، وإذا ما وضعت خطة لإنجاز عمل معين أو القيام بمشروع معين في بلد عربي قل أن تجده نفَّذها حسب الخطة، في حين نجد الأمر على العكس في البلاد الصناعية. . . وهكذا. بل إنَّ ما يمكن أن نطلق عليه اللامبالاة والتسيب والإهمال يرتبط بهذه السمة أيضاً ويعتبر مظهراً سلبياً وضاراً بأمتنا العربية إلى حد كبير.

ومن الجدير بالذكر أنَّ سمات الشخصية القبلية الشائعة في الشخصية العربية تؤثر بدورها، بل وتعتبر من العوامل المسببة للوحدة الانفعالية وتقلبها ـ التي سبق أن ناقشناها في البند الأول من هذا البحث ـ حيث تمتاز الشخصية القبلية بحرارة الانفعال وتدفق العواطف وتحولها حسب درجة القرابة دون حاجة إلى مبرر عقلاني هادىء متزن.

ثانياً ـ الخصائص ذات الطابع الفكري:

والآن لننتقل إلى الخصائص ذات الطابع الذي يغلب عليه الجانب



الفكري أو العقلي أو المعرفي. وسوف نكتفي بذكر ثلاث من أهم ما نعتقد أنه يميز الشخصية العربية في هذا المجال، كما فعلنا عند الحديث عن الخصائص ذات الطابع الانفعالي.

١ ـ سيادة التفكير الغيبي:

يقصد بالتفكير الغيبي ذلك النوع من التفكير الذي يرجع الأمور والأحداث وظواهر الكون إلى علل ومسببات وعوامل سحرية وغيبية وقوى فوق طبيعية. فالأمطار تنزل بسبب رضاء إلّه المطر في موعدها وبالقدر المناسب والمفيد، وتمتنع أو تنزل بكميات كبيرة تجلب للناس الخطر بسبب غضب إلّه المطر. وهذا الشخص قد أصيب بكارثة لأنه رأى بومة في الصباح. وهذا قد شفي من مرضه لأنه علّق على صدره تعويذة هذا العراف الطيب.. إنَّ الأمور في هذا النوع من التفكير تتجاهل الأسباب العلمية والطبيعية والحقيقية للأشياء والظواهر. فلا المطر متسبب عن السحب والرياح ودرجات الحرارة، ولا المرض متسبب عن ميكروبات أو اضطرابات تصيب الإنسان، بل إنَّ هذا وغيره راجع إلى قوى غيبية يستعصي علينا إدراك كنهها والسيطرة عليها إلاَّ بالعرافين والمشعوذين والسحرة والكهنة الذين يلجأون بدورهم إلى أساليب تخصصوا فيها وأجادوها لاسترضاء تلك القوى وتسخيرها لتحقيق مطالبهم ورغباتهم.

ومن أخطار انتشار التفكير الغيبي واختفاء التفكير العلمي أن تركن الشخصية إلى الكسل والخمول وعدم السعي إلى تحقيق منفعتها ودرء الضرر عنها بالأساليب العلمية وبالتماس الأسباب الحقيقية والطبيعية التي تؤدي بها إلى ذلك. فالمريض في التفكير الغيبي لا يلجأ إلى الطبيب بل إلى المشعوذ والساحر، والقائد الذي يقود جيشاً لمعركة لا يلتمس الانتصار في وضع خطة هجوم رشيدة، وتدريب أفراد قواته تدريباً كافياً، وإمدادهم بالمعدات الحربية الممتازة واللازمة، وتقوية روحهم المعنوية للمعركة، بل يتجاهل كل هذا ذاهباً إلى الساحر يقرأ له تعويذة، ويكتب له تميمة، ويستحضر له بعض

الأرواح الموهومة، ويستعطفها لتكون بجانبه معينة له على النصر، مفتتة له في عضد خصمه وهكذا...

والتفكير الغيبي هذا سمة للشخصية البدائية وللشخصية الطفلية. ومع تقدم المجتمع في سلم المدنية والحضارة يقل التفكير الغيبي وينحسر تاركاً المجال للتفكير العلمي السببي. فالتفكير الغيبي كان ضرورة للبدائي ليجيب عن تساؤلاته عن ظواهر الكون والأحداث التي لم يكن علمه ولا منهجه في البحث يسعفاه لمعرفتها المعرفة الصحيحة. لكن الآن، حيث تقدم العلم هذا التقدم المذهل، وسارت قدم الإنسان على سطح القمر، لا يعود للتفكير الغيبي مجال في عالمنا المعاصر إلّا في أضيق النطاق. ففي مصر قامت ليلى كرم الدين ببحث عن العلية عند الأطفال تبين منه بوضوح نتيجة مقابلاتها للأطفال وتجاربها عليهم ومقارنة ذلك بنتائج بحوث مشابهة في سويسرا وكندا أنّ الأطفال المصريين بصفة عامة متأخرون، من حيث التفكير العلي العلمي عن أقرانهم السويسريين والكنديين في نفس مستوى السن، ولا يصل الأطفال المصريون إلى مراحل التفكير السببي الأكثر تقدماً إلّا في سن متأخرة عن الأطفال السويسريين والكنديين[1].

وما من شك أنّنا في حاجة إلى بحث مماثل في كل بلد من بلاد الوطن العربي حتى تتأكد ملاحظتنا هذه عن سيادة التفكير الغيبي في الشخصية العربية.

ومن مضار التفكير الغيبي أنّه يؤدي بالشخصية إلى الاعتماد على تحقيق أهدافها بوسائل سحرية خرافية وليس بالوسائل الموضوعية التي تلزم فعلاً لتحقيق الهدف، كما سبق أن أشرنا. فالعمل الجاد المبني على التخطيط وربط المقدمات بالنتائج والأشياء بمسبباتها هو الذي يوصل إلى

---

(١) ليلى كرم الدين: تطور فكرة العلية عند الطفل ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ قسم علم النفس ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ـ ١٩٧٦.

الهدف، أمَّا الاستكانة إلى الأفكار الغيبية عن النصيب والقسمة ورضاء إله الحرب أو سخطه، دون السعي والاجتهاد الجادين لتحقيق الهدف بالوسائل الطبيعية، فهو التخلف بعينه، ودمار المجتمع بأكمله، والحكمة تقول لكل مجتهد نصيب، ومن هنا نرى أنَّ أهم الظواهر الإيجابية في الوطن العربي الآن هو إيمان مواطنيه بأنَّ التحدي الأساسي الذي يواجه الأمَّة العربية إنما هو التحدي الحضاري بكافة أبعاده.

وإذا ما تأملنا السبب الجوهري وراء سيادة التفكير الغيبي في الشخصية العربية لوجدناه كامناً وراء أسلوبنا في تنشئة أبنائنا وتربيتهم وتعليمهم سواء في ذلك عن طريق الأسرة أو المدرسة أو الوسائل المختلفة للإعلام. فكلها تغرس في نفوس الأبناء الإيمان بالغيبيات والخرافات، سواء بوعي أو عن غير وعي، وكأنَّنا بلغنا من المازوخية النفسية ما جعلنا نستهدف تدمير الشخصية العربية بيدنا لا بيد غيرنا.

٢ ـ سيادة الأمية وتخلف التعليم:

لا زال يمثل تخلف التعليم وانتشار الأمية سمة أساسية من سمات الشخصية العربية حتى الآن إذ «لا زالت نسبة الأمية مرتفعة في الوطن العربي رغم انخفاضها المستمر من ٨٠٪ إلى ٧٣٪ إلى ٦٣٪ في الأعوام ١٩٦٢، ١٩٧٠، ١٩٧٥ على الترتيب»[1].

كما أنَّ مستوى التعليم في مدارسنا وجامعاتنا متخلف إلى حد كبير وبصفة عامة، على الرغم من أنَّ هذا المستوى كان في العصور الوسطى أعلى مستوى في العالم كله إذ كان ـ ولا يزال ـ يوجد بالوطن العربي أقدم وأشهر جامعات العالم كالأزهر في القاهرة، وكالقرويين في فاس، حيث جاوز كل منهما الألف عام منارة للعلم ومركزاً لطالبيه من أنحاء العالم قاطبة.

(١) الدكتور سعد زغلول: دراسة تحليلية للسكان والأمية في الوطن العربي ـ تعليم الجماهير ـ العدد التاسع ـ السنة الرابعة ـ مايو ١٩٧٧ ـ ص ٤٥ تصدر عن الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار.

ومن أخطر الآثار السلبية لسيادة الأمية وتخلف التعليم على الشخصية العربية أنها تيسر انتشار التفكير الغيبي وتعمل على مقاومة التفكير العلمي، حيث إنَّ انتشار التعليم وارتفاع مستواه يدعمان الاتجاه العلمي في التفكير والعمل معاً. كما يضاف إلى هذا الأثر السلبي ما نلاحظه الآن من أنَّ كل تقدم تحرزه المجتمعات يكاد يعتمد بالدرجة الأولى على التقدم العلمي بها واستعانتها بالتكنولوجيا الحديثة في مختلف نواحي النشاط والحياة. والأمة العربية تنشد التنمية بمختلف جوانبها حتى تقوى على مجابهة هذا التحدي الاستعماري الصهيوني الرهيب، والتي يستهدف القضاء على كيانها وهويتها. والتنمية بصفة عامة في أي مجتمع تتطلب محواً للأمية، ويلزمها مستوى تعليمياً عالياً بين أفراد المجتمع الذي ينشدها ويحققها، على نحو ما بيَّنا في الفصل السابق عن «التعليم والتدريب والإنتاجية».

وفي اعتقادنا أنَّ سيادة الأمية وتخلف التعليم في الوطن العربي يرجع إلى تخاذل المسؤولين عن التعليم في القضاء على الأمية ورفع مستوى التعليم، وإلى انعدام النوايا المخلصة لعلاج هذه المشكلة من جانبهم، يمثل ما يرجع إلى عدم توافر الظروف المادية والاجتماعية والتاريخية المناسبة، إذ أنَّ تجارب البلاد التي تشابه ظروفنا قد أثبتت إمكانية محو الأمية في وقت قصير عندما تهيأت لها الظروف المناسبة، أو هيَّأت هي لنفسها هذه الظروف.

٣ ـ توافر الطاقات الأساسية العقلية والعملية:

يلاحظ على الشخصية العربية أنها تتمتع بما يتمتع به غيرها من الشخصيات القومية الأخرى من طاقات وإمكانيات عقلية ومهارات عملية مختلفة: كالذكاء، والقدرات العقلية الخاصة كالقدرة الميكانيكية والقدرة المكانية والقدرة الحسابية والقدرات الفنية، والمهارات الخاصة باستخدام الأصابع واليدين والقدمين والحواس.. ولا يكاد الأمر يختلف في الشخصية العربية عنه في أي شخصية قومية أخرى إلَّا فيما يتعلق بمدى توافر الظروف البيئية المختلفة التي تلزم لإظهار هذه الطاقات وتنميتها وتهيئة أفضل الأجواء

للاستفادة منها، وعدم إهدارها. وفي مجال المقارنة بين شخصية قومية وشخصية قومية أخرى نجانب الصواب إن قلنا إنَّ هذه تراث وراثة بيولوجية أفضل من حيث الذكاء أو القدرة الحسابية أو الذاكرة.. إلخ إنَّما نكون أقرب إلى الصواب إن قلنا بتعادل الميراث البيولوجي واختلاف ظروف التنشئة وعوامل الثقافة الطبيعية الخاصة ببيئة كل منهما، مما يتسبب عنه تهيئة جو أفضل لإبراز طاقات هذه الشخصية القومية، وإهدار طاقات تلك الشخصية القومية الأخرى. فالعبقري ما لم تتح له الظروف المناسبة لإظهار عبقريته سوف يظل مغموراً لا يتميز عن بقية الناس. ولتأييد هذا الرأي نرجع إلى ما كتبته آن أنستازي ـ وهي من أشهر وأدق علماء النفس الذين اهتموا بدراسة الفروق الفردية والفروق بين الجماعات. ففي الفصل الذي كتبته عن «الفروق الكبرى بين الجماعات» تشير إلى بحث أجري على أطفال بين العاشرة والثانية عشرة من جماعات مختلفة من القوقازيين كانوا يعيشون في المناطق القروية بألمانيا وفرنسا وإيطاليا. فمن ألمانيا أخذت عينات من النورديين والألبيين، ومن فرنسا أخذت عينات من النورديين والألبيين وسكان البحر الأبيض، ومن إيطاليا أخذت عينات من الألبيين وسكان البحر الأبيض، واختبر كل هؤلاء الأطفال بستة اختبارات من مقاييس الذكاء العلمي لبنتز وبارسون، «وكانت تعطى التعليمات شفهياً وباختصار بنفس لغة الطفل. وحينما قسم الأطفال حسب سلالتهم، لوحظ أنَّه هناك فروق ذات دلالة في متوسط الدرجات... أضف إلى هذا، أنَّه وجدت فوارق واضحة بين أبناء السلالة الواحدة الذين ينتمون إلى الأوطان الثلاثة. وعلى سبيل المثال، نذكر أنَّ الفرق بين جماعة من النورديين وجماعة غيرهم من النورديين أيضاً ممن ينتمون إلى وطن آخر، كان أكبر كثيراً من الفرق بين النورديين جميعاً كسلالة، وسكان البحر الأبيض كسلالة أخرى. مثل هذه النتائج تجعلنا نقترح أنَّه لا أساس لترتيب السلالات في النواحي العقلية، وأنَّ المرجع الأكبر للفروق بين الجماعات هو العوامل الحضارية في مختلف البيئات»[1].

(١) آن انستازي: الفروق الكبرى بين الجماعات ـ ترجمة الدكتور مختار حمزة ـ في ميادين علم =

وإذا استعرضنا أوجه النشاط العلمي والفني والتطبيقي والعملي المختلفة وجدنا فيها جميعاً أسماء عربية تنال الاحترام والتقدير على أعلى المستويات العالمية، سواء منها من هجر وطنه العربي إلى بلد آخر هيَّأ له إمكانيات التفوق ووفر له ظروفه، أو من ظل بوطنه العربي يكرِّس له طاقته وجهوده. وإذا رجعنا إلى الماضي القريب والبعيد وجدنا الكثير من العبقريات العربية في مختلف المجالات على امتداد الماضي واتصال التاريخ. فمن العبقريات العسكرية نجد ـ على سبيل المثال ـ خالد بن الوليد وعبد الكريم الخطابي، ومن العبقريات العلمية نجد ـ على سبيل المثال أيضاً ـ الرازي وابن خلدون، ومن العبقريات الفلسفية نجد ـ على سبيل المثال كذلك ـ ابن رشد والفارابي، ومن رجال الدولة العباقرة نجد عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز.. إلخ. وبصفة عامة فإنَّ الحضارة الحديثة مدينة إلى حد بعيد للحضارة العربية التي سادت العالم في العصور الوسطى، ولا يستطيع حتى غلاة المتعصبين ضدَّ العرب إنكار هذه الحقيقة المؤكدة.

إلَّا أنَّ الظروف التي يمر بها المجتمع العربي في الفترة التاريخية الراهنة، وواقعه الاجتماعي والثقافي الحاضر لا يساعد الشخصية العربية على أن تتضح طاقاتها وتنمى إمكانياتها العقلية والفكرية والعملية إلى الحد اللائق بها وبتاريخها. فالأطماع تحيط بها من كل جانب تستنفد اهتماماتها، وتبدد طاقاتها، وتشتت تركيزها عن تنمية إمكانياتها وتعبئتها بما يحقق للشخصية العربية قوتها ونبوغها وتكاملها، ويعيد لها إسهامها الفعَّال في الحضارة العالمية وتقدم الإنسانية.

مستقبل الشخصية العربية:

ناقشنا حتى الآن بعض الخصائص السيكلوجية للشخصية العربية

= النفس، المجلد الثاني ـ ترجمة بإشراف الدكتور يوسف مراد ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ ـ ص ٦١٢.

الحالية من وجهة نظرنا وينبغي علينا أن ننتقل إلى تأمل ما نرجح أن تكون عليه الشخصية العربية في مستقبلها القريب.

إنَّ الشخصية العربية، والتي تبدو حالياً غارقة في متناقضاتها وسلبياتها وصراعاتها وأزماتها، والتي يتربص بها أعداء أقوياء في الوقت الحالي يريدون تدميرها والقضاء عليها، نقول إنَّ هذه الشخصية العربية بظروفها الحالية تدعونا إلى التفاؤل بدرجة كبيرة. فأغلب سلبيات الشخصية العربية يمكن محاصرتها وعلاجها أو على الأقل تلافي مضارها، وفي حالات كثيرة يمكن الاستفادة منها لصالح القضية العربية. فإذا بدأنا بخاصية «حدَّة الانفعال» فإنَّه يمكننا أن نستفيد منها في تعبئة الأمة العربية ضدَّ أعدائها لمقاومتهم، واستثارة التعاطف الوجداني بين مواطني الدول العربية لزيادة التماسك القومي العربي. كما يمكن تلافي التأثير الضار لهذه الخاصية عن طريق إرشاد أجهزة الإعلام إلى عدم الترويج والتضخيم للقضايا والأحداث التي قد تؤلب جزءاً من الوطن العربي ضدَّ جزء آخر... وهكذا. وإذا انتقلنا إلى خاصية «التوحد بالمعتدي» نرى أنَّ تأثيرها الإيجابي واضح حيث التوحد بما في هذا المعتدي من مزايا كصفات الدقة والضبط والموضوعية والتفكير العلمي الرزين... كما أنَّ التوحد بالمعتدي شيء لازم لنا حتى نحس القوة والثقة بالنفس والرغبة في قهر المعتدي والتغلب عليه، فنتبع ما يتبع من سبل لنصل إلى تحقيق أغراضنا كما نجحنا في ذلك في حرب أكتوبر. أمَّا سلبيات التوحد بالمعتدي فإنَّ مجرد وعينا بها، وحذرنا من الوقوع فيها، سوف يجنبنا معظم أخطارها. وبالنسبة «لسمات الشخصية القبلية» نستطيع أن نقول إنَّ إيجابياتها على الشخصية العربية تفوق كثيراً سلبياتها، فهي الأصل في تماسك العرب في وحدة تجمع مشاعرهم وتقوِّي تعاطفهم وتوحِّد مصالحهم، حتى وإن ظهر على السطح أحياناً ما يخالف ذلك. أمَّا سلبياتها من حيث الذاتية ونقص الموضوعية فإنَّها في بداية طريقها نحو الزوال نظراً لبدء دخول أجزاء هامة من الوطن العربي مرحلة التصنيع والميكنة الزراعية. والتي من طبيعتها أن تقضي

على مثل هذه السلبيات، كما سبق أن أوضحنا عند مناقشتنا هذه الخاصية. فإذا ما انتقلنا إلى خاصية «التفكير الغيبي» وجدنا أنَّ وعينا بها وبسلبياتها سوف يدفعنا بالضرورة إلى محاصرتها والقضاء عليها. كما أنَّ الأمل كبير في أن ننجح في القضاء على الأمية وفي رفع مستوى التعليم في القريب العاجل، عن طريق الاهتمام الجدي بهذه المشكلة وعند ذاك سوف يعمل هذا بالإضافة إلى دخول الأمة العربية مرحلة التصنيع على اندحار التفكير الغيبي وحلول التفكير العلمي مكانه، على نحو ما حدث الآن في بلاد العالم المتحضرة والمتقدمة. وإذا أضفنا إلى ذلك خاصية «توافر الطاقات الأساسية العقلية والعملية» في الشخصية العربية أصبحت ثقتنا أكبر في أنَّ الشخصية العربية سوف تتجاوز بسرعة سلبياتها وتتغلَّب على نقاط الضعف فيها بما لديها من طاقات تمكنها من ذلك عندما تحسن استخدامها، ولا مفر لها من أن تحسن ذلك.

ومما يزيدنا تفاؤلاً بالنسبة لمستقبل الشخصية العربية أنَّ معظم العرب بدأوا يدركون أننا نعيش في عالم الكيانات العظمى (حيث يمكن للكبير إن شاء أن يفترس الصغير)، وليس هناك مجال للكيانات الصغيرة، حتى إنَّ الكيانات الصغيرة بدأت تبحث عن وحدة مصطنعة لتحقيق المنفعة المتبادلة وضماناً لمستقبل أفضل، فهناك مجموعة السوق الأوروبية، ومجموعة الكومنويلث، ومجموعة حلف الأطلنطي، ومجموعة حلف وارسو، ومنظمة الوحدة الإفريقية... إلخ. وفي إدراك العرب لهذه الحقيقة إقناع أكبر لهم بأهمية الوحدة حتى تصبح مطلبهم المخلص شعبياً ورسمياً. فالوحدة العربية ليست لصالح جزء من الأمة العربية على حساب غيره، بل هي لصالح تقوية وتنمية الجميع. فالتكامل بين البلاد العربية شديد الوضوح بحيث لا تقوى بلد واحد لو انغلقت على نفسها أن تحقق تنمية حقيقية تصمد أمام كيد الاستعمار قديمه عسكرياً، وحديثه اقتصادياً. فالبلد العربي المكتظ بالرجال والخبرة ينقصه المال الذي يتوفر في البلد العربي الآخر الذي تنقصه الخبرة ويقل

مواطنوه. والمال المكدَّس في البنوك لا تزيد قيمته عن قيمة الورق والصكوك البنكية الدالة عليه ما لم يحول من أرقام صمَّاء إلى مصانع تعمل، وأرض تستزرع، وثروات حيوانية تنمى وتكثر... والبلد العربي الذي يضيق عن هذا الاستثمار يجاوره البلد العربي الذي يحتاج إلى أضعافه... وهكذا يبدو تبادل المنفعة في الوحدة العربية واضحاً لأغلب أبناء الأمة.

وربما كان من حسن حظ الشخصية العربية، أن ازدادت قناعة أغلب العرب (خاصة في اللحظة التاريخية الحالية) بسعي إسرائيل لابتلاع أكثر ما تستطيع من البلاد العربية مستندة في ذلك إلى أوهى الأسباب. ولما كان في تفرق العرب ضعفهم مما يسهل على إسرائيل ابتلاع البلاد العربية واحدة تلو أخرى، وفي وحدتهم قوَّتهم مما يجعل الأمر صعباً على إسرائيل، نقول من حسن حظ الشخصية العربية إن تأكد لها سعي إسرائيل لتدميرها، وإزاء هذا الخطر لا بدَّ للشخصية العربية من أن تتقوى وتنفض عنها سلبياتها وتعالج أمراضها. وربما يصبح تمسك إسرائيل بعدوانها السافر واستفزازها المتكرر للعرب من حسن حظ العرب، بمثل ما كان اضطهاد الأوروبيين ثمَّ النازية لليهود من أهم العوامل التي ساعدت على قيام إسرائيل وتدعيمها. فإذا أضفنا إلى كل ذلك جانبين هامين من جوانب الشخصية العربية أولهما هو ثروتها واقتصادها القوي، وثانيهما هو كثافتها البشرية الضخمة (حيث يبلغ العرب الآن ما يزيد عن المائة مليون)، أدركنا مدى موضوعية تفاؤلنا بمستقبل الشخصية العربية في المدى القريب، حيث تصبح شخصية قوية متكاملة متماسكة، تتمتع بالكثير من الإيجابيات التي تمكنها من تحقيق آمالها، وتختفي منها سلبياتها وأمراضها التي تبدو الآن على السطح معرقلة لها، ومقيدة لإمكانياتها ومهددة لطموحاتها وآمالها.

خاتمة:

حاولنا في هذا البحث أن نتأمل سيكلوجية الشخصية العربية ـ كما تبدو لنا ـ في الوقت الحالي ثمَّ في المستقبل القريب. كما حاولنا التزام

الموضوعية قدر المستطاع والتجرد قدر المستطاع، إيماناً منّا بأنّ الحقيقة ـ حتى لو كانت مرة ـ هي الأجدر بالظهور، وهي الأولى بالنشر، والأحق بالوعي. فالمعرفة بحقيقية الشيء من ألزم الأمور لإصلاحه وتقويمه، ومعرفة كيفية الاستفادة منه والتعامل معه، جلباً لفوائده، ودرءاً لأضراره. إننا إذا أحسنا معرفة الشيء سهل علينا التحكم فيه وفي آثاره. ومن هنا تتضح أهمية الحكمة التي وجدها سقراط مكتوبة على معبد دلفي «اعرف نفسك» فرفعها شعاراً له.

لقد أثبت الدكتور مصطفى زيور في مقالة عن المعرفة والشفاء[1]، العلاقة الجدلية بين معرفة المريض بحقيقة نفسه وشفائه من أمراضها في تجربة التحليل النفسي.

ولسنا نشك في أنّ ما يصدق على الشخصية الفردية يصدق إلى حد لا بأس به على الشخصية القومية (كالشخصية العربية). ومن هنا كان إيماننا بأهمية الشعار الذي رفعه سقراط، ودعوتنا إلى المفكرين والعلماء العرب للقيام بدراسات ـ كل في مجال تخصصه واهتمامه ـ عن العرب وأعدائهم، وعن العدوان الاستعماري والتحدي الحضاري الذي يجابههم.

---

(١) دكتور مصطفى زيور: المعرفة والشفاء ـ مجلة الصحة النفسية ـ المجلد الأول ـ العدد الأول ـ ١٩٥٨ ص ٧ ـ ٣٩.

المـــراجع

١ ـ آن أنستازي: الفروق الكبرى بين الجماعات ـ ترجمة د. مختار حمزة ـ في ميادين علم النفس ـ المجلد الثاني ترجمة بإشراف د. يوسف مراد ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٦.

٢ ـ أنا فرويد: الأنا وميكانيزمات الدفاع ـ ترجمة د. صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق. مراجعة د. مصطفى زيور ـ الأنجلو المصرية. القاهرة ـ ١٩٧٢.

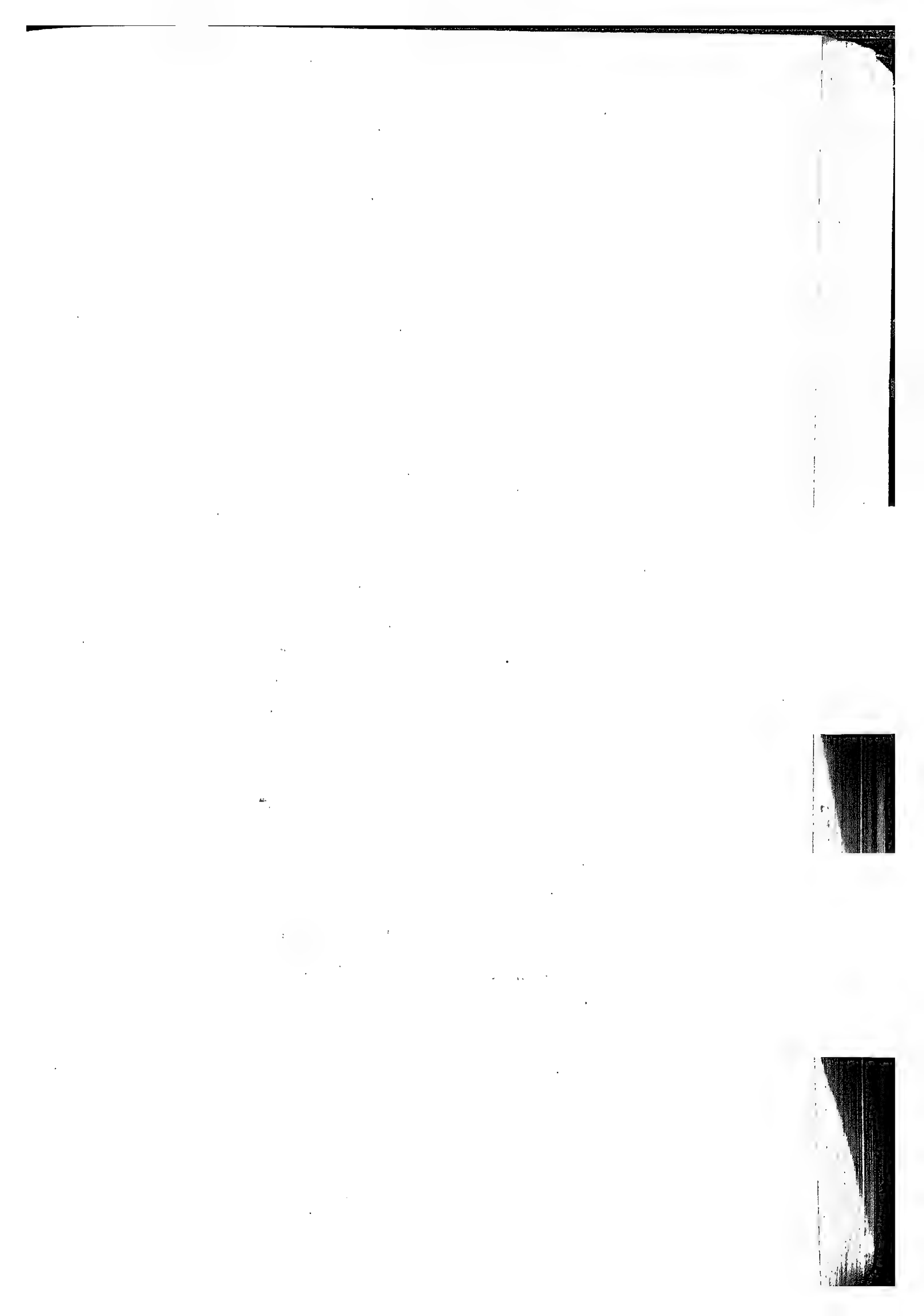
٣ ـ دكتور سعد زغلول: دراسة تحليلية للسكان والأمية في الوطن العربي ـ تعليم الجماهير ـ عدد ٩ ـ مايو ١٩٧٧.

٤ ـ ليلى كرم الدين: تطور فكرة العلية عند الطفل: رسالة ماجستير غير منشورة ـ قدمت لآداب عين شمس ـ ١٩٧٦.

٥ ـ د. مصطفى زيور: المعرفة والشفاء ـ مجلة الصحة النفسية ـ مجلد: ١ ـ عدد: ١ ـ ١٩٥٨.

٦ ـ **Argyle, M;** Psychology and Social Problems, Social Science Paper - Backs, London, 1967.

٧ ـ **English, H. B, and** A. C. English, A Comprehensive Dictionary Of Psychological and Psychoanalytical Terms, Longmans, 1958.



الفصل العاشر

التصوير السمعي كعملية في إخراج أحلام المكفوفين (*)

* تمهيد.
* الأحلام والصور البصرية.
* هدف البحث.
* عينة البحث.
* مادة البحث.
* نتائج البحث وخلاصته.

(*) هذا عرض أكثر تفصيلاً للبحث الذي ألقاه المؤلف في المؤتمر الدولي الثالث والعشرين لعلم النفس والذي عقد بالمكسيك (أكابولكو- سبتمبر ١٩٨٤).



تمهيد:

الأحـلام هي نشاط نفسي يقـوم به النـائم، حيث يعيش فيها في مجموعات من الهلاوس[1] «المترابطة أو المنفصلة» الحاصلة على معنى أو غير الحاصلة على معنى. وهي نشاط نفسي لا بدَّ منه لكي تخفف النائم من بعض ما يؤرقه من رغبات تتطلب الإشباع أو دوافع تبحث لها عن تنفيس.

الأحلام والصور البصرية:

ولقد درست أحلام المبصرين، وانتهى دارسوها إلى أنَّ الصور البصرية Visual Images تعتبر المكونات الأساسية للحلم، حتى إنَّ الحلم يلجأ في إخراجه إلى محاولة جاهدة لترجمة معظم ما يحويه إلى صور بصرية، لدرجة أنَّ الفكرة المجردة التي تصعب ترجمتها إلى صور بصرية نجد الحلم وقد ظلَّ يبحث لها عن صورة بصرية تترجمها حتى يعثر عليها في أغلب الأحوال. وفي الأحلام التي درسها العلماء ما يؤيد ذلك. ونذكر ـ كمثال لذلك فقط ـ حلم حقنة إرما والذي رأت فيه المريضة تفتح فمها بأوسعه «وكانت هذه

(١) الهلاوس Hallucinations مدركات حسية بدون منبهات حسية واقعية موجودة بالعالم الخارجي، كالمجنون الذي يصرخ مستغيثاً من كائن يطارده، بينما في الواقع لا يوجد هذا الكائن الذي يطارده، إنَّما هلاوسه الذاتية هي التي هيَّأت له هذا الإدراك.

الصورة تترجم فكرة أن تفيض في الحديث»[1]، وكذلك حلم سيلبرير الذي رأى فيه نفسه يسوي قطعة من الخشب، كترجمة لفكرة أنَّ عليه أن يراجع فقرة ناشزة في إحدى مقالاته. هذا ويرى المحللون النفسيون أنَّ عملية تحويل الأفكار في الحلم إلى صور بصرية تعتبر أهم العمليات التي يمر بها إخراج مضمون الحلم الكامن إلى محتوى ظاهر. وفي هذا يقرر فرويد:

«والحيلة الثالثة من حيل إخراج الحلم، هي أهم الحيل جميعاً وأكثرها طرافة من الناحية السيكلوجية. وتتلخص في تحويل الأفكار إلى صور ذهنية بصرية. على أنَّ هذا لا يعني أنَّ كل ما ينطوي عليه الحلم من أفكار مصيره أن يتحول على هذا النحو، فكثير من هذه الأفكار يحتفظ بشكله الأصلي. ويبدو في الحلم الظاهر كما هو. أو في شكل معلومات أو أفكار تتصل بصاحب الحلم. ومن جهة أخرى، فالصور البصرية ليست الشكل الوحيد الذي يمكن أن تتخذه الأفكار، ولو أنَّها تقوم بالدور الأساسي في صياغة الأحلام. وتعرفون أنَّ هذا الجانب من إخراج الحلم هو أكثر جوانبه ثباتاً، وأقلُّها عرضة للتغيير.. ومن البداهة أنَّ هذا الأسلوب من أساليب إخراج الحلم ليس عملاً سهلاً بأيَّة حال. فإن شئتم أن تكونوا لأنفسكم فكرة عن صعوبتها فحسبكم أن تتصوروا أنَّكم تقومون بإبدال مقالة سياسية رئيسية في صحيفة ما، بطائفة من الرسوم الإيضاحية، أي تستعيضوا عن الحروف الأبجدية بعلامات تصويرية..»[3].

ولعلَّ من أهم الأسباب التي تجعل للإدراك البصري في الحلم كل هذا الوزن في المقارنة بغيره من بقية الحواس (كالسمع - واللمس - والشم -

---

(١) سيجموند فرويد: تفسير الأحلام: ترجمة مصطفى صفوان ومراجعة مصطفى زيور. القاهرة. دار المعارف. الطبعة الأولى ص ٣٤٩.

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٢.

(٣) سيجموند فرويد: محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي ترجمة دكتور أحمد عزّت راجح ومراجعة محمد فتحي - القاهرة - الأنجلو المصرية. ص ١٨٨.

والتذوق) أن الأبصار سواء في اليقظة أو الحلم يمتاز عليها جميعاً بالتالي:

١ ـ إمكانية إدراك عدد هائل من المدركات البصرية إلى جوار بعضها في نفس الوقت ودون أن تختلط معاً مسببة ربكة في التفرقة بينها. فمثلاً تستطيع أن ترى الشارع وما به من عربات قادمة وذاهبة، وأشخاص واقفة أو سائرة، وما يقع عليه من مبانٍ ومنشآت، دون أن تختلط هذه المدركات معاً. لكن لو تكلَّم ثلاثة أفراد في نفس اللحظة فلن تستطيع أن تستمتع إلى كل منهم، بل سوف تختلط المدركات السمعية فلا يمكنك تمييز ما يقوله الأول عن الثاني عن الثالث، على نحو ما يمكن بالنسبة للإدراك البصري. ونفس هذه المقارنة بين الإدراك البصري والسمعي تصدق على المقارنة بين الإدراك البصري وغيره من المدركات الحسية الأخرى.

٢ ـ اتساع دائرة المدركات البصرية عن غيرها من بقية المدركات. فمثلاً يمكنك رؤية منزل على بعد عدَّة كيلو مترات من مكانك. لكن لا يمكنك أن تسمع صوتاً أو تشم رائحة على بعد نفس المسافة، ناهيك بحاستي اللمس والتذوق اللتين تتطلبان انعدام المسافة بينك وبين الموضوع الذي تدركه، وإلاَّ استحال إدراكك اللمسي أو التذوقي له.

٣ ـ سرعة الإدراك البصري ومرونة انتقاله من موضوع إلى آخر يعطي ميزة كبيرة للإدراك البصري. فأنت في دقيقة واحدة يمكنك أن تدرك عدداً هائلاً من المدركات البصرية بدقة كافية، في حين لا تستطيع ذلك في بقية المدركات الحسية الأخرى.

٤ ـ الإدراك البصري أشد أنواع الإدراك دقة ووضوحاً وتفصيلاً. ومن هنا ما هو ملحوظ من إمكانية الشخص أن يستطرد في وصف ما تراه عيناه عن موضوع ما بدقة ووضوح وتفصيل، بعكس الأمر إن طلب منه أن يصف مدركاً سمعياً أو لمسياً أو شمياً أو تذوقياً.

٥ ـ دقة إدراك الكل أو الجشتلط في الإدراك البصري وعجز بقية

الحواس عن ذلك: وهذا راجع إلى البنود الأربعة السابقة التي تميز الإدراك البصري في المقارنة بغيره من بقية الحواس. ذلك أنَّ إدراك الكل يتم عن طريق إدراك أجزائه دفعة واحدة، بحيث لو لم يتحقق هذا الشرط، أصبح إدراكنا للكل مشوهاً. فأنت تدرك أنَّ المبنى الذي أمامك عمارة عن طريق رؤيتك لمكوناته الخارجية دفعة واحدة. فأنت لا تدرك الشباك أ أولاً ثمَّ الشباك ب ثانياً.. ثمَّ الباب.. ثمَّ الحائط ثمَّ الدور الأول.. ثمَّ اللون.. إلخ. في ترتيب من هذا النوع، ثمَّ تخرج من ضمك لهذه الأجزاء معاً إلى أنَّها تكون كلاً أو جشتلطاً هو العمارة.. ولو أنَّك اضطررت إلى إدراك كل جزء من أجزاء هذه العمارة على حدة لما استطعت أن تؤلف بين هذه الأجزاء المتناثرة في إدراكها بحيث تدرك منها جشتلطاً صحيحاً يطابق الحقيقة، إنما سوف تدرك على أقصى حد جشتلطاً عبارة عن عمارة مختلفة عن حقيقتها ومشوهة إلى حد بعيد.

ولو تخيلنا إنساناً معصوب العينين وممتطياً لشيء يأتمر بأمره فيطير ويجول به حيث يريد، واستخدم يده في لمس أجزاء هذه العمارة من أسفلها إلى أعلاها ومن يمينها إلى يسارها، ومن أمامها إلى خلفها فإنَّ إدراكه لها على أنَّها عمارة ذات أبعاد معينة سوف يكون مشوهاً وبعيداً بدرجة كبيرة عن الحقيقة.. ولعلَّ هذا هو السبب في أنَّ الفنون التشكيلية تعتبر الجانب الوحيد من الفنون الذي يفشل فيه المكفوفون بعكس بقية الجوانب الفنية الأخرى كالأدب والموسيقى.

٦ ـ الإدراك البصري يمتاز على غيره من بقية الإدراكات بأنَّه يتم بسرعة فائقة وبجهد قليل من جانب الشخص. فالإدراك اللمسي أو التذوقي أو السمعي يتطلب وقتاً أطول من الإدراك البصري وجهداً أكثر يبذل من جانب القائم بعملية الإدراك: والمثال السابق في البند (٥) يوضح ذلك بجلاء.

٧ ـ يحتل الإدراك البصري دون غيره من أنواع الإدراكات الحسية المكانة الأكبر والأهم في إدراك المبصر لعالمه الخارجي. فلو قارنا بين نسبة

مدركاتنا البصرية وبين نسبة أي نوع آخر من المدركات الحسية لوجدنا الفارق شاسعاً، حتى إننا في يقظتنا لا نكاد نكف عن استثمار أبصارنا لإدراك العالم المحيط بنا، اللهمَّ إلاَّ في اللحظات القليلة جداً التي نتعمد فيها ذلك، مثل اللحظات التي تسبق النوم، وحتى أثناء ذلك تتزاحم على مخيلتنا صور بصرية هلوسية على نحو ما يحدث في التخييلات أو الأحلام.

خلاصة القول إذن، أنَّ الإدراك البصري يعتبر أكفأ وأوضح وأيسر وسيد أنواع الإدراكات جميعاً وأكثرها مرونة. وأغلب الظن أنَّ هذا هو السبب الذي يجعل الحلم يلجأ إلى التصوير البصري لأفكاره.

هدف البحث:

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لأحلام المبصرين من حيث إنَّ الإدراك البصري يأخذ مكان الصدارة في إدراك المحتوى الظاهر، فكيف يكون الأمر بالنسبة لأحلام المكفوفين؟ هذا هو السؤال الذي نحاول الإجابة عليه في هذا البحث.

عينة البحث:

ينبغي أن نذكر أنَّ هناك ما يعرف بكف البصر الكلي، وهو الذي لا تكون فيه لدى المكفوف أية قدرة على الإبصار وما يعرف بكف البصر الجزئي، وفيه تكون لدى المكفوف قدرة على الإبصار لكنها ضئيلة إلى حد كبير، إذ لا يكاد يبصر أمامه إلاَّ لبضعة أمتار، كما تكون الرؤية غير واضحة.

ولما كان المصابون بالكف الجزئي لديهم درجة إبصار إلاَّ أنها ضئيلة نسبياً فإنَّهم يخرجون عن دائرة هدف البحث: إذ يعتبرون امتداداً للمبصرين لكن بدرجة أضعف. ومن حديثي مع بعضهم تبين أنَّهم يرون صوراً بصرية في أحلامهم كغيرهم من المبصرين، بحيث لا تختلف كيفية إدراك المحتوى الظاهر لأحلامهم عنها لدى المبصرين. وهكذا يتبقى أمامنا كف البصر

الكلي. وهذا بدوره يمكن أن نقسمه على أساس هدف هذا البحث فقط إلى فئتين:

١ ـ كف بصر كلي منذ الطفولة المبكرة جداً، أي منذ الشهور الستة الأولى من العمر بحيث نضمن إلى درجة كبيرة أنَّ المكفوف لا يتذكر الصور البصرية أو الألوان.

٢ ـ كف بصر كلي متأخر نسبياً، بحيث نضمن أن يكون المكفوف متذكراً جيداً للصور البصرية والألوان.

وكف البصر الكلي، سواء منه ما يندرج في الفئة الأولى أو الثانية، يعتبر نادراً نسبياً في المقارنة بكف البصر الجزئي.

وتتكون عينة هذا البحث من ثلاث حالات كف بصر كلي مبكر جداً (اثنين من الذكور وأنثى واحدة)، ومن حالتين من كف البصر الكلي المتأخر (من الذكور)، وكانت حالات كف البصر الكلي المبكر الثلاث مصرية، أمَّا إحدى حالات الكف المتأخرة فكانت سودانية والثانية فلسطينية (من الضفة الغربية).

مادة البحث:

أما مادة البحث فكانت عبارة عن أحلام رواها لي أفراد عينة البحث حيث قمت بمقابلة أو أكثر لكل منهم على حدة طلبت منهم فيها أن يذكروا لي أهم أحلامهم وأوضحها. وكنت أستتبع كل حلم يروى لي ـ بعد تسجيله كتابة ـ ببعض الاستفسارات عنه وعن كيفية إدراك محتواه الظاهر وعن المتداعيات التي يستثيرها، والتي رأيت أن تفيد في تحقيق هدف هذا البحث.

وبطبيعة الحال فإنَّ ظروف البحث الخاصة من ضيق وقت المقابلات وصعوبة تكرارها، مع تطوع أفراد العينة وعدم انتظارهم لفائدة تعود عليهم من

سرد أحلامهم ومتداعياتها (على عكس الموقف في جلسات العلاج بالتحليل النفسي) كل ذلك لم يمكن الباحث من الحصول على المتداعيات الكافية عن الأحلام التي اتخذت مادة لهذا البحث. كما لا يخفى على فطنة القارىء أنَّ إمكانية التعرف على أشخاص الحالمين قيد الباحث بعض الشيء سواء في تسجيل المتداعيات كاملة أو التعليق بحرية على هذه الأحلام.

أولاً ـ حالات كف البصر الكلي المبكر

الحالة الأولى

بيانات عامة:

الأبصار : كف كلي منذ الشهور الأولى للميلاد.

المؤهل : ليسانس آداب (لغة عربية).

النوع : ذكر.

السن : ٢٦ سنة تقريباً.

العمل : موجه ثقافي بوزارة الشؤون الاجتماعية.

الجنسية : مصري.

الحلم الأول:

شفت نفسي زي ما أكون موجود في القصر كده (قصر النور وهو مركز لتوجيه وتدريب المكفوفين). وبعدين لقيت نفسي دخلت السويتش: وبعدين سلمت على واحدة، وبعدين افتكرت اني عرفتها. وبعدين أخذتها وسحبتها وطلعنا وقفنا كده عند الأودة بتاعتنا دي بتاع محو الأمية (حجرة بالقصر يدرب فيها ويعلم المكفوفون على كتابة وقراءة البرايل) واحنا بنتكلم ازيك أو عاملة إيه؟ وكده فطلعت مش هي اللي كنت بافتكرها. من صوتها طبعاً عرفت ان مش هي اللي أنا واخد عليها وقاصدها. فسلمنا على بعض ومشينا وانتهينا على كده وطبعاً زعلت لأنها ما طلعتشي الإنسانة اللي أنا عاوزها.

س ١: ايش عرفك ان اللي دخلته كان السويتش؟

جـ ١: المكان: كل تهيئات المكان، نفس الدوشة بتاع المنطقة اللي

على باب القصر. والطلبة اللي بيتدربوا على السويتش، والباب اللي مفتوح مش قوي، يعني نص فتحة، واللي ما بيجي الواحد يفتحه يزيق، يعني نفس الشغلانة. والأودة طبعاً أضيق من أي أودة ثانية. ونفس ترتيب الأشياء اللي محطوطة فيها مش زي ترتيب الأودة الثانية مثلاً.

س ٢: يا ترى الحلم ده بيفكرك بإيه؟

جـ ٢: الواحد لما يفكر في حد، وبعدين بيفكر فيه، يبقى عايز يلاقيه في أي مكان يروحه. فلما أمسك أيديه وبعدين ما يطلعش هوه يبقى حاجة تضايق.

تعليق:

واضح في هذا الحلم أنَّ الحالم اعتمد أساساً في إدراكاته على حاستي اللمس والسمع وعلى قدرته على الإدراك المكاني أو ما يسمى بالتوجه المكاني Spatial Orientation، فاللمس قد ساهم في تحديد إدراكه أنَّه قد سلَّم على إنسان وأنَّ الذي دخله هو حجرة السويتش ببابها المفتوح نصف فتحة وضيق الحجرة ونفس ترتيب الأشياء الموضوعة فيها.. كما أنَّ السمع أيضاً قد ساهم في تحديد إدراكه أنَّه في حجرة السويتش بما يرتبط بها من «دوشة» ومن باب «يزيق» عند فتحه. كما أنَّ السمع هو الذي يرجع إليه الفضل في تصحيح إدراكه للشخص الذي سلم عليه، فبينما ظلَّ يدرك أنَّ هذا الشخص هو الإنسان «اللي واخد عليها وقاصدها» أتى صوتها ليفضح الحقيقة ويصحح إدراكه فيتبين أنَّ هذا الشخص لم يكن من يقصده. إذن فقد خدعته حاسة اللمس بينما صححت حاسة السمع إدراكه. أمَّا قدرته على الإدراك المكاني (أو التوجه المكاني) فهي التي أرشدته إلى حجرة غرفة السويتش كما أنَّها عرَّفته عليها فهي «أضيق من أي أودة ثانية. ونفس ترتيب الأشياء اللي فيها مش زي ترتيب الأودة الثانية»، كما أنَّها أيضاً أرشدته إلى طريق الخروج من غرفة السويتش والوقوف عند الأودة بتاع محو الأمية، وجعلته يدرك ذلك.

هذا ويمكن اعتبار التوجه المكاني حاسة مركبة غامضة تجعل الشخص يدرك المكان الذي يوجد فيه وخصائصه ومنافذه والطرق المؤدية إليه أو الموصلة منه إلى أماكن أخرى وكيفيتها وخصائصها. هذا وتلعب ذاكرة الفرد وحواسه المختلفة دوراً أساسياً في تحديد قدرته على التوجه المكاني وتتجلّى هذه القدرة لدى المبصر في إمكانه الانتقال من غرفة إلى أخرى في منزله أثناء الإظلام التام.

الحلم الثاني:

حسيت في الحلم ان بقية قزاز درفة الشباك اللي كان سبق انكسر من أودتي وقع، لكن حاجة غريبة أني ما سمعتش للقزاز صوت. وبعدين بدأت أنا ألم القزاز، برضه فجأة لقيت والدتي معايا وأنا في الحقيقة قاعد لوحدي فلقيتها موجودة، وبعدين دخلت الست اللي هي مأجرة لي، اللي أنا ساكن عندها، وهي هتبتدى تتكلم عن كسر القزاز، يعني مثلاً الباقي انكسر وحاجة زي كده، فأمي بأه بدأت تلم القزاز وبدأت ترد عليها وقالت لها: أنتم مش مفروض أن تعملوا حسابكم أن واحد كفيف هو اللي ساكن تؤجروا له حاجة متصلحة ما تعوروش. هنا أنا بأه ما تكلمتش خالص والست ما تكلمتش. وخلاص كده رمينا القزاز وسكتنا، وانتهى الحلم كده، وما اتضحشي بعد كده إذا كانت أمي تنتها معايا أو صلحنا القزاز.

س ١: ايش عرفك ان القزاز وقع؟

جـ ١: لقيت حتت قزاز كبيرة على الأرض، وبعدين بافتح الدرفة فما لقيتشي القزاز اللي كان فيها. لكن ما وقعشي وأنا مش موجود. وقع وأنا موجود برضه لكن الغريبة اني ما سمعتلوش صوت.

س ٢: إيه عرفك ان أمك هي اللي موجودة معاك؟

جـ ٢: صوتها. وهي ما قاليتليش ازيك وبتاع، يعني زي ما تكون موجودة طبيعي، وقالت لي أوعى انت بس لاحسن تعور نفسك، وقعدت هي تلم القزاز.

س ٣: ايش عرفك ان صاحبة البيت هي اللي دخلت:

جـ ٣: باب الأودة اتفتح وصوتها معروف لي، واضح يعني. يعني صوتها هي.

س ٤: يا ترى الحلم ده يفكرك بأيه؟

جـ ٤: أصل البيت عندنا اللي هو أنا ساكن فيه يعني مليان مشاكل كده، تقريباً زي ما تقول أن هم بيزعقوا على طول. دا من الخوف ليزعقوا لي مرة لأن مأجر من الباطن، لا عقد ولا بتاع. وبعدين كوني قاعد لواحدي فإحساسي بلزوم وجود أمي معايا هو اللي خلاّني أتصور أنَّ أمي موجودة معايا في الموقف ده بالذات وخصوصاً أنها قالت لي أنها هاتجيني قريب (في الواقع).

س ٥: طيب القزاز اللي انكسر يفكرك بإيه؟

جـ ٥: يعني بيتهيأ لي أني واحد متوقع أن يختلف مع الناس اللي هو ساكن وياهم وفي نفس الوقت يحتاج أنه ما يكونش لواحده. يعني القزاز مش إلاَّ مسألة سطحية يمكن كانت تكون أي حاجة. الحقيقة الشباك اللي انكسر منه القزاز ده كان مشروخ أصلاً وبعدين جيت أنا مرة بفتح الدرفة راح واقع من عند الشرخ، يعني تقريباً وقعت نص الدرفة كده، وبدأت أنا ـ في الحقيقة ـ لميت القزاز اللي اتنطور في الأودة، فمالمتوش كله، دخلت بأه صاحبة البيت ـ في الحقيقة ـ وجابت هي المقشة ولمت القزاز وما قالتش حاجة. بعديها بأه بييجي شهر، لما قلت لها هادور على سكن فقالت لي طيب مفيش مانع بس الفكرة أن قزاز الشباك انكسر وعايزين نصلحه، فقلت لها: لا هو كان مشروخ من الأول، وفي أي قفلة أو فتحة كان ممكن ينكسر منك أو مني، ففي الحلم حلمت بأه أن نص القزاز اللي كان فاضل هو اللي وقع.

س ٦: والدك عايش ووالدتك؟

جـ ٦: أيوه الحمد لله الإثنين موجودين.

تعليق:

في هذا الحلم يتضح اعتماد الحالم على نفس الحاستين اللتين اعتمد عليهما في إدراك محتوى الحلم السابق. وهما حاستي السمع واللمس. فلقد أدرك كسر الزجاج عن طريق ملامسته لقطع الزجاج في أرض الحجرة، وعدم ملامسته للزجاج الذي كان موجوداً بالشباك أثناء قيامه بفتح الشباك. كما أنَّه أدرك أمه وصاحبة البيت عن طريق سماعه لصوت كل منهما. ولو قارنا بين أهمية كل من حاستي اللمس والسمع في إدراك محتوى الحلم لتبين لنا تعادلهما تقريباً إلاَّ أنَّ دهشة الحالم التي عبَّر عنها تلقائياً نتيجة إحساسه بكسر الزجاج دون أن يسمع له صوتاً يوحي لنا بأنَّه كان يتوقع الإحساس بكسر الزجاج عن طريق صوت كسره أساساً، بحيث تصبح لحاسة السمع هنا الدور الأساسي في إدراك كسر الزجاج. وأغلب الظن أنَّ لاختفاء صوت الزجاج في هذا الحلم دلالة تعمدها الحلم، وأنَّ هذا قلب لما كان ينبغي أن يكون عليه الموقف حقيقة من إحساس بكسر الزجاج عن طريق صوت الكسر نفسه، بدليل مبادرة الحالم التلقائية إلى تسجيل دهشته لذلك. وهذا أيضاً يؤكد سيادة الدور الذي يقوم به السمع في إدراك الكفيف لمحتوى الحلم عامة.

الحلم الثالث:

أنا واقف أنا ومشرف معانا شوية عيال من اللي بترعاهم المؤسسة. فالمشرف طلع ولد اللي هو كان متهم في سرقة جنيه، وحاول يقرره، فالولد ما قالش إن هو سرق الجنيه وخباه فين، فالمشرف شاور له يطلع بره، يعني خلاص اطلع بره. بعته يملا حاجة تقريباً، فيه ولد ملازمني على طول، يعني بأخليه أنا ماشي معايا على طول. قلت له روح وراءه بحيث ما تخليهش يشوفك، وبص شوفه هايبص على أماكن إيه وهو ماشي وبعدين تعالى قول لي. راح فعلاً الولد ورجع قال إن هو بص تحت السلم بتاع المطبخ وعند سلم الإدارة، وكده، فقلت له طيب روح في الأماكن دي من غير ما تخليه يشوفك. هو الولد اللي أنا بقول له روح دور ده لسه ما مشيش، فأنا قلت له: استنى أنا جاي معاك. وبعدين رحت معاه. دور هو وأنا واقف معاه وهويبدور فبيقول لي: مش لاقي حاجة، فأنا بنفسي اللي رحت تحت السلم وشلت حاجة كده كانت مغطية زبالة محطوطة تحت

السلم، والحاجة اللي كانت مغطية الزبالة دي ذي ما تقول باب عشة فراخ فيه السلك وحاجات زي كده، وقلت للولد بص هنا فبص فعلاً لقى الجنيه.

س ١ : ايش عرفك انك واقف مع مشرف المؤسسة؟

جـ ١ : الراجل ده دايماً باروح أقعد معاه في الأودة، وباعتباري الرائد الديني فبنحل مع بعض مشاكل العيال وحاجات زي كده. فأودته صورتها في دماغي معروفة لما بأدخلها. وصوته هو، وبرضه لمة عيال معينين في الأودة كده. ده اللى خلاني أحس بأن ده فلان المشرف.

س ٢ : ايش عرفك بأنَّه طلع الولد اللي متهم في سرقة الجنيه؟

جـ ٢ : هو ماشورلوش، لكنه قال له اطلع يا بني بره، املأ الحاجة دي ماء، والولد هو النبتشي بتاع الأودة بتاعته.

س ٣ : ايش عرفك ان الحتة اللي دورت فيها كانت تحت السلم؟

جـ ٣ : دا معروف من أني متعود عليه ودايس المكان. وبعدين الولد معايا المبصر اللي هو ملازمني ده قال لي تعال نشوف سلم المطبخ.

س ٤ : يا ترى الحلم ده يفكرك بإيه؟

جـ ٤ : من انعكاسات الشغل ومشاكله اللي الواحد يبقى عايش فيها طوال اليوم. وبعدين إحساس المشرفين أني أنا قريب جداً من الأولاد، فده بيخليني نحط عندي هدف معين هو أني أنا الوحيد اللي أقدر أخلي الولد يعترف ويجيب الجنيه، عشان كده أول ما لقيت الجنيه، خلاص الحلم خلص، فهو هدفي كان إن الواحد باعتباره مسؤول عن الأخلاق وحاجة زي كده، يبقى السرقة أنا اللي أبطلها، وكده يعني.

س ٥ : هو فيه في الحقيقة سرقة جنيه دي الوقتي عندكم في المؤسسة؟

جـ ٥ : أيوه: حصلت قبل الحلم ده بأسبوع أو كده. الحكيمة كانت سابت الشنطة بتاعتها في العيادة، وبعدين دخل الولد ده هو وولد ثاني،

فتهمتهم في أنَّ الجنيه اتسرق منهم. وحاولوا كثير يقرروهم وكده، وما جابوش نتيجة يعني والجنيه ماظهرش.

س ٦: هل هم في واقع الأمر طلبوا مساعدتك؟

جـ ٦: لا. لكن أنا من نفسي حسيت بمسؤوليتي كرائد ديني في المؤسسة، وحاولت طبعاً اني أعرف من العيال فما جبتش نتيجة طبعاً.

س ٧: هل دورت بالطريقة اللي بانت لك في الحلم؟

جـ ٧: لأ.

تعليق:

واضح من هذا الحلم أنَّ الحالم اعتمد في إدراكه لمحتوى الحلم على ثلاث حواس هي السمع واللمس والإبصار، بالإضافة إلى قدرته على التوجه المكاني. فالسمع قد ساهم في إدراكه أنَّ الذي يقف معه هو مشرف المؤسسة كما أنَّه قد جعله يدرك أنَّ المشرف «طلع الولد اللي متهم في سرقة الجنيه بره» أما اللمس فقد جعله يدرك أنَّ «الزبالة كانت مغطاة بباب عشة فراخ» عن طريق ما يميز الباب من «سلك وحاجات زي كده» لمسها الحالم. أما الإبصار فقد استعاره الحالم (حيث إنه لا يملكه) من الشخص المبصر الذي يرافقه دائماً في المؤسسة التي يعمل بها. فنظر الشخص المبصر كما طلب منه الحالم إلى المكان الذي حدده له فوجد الجنيه. ومن الجدير بالذكر أنَّ هذا الاستخدام لإبصار الغير في إدراك ما بالعالم الخارجي، والذي بدأ في الحلم واضحاً ما هو إلَّا صورة طبق الأصل لما يحدث مع المكفوفين في حياة اليقظة، حيث يلجأون إلى المبصرين للاستعانة بهم على دقة الإدراك لما يحيط بهم، كما أنَّ إبصار الغير هنا لا يؤدي إلى إدراك بصري بالمعنى الحرفي لدى الحالم، أي بمعنى تأثر مراكز الإبصار لديه من انفعال عضو الإبصار ثم تفسير هذا التأثير وإضفاء معنى عليه متمثلاً في معرفة الجنيه.

على أنَّ هذه النقطة في الحلم تستثير شيئاً من التساؤل عن الدافع

الذي أجبر الحالم على الاستعانة في تحقيق هدفه في العثور على الجنيه بإبصار المبصر المرافق، إذ كان يمكن الحالم أن يعثر على الجنيه عن طريق اللمس (كأن يمد يده في المكان الذي به الجنيه صدفة فتقع يده على الجنية مباشرة). وقد يكون دافع الحالم إلى استخدام إبصار الغير هنا التعبير عن إحساسه القوي بأهمية الإبصار، وتمنيه لو كان مبصراً.

أما قدرته على التوجيه المكاني فقد جعله يدرك «الحتة اللي دور فيها كانت تحت السلم» فهذا معروف لديه من تعوده عليه وكونه «دايس المكان». كما أنَّه مستعين بهذه القدرة ذهب بنفسه إلى تحت السلم ورفع غطاء كان على «الزبالة» وطلب من الولد المرافق له أن ينظر فيما كان تحت الغطاء.

الحالة الثانية

بيانات عامة:

الإبصار : كف بصر كلي منذ الشهور الأولى للميلاد.

المؤهل : راسب ثانوية عامة.

النوع : ذكر.

السنة : ٢٤ سنة تقريباً.

العمل : يعمل في مطبعة.

الجنسية : مصري.

الحلم الرابع:

حلمت أني نائم في وسط البيت اللي في البلد. وأن فيه مارد فوقي برجليه رجلين الناحية دي، ورجلين الناحية دي. له أربع رجلين. فأنا ما اعرفشي إنه مارد إلَّا بعد ما حسست على رجليه لغاية فوق، فلقيتها بتعلى لفوق، وكنت طلعت عليها شوية (بإيديه طبعاً)، فخفت، وقمت صاحي.

س ١: انت عرفت ازاي إن ده مارد؟

جـ ١: لما مسكت رجليه لقيتها بتطول. وده كان كلام الناس على العفاريت. يعني كونت موضوع من كلام الناس المحيطين بي.

س ٢: فيه حاجة ثانية حسستك ان ده مارد؟

جـ ٢: أيوه، سمعت له صوت كان غريب على وداني. صوت نهيق زي الحمار، لكن مختلف عنه، وإلا كنت أدركت أنّه حمار.

س ٣: فيه حاجة ثانية خلتك تحس انه مارد؟

جـ ٣: لأ، ما أعتقدش.

تعليق:

هذا حلم - على عكس الأحلام الثلاثة للحالة السابقة والتي كانت حديثة لا يزيد تاريخ رؤيتها عن شهر من روايتها للباحث - رآه الراوي قبل حوالي خمس عشرة سنة، حيث مهَّد له بأنّه حلم أثر فيه منذ الصغر وظلَّ عالقاً بذاكرته حتى الآن. كما ذكر في متداعياته عنه أنَّ أهله كانوا يتحدثون أمامه في تلك الليلة عن العفاريت ونوادرهم معها، وفكرتهم عنها.

وواضح من هذا الحلم أنَّ الحالم اعتمد في إدراكه لمحتواه على حاستي اللمس والسمع، حيث تحسس رجليه بيديه فوجدها مرتفعة، وترتفع باستمرار دون أن يبلغ نهايتها (وهذه خاصية للعفريت كما وصفها الآخرون أمامه). كما أنَّ الصوت الذي سمعه «والذي يشبه نهيق الحمير، لكنه مختلف عنه» أكَّد له أنَّ الذي فوقه ما هو إلاَّ مارد.

الحلم الخامس:

حلمت اني ماشي وبعدين صدمتني عربية إسعاف. وطبعاً حسيت ان الناس اتلمّت حواليه. وكان فيه حواليه ضجة كبيرة جداً. وبعدين قمت كده لقيت ناس بيخبطوا على ظهري، يعني تقريباً بيجسوا جسمي كده، وفضل السواق يعنفني بكلام كده كان تقريباً بيشتم، وبيكلمني كلام فيه غيظ كده.



س ١ : ايش عرفك انها عربية إسعاف؟

جـ ١ : أولاً : ساعة ما ضربتني كانت سريعة، يعني ضربة واحدة. وفيه جرس كان بيضرب مع صوت العربية اللي جاية. ولمست العجل اللي كان فيها لقيته كوتش، وقت ما وقعت والعربية جت فوقي فإيدي جت في عجلة من العجل فلقيته كوتش ناعم الملمس، بس، قمت مفزوع لأن طبعاً اتعورت زي أي حد ما بيتعور.

س ٢ : ايش عرفك انها كانت سريعة؟

جـ ٢ : من دفعة الخبطة لأني لما انخبطت جامد وقعت. فلو حاجة كانت ماشية ببطء ماكانتش تخبطني جامد.

س ٣: وايش عرفك ان فيه حواليك ضجة كبيرة؟

جـ ٣: الصوت. كل اعتمادي كان على وِدني، لأني طبعاً ما باشوفش في أحلامي.

س ٤ : كان ناس بيخبطوا على ظهرك وإلاّ واحد بس؟

جـ ٤ : لا، أنا ماكنتش في حالة مدرك فيها، يعني ممكن يكون واحد أو مجموعة.

س ٥ : ايش عرفك ان السواق كان متغاظ؟

جـ ٥ : لأنه الوحيد اللي كان بيزعق ومتنرفز والناس كلها زعلانة كده، فهو اللي كان بيقول هاتوديني في داهية، هاتضيعني. فما فيش حد ممكن يقول الكلام ده إلاّ إذا كان السواق.

تعليق:

هذا الحلم أيضاً رآه الحالم قبل حوالي اثنتي عشرة سنة. وفي متداعياته عنه ذكر أنَّه في يوم سابق على الحلم وقريب منه، كان يسير مع

والدته في ميدان الحلمية، فوجد تجمهراً من الناس حول حادثة ووصلت عربة إسعاف. ووقف هو ووالدته مع الناس. وكانت أمه تتكلم عن منظر الدم، فاستشاط غضباً من وصفها للمنظر وعدم إمكانيته رؤيته.

ونلاحظ أن الحالم اعتمد في إدراكه لمحتوى هذا الحلم على ثلاثة أنواع من الأحاسيس هي: السمع واللمس والضغط، فحاسة السمع ساهمت في إدراكه أنَّ العربة التي صدمته كانت عربة إسعاف عن طريق جرسها، وفي إدراكه لتجمع الناس حوله عن طريق أصواتهم وضجيجهم، وفي إدراكه لغيظ السائق وتعنيفه إياه عن طريق سماعه لشتائم السائق وتوبيخاته المملوءة غيظاً. وحاسة اللمس أسهمت في إدراكه أنَّ أناساً «تجس» جسمه، وأنَّ العربة التي صدمته كانت سيارة (وليست عربة كارو مثلاً) إذ أنَّ لمسة العجلة جعلته يدرك أنَّها كوتش. أما إسهام الإحساس بالضغط في الإدراك، فقد تمثل في إدراكه أنَّ العربة كانت مسرعة وذلك من إحساسه بشدَّة الصدمة، فلو أنَّها كانت بطيئة لكانت الصدمة خفيفة، كما تمثل أيضاً إسهام الإحساس بالضغط في إدراك الحلم أن «ناس بيخبطوا على ظهره».

على أنَّه مما يستحق الاهتمام هنا هو أنَّ حاسة السمع كانت لها الغلبة في سيادتها على حاسة اللمس في نصيبها فيما يتعلَّق بالإدراك في هذا الحلم. ولعلَّ تقرير الحالم صراحة في عبارته «كل اعتمادي كان على وداني، طبعاً ماباشوفش في أحلامي» ما يؤيد نتيجة هذه المقارنة، كما أنَّ إقران الحالم للسمع بالإبصار ووصفه إياه كبديل له، يدلل على أنَّ حاسة السمع للكفيف تقوم مقام حاسة الإبصار عند المبصر من حيث أهميتها وجسامة دورها في عملية الإدراك.

الحلم السادس:

حلمت اني أنا نازل الجامع في وقت الفجر كده ورحت الميضة علشان اتوضأ. فسمعت صوت حد ماشي حالي. فكانت مفاجأة لي لما مشيت علشان أشوف الشيء اللي ماشي فكانت مفاجأة لي لأني لقيته ربنا، فخذني من إيدي ووصلني لغاية الحنفية.

وطبطب عليَّ كله بحنان. اتوضيت وبعد ما اتوضيت سألني: مش عاوز حاجة؟ فقلت له إني عاوز أخش الجنة. فقال: لازم تصلي، فأنا صليت الصبح، وخرجت من الجامع، فلقيت حد بيضحك علي، أو بيضحك وقتها، لأن ماكانش فيه حد إلاّ أنا فطبعاً بيضحك علي، فقمت مفزوع، طبعاً كان الشيطان.

س ١ : ايش عرفك ان الوقت كان الفجر؟

جـ ١ : كان الكل نايم.

س ٢ : ازاي تعرف؟

جـ ٢ : من الهدوء. ما فيش صوت، ما فيش حركة.

س ٣ : فيه حاجة ثانية خلتك تعرف ان الوقت كان الفجر؟

جـ ٣ : شكل الجو. إيه اللي يميز الفجر؟ الديكة، الهدوء، مثلاً دي الوقتي واحنا قاعدين (وكان الوقت ظهراً) فيه عصافير بتزقزق وحاجات كده.

س ٤ : ايش عرفك ان ده ربنا؟

جـ ٤ : كان حاجة كبيرة جداً. يعني كل شيء كبير. رجليه عريضة قوي بحيث إنها بتعمل صوت كبير في المشي.

س ٥ : حسست عليها؟

جـ ٥ : لا. صوت المشية نفسها صوت كبير. يعني أنت تقدر تفرق بين الطفل الصغير والراجل الكبير في صوت مشيته. وبعدين كونه طبطب علي في حنان ومشاني برفق كده. يعني خذني وصلني للحنفية، ما خلانيش أطس في حاجة. وخوفي منه وهو بيطبطب عليَّ خلاني أحس أن ده ربنا.

س ٦ : طيب ايش عرفك إن فيه حد بيضحك عليك لما خلصت صلاة؟

جـ ٦ : سمعت صوت قوي، وما كانش فيه حد في المكان. صوت كان يطاردني في أي مكان أمشي فيه لغاية ما خرجت من الجامع.

س ٧: ايش عرفك ان ده الشيطان؟

جـ ٧: ما فيش حاجة ممكن تضحك على الإنسان إلاَّ الشيطان. يعني مين هايضحك؟ ومين هايبقى موجود؟. وبعدين كانوا قايلين لنا إن المدرسة اللي احنا فيها كانت تقريباً مستشفى. فده كان له تأثير في نفس الواحد منا. وفي الوقت ده كنت في المدرسة ورايح أصلي في جامع المدرسة. فكان دايماً الإنسان ينتابه خوف شديد من أي حاجة كان بيعملها.

تعليق:

في تمهيده ومتداعياته لهذا الحلم ذكر الحالم أنَّه رآه في سن الثانية عشرة تقريباً عندما بدأ يتعلَّم الصلاة ويصلي، ويعرف الجنة والنار. ووقتها كان في مدرسة داخلية بها المسجد الذي ظهر في الحلم.

ومن الواضح أنَّ الحالم اعتمد في إدراكاته لمحتوى هذا الحلم على حاسة السمع وقدرته على الإدراك (أو التوجه) المكاني وعلى الإحساس بالضغط. وكانت السيادة لحاسة السمع بلا منازع فقد أسهمت في إدراكه لوقت الفجر (حيث الهدوء وعدم الحركة)، وفي إدراكه للإآله حيث سماعه لصوت «حد ماشي حافي» وسؤاله له «مش عاوز حاجة؟» وقوله له «لازم تصلي»، وفي إدراكه أيضاً للشيطان، حيث سمع ضحكه كما سمع صوتاً قوياً ظلَّ يطارده حتى خرج من الجامع.

ومن الجدير بالذكر أنَّ السمع استخدم هنا للقيام بوظيفة تكاد تكون أساساً من وظائف اللمس للكفيف كبديل لإبصاره المفقود، تلك هي إدراك الحالم للإآله على أنَّ «رجليه عريضة قوي» وأنَّه «كان شيء كبير» من مجرد الصوت الضخم الذي يحدثه في المشي. ولعلَّ المنطق هنا ليس سليماً على إطلاقه، فإنَّ الكثير من الأشياء ذات الحجم الصغير قد ينتج عنها الصوت الضخم. فالحلم هنا استخدم حاسة السمع بدلاً من حاسة اللمس في إدراك مفاهيم يفترض أنَّ اللمس أدق في إدراكها (إذا استبعدنا الإبصار بطبيعة

الحال). وأغلب الظن أنّنا هنا أمام عملية لتحويل أفكار الحالم إلى صورة سمعية Audile Images كمقابل لعملية تحويل أفكار الحالم لدى المبصرين إلى صورة بصرية Visual images، تلك العملية التي سبق أن ذكرنا أنّها إحدى العمليات الأساسية في إخراج أحلام المبصرين وصياغتها. فالحالم هنا عبّر عن قدرة الله وعظمته بقوّة الصوت. ولعلّ تعبير هذا الحلم عن الشيطان بـ «حد بيضحك علي، أو بيضحك وقتها»، دليل آخر واضح على عملية التصوير السمعي التي لجأ إليها الحالم ليترجم الفكرة الشائعة عن أنّ الشيطان يوسوس للإنسان ويغويه ويزين له طريق السوء، فاستعار الحالم الترجمة الدارجة لعمل الشيطان هذا بضحكه على الإنسان فإذا بالحالم لا يرى الشيطان يساومه على ترك الصلاة واتباع المعاصي، بل يسمع فقط الضحك العالي للشيطان كتصوير سمعي لهذه الفكرة، فترجم الموقف من عملية ذهنية حسّية سمعية. ولو صدق استنتاجنا هذا فإنّ معنى ضحك الشيطان هنا وفزع الحالم منه لدرجة استيقاظه، أنّ الحالم تحدوه رغبة شديدة في دخول الجنة، وأنّ شرط ذلك - كما أمره الله - هو الصلاة. لكن الشيطان له بالمرصاد، فهو يخشاه أن يغويه عن الصلاة «يضحك عليه» بحيث يفقده أمل دخول الجنة. ومن هنا فإنّ خوف الحالم من ضحك الشيطان ليس إلّا كناية عن خوفه من غواية الشيطان له.

وفي هذا الحلم نلمس تقرير الحالم وتقديره لأهمية الإبصار بشكل غير مباشر في عبارتيه «خدني من أيدي ووصلني لغاية الحنفية» و«ماخلانيش أطس في حاجة».

وهناك ملاحظة تستحق الذكر - وإن بدت هامشية بالنسبة لهدف هذا البحث - وهي أن أحلام هذا المكفوف، والتي رواها للباحث، كانت كلها أحلاماً مضى عليها سنوات طويلة - على نحو ما ذكرنا - كما كانت أيضاً من نوع الأحلام التي نطلق عليها «أحلام الهيلة Anxiety Dreams» أو «الكوابيس Nightmares» وهي الأحلام التي تهزنا بما تحتويه من مشاعر الخوف والضيق والألم البالغة.

الحالة الثالثة

الإبصار : كف بصر كلي منذ الشهور الأولى للميلاد.

المؤهل : قراءة وكتابة.

النوع : أنثى.

السن : ٢٧ سنة تقريباً.

العمل : تبحث عن عمل.

الجنسية : مصرية.

الحلم السابع:

حلمت أن بابا مات. وبعدين أنا في الحلم في الأول ماعيطش. وبعدين كل اللي كنت باحس بيه وقتها هو ياترى أنا هاعمل إيه في حياتي بعد كده؟ يا ترى هاعيش إزاي؟ هاعمل إيه بعد كده في حياتي بالنسبة للإقامة، للحياة، معيشتي أنا نفسها؟ وبعدين بصيت لقيت نفسي قلقت وقمت وصحيت. وبعدين لما نمت تاني حلمت برضه إن هو مات. وفي الوقت ده عيطت كثير، وصحيت مضطربة من النوم. بعدين قلت الحمدلله إن ده كان حلم مش حقيقة.

س ١: ايش عرفك أن والدك هو اللي مات؟

جـ ١: الناس كانوا بيقولوا في الحلم. وبعدين حد بيقول للثاني البقية في حياتك (فلان ـ اسم والدها) مات. وحاجات ذي كده.

س ٢: إيه هي الحواس اللي اعتمدتي عليها في معرفة أن أبوكي مات؟

جـ ٢: حاسة السمع. وأصل أنا قبل ما أنام كان فيه واحد ميت قبلها في عمارتنا وبعدين حسيت ان مراته ما اتصرفتش كما يجب، ما فيش مأتم ما فيش استقبال للمدعويين.

س ٣: وبإيه يفكرك الحلم ده؟

جـ ٣: في الواقع أن بابا عيان. وهو دايماً كثير بيتكلم عن الموت،

وبعدين معاملته لنا، أو لي أنا شخصياً بتتحسن فحسيت أن ده قريب من النهاية. فأنا كثير بأفكر في الموضوع ده بدون الحلم.

تعليق:

هذا حلم مزدوج رأته الحالمة في فترتين من نومها فصلت بينهما لحظات من اليقظة وكان ذلك منذ حوالي أسبوعين من روايته للباحث. ويدور محتواه حول فكرتين هما موت الأب ومصيرها بعده. وربما أثر كون الحالة أنثى في رفع درجة مقاومتها للإفاضة عن تفاصيل أخرى في الحلم، بدليل مقاومتها لسرد أحلام أخرى غير هذا الحلم بحجة أنها نادراً ما تحلم وإذا حلمت فنادراً ما يظل الحلم عالقاً بذهنها. وهذا الموقف لم يشجع الباحث على الاستمرار في استفساراته عن هذا الحلم.

وعلى كل حال، فإنَّ إدراك الحالة هنا لمحتوى الحلم كان يعتمد أساساً على «حاسة السمع» كنص تعبيرها. «فالناس كانوا بيقولوا في الحلم» و «حد بيقول للثاني البقية في حياتك. فلان (اسم والدها) مات وحاجات زي كده». كما أنَّ الحواس الأخرى لم تلعب دوراً ملموساً في هذا الحلم، فالدور الأساسي قامت به حاسة السمع فقط.

ثانياً ـ حالات كف البصر الكلي المتأخر

الحالة الأولى

الإبصار : كف بصر كلي منذ حوالي سبع سنوات وثلاثة أشهر.
المؤهل : دبلوم صناعي (بعد الإعدادية العامة بسنة دراسية).
النوع : ذكر.
السن : ٢٩ سنة تقريباً.
العمل : كان يعمل براداً قبل الإصابة بكف البصر والآن يتدرب على السويتش.
الجنسية : سوداني.

الحلم الثامن:

حلمت أني تزوجت البنت اللي باحبها وذهبنا للخرطوم. وأول قعدة قعدناها كنا في المقرن (منطقة بالخرطوم حيث التقاء أو اقتران النيل الأبيض بالنيل الأزرق)، وكنت شايف النيل الأزرق والنيل الأبيض. وكنت أيضاً بأنظر للجزيرة توتي (جزيرة وسط النيل بالخرطوم) زي ما كنت زمان بأشوف الحاجات دي على الطبيعة. واللي بأحبها دي مصرية بيضاء، مش زينا سمراء كده.

س ١ : إيش عرفك ان اللي قاعدة معاك هي اللي بتحبها وحتجوزها؟

جـ ١ : أنا كنت متعلق بيها هنا في مصر. وفي أثناء الحلم حلمت بأن خلاص الجوازة دي تمّت وسافرنا إلى السودان.

س ٢ : إيه هي الحواس اللي خلتك عرفت إن اللي قاعدة معاك هي حبيبتك؟

جـ ٢ : نبرات صوتها جاءت في وداني كان هي نفسها مش حد ثاني.

س ٣ : بس نبرات صوتها؟

جـ ٣ : كنت ورتها قبل كده لواحد مبصر فوصفها لي، صورتها انطبعت في ذهني على طول كأني مبصر وشايفها.

س ٤ : إنت ماشفتهاش أصلًا؟

جـ ٤ : فعلاً لم أرها لأني تعرفت عليها السنة اللي فاتت بس.

س ٥ : ايش عرَّفك انك قاعد في المقرن؟

جـ ٥ : لأني تخيلت اني في الخرطوم. وأجمل منظر الواحد يراه على الطبيعة هو مقرن النيلين. وهو أجمل منظر في الخرطوم. فهو المكان الوحيد الذي تعلَّق في ذهني لكي نجلس سوياً وأعرفها على المقرن وجمال الطبيعة وهي مبصرة طبعاً.

س ٦ : إيه هي الحواس اللي خلتك عرفت انك قاعد في المقرن؟

جـ ٦ : أنا راسم منطقة المقرن وواضعها في ذهني. وعرفت بأنني جالس في المقرن لأني حسِّيت بجو لطيف جداً، وتيار مياه النيل وتغريد الطيور وسير العربات الذاهبة إلى أم درمان أو الآتية للخرطوم. وكنت شايف بعينيه النيل الأزرق وهو مقترن بالنيل الأبيض. وأيضاً كنت أنظر في تأمل على جزيرة توتي وهي في الضفة الأخرى، الضفة الشرقية، وكنت أنظر على البواخر النيلية اللي في النيل. فالحلم ده كان بجد كأنني مبصر فعلاً.

س ٧: اللي جاءت لك في الحلم دي بتفكرك بإيه؟

جـ ٧ : كانت تفكرني بشيء كنت أتمناه قبل ما أكون كفيف، بأني أتجوز واحدة مصرية.

س ٨: وبإيه كمان؟

جـ ٨: أنا تعرفت بيها بطريقة الصدفة في ميدان العتبة. كنت ماشي وكنت عاوز أركب تاكسي. فطبعاً عاوز أشوف واحد علشان يوقف لي التاكسي. فمن حسن حظي كانت هي بجواري، وسألتني رايح فين، فأنا عرفتها على المطرح اللي رايح فيه. وسألتني عن اسمي وليه جاي مصر فأنا عرفتها، وبعدين الوقت كان ضيق جداً فأنا أخذت وياها ميعاد آخر. وهي أيضاً بتعمل موظفة في وزارة المالية والاقتصاد في مصر. وفعلاً في اليوم التالي انتظرتني في ميدان العتبة وتقابلنا.

س ٩: يا ترى إيه علاقتك بها دلوقتي؟

جـ ٩: هي خطيبتي دي لوقتي.

تعليق:

لما كان كف البصر قد أصاب الحالم متأخراً فقط، فإنّه لديه خبرة بالصور البصرية Visual Images، وبالتالي يسهل عليه استدعاءها أو عملها طالما أنّ مركز الإبصار في المخ لم يصب بسوء وإنما الذي أصيب هو عضو الإبصار فقط (العين). وفي هذه الحالة يمكنه أن يرى صوراً بصرية تماماً كما يراها المبصر في الحلم. وهذه ظاهرة تماثل ما يعرفه العلم جيداً ويطلق عليه «خداع المبتور»[(١)]، فالمقطوع اليد يحس أحياناً بأكال في أطراف أصابعه كأنّها موجودة فعلاً.

وبالفعل لعبت حاسة الإبصار دوراً أساسياً في إدراكات محتوى هذا الحلم. ولقد لخص هذه الحقيقة في عبارته «فالحلم ده كان بجد كأنني مبصر فعلاً». وبهذا الخصوص فإنّ الدور الذي لعبه الإبصار في إدراكات محتوى هـذا الحلم لا يكاد يختلف عن دوره في إدراكـات محتـويـات أحـلام

---

(١) دكتور يوسف مراد: مبادىء علم النفس العام: القاهرة ـ دار المعارف، ١٩٦٦ ص ٦٧.

المبصرين. ومما يلفت النظر أنَّ الحالم لم يعتمد في إدراكه لخطيبته في هذا الحلم على حاسة السمع فقط (وهي الحاسة التي لعبت الدور الأساسي الثاني في إدراكات محتوى هذا الحلم)، كما كنا نتوقع حيث إنَّه لم يرها في حقيقة الأمر، بل أسهمت أيضاً حاسة الإبصار في إدراك الخطيبة، إذ إنَّ الحالم كون عنها صورة بصرية انطبعت في ذهنه من وصف أحد المبصرين لها. ولقد لخَّص هذه الحقيقة في قوله: «كأني مبصر وشايفها».

ونحن هنا إزاء عملية نجدها أيضاً في أحلام المبصرين وهي ترجمة موضوعات لم تسبق لهم رؤيتها إلى صور بصرية من مجرد سماع وصف لها (كرؤية الأنبياء في الأحلام). وهذا يدلل على مدى سيادة حاسة الأبصار ودورها في الإدراكات بحيث إنَّ هذه الحاسة لا يكاد يسقط دورها إلَّا في أحلام الحالات التي لم تسبق لها الخبرة بالإبصار، أو سبقت لها هذه الخبرة لكن نسيتها لأنها كانت مبكرة جداً، أو ـ كما نتوقع ـ التي سبقت لها هذه الخبرة لكن تلفت مراكز الإحساس البصري في المخ حتى وإن كان هذا التلف حديثاً، إذ تكف قدرة الإنسان في هذه الحالة على الإدراك البصري كله، حتى ولو كانت عيناه سليمتين.

خلاصة القول إنَّ عملية التصوير البصري Visulization (كعملية أساسية من عمليات إخراج الحلم عند المبصرين) قد استطاعت أن تقوم بالدور الأساسي في هذا الحلم، بل إنَّها لم تسمح لحاسة السمع بالانفراد بإدراك الخطيبة فساهمت في هذا الإدراك عن طريق تصويرها بصرياً حسب وصف أحد المبصرين لها. أما بقية الحواس وعلى الأخص السمع فقد ساهمت أيضاً في إدواكات هذا الحلم، لكن لم يكن دور أي منها بمثل أهمية دور الإبصار على الرغم من أنَّ الحالم مكفوف البصر منذ أكثر من سبع سنوات.

الحلم التاسع:

حلمت أنَّ والدي حي وجالس ويايه، واحنا قاعدين كده في الجنينة بتاعة البيت

بتاعنا، وصورته ونفس شكله في خيالي وفي ذهني، ما فيش أي تغيير خالص. وكنا جالسين وبنلعب مع بعض طاولة. بس. أفتكر بعد كده صحيت على طول.

س ١ : أيش عرفك ان اللي قاعد معاك ده والدك؟

جـ ١ : الشيء الوحيد اللي خلاني أعرف إن هو والدي لأنَّ صورته وشكله في ذهني دايماً. كان والدي لما باكون نايم على السرير بيصحيني ويقول لي بدل ما أنت نايم تعالى نلعب طاولة ونتونس (نتسلى عن طريق الدردشة) لأنَّ كان بيحبني شديد، وكثير جداً، علشان كده هو دايماً في خيالي وصورته قدامي على طول. ده السبب اللي خلاني عرفت إن ده والدي.

س ٢ : يا ترى إيه الحواس اللي ساعدتك في انك تعرف ان ده والدك؟

جـ ٢ : الإنسان لما يكون كفيف بيعتمد كلي على السمع. لكن أنا كنت في الحلم كأني مبصر وشايفه. دااللي خلاني عرفت أن هو أبويا. وبعدين شكله زي نفس شكله بالضبط.

س ٣ : يا ترى فيه حاجة ثانية عرفتك انه أبوك؟

جـ ٣ : لا ما فيش.

س ٤ : الحلم ده بيفكرك بإيه؟

جـ ٤ : بيفكرني باه بأيام حلوة قضيتها مع والدي قبل ما يموت سنة ١٩٦٨ ، كنت أنا ملازمة دايماً في البيت، وخارج البيت. ده هو السبب، بس.

تعليق:

رأى الحالم هذا الحلم قبل روايته للباحث بحوالي إسبوع. وفي هذا الحلم ـ كما في الحلم السابق تماماً ـ تلعب حاسة الإبصار الدور الأساسي

في إدراك محتوى الحلم، بل إنَّ الحالم يبادر تلقائياً إلى إنكار دور السمع في إدراكات هذا الحلم مع تقرير دور الإبصار، إذ يقول: «الإنسان لما يكون كفيف بيعتمد كلي على السمع، لكن أنا كنت في الحلم كأني مبصر وشايفه»: وهكذا نجد أنَّ هذا الحلم يشبه في كيفيات إدراكه أحلام المبصرين تماماً.

ونلاحظ أنَّ هذا الحلم كسابقه، يؤكدان لنا أنَّ الإدراك البصري لا يتنازل عن دوره السيادي والأساسي في إدراكات الحلم إلَّا إذا استحال على الحالم إمكانية التصور أو التصوير البصري. فبالرغم من أن الحالم مكفوف البصر كفاً تاماً، إلَّا أنَّ إمكانياته لا تزال تساعده على التصور والتصوير البصري، حيث إن مراكز الحس البصري في المخ لا زالت سليمة، كما أنَّ خبرته بالمدركات البصرية لا زالت حديثة نسبياً لم تمح بعد من ذاكرته.

الحالة الثانية

الإبصار : كف بصر كلي منذ حوالي سنتين.
المؤهل : ثانوية تجارية.
النوع : ذكر.
السن : ٢٢,٥ سنة تقريباً.
العمل : لم يعمل بعد لأنَّ إصابته كانت قبل ظهور نتيجة مؤهله مباشرة ويتدرب بالمركز النموذجي لتوجيه المكفوفين.
الجنسية : فلسطيني من الضفة الغربية (الخليل).

الحلم العاشر:

كنت واقف في حته كده ما أعرفش فين بالضبط يعني، كنت أنا وبابا وجدي فجأة كده لقينا نفسنا وسط جماعة، ما أعرفش مش فاكر باقول لواحد منهم إيه، طلع مطواه وضربني هنا (مشيراً إلى ذراعه الشمال) بضربتين. وبعدين ضرب بابا في إيده الشمال

كده على طول (مشيراً إلى جزء من الذراع)، حاجة بتاع عشرة سنتيمتر. فنزل دم لكن ماسلش، زي بقعت حواليها بس، جرحى وجرحه، فجأة، كده لقيتهم مسكوا في بابا وبيضربوه. وبعدين كده لقيت نفسي أنا ماشي أنا وواحد طالعين في طريق كده عالي، وبعد ما حودت ناحية إيدي الشمال مر عليَّ شخص راكب حصان، أنا حسبت حساب إنه يقول لي أقف وييجي لي. وفعلاً استوقفني ونزل عن الحصان. كلمني بعض كلام لكن مش فاكره يعني. وبعدين بالرشاش وأطلق عليَّ النار في بطني. بطني بقت تمغص على أثر إطلاق النار. في الفترة دي لقيت خالي واقف جنبي، وبابا واقف قصاد مني، يعني تقريباً على بعد عشرة متر أو أكثر شوية. بس.

س ١: وانت في الحلم ده كنت حاسس انك كفيف؟

جـ ١: لا.

س ٢: مكان الحلم ده كان فين؟

جـ ٢: في البلد عندنا (يقصد الخليل بالضفة الغربية).

س ٣: إيه الحواس اللي انت اعتمدت عليها في معرفة انك مع بابا وجدك ووسط جماعة.

جـ ٣: البصر، العيون.

س ٤: قصدك إنك كنت مبصر في الحلم؟

جـ ٤: أيوه.

س ٥: تماماً يعني؟

جـ ٥: تماماً.

تعليق:

هذا حلم رواه الحالم للباحث بعد حوالي شهر من رؤيته له. ونلمس فيه الدور الأساسي والسائد الذي يلعبه الإدراك البصري في إدراكات محتواه، على الرغم من أنَّ الحالم مكفوف البصر تماماً منذ حوالي سنتين. وهذا هو

نفس ما وجدناه في حلمي المكفوف السابق، ويؤيد ما سبق أن ذهبنا إليه في تعليقنا على هذين الحلمين.

الحلم الحادي عشر:

شفت نفسي كنت نائم على السرير وفجأة صحيت فتحت عينيه بابص كده يظهر كانت عربية بتمر في الشارع والنور بتاع السيارة قايد ومعكوس على السقف مع وجود خيال القفص الحديدي بتاع الشباك على السقف. فأنا استغربت كده وقلت الحمد لله آدي أنا بشوف. فعلى طول قمت من السرير ووقفت على الشباك. ما اعرفش الفصل كان شتاء أو صيف، لكن شمس مافيش، وكده زي مغيمة أو ضباب أو حاجة زي كده، وشفت واحد باعرفه اسمه عبد الرحمن، فقلت أقول له علشان يقول لأهلي إني أنا بقيت أشوف، وبعدين قلت لا بلاش، لما أروح أنا أقول لهم. ونزلت على الشباك شفت قصادي واحد باعرفه وأنا مبصر اسمه رشاد، ومعه شخص ثاني اسمه حسين عرفته بعد فقد بصري. فكنت عاوز أنده لهم علشان أقول لهم إني أنا بقيت أشوف. فجأة لقيت نفسي وقعت في ركن الأودة، وأصبت بالذهول، يعني بقيت أترعش، وحاجات زي كده وبعدها صحيت من النوم على أثر الخضة دي.

س ١: تقدر تقول لي الحواس اللي اعتمدت عليها في هذا الحلم ومعرفة اللي فيه؟

جـ ١: برضه البصر، العيون.

س ٢: إيه اللي عرَّفك ان اللي كان مع رشاد هو حسين؟

جـ ٢: أنا لما أقابل شخص بعد ما فقدت بصري باتخيله في مخيلتي، يعني أرسم له هيكل خاص أو خلقة خاصة. طبيعي الشخص ده اتخيلته في مخيلتي. ولما كنت أمشي معاه عرفته إن هو قصير ونحيف، من مشي معاه عرفته انه قصير ونحيف. فلما شفته في الحلم بعنيه شفته إنه قصير ونحيف وحسب الخلقة اللي رسمتها مخيلتي له.

س ٣: تقدر توصف لي الخلقة اللي رسمتها في خيالك عنه زي ما تكون بتوصف واحد تعرفه من أيام ما كنت مبصر.

جـ٣: عينيه صغيرة (ضيقة) (س: اعتراض: ومنين عرفت كده؟ جـ: ممكن يكون لصغر حجمه)، شعره خروبي كده عسلي (س: اعتراض: عرفت ازاي ان شعره خروبي؟ جـ: ما أقدرش أعرف لها تفسير لكن أنا كده متخيله يعني) أبيض الخلقة (س: اعتراض: ايش عرفك انه أبيض؟ جـ: عشان الصفة السايدة عندنا البياض).

س ٤: إيه ثاني؟

جـ ٤: ما أعتقدش، بس.

س ٥: مش ممكن تكون الناس وصفته لك؟

جـ ٥: لا، ما حدش وصفه لي. أنا طبيعي أي شخص بأتخيله في مخيلتي، على أساس بارتاح نفسياً، وما أشعرش اني أنا كفيف يعني.

س ٦: يا ترى إيه خلاك تحلم الحلم ده تفتكر؟

جـ ٦: شدة تفكيري بالبصر، يعني بالعيون، وتلهفي لرجوع البصر.

تعليق:

هذا حلم رواه الحالم بعد أن طلبت منه أن يروي لي حلماً يظهر فيه موضوع ما أو شخص ما يكون الحالم قد تعرف عليه بعد فقده لبصره (لأرى كيف يصور الحالم هذا الموضوع أو الشخص وأي الحواس يستعين بها في إدراكه). وهو حلم رآه الحالم قبل روايته بحوالي سنة، أي بعد كف بصره بسنة تقريباً، وكان وقتها يعيش في رام الله بالضفة الغربية.

ويتضح جلياً من هذا الحلم الدور الأساسي السائد للإدراك البصري، كما اتَّضح في الحلم السابق له والحلمين الأسبقين لزميله مكفوف البصر متأخراً. بل زاد هذا الحلم عن الأحلام الثلاثة السابقة تأكيداً على قضية الإدراك البصري بحيث جعلها محوره الأساسي، وبالغ الحلم هنا في دقة الإدراك البصري والتركيز عليه، فالحالم في حلمه يصحو ويفتح عينيه

و«يبص» فيرى نور السيارة مضاءاً «ومعكوس على السقف مع وجود خيال القفص الحديدي بتاع الشباك على السقف. فأنا استغربت كده وقلت الحمد لله أدى أنا بأشوف... وشفت واحد باعرفه اسمه عبد الرحمن فقلت أقول له علشان يقول لأهلي إني أنا بقيت أشوف».

كما اتضح لنا أيضاً في هذا الحلم كيف يعمد مكفوف البصر متأخراً إلى رسم صورة بصرية للأشخاص والموضوعات التي لم يبصرها من قبل عن طريق تخيلاته الخاصة. ويعبر عن هذا بقوله: «فلما شفته في الحلم بعينه شفته إنّه قصير ونحيف وحسب الخلقة اللي رسمتها مخيلتي له... أنا طبيعي أي شخص بأتخيله في مخيلتي، على أساس بارتاح نفسياً، وما أشعرش أني أنا كفيف يعني». وهذه الظاهرة سبق أن وجدناها في الحلم الثامن لحالة كف البصر المتأخر السابقة (صورة الخطيبة). وهكذا يصدق ما ذهبنا إليه في تعليقنا على حلمي الحالة السابقة على حلمي هذه الحالة.

نتائج البحث وخلاصته

من استعراضنا للأحد عشر حلماً السابقة وما تلاها من تعليقات يمكننا أن نخرج بالنتائج العامة التالية:

أولاً: من حيث المبدأ، فإنَّ المكفوفين يحلمون ـ كغيرهم ـ أثناء النوم.

ثانياً: المبادىء العلمية المعروفة عن أحلام المبصرين وديناماياتها تصدق بنفس الدرجة على أحلام المكفوفين. وأولها ما هو معروف من أن الحلم تحقيق رغبة. وتكفي النظرة السطحية إلى بعض الأحلام التي أوردناها لمعرفة الرغبة التي يحققها الحلم لصاحبه، كما في الحلم الثالث والثامن والتاسع والحادي عشر، أمّا البعض الآخر فيحتاج إلى نظرة أعمق ومتداعيات أطول للكشف عن الرغبات التي يحققها، كما أنّ تأثير بقايا اليوم السابق على صياغة أحلام المبصرين واضح هنا أيضاً بنفس الدرجة في أحلام المكفوفين.

ثالثاً: استكمالاً للبند السابق، فإنَّ ما هو معروف من كون الأحلام على أنانية مطلقة[1] Absolutey Egoistic بمعنى أنَّ كلًّا منها يدور حول الحالم نفسه ـ ينطبق بنفس الدرجة على جميع أحلام المكفوفين التي أوردها إذ تدور كلها حول دوافع الحالمين الخاصة ومشاعرهم واهتماماتهم وخبراتهم.

رابعاً: أحلام مكفوفي البصر متأخراً، والذين لم تصب لديهم مراكز الإبصار في المخ بسوء، يحتل فيها الإدراك البصري مركز السيادة بين أنواع المدركات الأخرى، بحيث لا يكاد يختلف الأمر عن الحال في أحلام المبصرين العاديين، فكانوا يعبرون تلقائياً عن أنَّهم كانوا يرون في أحلامهم وكأنَّهم مبصرون تماماً.

خامساً: مكفوفو البصر متأخراً، والذين لم تصب لديهم مراكز الإبصار في المخ بسوء، يحاولون رسم صورة بصرية للموضوع أو الشخص الذي يتعرفون عليه بعد كف بصرهم، مستوحاة من تخيلات المكفوفين الخاصة وأحاسيسهم المختلفة ومن أوضاع المبصرين لهم. ومن ثمَّ فإنَّهم يرون هذه الموضوعات وهؤلاء الأشخاص في أحلامهم على نفس الصور البصرية التي رسموها لهم في حياة اليقظة. ومن الملاحظ أنَّ هذه الظاهرة تحدث أيضاً لدى المبصرين بنفس الكيفية. فالكثير منهم يرى صوراً بصرية لموضوعات أو أشخاص لم تسبق له رؤيتهم (كرؤية الأنبياء والرسل في الأحلام). وهكذا يمكن القول إنَّ أحلام مكفوفي البصر متأخراً، والذين لم تصب لديهم مراكز الإبصار في المخ، تشبه تماماً أحلام المبصرين العاديين بهذا الخصوص، حيث تكون إحدى عمليات إخراج الحلم الأساسية هي تحويل أفكار الحلم إلى صورة بصرية.

سادساً: مكفوفو البصر مبكراً منذ الشهور الأولى لميلادهم يدركون في أحلامهم باستخدام نفس الحواس التي يدركون بها في يقظتهم. فهم في

---

(١) المرجع السابق لفرويد عن تفسير الأحلام ص ٣٣٣.

يقظتهم يعتمدون في إدراكهم اعتماداً أساسياً على حواس السمع واللمس والضغط والقدرة على الإدراك (أو التوجه) المكاني Spatial Orientation وكذا أيضاً في أحلامهم. هذا بطبيعة الحال إلى جانب حواس أخرى مختلفة أقل أهمية، وإن كانت تساعد على استكمال عملية الإدراك. ونظراً للأهمية البالغة للإدراك البصري في التعرف على الموضوعات، والتي حرم منها مكفوف البصر مبكراً، ونظراً لحاجته إلى الاعتماد الأكثر على بقية الحواس والقدرات. التي تساعد في عملية الإدراك حتى يعوض نقص الإدراك لافتقاد الإبصار، نقول نظراً لذلك كله، تقوى بقية الحواس والقدرات المساعدة على الإدراك لتعويض نقص الإبصار، بسبب قوة الدافع لذلك من جانب، وبسبب تدريبها واستخدامها المستمر من جانب آخر.

سابعاً: لو قارنا بين حاسة السمع ووزن دورها في إدراك محتوى أحلام مكفوفي البصر المبكر وبين غيرها من الحواس والقدرات لوجدنا السيادة التي تكاد تكون مطلقة لحاسة السمع، بحيث يمكن أن نقرر أنها تحتل نفس مكانة الإبصار في أحلام المبصرين. ففي كل أحلام مكفوفي البصر المبكر التي أوردناها (الأحلام السبعة الأولى) لم يختف دور السمع في أي منها، بل كان على الدوام دوراً أساسياً. هذا بينما كادت في بعض الأحلام تختفي أدوار اللمس أو الضغط أو التوجه المكاني أو غير ذلك من بقية الحواس والقدرات المساعدة على الإدراك. بل وجدنا ما هو أكثر من ذلك، حيث وجدنا في الحلم الأول أنَّ السمع قام بتصحيح إدراك الحالم الذي خدعه اللمس. وحيث أدرك الحالم في الحلم السادس عرض قدم موضوع حلمه من مجرد سماعه للصوت الضخم لمشيته.

وقد ترجع أهمية وجسامة وسيادة دور السمع في أحلام مكفوفي البصر المبكر (وعلى الأرجح أيضاً مكفوفي البصر المتأخر الذي أصيبت فيه مراكز الإبصار في المخ بحيث فقدت قدرتها على أداء وظيفتها) إلى ما لحاسة السمع من مزايا في عمليات الإدراك سواء في اليقظة أو الحلم إذا ما قارناها

بغيرها من الحواس والقدرات المسهمة في الإدراك باستثناء الإبصار بطبيعة الحال. وقد يكون أهم هذه المزايا.

١ ـ اتساع دائرة المدركات السمعية، مثلاً يمكنك إدراك قدوم صديقك فلان من مجرد سماع صوته. وهذا أمر يوسع من دائرة مدركات الكفيف، ولا شك أنَّ هذه ميزة يفتقدها الإحساس اللمسي، إذ إنَّ دائرة مدركاته محدودة للغاية، حيث لا تتجاوز ما تصل إليه يد الإنسان أو يلامس أجزاء جسمه، وكذا الأمر بالنسبة للإحساس بالضغط أو التذوق مثلاً.

٢ ـ سرعة الإدراك السمعي وسهولته وأمانه، إذ تدرك الأصوات الصادرة عن المنبهات الخارجية دون انقضاء فترة طويلة على صدورها. ودون بذل جهد كبير في هذا الإدراك، ودون التعرض لأضرار. ويكفي أن نقارن السمع باللمس أو التذوق أو الضغط لنتبين صحة هذا الاستنتاج. فعلى سبيل المثال فقط، يلزم للإدراك اللمسي وقت كاف لكي يقترب الإنسان فيزيقياً من موضوع الإدراك، كما يلزم الجهد اللازم لهذا الاقتراب ولمد اليد وتمريرها على موضوع الإدراك كله. كما أنَّ اللمس قد يعرض الإنسان لخطورة كالحريق أو الالتهاب أو التسمم.. إلخ.

٣ ـ الإدراك السمعي أكفأ وأدق كثيراً، فعلى سبيل المثال، إذ استثنينا الإبصار، فإنَّه لا توجد أية حاسة تمكننا من التعرف على صديق ما سوى حاسة السمع، إذ نسمع صوته فنقول هذا فلان من قبل أن نراه. ولعلَّ الحلم الأول يوضح هذه الحقيقة بما لا يقبل الشك حيث ظلَّ الحالم مخدوعاً في موضوع حلمه حتى نطق فإذا بالحالم يكتشف حقيقته عن طريق سماعه لصوته.

٤ ـ إذا استثنينا المدركات البصرية، فإنَّ المدركات السمعية أكثر تنوعاً وأكثر تمايزاً وأكثر عدداً، مما يعطي الحلم مفردات متمايزة أكثر عدداً من الصور السمعية فيتيح له مرونة أكثر ودقة في تصوير الأفكار. فعلى سبيل المثال فقط نجد أنَّه بقدر ما لنا من أصدقاء، فإنَّ لكل منهم صوته المميز.

٥ ـ لقد بلغ من وزن السمع وأهميته لعملية الإدراك أنّ الإنسان طول يقظته يظل مستخدماً حاسة السمع في إدراكاته. حتى في الحالات التي لا تستثار فيها حاسة السمع (حالات الهدوء التام) يدرك الإنسان بفضلها الشيء الكثير، كأن يكون الكل نياماً، أو أننا وقت الفجر... بل إنّ الإنسان لو تعمد للحظات أن يكف حاسة السمع لوجد صعوبة بالغة في ذلك، بعكس الأمر في بقية الحواس الأخرى، حتى الإبصار، إذ يمكن للإنسان أن يعمد إلى كف هذه الحاسة فيغمض عينيه أثناء يقظته. ويستتبع هذا أن حاسة السمع تحتل المكان الثاني مباشرة في عملية الإدراك لدى المبصرين من حيث الأهمية (بعد حاسة الإبصار)، وبالتالي فهي تحتل المكان الأول لدى المكفوفين. ويكفي أن نذكر أنّ أبرز ما يميز الإنسان على الحيوان وهو اللغة بكل ما لها من أهمية في بناء الحضارة ونقلها عبر الأجيال يستحيل تعلمها إلاّ باستخدام حاسة السمع.

ثامناً: ينبني على كل ما ذكرناه في البند السابق من ميزات السمع أن يكون لحاسة السمع من الكفاءة ما يجعلها تحتل دور الإبصار في أحلام المكفوفين مبكراً (وعلى الأرجح أيضاً أحلام مكفوفي البصر المتأخر الذي أصيبت فيه مراكز الإبصار في المخ بحيث فقدت قدرتها على أداء وظيفتها) بكل جدارة. وهذا ما وجدناه فعلاً في أحلام المكفوفين مبكراً، حيث قامت الصور السمعية بالدور الأساسي في صياغة أحلامهم، الأمر الذي قد يسمح لنا أن نقفز إلى استنتاج أكثر جرأة عن أحلامهم فنقول إنّ عملية إخراج الحلم لديهم تستخدم حيلة من نوع لا نألفه في أحلام المبصرين وهي التصوير السمعي لأفكار الحلم، أي ترجمة أفكار الحلم إلى مدركات سمعية، كمقابل لحيلة التصوير البصري التي تلجأ إليها عملية إخراج الحلم لدى المبصرين. وفي الحلم السادس أوضح مثل لعملية التصوير السمعي هذه إذ استخدم الحلم الصوت الضخم ليترجم فكرة عظمة الإآله وقدرته، كما استخدم الضحك العالي ليترجم فكرة الخوف من غواية الشيطان للحالم، على نحو ما شرحنا في التعليق على هذا الحالم.

تاسعاً: قد يستعين المكفوف مبكراً بحاسة الإبصار في إدراكات الحالم، لكن الاستعانة هنا تكون بشكل غير مباشر عن طريق الاستعانة بشخص آخر مبصر، على نحو ما يحدث في اليقظة تماماً، إذ يستعين المكفوف على عبور الشارع بأحد المبصرين. ونجد هذه الظاهرة واضحة في الحلمين الثالث والسادس، مما يشير إلى إحساس المكفوفين بالدور الهام للإبصار في الإدراك.

عاشراً: إنَّ عملية إخراج الحلم وصياغته لا تتخلى بسهولة عن حيلتها الأساسية المتمثلة في ترجمة أفكار الحلم إلى صور بصرية حتى في أحلام المكفوفين. فهي لا تسلم بهذا التخلي إلاّ في حالة واحدة فقط هي حالة كف البصر المبكر جداً، حيث لا يكون لدى المكفوف أية قدرة على التصور البصري. أما في حالات كف البصر المتأخر (باستثناء ـ كما نتوقع ـ حالات كف البصر المتأخر الناتجة عن تلف مراكز الإبصار في المخ)، فإنَّ عملية إخراج الحلم وصياغته تظل متمسكة بترجمة أفكار الحلم إلى صور بصرية، حتى لو تطلب الأمر الاستعانة بصور بصرية لموضوعات أو أشخاص لم يسبق للمكفوف رؤيتهم حين كان مبصراً، على نحو ما حدث في الحلمين الثامن والحادي عشر. مما يؤكد صدق ما ذهب إليها المحللون النفسيون من نزعة الحلم الطاغية إلى الترجمة البصرية للأشياء والأفكار، حتى إنَّ هذه الترجمة تعتبر أهم الحيل التي تلجأ إليها عملية إخراج الحلم وصياغته.

وأخيراً، فإني أخشى أن أكون قد تجاوزت في استنتاجي من هذا البحث تلك الحدود التي تسمح بها المادة التي جمعت كما أرجو أن تتاح بحوث أخرى ـ سواء لغيري أو لي ـ تسمح باختبار هذه الاستنتاجات مستقبلاً.

المـــراجع

١ ـ سيجموند فرويد: تفسير الأحلام: ترجمة مصطفى صفوان ومراجعة مصطفى زيور ـ القاهرة ـ دار المعارف الطبعة الأولى.

٢ ـ سيجموند فرويد: محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي: ترجمة دكتور أحمد عزّت راجح ومراجعة محمد فتحي ـ القاهرة ـ الأنجلو المصرية.

٣ ـ دكتور فرج عبد القادر طه: دراسة مقارنة بين إدراك المحتوى الظاهر لأحلام المكفوفين والمبصرين ـ المجلة الاجتماعية القومية ـ عدد ٣ ـ ١٩٧٢.

٤ ـ دكتور يوسف مراد: مبادىء علم النفس العام: القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٦٦.

٥ ـ **Taha, Farag Abdel Kadir;** «Auditization» In Dream-Work Of The Early Blind Persons, XXIII International Congress Of Psychology, Acapulco, Mexico, September 1984.

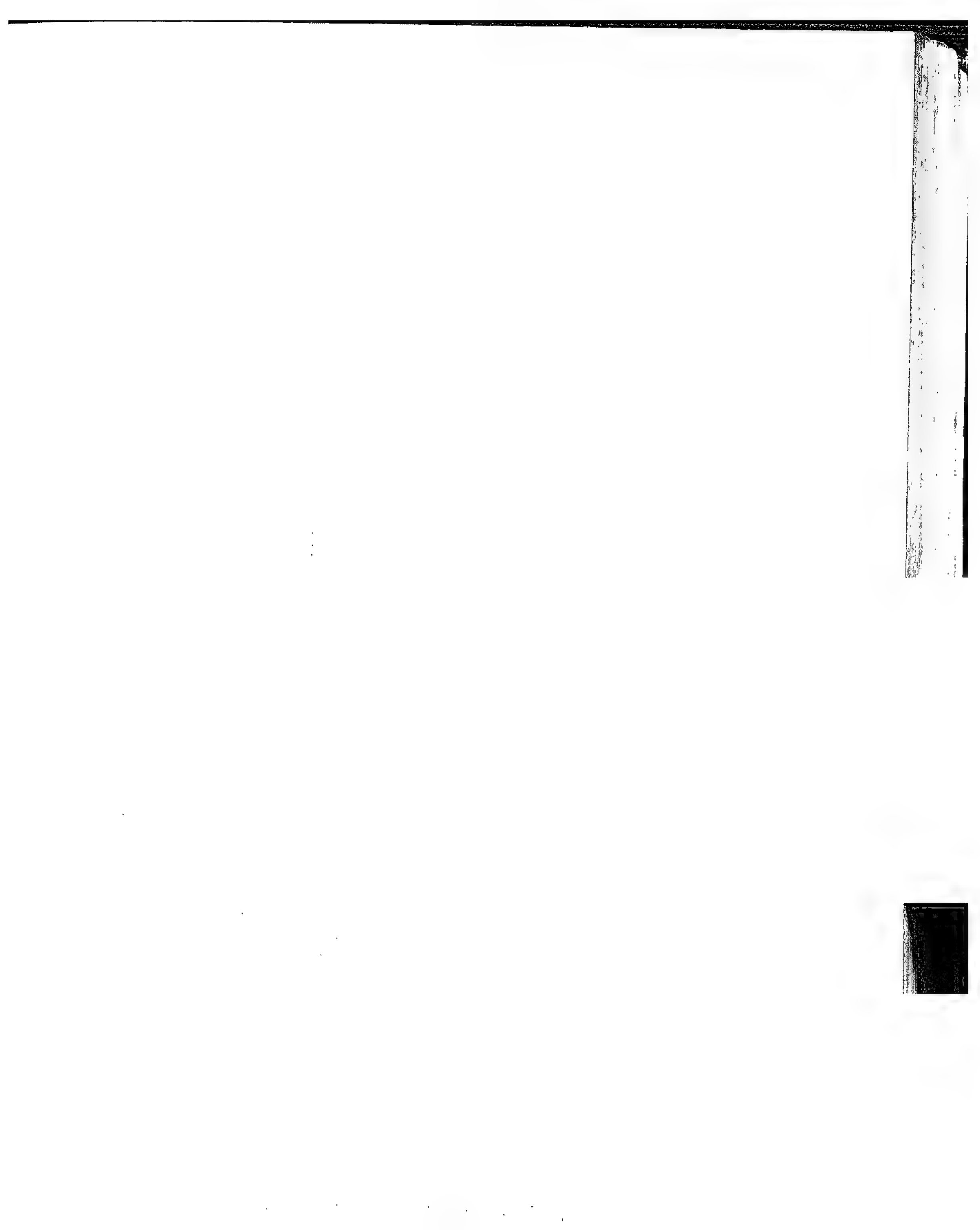
«Auditisation»

الفصل الحادى عشر

هل حقاً الإنسان يبحث عن السلام (*)؟!!
« نظرة نفسية »

* تمهيد.
* الدوافع التدميرية.
* الميول السادومازوخية.
* الميول السيكوباتية.
* هذاءات العظمة.
* هذاءات الاضطهاد.
* الشخصيات المتبلدة أو الفصامية.
* الإنسان والسلام.
* السلام والدين.
* اقتراحات.
* خاتمة.

(*) ترجمة البحث الذى ألقاه المؤلف فى المؤتمر الدولى الثامن لعلم النفس عبر الثقافى، الذى عقد باستانبول (تركيا) فى يوليو ١٩٨٦. وقد نشرت هذه الترجمة بمجلة علم النفس، عدد: ٢، ١٩٨٧، القاهرة.



تمهيد:

بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب العالمية الثانية، أصبح الجنس البشرى مهددًا بالأسلحة الذرية ذات التدمير المرعب. وعلاوة على ذلك فإن توقع الحرب الذرية يؤثر تأثيرًا هائلًا على الاقتصاد العالمى. فالولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى يزيدان سنويًا من ميزانية تسليحهما حتى وصلت إلى بضع مئات من ملايير الدولارات سنويًا فى ميزانية كل منهما على حدة وأتوقع أن هذه المئات من الملايير سوف تتزايد سريعًا حتى تصبح آلافا حيث انخفض سعر البترول إنخفاضًا حادا، الأمر الذى سوف يوفر مزيدًا من المال تنفقه الدولتان على معدات الحرب والدفاع واستعداداتهما. وهذا الانفاق المجنون للمال على الأسلحة القتالية إنما يقود العالم إلى كارثة مدمرة؛ لكل من البلاد المتقدمة، إذا بدأت الحرب، ولكل من البلاد المتخلفة أيضاً، بسبب نقص المال الذى تحتاجه تلك البلاد لتنميتها، إذ تنفقه البلاد المتقدمة على تسليحها.

وقريبًا من هذا المعنى يقول لينوس بولنج Linus Pauling فى تقديمه لكتاب روجر ولش Roger Walsh المعنون «البقاء أحياء Staying Alive» (١٩٨٤): «مادامت السياسة الحالية للمواجهة مستمرة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى، ومادامت نسبة ضخمة من ثروات العالم تبدد على الاستعدادات العسكرية، فلن توجد عندئذ فرصة لعلاج مشكلاتنا.»

وفى ظرف كهذا (تعيشه البشرية الآن)، فإن كل العلوم الانسانية، خاصة علم النفس، عليها أن تقوم بدور متميز لمنع الحرب وتحقيق السلام. وأولى خطوات ذلك يجب أن تكون استكشاف الدوافع التى تحفز الناس للحرب وتلك التى تقودهم الى السلام. فهذه الخطوة سوف تكون المبدأ الأساسى الذى يقودنا إلى الخطوة الثانية؛ وأعنى بها هزيمة نوازع الحرب وتقوية إجراءات السلام فى مواجهة المشكلات. وما من شك فى صدق ما قاله السيناتور وليام فولبرايت: «إنه- فقط- على أساس من فهم سلوكنا فإننا نأمل أن نتحكم فيه بطريقة تضمن البقاء للجنس البشرى.» (٧- الصفحات التمهيدية). ولست هنا اتجاهل أو أنكر الأدوار الرئيسية التى تلعبها العوامل الاقتصادية والسياسية والتاريخية والجغرافية...، بل كل ما هنالك أنى أعتقد أن العوامل السيكولوجية فى موضوع الحرب والسلام لم تحظ من الباحثين بالاهتمام الجدير بها.

ولذا ففى هذا البحث أحاول إبراز بعض العوامل السيكولوجية التى تلعب دورًا هاما فى موضوع الحرب والسلام، وألقى مزيدًا من الضوء عليها، كما أقترح فى نهاية البحث بعض المقترحات بشأنها:

الدوافع التدميرية:

تعتبر الدوافع النفسية التدميرية Destructive Motives من بين العوامل السيكولوجية التى تمهد للحرب وتيسر الانزلاق إليها وتزينه، وتستبعد فى نفس الوقت الحل السلمى لما يجابهنا من مشكلات. وينظر إلى هذه الدوافع أحيانًا- كما هو الحال عند معظم المحللين النفسيين- على أنها دوافع فطرية غريزية فى الإنسان تدفعه للقيام بسلوك مدمر سواء له أم لغيره. وهذه الدوافع التدميرية يمكن أن تكون مكشوفة محسوسة وشعورية، كما يمكن أن تكون متخفية ولا شعورية. فإذا ماقمنا بتحليل موضوعى وأمين للعوامل المتخفية وراء حرب كالعالمية الثانية، أو الفيتنامية الأمريكية، فسوف نقتنع مباشرة بدور هذه الدوافع التدميرية؛ أعنى غريزة العدوان.

ومن الملاحظ أن هذه الدوافع التدميرية تلعب نفس الدور فى كل الحروب التى تنشأ فى أرجاء الدنيا. فعلى سبيل المثال، لا يستطيع الفرد أن يقبل- إذا كانت نظرته موضوعية نزيهة- تلك التبريرات التى تقدمها إيران ولا العراق لحربها «المجنونة»؛ خاصة وأننا نعلم أن كلا منهما تدعى أنها بحربها هذه إنما تدافع عن الإسلام. فمما لا شك فيه أن الحروب تستطيع أن تشبع بشكل كبير دوافع الإنسان التدميرية عن طريق التدمير الشديد الذى تحدثه فى كل من البشر والاقتصاد على السواء، لقد كتب أنتونى ستور Anthony Storr على غلاف كتابه المعنون «العدوان البشرى Human Aggression» (الذى طبعته سلسلة Pelican عام ١٩٨٥) هذه العبارة: «إن الحقيقة الكئيبة هى أننا أقسى المخلوقات على الأرض وحشية وأبعدها عن الرحمة».

الميول السادومازوخية:

الميول السادومازوخية Sado-Masochistic Tendencies عامل نفسى آخر متخفى من العوامل التى تيسر التورط فى الحروب وتقاوم تحقيق السلام. وتعتبر هذه الميول عرضا مرضيا نفسيا يمكن ملاحظته فى بناء الشخصية عند بعض الأفراد، حيث تدفعهم هذه الميول إلى اشتقاق لذة شديدة من إيقاع الأذى بالآخرين، ومن ارتكابهم للأفعال العدوانية والوحشية، وفى نفس الوقت أيضا من وضع أنفسهم فى موضع الإهانة والتحقير والإيذاء والعقاب وتفضيل «البحث عن السلاح أكثر من البحث عن الطعام». ففى مثل هذه الحالات تصبح الحرب إشباعا مثاليا لمثل هذه الشخصيات المضطربة؛ حيث إنها تؤدى إلى ضرر مفزع لكل من يتورط فيها من كلا الجانبين.

ولعله يبدو واضحًا أن الميول السادومازوخية تلقى تدعيمًا من العامل السيكولوجى السابق الحديث عنه، أعنى الدوافع التدميرية أو الغريزة العدوانية.

الميول السيكوباتية:

إن الميول السيكوباتية Psychopathic Tendencies يمكن هى الأخرى أن تكون مسئولة عن التورط فى حرب. فالسيكوباتية اضطراب فى الشخصية لا يحترم فيه الفرد معايير المجتمع ويكرر فيه تصرفاته اللا أخلاقية وأفعاله المضادة للمجتمع دون إحساس بالذنب أو تعلم من خبرات سابقة. وبالتالى فإن السيكوباتية يمكن أن تؤدى إلى القيام باعتداءات مرضية شاذة، أو إلى القيام بتصرفات خطيرة تتصف بعدم تقدير المسئولية. فإذا كان هناك قائد (أو رئيس) من هذا النوع على قمة السلطة، فسوف يصبح الأمر مأساة ليس فقط لمجتمعه بل وأيضًا لغيره من المجتمعات. ولازال كثير منا يذكر مافعله أدولف هتلر فى الحرب العالمية الثانية، حيث تسبب فى قتل أعداد هائلة من البشر وتدمير عدد كبير من المدن.

هذاءات العظمة:

تعتبر هذاءات العظمة Delusions of Grandeur عاملا نفسيا آخر يمكن أن ييسر التورط فى حرب مدمرة ويؤدى إليها. فهذاء العظمة هو عرض مرضى عقلى، ويعنى اعتقادًا يسود فكر المريض بأنه شخص عظيم دون أن يسند هذا الاعتقاد واقع أو يدعمه منطق. ففى مثل هذه الحالة يقدر القائد (أو الرئيس) قوة بلده وكفايته الشخصية فى إدارة الحرب ضد عدوه وكسبها تقديرًا يفوق حقيقتها. ولقد كان أدولف هتلر مثلا واضحًا لهذه الشخصية. فلقد غالى فى تقدير قوة جيشه غلوا كبيرا، كما غالى أيضا فى تقدير كفايته فى إدارة دفة الحرب لدرجة أنه ورط نفسه فى محاربة كل من الاتحاد السوفييتى، والولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وفرنسا فى وقت واحد. فكان من نتيجة هذا التصرف الجنونى أن تسبب فى فقدان حياته الشخصية وفى تدمير بلده. وفوق كل هذا، فإن تصرفه هذا أدى إلى تقسيم ألمانيا إلى بلدين منفصلين؛ أعنى ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية. ولقد أصبحت هاتان الألمانيتان متضادتين فى

توجهاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ويمكن الآن أن تتورط كل منها فى حرب ضد الأخرى. ولا يمكن لأحد أن يتصور حدوث مأساة أكثر من هذه.

هذاءات الاضطهاد:

هذاءات الاضطهاد Delusions of Persecution هى أيضًا عرض مرضى عقلى يمكن أن يحفز القائد (أو الرئيس) المضطرب إلى بدء حرب أو إلى تفضيلها. ففى هذاء الاضطهاد يعتقد القائد فى دعاوى زائفة بأن الآخرين يكيدون للإضرار به أو تدميره هو أو بلده الذى يحكمه ويقوده، ولذا، فإنه يصبح متشككا ويفضل أن يأخذ موقف الهجوم ويبدأ خطواته عن أن يأخذ موقف الدفاع. ففى مثل هذه الحالة قد نجد بلده تورط بسهولة فى حرب. ويلاحظ أن هذاءات الاضطهاد هذه قد تكون مصحوبة بهذاءات عظمة (والتى تحدثنا عنها فى البند السابق)، أو لا تكون. فإذا كانت مصحوبة بهذاء عظمة يكون الأمر أيسر وأيسر على هذا البلد الذى يقوده هذا القائد المريض بالاضطهاد أن يتورط فى حروب كثيرة.

الشخصيات المتبلدة أو الفصامية:

الشخصية المتبلدة أو الفصامية Apathetic or Schizoid Pensonality هى العامل السيكولوجى الهام والأخير فى هذه العوامل التى عرضنا لبعضها كعوامل نفسية تكمن وراء الحرب والسلام. وهذه الشخصية تمثل حالة مرضية تجعل صاحبها منفصلاً عن الواقع، مخطئًا فى تقدير ظروفه، خلوا من المشاعر، وغير مكترث بشىء (أى لا مبال) Indifferent. فإذا كان قائد البلد (أو رئيسه) له هذا النمط من الشخصية، فإنه سوف يسئ تقدير العوامل السياسية وغيرها من ظروف الواقع وملابساته، والتى تعتبر ذات أهمية قصوى (فى تقدير المواقف واتخاذ القرارات المصيرية خاصة). كما أنه سيكون (أيضًا) غير مكترث بالتدمير الذى سيقود بلده إليه أو سيلحقه بعدوه.

الإنسان والسلام:

الإنسان فى حاجة ماسة إلى السلام. فهو يحتاج إلى السلام لبقائه حيا، ولرفاهيته، ولاستمتاعه بكثير من مباهج الحياة. وعلى الرغم من ذلك، ومما يدعو للأسف، أن الانسان- فيما يبدو- لا يبحث حقيقة وبأمانة عن السلام. فمباحثات السلام ونزع السلاح بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى لم تنجح حتى الآن ولم تحقق السلام. وما تكاد فى كل مرة تحقق هذه المباحثات خطوة نحو السلام حتى تتراجع بسرعة خطوتين إلى الوراء.. وهما يتقدمان نحو السلام ونزع السلاح ببطء شديد، بينما يخطوان نحو العداء والحرب بسرعة كبيرة. فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى الآن انشغل الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية ولا زالا فى مباحثات كثيرة متعلقة بالسلام بدون تحقيق نتائج حاسمة نحو السلام الحقيقى. فكل منهما تساند الحروب المندلعة فى كل من آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. وفى نفس الوقت تدعى كل منهما أنها تساند السلام وتجتهد من أجل منع الحرب ومقاومتها.

وإنه ليبدو لى أن المحللين النفسيين، خاصة سيبجموند فرويد Sigmund Frued وميلانى كلاين Melanie Klein على حق فيما أبرزاه من الدوافع النفسية التدميرية فى الانسان وأكداه. فافتراضاتها المتعلقة بغريزة الموت Death Instinct تبدو، لسوء الحظ، أنها حقائق. حيث إن هناك الكثير من الشواهد سواء المأخوذة من الحياة أو من الأساطير، تؤيد الفرض الخاص بتواجد غريزة الموت ومظاهرها. فالكتب السماوية (القرآن عند المسلمين، والانجيل عند النصارى، والعهد القديم عند اليهود) تحكى لنا كلها نفس القصة عن القاتل البشرى الأول، قابيل، الابن الأكبر لآدم وحواء، والذى قتل أخاه هابيل، ابنهما الثانى. وهذه القصة ترمز إلى أن الميل التدميرى (العدوانى) إنما هو ميل متأصل ضارب الجذور فى تكوين البشر منذ خلقه. الأمر الذى يدلل

بقوة أيضا على حقيقة العوامل النفسية التى سبق لنا ذكرها على أنها تيسر التورط فى الحروب وتعمل على استبعاد السلام ومقاومته.

السلام والدين:

ولما كانت الميول التدميرية تتحكم فى البناء السيكلوجى للانسان، على نحو ما سبق أن ذكرنا، هبت الأديان تدعو للسلام وتحبذه وتحث كل الناس على أن يحيوا معا فى سلام (حتى تقاومها). ففى الاسلام -على سبيل المثال- نجد أسماء كثيرة لله من بينها «السلام». كما أن المسلم، أيضًا، عليه -إذا كان حسن الإسلام- أن يحيى غيره فردًا كان أم جماعة عندما يلقاه أو عندما يفارقه بقوله «السلامُ عليكم». وفى النصرانية يقال إن «الله محبة». كما نجد فى اليهودية أن أعظم ملوكها ونبيها «سليمان» قد حمل هذا الاسم عندما اعتلى العرش من كلمة السلام العبرية «Shlomoh». بل إننا نجد أيضا أن مدينة بيت المقدس قد اشتقت اسمها وهو Jeru Salem من إله السلام، وهى أيضًا تسمى «مدينة السلام».

هذا، إضافة إلى أن الأديان تحرم بشكل قاطع على أى مؤمن بها أن يرتكب تصرفات عدوانية، أو يقوم بسلوك يتسبب فى تدمير أو إلحاق أذى أو ضرر بأى فرد أو جماعة، إلا اذا كان دفاعًا عن نفس، أو مقاومة لشر، أو منعا لضرر أكبر.

اقتراحات:

من عرضنا السابق يتضح أن هناك «شهية» قوية فى البشر لأن يكونوا عدوانيين ومدمرين. وهذا الاشتهاء ييسر التورط فى الحروب وينتزع الانسان بعيدًا، بعيدا عن العيش فى سلام، ويحرمه من نشر السلام من حوله. ولذا فإنه يبدو حقا أن إشعال الحرب أسهل من صناعة السلام. فحروب مثل الحرب العالمية الثانية وحرب الأيام الستة اشتعلت خلال أيام قليلة، بينما خطوات

السلام فى مشكلة الشرق الأوسط- على سبيل المثال- بطيئة للغاية منذ عام ١٩٧٣ حتى الآن. ويرجع هذا إلى عوامل كثيرة، من بينها العوامل السيكلوجية، التى سبق أن أشرنا إليها، والتى تجعل من الأسهل على البشر التورط فى حرب عن اكتساب السلام وتحقيقه.

إن التحدى الضخم الذى يواجه البشرية الآن- من وجهة نظرى- هو الانتصار على تلك العوامل السيكلوجية التى تغرى الانسان بالتورط فى الحروب والعدوان وكل أنواع التدمير لنفسه أو للآخرين. وأعتقد أننا يمكننا الانتصار جزئيا فى هذا التحدى إذا حققنا بنجاح الاقتراحات التالية:

١ - يجب أن يوجد بين مجالس الدفاع والحرب فى الحكومات محللون نفسيون وأطباء نفسيون وعلماء نفس كأعضاء أساسيين. ففى هذه الحالة، سوف يقومون ببحث الدوافع الحقيقية للحرب وكشفها وتفسيرها لأعضاء المجلس الآخرين بحيث يجعلونهم على وعى أكبر بها. وعند ذاك فإن تبريرات إعلان الحرب أو الاستمرار فيها تنكشف. وعلى هذا يصبح قرار بدء الحرب أو تحاشيها قرارًا أكثر حكمة، وأفضل سلامة.

٢ - يجب أن تكون هناك الكثير من الأفلام التليفزيونية التى تصور التدمير المرعب الذى ينتج عن الحروب والذى يقع على أرواح البشر والاقتصاد معا مثل فيلم «اليوم التالى The day after». ففى مثل هذه الحالة سوف يدرك معظم الناس مقدار الآلام والمآسى ومختلف أنواع التدمير التى يمكن أن تؤدى إليها الحرب لكلا الجانبين المشتركين فى الحرب، يتساوى فى ذلك المنتصر والمهزوم. وسوف يخلق هذا خوفا شديدا من الحروب، ويقوى الرأى العام المناهض للحرب؛ الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى الضغط على القيادات حتى لاتتبنى قرارات الحرب وتصبح من أنصار السلام.

٣ - يجب القيام بتنظيم أحزاب وجماعات وحركات ومؤتمرات، وإصدار نشرات، وتنظيم أسبوع سنوى.. كل ذلك للدعاية للسلام ونبذ الحرب كاتجاه

فى حل المشكلات. وأعتقد أن الأسبوع السنوى الذى نقترحه للسلام يكون من الأنسب لو بدأ فى السادس من أغسطس لأنه فى مثل هذا اليوم حدث لأول مرة فى العالم أن ضربت مدينة بقنبلة ذرية وكان ذلك فى الحرب العالمية الثانية (هيروشيما باليابان فى ٦ أغسطس ١٩٤٥).

ففى حالة تنفيذ هذا الاقتراح سوف تكون هناك فرصة طيبة لمعظم المفكرين من مختلف الأيديولوجيات، ومن مختلف البلاد فى العالم لأن يروجوا للسلام ويساندوه، ولأن يقوموا بضغوط هائلة فى جانب السلام ضد الحرب. وسوف يعمل هذا، أيضًا على تكوين رأى عام وتقويته فى نفس الاتجاه.

٤ - يجب على كل المفكرين فى أنحاء العالم أن يساندوا بقوة كل الاتجاهات الانسانية الخيرة، والقيم السياسية والاجتماعية الطيبة، مثل المطالب العادلة لأن يحيا كل الناس فى سلام، وأن تستعيد الشعوب عن طريق السلام ترابها الوطنى المحتل وأن تكون لكل الناس إرادتها الحرة فى اتخاذ قراراتها السياسية والاجتماعية، وأن تكون لها كل الحقوق الإنسانية التى تستمتع بها شعوب البلاد المتقدمة.

كما يجب على كل المفكرين أيضا أن يقوموا بالدعاية لمباحثات السلام ومساندتها عند محاولة علاج المشكلات وحلولها، مع تحاشى الترويج للحلول العدوانية أو تدعيمها.

وعليهم أيضا أن يستنكروا وأن يقفوا ضد أى بلد له رغبة غير مشروعة فى تدمير الآخرين، أو الاستيلاء على ترابهم الوطنى بالقوة، أو إحداث إضرار غير مشروع بالآخرين.

ولاشك أن تنفيذ هذه الاقتراحات إذا نجح سوف يقلل كثيرا من العوامل التى تدفع إلى الحروب وإلى مختلف أنواع الاعتداءات.

خاتمة:

لقد استعرضت فى هذا البحث بعض العوامل النفسية التى يمكن أن تسهم فى تيسير التورط فى الحروب، كما تسهم فى استبعاد السلام، مثل الدوافع التدميرية، والميول السادو مازوخية، والخصائص السيكوباتية، وهذاءات العظمة، وهذاءات الاضطهاد، وسمات التبلد الانفعالى. كما أوضحت «شهوة» الإنسان للحروب وكراهيته للسلام، سواء أكان ذلك على المستوى الشعورى أم اللاشعورى. وأتبعت ذلك باقتراحات أربعة يمكن أن تقوم كأساس ضد إغراءات العدوان، كما يمكن - فى نفس الوقت - أن تقلل من شغف الانسان بالحرب وأن تزيد من فرص الحلول السلمية للمشكلات. فإذا كنا حقيقة نبحث عن السلام، وجب علينا جميعا أن نؤيد مثل هذه الاقتراحات وأن نتخذ كل الاجراءات والخطوات التى تدعم السلام وتستبعد الحروب والتصرفات العدائية.

وإنه لمن المعروف عامة أن كل الجنس البشرى سوف يعانى ويلات التدمير والضرر إذا مانشبت حرب ذرية. فنحن، على الأرض، شديدو الشبه بأولئك الموجودين فى سفينة واحدة وسط البحر، إن تحطمت غرق الجميع وماتوا. لهذا يجب علينا جميعا أن نقاوم بكل مانستطيع ضد الحرب، وأن نذهب إلى أبعد مدى فى تأييد السلام فوق ربوع العالم كله؛ وإلا سوف يتهدد وجودنا كله كجنس بشرى بسبب ميولنا التدميرية المقيتة.

المراجـع

١ - بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، الصادر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، بيروت، ١٩٧١.

٢ - **Freud. S.:** Beyond The Pleasure Principle, The International Psycho-Analytical Press, London, 1922.

٣ - **Halsey. W & E. Friedman (Editors);** Collier's Encyclopedia, Collier, Inc., Now York, 1980.

٤ - **Klein. M.;** The Psycho-Analysis of children, The Hogarth Press, London, 1975.

٥ - **Storr A.,** Human Aggression, Pelican Books, 1985.

٦ - **Taha, Farag A.,** Does Mankind Really Search For Peace? A Psychological View, A Paper Read in 8 International congress of Cross-Cultural Psychology, Istanbul, Turkey, July 6-10 1986.

٧ - **Walsh, R.,** Staying Alive, New science Library, London, 1984.

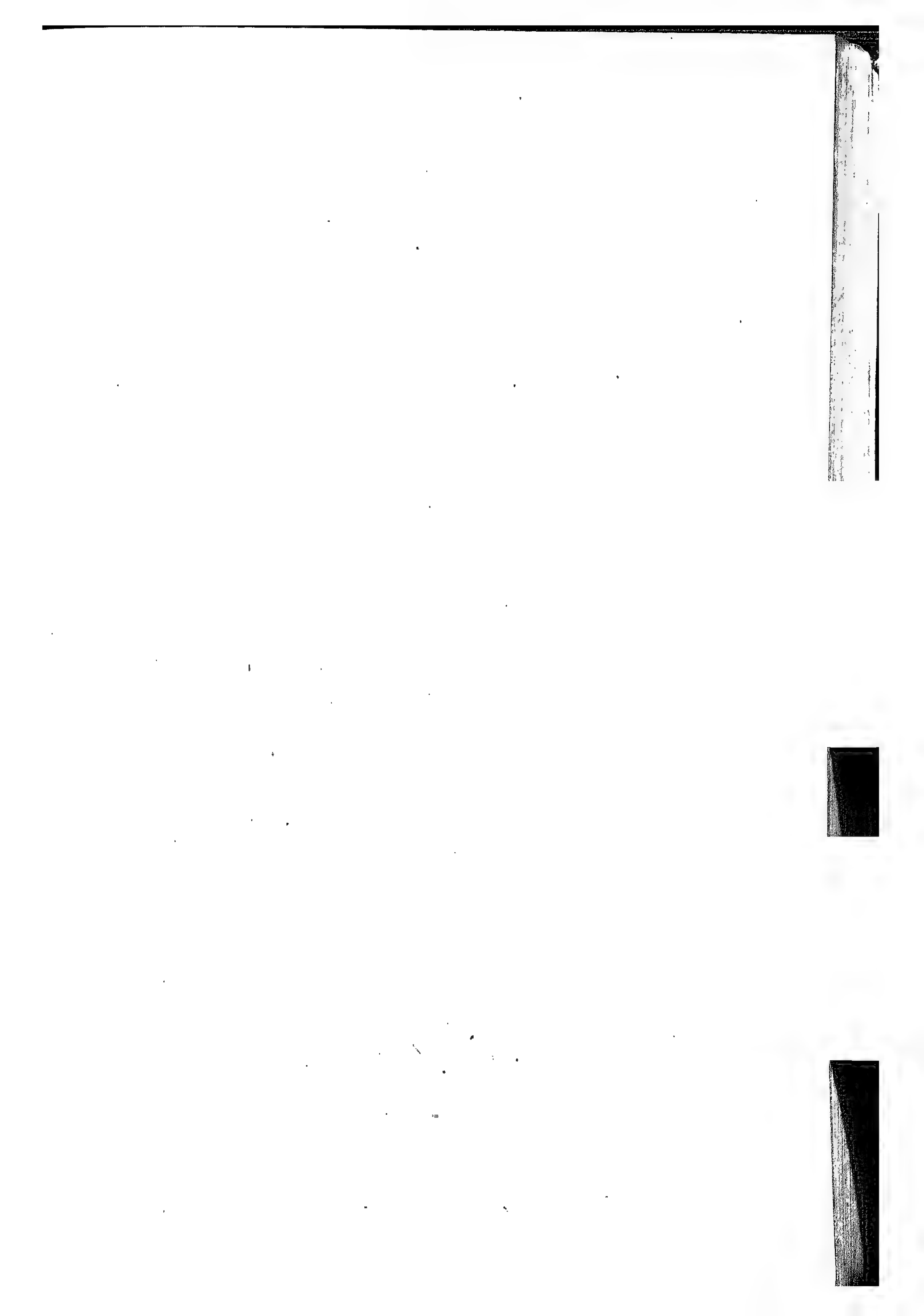
الفصل الثاني عشر *

الصحة النفسية والكفاية الإنتاجية لعمال الصناعة **

* تقديم فى تمهيد.
* الروح المعنوية لعمال الصناعة.
* الاضطرابات السيكوسوماتية والتوافق المهنى.
* الصحة النفسية وغياب العمال الصناعيين.
* الصحة النفسية والحوادث.
* الصحة النفسية والعامل المشكل.
* مناقشـــة.
* خلاصة فى خاتمة.

(*) ترجمة البحث الذى ألقاه المؤلف فى المؤتمر الدولى للصحة النفسية، والذى عقد بالقاهرة فى أكتوبر من عام ١٩٨٧. وقد نشرت هذه الترجمة فى مجلة علم النفس، عدد ٦، القاهرة، ١٩٨٨.

(**) ربما كان وضع هذا الفصل بعد الفصل السادس مباشرة أفضل من وضعه الحالى حتى يتسق الكتاب، إلا أن بعض الاعتبارات الفنية الخاصة بالطباعة قد اضطرتنا إلى التغاضى عن ذلك. فمعذرة للقارىء الكريم.



تقديم في تمهيد:

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء نظرة سريعة على بعض البحوث النفسية العلمية التى اجريت فى المنطقة العربية مستهدفة بحث العلاقة بين الكفاية (أو بعض مظاهرها مثل عدم الوقوع فى حوادث أو تسبيبها، وعدم الغياب عن العمل.. الخ) وبين الصحة النفسية للعامل فى ميدان الصناعة. ولا يعنى هذا اعتقادنا بأن اخصائيى علم النفس وعلماءه هم الخبراء الوحيدون الذين يجرون بحوثًا علمية فى مثل هذا المجال. بل أننا جميعًا نعلم أن هناك خبراء كثيرين وعلماء يقومون ببحوث هامة فى نفس المجال مثل الأطباء النفسيين والاخصائيين الاجتماعيين...... الخ.

١ - الروح المعنوية لعمال الصناعة:

قام السيد محمد خيرى (الأستاذ السابق لعلم النفس بكلية الآداب- جامعة عين شمس) بمشاركة أحمد زكى محمد (وكيل وزارة التعليم العالى السابق) بالاشراف على بحث ميدانى عن الروح المعنوية للعمال الصناعيين نشره المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة عام ١٩٧٢[١] ولقد أوضح هذا البحث أن هناك ارتباطا إيجابيا بين ذكاء العمال وروحهم المعنوية (١ : ٢٥٩)، كما صدقت هذه النتيجة نفسها أيضاً على المشرفين على العمال (١ : ٢٦٠) الذين كانوا يشرفون على أقسام ذات روح معنوية عالية

فى مقارنتهم بزملائهم الذين كانوا يشرفون على أقسام منخفضة الروح المعنوية. ولقد أبان البحث أيضًا أن مشرفى الاقسام منخفضة الروح المعنوية كانوا اقل سواء فى صحتهم النفسية فى مقارنتهم بزملائهم الذين كانوا يشرفون على أقسام مرتفعة الروح المعنوية، اذ كانوا أكثر سواء (٢ : ٢٦١). وأكثر نضجا نفسيا (١ : ٢٧٧). كما أن البحث الميدانى علاوة على كل ذلك قد أوضح وجود علاقة إيجابية بين تماسك الجماعة وبين روحها المعنوية (١ : ٢٧٧).

ولقد وجد عبد المنعم جابر حامد (باحث عراقى) فى بحث ميدانى (عام ١٩٨١) قام باجرائه فى المنشأة العامة للغزل والنسيج العراقية نتائج شبيهة الى حد كبير بتلك التى وجدها السيد محمد خيرى وزميله فى مصر، خاصة ما تعلق منها بالعلاقة الايجابية بين الروح المعنوية والصحة النفسية، وبين الروح المعنوية وتماسك الجماعة، وبين الروح المعنوية أيضا والذكاء (٣ : ٤٧٣ - ٥٠٤).

٢ - الاضطرابات السيكوسوماتية والتوافق المهنى:

وفى دراسة ميدانية لمحمود السيد ابو النيل (أستاذ علم النفس بكلية الآداب - جامعة عين شمس) التى أجراها بمصر (عام ١٩٧٢) وجد علاقة سلبية بين التوافق المهنى للعاملين بالصناعة والاضطرابات السيكوسوماتية ووجد نفس العلاقة السلبية ايضا بين التوافق المهنى لهم وبين القلق (٧ : ١٩٧ - ٢٢٥). وفى دراسته الميدانية أيضًا عام ١٩٧٤ على الاضطراب السيكوسوماتى والعوامل الانفعالية لدى العمال سيئى التوافق مهنيا وجد من تطبيق قائمة كورنيل أن الجماعة سيئة التوافق فاقت الجماعة حسنة التوافق فى كثير من جوانب الاضطراب النفسى كالقلق والاكتئاب والسيكوباتية (٨ : ٢٥١ - ٢٦٢).

٣ - الصحة النفسية وغياب العمال الصناعيين:

فى بحثها الميدنى (عام ١٩٧١) طبقت سوسن اسماعيل عبد الهادى (أستاذة علم النفس بكلية البنات - جامعة عين شمس) ترجمة عربية، لمقياس القلق الذى وضعه ريموند كاتل على عينة من ٥٤٤ عاملا صناعيًا. ولقد وجدت معاملات ارتباط ايجابية مرتفعة الدلالة الاحصائية بين مستويات القلق وبين غياب العمال الصناعيين، حيث كان متوسط هذه المعاملات ٠,٤٦ (٢ : ٢٩٧ - ٣٢٣)، كما درس فارس حلمى أحمد (باحث فلسطينى) سيكلوجية العامل المتغيب (عام ١٩٧١) حيث اجرى بحثه الميدانى فى شركة النصر لصناعة السيارات بمصر. وقد تكونت عينة بحثه من مجموعتين متناقضتين بالنسبة لمتغير الغياب عن العمل كل منهما اشتملت على ٧٣ عاملا وقد حقق فيهما التكافؤ والتناظر. ولقد قام فارس حلمى احمد بدراسة مجموعتين من العوامل: إحداهما كانت احصائية صرفة (هى السن، والحالة الزواجية، والأجر، ومدة الخدمة، ومستوى التعليم، والمسافة بين مكان السكن والشركة). أما المجموعة الثانية من تلك العوامل فكانت البناء النفسى للشخصية. وقد أوضحت هذه الدراسة أنه لا توجد علاقة بين أى من تلك العوامل الاحصائية الصرفة وبين مشكلة غياب العمال.

أما بالنسبة لدراسة البناء النفسى للشخصية (المجموعة الثانية من العوامل التى درسها فارس حلمى أحمد) والتى تمت على ٣٠ عاملا من العينة الأصلية فقد طبق عليهم اختبار تفهم الموضوع والمقابلة الاكلينيكية. ولقد استعان الى حد ما بالمنهج الدينامى المتعمق، فوجد أن العامل كثير التغيب لديه مشاعر اضطهادية أكثر، كما كان أكثر إحساسًا بالإحباط وأكثر إحساسا بالعجز (٤ : ٢٦٣ - ٢٩٥).

٤ - الصحة النفسية والحوادث:

قام فرج عبد القادر طه ببحث ميدانى[٥] عن الحوادث والذكاء (عام ١٩٦٥) طبق فيه مقياس وكسلر- بلفيو لذكاء الراشدين والمراهقين (الذى اقتبسه وأعده للبيئة العربية لويس كامل مليكة ومحمد عماد الدين اسماعيل) على مجموعتين متكافئتين ومتناظرتين من عمال الصناعة (فى الشركة الشرقية للدخان والسجائر بمصر) كل منهما تكونت من ٣٥ عاملا. كانت المجموعة الأولى بمثابة مجموعة تجريبية حيث تكرر وقوع كل فرد منها فى حوادث خلال مدة السنوات الأربع السابقة على بداية البحث. بينما كانت المجموعة الأخرى بمثابة مجموعة ضابطة، حيث لم يقع أى فرد منها فى حادثة خلال الفترة المذكورة. وتتلخص نتائج بحثه بهذا الخصوص فيما يلى:

١ - لا توجد علاقة دالة (أى ارتباط دال) بين الحوادث والذكاء الكلى، ولا بينها وبين الذكاء اللفظى، ولا بينها وبين الذكاء العملى، (ولا بينها وبين معامل الكفاءة).

٢ - لاتوجد علاقة دالة بين الحوادث وبين أى اختبار فرعى من اختبارات الوكسلر بلفيو باستثناء اختبار الفهم العام.

٣ - لا توجد علاقة دالة بين الحوادث وبين الدرجات المرتفعة فى الذكاء الكلى أو الذكاء اللفظى أو الذكاء العملى أو أى اختبار فرعى من اختبارات الوكسلر. وبالمثل أيضًا لا توجد علاقة دالة بين الحوادث وبين الدرجات المنخفضة فى كل المتغيرات السابقة.

٤ - توجد علاقة دالة بين الحوادث وبين التشتت فى الصفحة النفسية للوكسلر- بلفيو.

٥ - كان الفارق بين مستوى الذكاء اللفظى ومستوى الذكاء العملى دالا إحصائيا فى جماعة الحوادث.

٦ - كان ثبات الصفحة النفسية للذكاء فى جماعة الحوادث أميل الى الانخفاض.

٥ - الصحة النفسية والعامل المشكل:

فى بحث ميدانى [٦] عن سيكلوجية العامل المشكل فى الصناعة (عام ١٩٦٨) قام فرج عبد القادر طه بتطبيق هذه الأدوات الأربع.

١ - مقياس وكسلر - بلفيو لذكاء الراشدين والمراهقين (السابق ذكره)..

٢ - اختبار اليد الذى ترجمه وأعده المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بمصر.

٣ - اختبار تفهم الموضوع.

٤ - المقابلة الاكلينيكية باستخدام منهج تداعى الذكريات*.

وقد طبق مقياس الوكسلر - بلفيو واختبار اليد على مجموعتين متكافئتين ومتناظرتين من العمال الصناعيين (بالشركة الشرقية للدخان والسجائر السابق ذكرها) كل منهما تكونت من ٢٠ عاملا حيث اختيرت المجموعة الأولى لتمثل المجموعة التجريبية (العمال الأكثر اشكالاً) بينما اختيرت المجموعة الأخرى لتمثل المجموعة الضابطة (العمال الاقل اشكالا والتى تكاد تختفى منهم المظاهر السلوكية المعوقة للانتاج) اما اختبار تفهم الموضوع والمقابلة الاكلينيكية فلقد طبقهما فرج عبد القادر طه فقط على ثمانية عمال من كل مجموعة. وفى هذه الدراسة حدد العامل المشكل بأنه العامل الذى يعتبر بسبب سلوكه عقبة فى سبيل تحقيق المؤسسة الصناعية للانتاجية العالية (كما وكيفا)، مثل الوقوع فى الحوادث والغياب عن العمل والمرض، والتمارض وكثرة الشكوى، وضعف الكفاءة.... الخ. وكانت أهم نتائج هذا البحث.. فيما يتعلق بمقالنا هذا ما يلى.

١ - لا توجد فروق دالة احصائيا بين مجموعة العمال المشكلين (المعوقين

(*) لمزيد من التفاصيل عن هذا المنهج أرجع إلى:

Deutch, F. & W. Murphy, the Clinical Interview, (vol. one) New York, International Universties press, Inc. 1951.

للانتاج) وبين مجموعة العمال غير المشكلين فى نسب الذكاء المختلفة التى نستخرجها من الوكسلر- بلفيو (نسبة الذكاء الكلية، نسبة الذكاء اللقطية نسبة الذكاء العملية، معامل الكفاءة).

٢ - كان متوسط درجات العدوان أعلى بشكل دال لدى مجموعة العمال المشكلين (كما يستخرج من اختبار اليد).

٣ - كان متوسط درجات التسيير منخفضا بشكل دال لدى مجموعة العمال المشكلين (كما يستخرج من اختبار اليد).

٤ - كان متوسط درجات الاعتماد ايضا منخفضًا بشكل دال لدى مجموعة المشكلين (كما يستخرج من اختبار اليد).

٥ - أظهرت مجموعة العمال المشكلين سمات وعلامات ذهانية أكثر فى البناء النفسى للشخصية (مثل الاصابات العقلية العضوية والاتجاهات الاضطهادية التدميرية والميول السيكوياتية والأرجاع الاكتئابية، وخلط التفكير) على نحو ما كشفت عنه الدراسة الدينامية المتعمقة باستخدام اختبار تفهم الموضوع والمقابلة الاكلينيكية.

٦ - كذلك أظهرت مجموعة العمال المشكلين فى الدراسة الدينامية المتعمقة سابقة الذكر أنها أقل لجوءا إلى الأرجاع والميكانيزمات العصابية (مثل الكبت والإزاحة، والأمراض السيكوسوماتية، والتكوين العكسى للدوافع والرغبات المدانة).

٧ - وبصفة عامة، فإن العامل المشكل (المعوق للانتاج) أظهر علامات وسمات مرضية أوضح فى الدراسة المتعمقة لبنائه النفسى.

مناقشـــة:

فى البحوث الميدانية العربية- على نحو ماذكرنا سابقًا- نجد اتجاها قويا لتأييد أن الكفاية الانتاجية للعامل الصناعى مرتبطة ارتباطًا ايجابيا عاليا بصحته النفسية، بمعنى أنه كلما كانت صحة العامل النفسية أفضل كلما أصبح أكثر كفاية انتاجية. ففى دراسة السيد محمد خيرى وزميله وايضًا دراسة

عبد المنعم جابر حامد نجد أن الصحة النفسية والذكاء وتماسك الجماعة أفضل فى الأقسام ذات الروح المعنوية العالية كما أنها افضل ايضا فى المشرفين على هذه الأقسام (مقارنة بالأقسام ذات الروح المعنوية المنخفضة). وكما تعلم جميعًا فإن الروح المعنوية ذات أهمية كبرى للكفاية الانتاجية.

وفى دراسات محمود السيد أبوالنيل كان من الواضح أن القلق والاضطرابات السيكوسوماتية لهما أثر سيىء على الكفاية حيث يجعلان العامل أضعف انتباها وأكثر إرهاقًا وبالتالى تقل كفايته فى العمل.

كما أن الغياب عن العمل.. كما درسه فارس حلمى أحمد وسوسن إسماعيل عبد الهادى كان مرتبطًا ارتباطًا مرتفعًا بالقلق، وبالاحساس بالاضطهاد، وبالشعور بالإحباط العام وبالاحساس بالعجز.. وهذا يشير إلى أن الغياب عن العمل (كعلامة من علامات نقص الكفاية) مرتبط بشكل كبير بعوامل الاضطراب النفسى فى بناء الشخصية لدى العامل. هذا فى نفس الوقت الذى لم يجد فيه فارس حلمى أحمد أية علاقة بين غياب العامل والعوامل الفيزيقية التى درسها مما يشير الى أن الغياب هو فى أساسه مشكلة نفسية أكثر من كونه نوعًا آخر من المشكلات.

وفى دراسة فرج عبد القادر طه عن الحوادث (كعلامة هامة لنقص الكفاية) اتضح ان الحوادث ليست مرتبطة بمستوى الذكاء فى حد ذاته وانما هى مرتبطة فقط بنمط الصفحة النفسية للذكاء على نحو ما تتأثر بدورها بالاضطرابات النفسية فيظهر ذلك واضحًا فى التباين الكبير فى مكونات الصفحة النفسية للذكاء والفارق الكبير بين مستوى الذكاء اللفظى ومستوى الذكاء العملى... الخ.

وعندما قام فرج عبد القادر طه بدراسة الكفاية الانتاجية مباشرة فى بحثه الميدانى عن سيكلوجية العامل المشكل (أو العامل المعوق للانتاج)، تبين له أن هذا العامل أكثر عدوانية بشكل دال (فى مقارنته بالعامل غير المشكل) مما

يشير إلى اضطرابه النفسي. كما وجد انه الى حد ما غير مهتم باقامة علاقات مع الآخرين (حيث كان أقل بشكل دال فى درجات التسيير ودرجات الاعتماد فى اختبار اليد) كما أنه أبان أيضاً عن علامات ذهانية أكثر مما يشير الى نقص كبير فى كفاءة العامل المشكل عند ادراكه للواقع وحكمه عليه، وتعامله معه. ويلاحظ أن كل هذه الاضطرابات النفسية المتمثلة فى المظاهر السابقة يمكن أيضاً على المستوى المنطقى والنظرى - الاقتناع بتأثيرها السلبى على الكفاية الانتاجية للعامل الصناعى وذلك أن التوافق المهنى بصفة عامة يحتاج اساسا ادراكًا سليمًا وحكمًا موضوعيا وتعاملًا سويا مع بيئة العمل الفيزيقية والاجتماعية. ويبدو أيضا أن قدراً معتدلا من الميكانيزمات العصابية كالكبت والتكوين العكسى يمكن أن يتسر تحقيق الكفاية الانتاجية وترفعها.

خلاصة فى خاتمة:

لقد أوضحت البحوث الميدانية العربية عن سيكلوجية الكفاية الانتاجية فى الصناعة كما أوضحت غيرها فى البيئات الأخرى - أن هناك علاقة قوية بين الصحة النفسية الجيدة والكفاية الانتاجية العالية، فالصحة النفسية تتضمن التوافق النفسى، والتوافق النفسى بدوره يتضمن نوعًا من أكثر أنواعه أهمية هو ما يطلق عليه التوافق المهنى، والذى تعتبر الكفاية الانتاجية أهم ملامحه وأخطرها.

ومادامت بلاد العالم الثالث النامية فى حاجة ماسة إلى رفع مستوى انتاجيتها (كما وكيفا) فلابد لها من توجيه مزيد من الاهتمام والرعاية للأنشطة والاجراءات التى ترتقى بالصحة النفسية للمواطنين (حتى ينتجوا بأعلى كفاية إنتاجية ممكنة) مثل الإرشاد النفسى والاجتماعى والتوجيه المهنى والتربوى والعلاج النفسى والطب النفسى.

المراجـع

١ - السيد / محمد خيرى وأحمد زكى محمد: «اشراف»: قياس وتشخيص الروح المعنوية لدى العمال الصناعيين، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، ١٩٧٢.

٢ - سوسن إسماعيل عبدالهادى: العلاقة بين مستوى القلق وغياب العمال فى المجال الصناعى: فى قراءات فى علم النفس الصناعى والتنظيمى، إشراف فرج عبدالقادر طه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

٣ - عبد المنعم جابر أحمد: قياس الروح المعنوية لدى العمال الصناعيين فى العراق وتشخيصها، فى الكتاب السابق الذى أشرف عليه فرج عبد القادر طه.

٤ - فارس حلمى أحمد: سيكلوجية العامل المتغيب، فى الكتاب السابق.

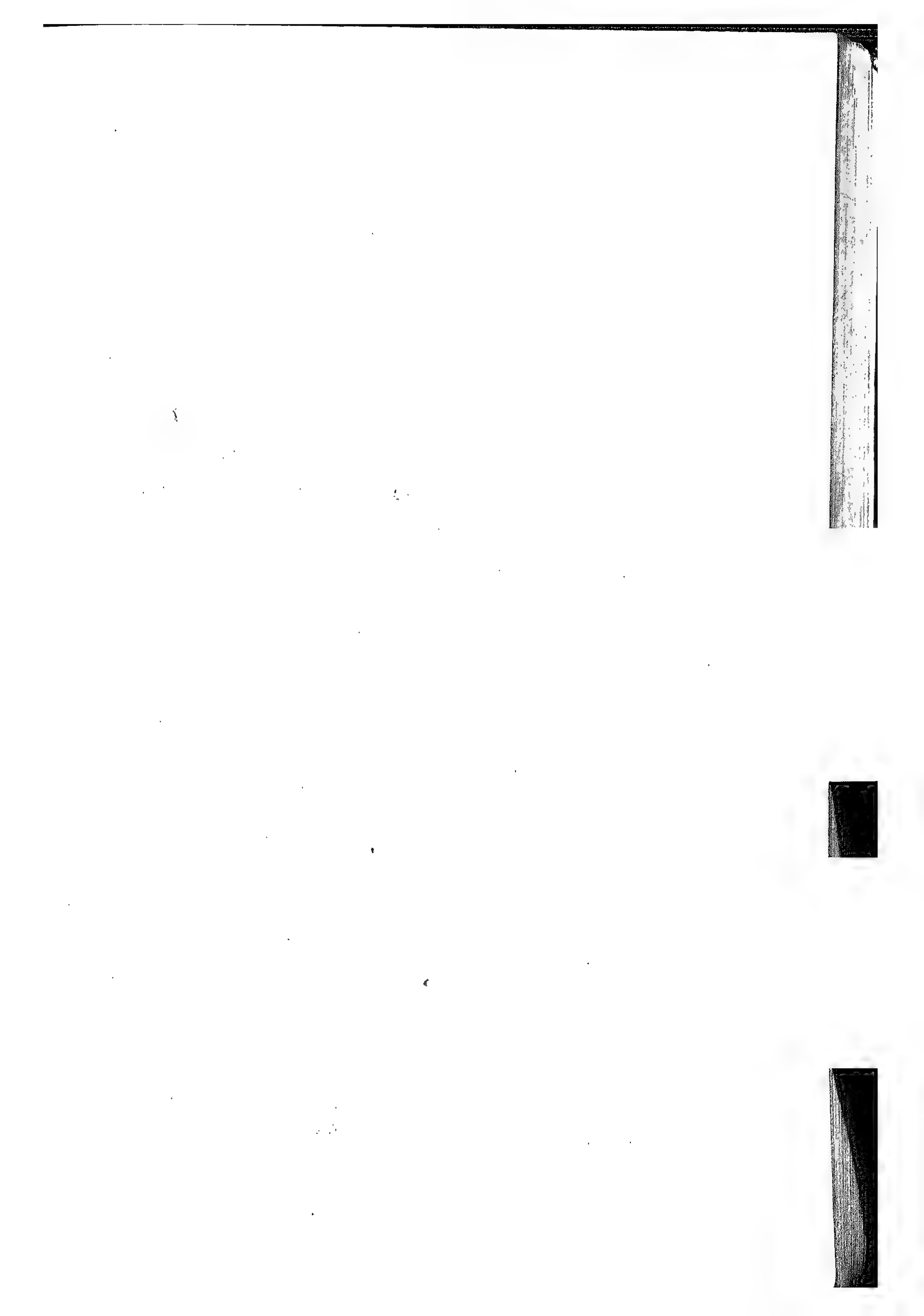
٥ - فرج عبد القادر طه: سيكلوجية الحوادث وإصابات العمل، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٨٠.

٦ - فرج عبدالقادر طه: سيكلوجية الشخصية المعوقة للانتاج، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٨٠.

٧ - محمود السيد ابو النيل: علاقة الاضطرابات السيكلوسوماتية بالتوافق المهنى فى الصناعة، فى الكتاب السابق الذى أشرف عليه فرج عبد القادر طه.

٨ - محمود السيد أبو النيل: الحوافز والصحة النفسية فى الصناعة، فى الكتاب السابق.

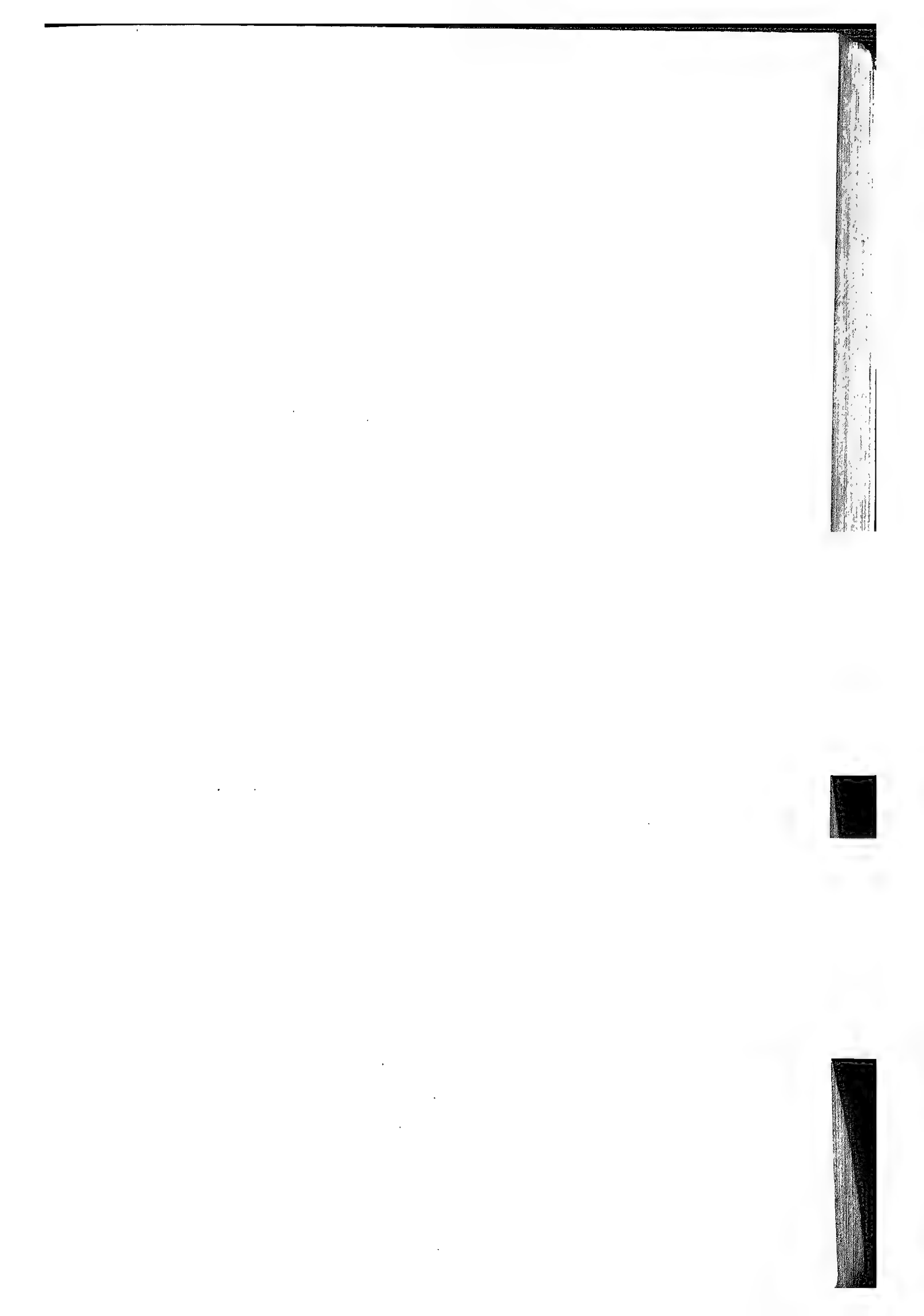
٩ - Deutch, F & W. Murphy, the Clinical Interview, (vol. one) New York, International Universities press, Inc. 1951.



الفصل الثالث عشر

المثقف ... وتجسيد القدوة

«نظرة نفسية»



يمثل المثقف فى كل أمة عقلها الواعى ورأسها المدبر وقائدها المسئول. ولذلك فإن الأمم عندما تصادفها الأزمات وتخنقها المشكلات وتجثم على صدورها الهموم تتطلع دوما الى مثقفيها تلتمس منهم الرأى، وتلقى على عاتقهم مسئولية الخلاص والإنقاذ.

وفى الفترة الأخيرة تعرضت صحفنا لبعض الندوات التى عقدت والآراء التى طرحت محاولة تحديد دور المثقف، وواجبه إزاء مجتمعه الذى تكاد تخنقه المشكلات، وتتهدد وحدته الأزمات والسلبيات. وفى ضوء هذا، فإننا نرى أن أهم واجبات المثقف فى وقتنا الراهن وأولاها بالتأكيد والتركيز هو أن يجسد بسلوكه الفعلى القدوة الصالحة لمواطنيه (دون الاكتفاء بزخرف القول الذى يجيده بحكم ثقافته)، وأن يكون مثلا يحتذى وقدوة مجسدة لكل الفضائل والأخلاق الحميدة التى حثت عليها القيم السامية والمثاليات الراقية، والتى بدونها تنهار الحضارات وتتخلف الأمم وتستعبد الشعوب، مثل قيم الحق والعدل والمساواة، وقيم الإخلاص فى العمل والولاء لتراب هذا الوطن وصالح شعبه، والسعى ماوسعنا الجهد لكل ما من شأنه رفعتها وتقدمها والدفاع عن مصالحها. وأيضًا مثل قيم البساطة فى المظهر ورفض (البهرجة) التى تؤدى الى سباق بين الناس فى الاستهلاك والتبذير... ومع أننا نطلب من كل فرد ان يلتزم هذه المثاليات الفاضلة، إلا أننا نوجبها على المثقف بصفة

خاصة، ذلك لأنه- علاوة على موقعه فى المجتمع وتأثيره القوى عليه- يعتبر اطارًا مرجعيا لبقية فئات الشعب تضرب به المثل وتسير على هداه وتقتدى بسلوكه، سواء أكان كل ذلك بوعى وقصد أم بشكل تلقائى لا واعى مثلما يقوم الجسد باتباع الرأس ويأتمر بأوامره. فنحن نقلد المثقفين فى طرائق معيشتهم ونقتدى بهم فى سلوكهم وأخلاقياتهم، حتى نصبح مثلهم فى المكانة الاجتماعية والسمعة الشخصية. ويمكن أن نجد تجسيدًا لهذه الحقيقة فى المثل المشهور (الناس على دين ملوكهم)، أى أن الناس تقلد وتحاكى وتسلك كما يفعل رؤساؤهم وقوادهم ومديروهم ومدبرو أمرهم. ولهذا يرتضى العامة ما يرتضيه المثقفون من أساليب السلوك، ويعتنقون مايعتنقه المثقفون من مثل وقيم وفضائل أو عكس ذلك من فساد وسوءات. فالفرد يحب عادة أن يتشبه بمن يعلوه ويفضله قوة أو حكمة أو مكانة. وهذه الحقيقة، سواء أطلقنا عليها بلغة علم النفس سيكلوجية المحاكاة (والتى تتم بشكل واع مقصود)، أو سيكلوجية التوحد (والذى يتم بشكل لا واع وتلقائى)، أو سيكلوجية القدوة والاقتداء، فإنها تظل صادقة عندما ننظر بعين فاحصة الى تأثير المثقف على بقية مواطنيه ومحاولاتهم التشبه به. وهكذا يكون صلاح الأمة فى صلاح مثقفيها بالدرجة الأولى.

وعلى هذا فنحن نريد مدرسا يجسد القدوة الصالحة لتلاميذه، فيخلص فى تعليم تلاميذه وتربيتهم على السلوك القويم، ويعطى القدوة من نفسه فلا يستغل تلاميذه وأولياء أمورهم فى عملية نهب مستمرة عن طريق اجبارهم على اللجوء الى (الدروس الخصوصية) حيث لا يعلم فى المدرسة وانما يعلم فى البيت، بل قد لا يعلم فى البيت أيضا وينقلب «الدرس الخاص» الى رشوة مقنعة للنجاح فى الامتحانات لاغير، «ولعن الله الراشى والمرتشى». ولاشك ان تلك ظاهرة منتشرة الآن، يئن من هولها أولياء الأمور، ويتندر بها التلاميذ، وتصيب كل ذى ضمير بالأرق. وفى ضوء هذا أيضا فنحن فى حاجة الى الأستاذ الجامعى الذى يضع ضميره الخلقى والمهنى فوق أى اعتبار، فيثبت

بذلك للمجتمع الذى ائتمنه على التعليم العالى فيه انه أهل لهذه الثقة فيخلص ماوسعته قدراته فى تعليم طلابه وتلاميذه والأخذ بيدهم وتنمية مداركهم واستعداداتهم حتى يستطيعوا خدمة تخصصاتهم العلمية، والإسهام فى حل مشكلات مجتمعهم الاقتصادية والاجتماعية بكل ما أوتوا من طاقة، وماحصلوه من علم، وماتربوا عليه من خلق ومثاليات. وينبغى على أستاذ الجامعة- فوق كل هذا- أن يعطى القدوة الصالحة من نفسه فلا يجامل طالباً إلا فى الحق، وأن تقوده نزاهته وموضوعيته إلى إعطاء كل ذى حق حقه من طلابه وتلاميذه فلا يظلم هذا، ولا يحابى ذاك لعلاقات شخصية، أو لنزوة نفسية، أو لخوف من هذا، أو لمجاملة لذاك. وهكذا لاييسر لذوى قربى أو صداقة أو علاقة خاصة أن يكون أول فرقته، أو أن يحصل على درجة علمية عليا لا يستحقها فيحتل بذلك منصبًا من حق غيره، أو مكانة فوق مايستحق فيفشل فيها، وبهذا يسىء إلى نفسه ويضر بمجتمعه.

وبالمثل فإننا نريد ناقدا أدبيا نزيها وموضوعيا يتناول العمل الأدبى بالنقد الموضوعى البناء سواء عرج على سلبياته، أو أبرز إيجابياته، فبغير هذا لا يزدهر الأدب، ولا تتطور فنونه. كما نريد صحفيا نزيها وموضوعيا لا يحجب الحقيقة أو يشوهها مجاملة لهذا، أو خوفًا من ذاك، فبغير هذا لن تتطور صحافتنا أو تكتسب مانرجوه لها من ثقة قرائها ومواطنينا... ونريد... ونريد... حتى نجسد لجيلنا الحالى وللاجيال القادمة قدوة صالحة يقتدون بها، ويسيرون على هداها.

وفى النهاية ينبغى علينا أن نعلم ان كلامنا ليس بمنأى عن الإصابة بإضرار الفساد الذى ينتشر فى المجتمع ومساوئه، مهما علت مستوياتنا الاقتصادية أو ارتفعت مكانتنا الاجتماعية والثقافية. فمهندس الصيانة الذى لا يؤدى واجباته كما ينبغى، فيسمح لأوتوبيس أو سيارة نقل بالعمل دون توافر وسائل الامان لها، قد ينجم عن تسيبه هذا ان تصيب تلك السيارة أحد المارة أو المركبات الأخرى بالطريق وقد يكون بينهم هو نفسه أو أحد أقربائه

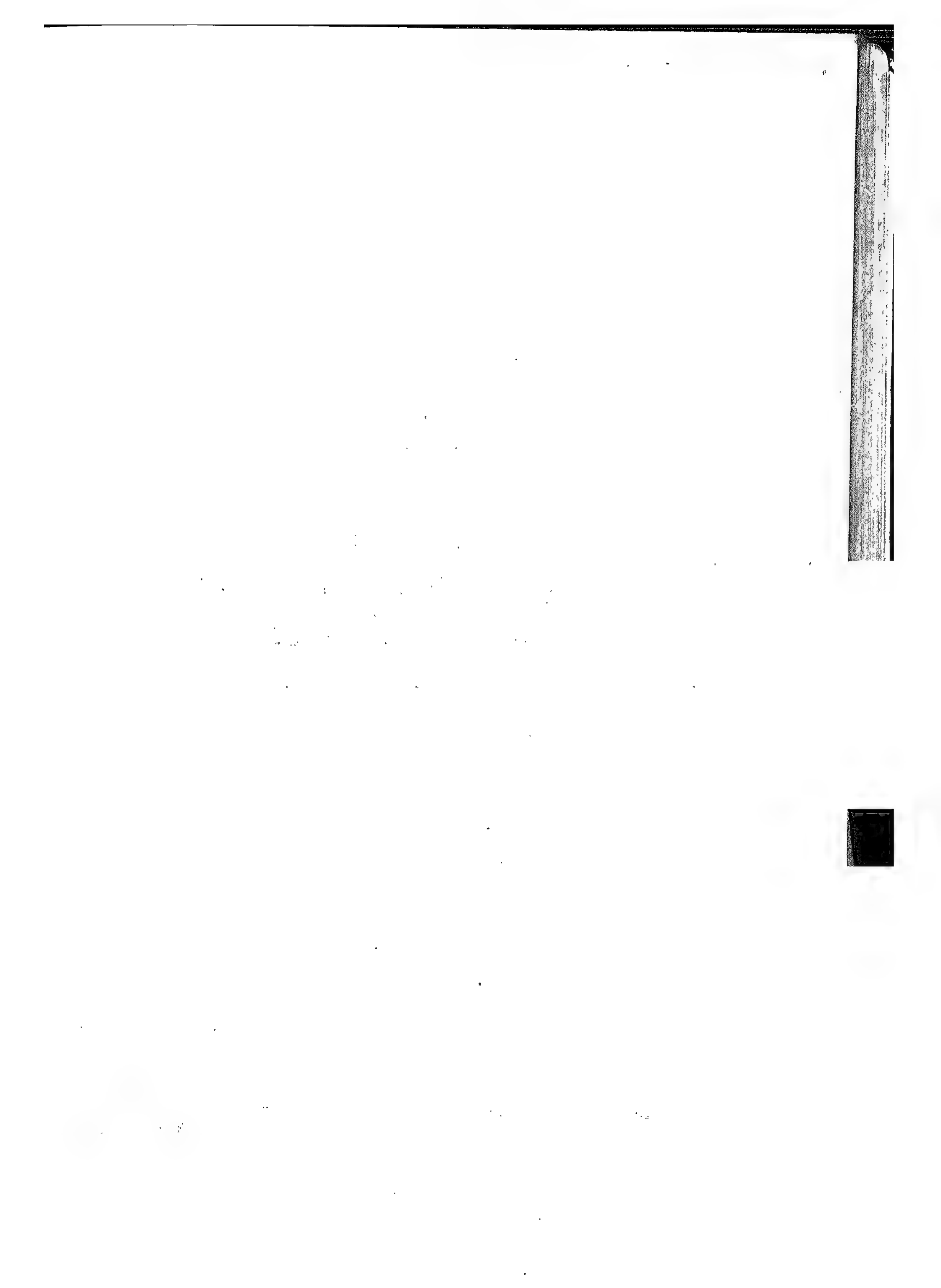
أو زملائه. فالحادثة لا تنتقى فئة دون غيرها من المجتمع. وبالمثل يمكن أن نقول عن المهندس أو المقاول الذى يجرى وراء الكسب الفاحش دون مراعاة لأصول المبانى وشروط الأمان... ذاك أن المجتمع وحدة واحدة متكاملة، إن فسد جزء منه تداعت له سائر الأجزاء بالتأثر والتضرر.

ولهذا فإن القدوة الصالحة تجب حمايتها وتشجيعها، ولا يجوز التكتل لضرب من يجسدها كما يحلو لبعض مروجى الفساد ومدعميه، وأحيانًا للأسف ينجحون. وكأنهم يريدون أن يقولوا: «إذا كنت تؤثر السلامة والعافية، فعليك بترك هذه المثاليات (الفارغة)» وهم يزينون سوء أفعالهم ويبررون إفسادهم فى الأرض بأن يقولوا: «الدنيا كلها هكذا أفأنت ستصلح الكون؟.» لكن - والحق يقال - إن هناك الكثيرين الذين يجسدون للناس أمثلة جيدة للقدوة الطيبة. وهؤلاء هم الذين يمثلون أملنا فى إصلاح المجتمع وصلاحه، ويملئوننا بالتفاؤل والثقة فى مستقبل أيامه.

الفصل الرابع عشر

الأستاذ الراحل الدكتور السيد محمد خيرى.. وثلث قرن فى خدمة علم النفس «ترحم فى ذكرى»

الكلمة التى ألقاها المؤلف فى المؤتمر الثانى لعلم النفس فى مصر، والذى عقد بالقاهرة فى إبريل من عام ١٩٨٦.



لقد شرفتنى الهيئة المنظمة للمؤتمر مشكورة بتكليفى أن ألقى كلمة عن الإسهامات العلمية لأستاذنا الرائد الدكتور السيد محمد خيرى الذى تصادف رحيله عنا فى مثل هذه الأيام من العام الأسبق (١٩٨٤)؛ وكان آنذاك أستاذًا لعلم النفس بجامعة الرياض بالمملكة العربية السعودية يواصل رسالته فى نشر العلم الذى تخصص فيه ووهبه جل حياته. وكان قد ترك العمل أستاذًا لعلم النفس وعميد لكلية الآداب بجامعة عين شمس قبل ذاك بحوالى اثنى عشر عاما إلى الجامعة السعودية.

حصل أستاذنا الراحل على دبلوم معهد التربية الابتدائى عام ١٩٣٦، وبكالوريوس فى علم النفس مع مرتبة الشرف من جامعة لندن عام ١٩٥٠ ودكتوراه الفلسفة فى علم النفس من جامعة لندن أيضًا عام ١٩٥٢، وبعدها عاد إلى مصر مدرسًا لعلم النفس بقسم الدراسات النفسية والاجتماعية بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ثم رقى أستاذًا مساعدًا لعلم النفس فى عام ١٩٦١. وفى ٢٦ مارس من عام ١٩٦٨ رقى أستاذاً. وفى أول أكتوبر من نفس العام عين رئيساً للقسم. وفى نفس اليوم عين أيضًا عميدًا للكلية لمدة عامين. ثم جددت عمادته لمدة عامين آخرين فى أول أكتوبر عام ١٩٧٠. وقبل انتهاء مدة عمادته الثانية بأسابيع قليلة أعير لجامعة الرياض التى ظل بها حتى رحل عن دنيانا مع غفران الله ورحمته.

واسمحوا لى أن أنتقل إلى الحديث عن الحياة العلمية لأستاذنا الراحل:

أعد الدكتور السيد محمد خيرى رسالته للدكتوراه وقدمها عام ١٩٥٢ لجامعة لندن وكانت عن مستويات العمليات العقلية المعرفية. وقد استخدم فى إعدادها عشرين اختبارًا نفسيا طبقها على صبية ثم قام بتحليل عاملى انتهى منه إلى أن العمليات العقلية المعرفية تندرج فى مستويات من الأبسط إلى الأعقد، مبتدئة بالعمليات الحسية فالعمليات الإدراكية فالعمليات الارتباطية فالعمليات العلاقية ومنتهية بالذكاء العام.

ولقد كان لهذا البحث صدى كبير فى الأوساط العلمية حيث نشر بمجلة علم النفس البريطانية فى نفس العام، كما لخص بفرنسا فى مجلة L'Annee psychologique فى العام التالى (١٩٥٣)، كما عقد القسم النفسى فى أكاديمية نيويورك للعلوم مؤتمرًا عام ١٩٥٣ ناقش فيه البحث ونشرت المناقشة فى مجلة الأكاديمية بنفس العام أيضا. وفى عام ١٩٥٤ نشر الكتاب السنوى لعلم النفس، والذى أشرف عليه أستاذنا المرحوم الدكتور يوسف مراد مقالًا عن البحث بقلم صاحبه (وقد نشرت دار المعارف بالقاهرة هذا الكتاب السنوى).

وبعد حصول أستاذنا الراحل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن عاد إلى مصر ليعمل مع زملائه رواد علم النفس بكلية الآداب فى جامعة عين شمس تحت إشراف رائدهم وأستاذهم الدكتور مصطفى زيور- أمد الله لنا فى أجله ومتعه بالصحة والعافية.

وكان قسم الدراسات النفسية والاجتماعية بهذه الكلية فى ذاك الوقت هو القسم الوحيد فى كليات الآداب الذى يتخرج منه متخصصون فى علم النفس على مستوى الليسانس، وظل كذلك لفترة طويلة امتدت إلى أواخر الستينيات.

ولقد عهد إلى الدكتور خيرى بتدريس الاحصاء وعلم النفس التجريبى وعلم النفس الصناعى والفروق الفردية. كما أشرف على تكوين معمل علم النفس بالكلية وجلب وصناعة أجهزته الأساسية، والتى لازال يوجد منها الشىء الكثير حتى الآن.

وكان من حسن حظ قسم الدراسات النفسية والاجتماعية بآداب عين شمس فى ذاك الوقت أن اختص أستاذنا الراحل بتدريس الاحصاء لطلبته فقد كان رحمه الله يتمتع بموهبة كبيرة فى التدريس والشرح مما مكنه من أن يحيل مادة جافة بالنسبة لطلبة الآداب تتعامل بالأرقام الجامدة إلى مادة طيعة الفهم، سلسة المتابعة، شيقة الدراسة، مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالبحث النفسى والتربوى والاجتماعى. وعلى كثرة طلبته الذين كانوا يحضرون محاضراته فى الاحصاء ويبلغون أحيانًا المئات الأربع كان معظمهم يفهم درس المحاضرة رغم ماهو معروف عن مادة الأرقام من صعوبة وعسر. لقد فهم مادته فاستطاع - بلغة علم النفس - أن ينقل هذا الفهم إلى تلاميذه، وقديمًا قالوا: إذا فهمت أفهمت. كما أنه أحب مادته واستمتع بها فاستطاع - بلغة علم النفس أيضًا - أن يجعل تلاميذه يشاركونه وجدانيا حب المادة والاستمتاع بها. وقد جاء كتابه «الإحصاء فى البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية» شاهدا على ذلك. ولايزال هذا الكتاب الذى ظهر فى أواسط الخمسينيات يعد مرجعًا هاما حتى اليوم للمشتغلين بالبحوث النفسية والتربوية والاجتماعية. وقل أن نجد رسالة ماجستير أو دكتوراه فى علم من هذه العلوم الثلاثة لجأت إلى المعالجات الإحصائية لبياناتها إلا كان هذا الكتاب مرشدًا أساسيا لها.

هذا، وقد تعددت أوجه النشاط العلمى الذى قام به أستاذنا الراحل ولعل من أهمها وأسبقها استعانة ديوان الموظفين به فى تصميم وتقنين مجموعة من الاختبارات النفسية وإجرائها مع المقابلات الشخصية للذين كانوا يتقدمون للعمل فى الوظائف الحكومية منذ إنشاء ديوان الموظفين فى أواسط الخمسينيات.

وفى أواسط الخمسينيات أيضا أنشئت وزارة الصناعة وبها إدارة للكفاية الانتاجية والتدريب المهنى، وكان بهذه الادارة قسم خاص للاختبارات النفسية تولى أستاذنا الراحل الاشراف عليه منذ إنشائه، وحتى إعارته إلى المملكة العربية السعودية. وقد كان يشرف فيه على إعداد وتقنين بطاريات

الاختبارات النفسية وتطبيقها على طالبى الالتحاق بمراكز التدريب المهنى التابعة للوزارة والمنتشرة فى أنحاء مصر، وهى مراكز للتدريب تعمل وفق نظام التلمذة الصناعية وتقبل الحاصلين على شهادة الإعدادية العامة بشروط معينة كان منها النجاح فى الاختبارات النفسية التى تعقدها الوزارة. وكانت تتقدم إليها أعداد ضخمة من حملة الاعدادية تعدت فى كثير من السنوات العشرة آلاف طالب. ولقد كان من نتيجة ذلك أن خرج إلى الوجود تحت إشرافه ثلاث بطاريات للاختيار السيكولوجى لتلاميذ مراكز التدريب المهنى مكتملة الإعداد والتقنين وهى:

بطارية حرف المعادن:

وتتكون من اختبارات: الاستدلال اللفظى، والذكاء الاعدادى، والاستدلال الميكانيكى، والمعلومات الميكانيكية، والعمليات الحسابية، والتصور المكانى، وتكميل الاشكال، وتذكر الأشكال، والتجميع الميكانيكى ومهارة الأصابع، وثبات اليد.

بطارية حرف الجلود:

وتتكون من اختبارات: الاستدلال اللفظى، والعمليات الحسابية، والتفكير الحسابى، والمثابرة العضلية، وقوة قبضة اليد.

بطارية حرف الزجاج:

وتتكون من اختبارات: الاستدلال اللفظى، والعمليات الحسابية، والتفكير الحسابى، والرسم على النموذج، وتقدير الأطوال، وثنى السلك، وثبات اليد، ومهارة الأصابع.

ومع أن بعض الاختبارات كان مكررا فى البطاريات الثلاث إلا أن تنوعها وكثرتها يشيران إلى مدى الجهد الذى بذل فى تصميمها واعدادها وتقنينها. هذا، ولازال تلاميذ أستاذنا الراحل فى القسم النفسى بمصلحة الكفاية الانتاجية

فى وزارة الصناعة يواصلون هذا النشاط العلمى فى تقنين الاختبارات النفسية وتطبيقها على المتقدمين لهذه المراكز التدريبية.

وفى الخمسينيات أيضا أنشئ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، وفى عام ١٩٥٧ بدأ العمل فى أهم وأضخم بحوث المركز فى ذاك الوقت وهو بحث «تعاطى الحشيش» وكانت الهيئة العلمية التى عهد إليها بوضع خطة البحث وتنفيذه تحت إشراف أستاذنا الدكتور مصطفى زيور، وكان الرجل الثانى فى هذه الهيئة ونائب مشرفها هو أستاذنا الراحل الدكتور السيد محمد خيرى. وكان جهده واضحًا فى هذه الهيئة العلمية للبحث سواء فى التخطيط له أو الإشراف على تدريب الاخصائيين الميدانيين أو وضع خطة التحليل الاحصائى لبيانات البحث. ولقد أصدر المركز القومى للبحوث تقريرين كبيرين عن هذا البحث: التقرير الأول فى عام ١٩٦٠ ونشرته دار المعارف فى ٤٢٥ صفحة، والتقرير الثانى فى عام ١٩٦٤ ونشرته دار مطابع الشعب فى ٣٣٨ صفحة، وذلك بخلاف التقارير الفرعية الأخرى.

وفى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية أيضاً أشرف أستاذنا الراحل بالاشتراك مع المرحوم الأستاذ أحمد زكى محمد على الهيئة العلمية لبحث «قياس وتشخيص الروح المعنوية لدى العمال الصناعيين» وقام فى الإشراف بالدور الرئيسى، كما قام بكتابة تقرير البحث الذى أصدره المركز القومى عام ١٩٧٢، وطبعته الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية فى ٣٣٠ صفحة. ويعتبر هذا البحث رائدًا فى مجاله فى العالم العربى علاوة على ما لموضوعه من أهمية تطبيقية قصوى فى قضايا التنمية والإنتاج.

وفى عام ١٩٧١ عقد مؤتمر علم النفس بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، وشارك فيه جمع كبير من باحثى علم النفس ومتخصصيه من الهيئات العلمية والجهات المهنية المختلفة فى مصر. وقسم المؤتمر إلى ثلاث لجان، حيث كانت «لجنة علم النفس والانتاج» وهى اللجنة الأولى بالاضافة إلى لجنتى

«علم النفس والتربية» و «علم النفس والتغير الاجتماعى». وكان المؤتمر كله تحت رئاسة أستاذنا الدكتور أحمد زكى صالح، رحمه الله، بينما كانت لجنة «علم النفس والانتاج» تحت إشراف أستاذنا الراحل الدكتور السيد محمد خيرى، وقد بذل فيها جهدًا كبيراً سواء فى الاعداد لها أم تنظيمها أم مراجعة بحوثها أم رئاسة جلساتها ومناقشاتها.

هذا، وقد تعدد الانتاج العلمى لأستاذنا الراحل فى فروع علم النفس المختلفة بين التأليف وبين الترجمة أو الاشراف عليها ومراجعتها. فبالإضافة إلى كتابه الأساسى فى الاحصاء والذى سبق أن أشرنا اليه ونشرته دار الفكر العربى بالقاهرة فى عام ١٩٥٦ فى ستمائة صفحة، نشر عام ١٩٦٧ كتابه عن «علم النفس الصناعى وتطبيقاته المحلية»، وقد نشرته دار النهضة العربية بالقاهرة فى ٥٢٣ صفحة. ولقد نال عنه جائزة الدولة التشجيعية فى العام التالى، وهو كتاب تميز الى جانب عرضه للموضوعات الاساسية فى علم النفس الصناعى بتضمنه لخبرة استاذنا الراحل الشخصية فى هذا المجال وبحوثه الميدانية فى مصر بالاضافة الى خبرة تلاميذه وبحوثهم أيضًا، مما جعله يمتاز بالأصالة والقيمة. ولازال حتى الآن يعتبر مرجعا هاما للباحث فى مجال علم النفس الصناعى والتنظيمى.

وفى أواسط الخمسينيات اشترك أستاذنا الراحل تحت إشراف أستاذنا المرحوم الدكتور يوسف مراد فى ترجمة كتاب «ميادين علم النفس» الذى أشرف على تأليفه جليلفورد ونشرت دار المعارف بالقاهرة بمجلده الأول عام ١٩٥٥ ثم مجلده الثانى فى العام التالى. وكان من نصيب أستاذنا الراحل الدكتور السيد محمد خيرى ترجمة عدة فصول من المجلدين، خاصة ماتعلق بعلم نفس الطفل وعلم النفس التربوى وعلم النفس المهنى. ولقد اكتسب هذا الكتاب شهرة واسعة لأنه عرض المبادئ والمعلومات الأساسية لغالبية فروع علم النفس وموضوعاته الرئيسية آنذاك. كما اشترك فى نفس الفترة تقريبًا فى ترجمة بعض كتيبات «علم النفس للآباء والمدرسين» تحت إشراف

أستاذنا الدكتور عبد العزيز القوصى، مثل كتيب «المشاكل الانفعالية للنمو» تأليف انجلش وفنسن، وكتيب «المشكلات الانفعالية للمرض» تأليف جوسلين. وكانت هذه الكتيبات تصدر فى مصر بالتعاون مع مؤسسة فرانكين للطباعة والنشر كسلسلة دراسات سيكولوجية مترجمة تهتم بدراسة نفسية الاطفال وتربيتهم. كما شارك أستاذنا الراحل بعض تلاميذه فى ترجمة كتاب «رعاية الطفل وتطور الحب» تأليف جون بولبى ونشرته دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٥٩ وترجمة كتاب «علم النفس الاجتماعى فى الصناعة» تأليف براون ونشرته دار المعارف فى عام ١٩٦٠.

وفى مجال الترجمة أيضا قام رحمه الله بمراجعة ترجمات لبعض الكتب أو أشرف عليها أو اشترك فى ذلك مثل كتاب «سيكولوجية الفروق بين الأفراد والجماعات» الذى ألفته اناستازى وفولى ونشرت ترجمته الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة عام ١٩٥٩، وكتاب «علم نفس الشواذ» الذى ألفه كوفيل وزملاؤه ونشرت ترجمته دار النهضة العربية بالقاهرة عام ١٩٦٧، وكتاب «علم النفس فى مائة عام» الذى ألفه فلوجل ونشرت ترجمته العربية دار الطليعة ببيروت عام ١٩٧٣.

وعلاوة على كل هذا فقد قام أستاذنا الراحل بكتابة العديد من المقالات والدراسات للدوريات العلمية نذكر منها:

- مقاله فى العدد الأول لمجلة الصحة النفسية الذى صدر عام ١٩٥٨، وكان المقال بعنوان «الصحة النفسية والصناعة»، وفيه لخص باقتدار موضوعات علم النفس الصناعى الاساسية رابطًا بين بعضها البعض من جانب، وبينها وبين الصحة النفسية من جانب آخر. ولازال هذا المقال حتى الآن يرجع إليه فى كثير من بحوث علم النفس الصناعى والتنظيمى وكتاباته.

- مقاله عن «الاستبار فى الاختيار المهنى» والذى نشرته المجلة الاجتماعية القومية فى عدد يناير ١٩٦٧ من المجلد الرابع، وهى المجلة التى يصدرها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة. وكان هذا

المقال عبارة عن تقرير عن تجربة قام بها لدراسة ثبات المقابلة وصدقها وكان رحمه الله يفضل لفظ «الاستبار» على لفظ «المقابلة» إذ يرى أن المقابلة تسبر عمق الشخص وأغواره فى البحث النفسى فهى لهذا استبار أصدق من كونها مجرد مقابلة. وإن كان لفظ الاستبار لم يكتب له الشيوع فى الكتابات العربية ربما بسبب كونه غريبًا على السمع.

– مقاله عن معامل الارتباط فى البحوث النفسية والاجتماعية، ونشره بحوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس عام ١٩٦٦/١٩٦٧. وقد تعرض فيه وناقش مدى أهمية معامل الارتباط الاحصائى للبحوث الامبريقية والميدانية فى مجالى علم النفس والاجتماع.

أما فى ميدان إعداد وتقنين الاختبارات النفسية فقد كان لأستاذنا الراحل باع طويل فى ذلك. فبالإضافة إلى إشرافه على إعداد اختبارات بطاريات مصلحة الكفاية الانتاجية الثلاث، والتى سبقت الاشارة اليها، قام باعداد وتقنين اختبارين جمعيين لقياس الذكاء نشرتها دار النهضة العربية بالقاهرة فى الستينيات. احدهما هو اختبار الذكاء الاعدادى، ويصلح لقياس ذكاء الاطفال من سن عشر سنوات حتى السابعة عشرة. وقد قنن الاختبار على عينة كبيرة الحجم حيث اشتملت على «٣٤١٢ تلميذًا من مدارس القاهرة وعلى ١٨٠٣ تلميذ من مدارس الوجه البحرى وعلى ٥٨٨ من مدارس الوجه القبلى، أى أن العينة الكلية للتقنين تكونت من ٥٨٠٣ تلميذًا». أما الاختبار الثانى فهو اختبار الذكاء العالى والذى قال عنه «ويصلح هذا الاختبار لقياس الذكاء حسب ماعرفناه فى المستويات التعليمية الثانوية ومايعادلها والعليا والجامعية بما فى ذلك الدراسات العلمية أو الأدبية النظرية أو العملية» وكانت عينة تقنين هذا الاختبار كبيرة ايضا، حيث بلغت ٥٨٢٨ فردا من المستويات التعليمية المختلفة (ثانوى – معاهد عليا – جامعات) وهذا يوضح مدى الجهد الذى بذله، رحمه الله، فى إعداد الاختبارين ومدى التزامه للأصول العلمية الواجبة فى تقنين الاختبار النفسى.

هذا، ولم يقتصر جهد أستاذنا الراحل فى مجال القياس النفسى على اعداد وتقنين الاختبارات والبطاريات النفسية بل إنه امتد إلى إعداد وتقنين تلاميذه إن صدق هذا التعبير الذى نستعيره من ميدان القياس النفسى، حيث أهتم فى تدريسه وإرشاده لطلابه باكسابهم المهارات والتقنيات الخاصة باعداد الاختبارات النفسية وتقنينها، فكان يقوم بتدريس وسائل تقنين الاختبار النفسى لطلبته ويدربهم عليها، حتى لو كان ذلك خارجًا عن المنهج التقليدى الذى يعهد إليه بتدريسه. فكثيرا ما شارك أستاذنا الدكتور لويس كامل مليكة تدريس بعض موضوعات معينة فى القياس النفسى كتحليل الوحدات ودراسة الثبات ودراسة الصدق وتحديد المعايير للاختبار النفسى وذلك فى مادة الفروق الفردية التى كان رحمه الله مكلفًا بتدريسها. كما كان تدريسه للاحصاء موجها فى جزء كبير منه نحو اجراءات تقنين الاختبار النفسى والتقنيات الاحصائية المختلفة واللازمة لاعداد الاختبار النفسى الصالح وتقنيه. ولازال بعض طلبته الذين قاموا بتحضير رسائلهم للماجستير أو للدكتوراه يذكرون إصراره على أن تتضمن كل رسالة للماجستير أو للدكتوراه إعداد وتقنين اختبار نفسى جديد على البيئة المصرية واستخدامه فى الدراسة الميدانية التى تتطلبها الرسالة. ولذلك فقد كان له فضل كبير فى نشر الوعى بمنهجية تقنين الاختبار النفسى وإعداده، لدى تلاميذه وطلابه.

وينبغى أن نشير هنا إلى أستاذنا الراحل - كما كان فى طريقة تدريسه - كان أيضا فى كل ماكتب - منشئا أو مترجما - سهل المتابعة واضح العبارة، مرتب الفكر، مقنع الرأى، سديد المنطق.

وعلاوة على هذا وذاك، فقد امتاز - رحمه الله بنزعة واضحة نحو التكوين العلمى لطلبته وتشجيعهم وارشادهم وإفساح المجال أمامهم ورعاية مصالحهم والاهتمام بها، ولم يأل جهدا فى ذلك. فكان تشجيع طلبته على التحصيل مستمرا، وكان مكتبه دائمًا مفتوحاً لكل مستويات الطلبة سواء فى سنوات الليسانس أم الدراسات العليا، واسع الصدر فى مناقشتهم ومتابعتهم وإفهامهم

ماقد عسر عليهم وإرشادهم إلى ماخفى عنهم دونما تبرم يظهر على وجه، أو ينم عنه سلوك. ولقد شارك أستاذنا الدكتور زيور اجتهاده فى فتح المجال أمام طلبته الواعدين بتدعيمهم ومساعدتهم ومد يد العون والتوجيه لهم ماوسعتها الطاقة. ويكفى أن نذكر أن قسم الدراسات العليا بكلية الآداب بجامعة عين شمس قد أحصى سبع عشرة رسالة ماجستير وتسع رسائل دكتوراه استكمل إنجازها وتمت مناقشتها تحت إشرافه- رحمه الله- هذا بخلاف الرسائل التى بدأها ولم تستكمل تحت إشرافه، وبخلاف أيضا الرسائل التى قدم لأصحابها توجيهاته وإرشاداته ومساعداته والتى قدمت للجامعات والكليات المختلفة حيث كان المشرفون عليها يوجهون طلبتهم إليه لأخذ المشورة فيها واستطلاع الرأى إزاء ما أستشكل منها. ولاشك أن هؤلاء وأولئك جميعًا مدينون له بذلك، يتذكرونه بالعرفان، ويطلبون من الله له الرضوان.

فليرحم الله أستاذنا الراحل إنسانا وفاضلًا، عالما ومعلمًا، مثلا وقدوة، أبا ورائدا. وليمد الله لنا فى أجل الأحياء من أساتذتنا الرواد، ويجزى الجميع عنا خير الجزاء.

الفهرست